P. 27

A. U. B. LIBRARY

لمكتبة الجامعة الامريكية
مع فائق تحيات المؤلف
953
A391mA
V.1
c.1

ساعدت وزارة المعارف العراقية ماليا على طبع هذا الكتاب

الدكتور صالح أحمد العلي

استاذ بكلية الآداب والعلوم

محاضرات
في تاريخ العرب

الجزء الاول

الدول العربية قبل الاسلام ، النظم البدوية ، حياة الرسول
والدعوة الاسلامية في مكة

مطبعة المعارف ـ بغداد
١٩٥٥

المقدمـة

ان هذا الكتاب هو فى الاصل مجموعة المحاضرات التى القيت على طلاب كلية الآداب والعلوم ، ثم نقحت ووسعت بعض فصولها لتكون كتابا منسجما متناسقا فيه تلخيص وعرض ، واضح بقدر الامكان للمحاولات التى قام بها سكان الجزيرة العربية لانشاء دول ذات نظام سياسى ، والحضارات والنظم التى ظهرت فى هذه الدول أو عند القبائل العربية قبيل الاسلام ، وآثار كل حضارة ونظام على مجرى تاريخ الجزيرة ، وخاصة على احوالها عند ظهور الاسلام الذى له الأثر الاكبر لا فى تاريخ الجزيرة العربيـــة وفى عقـائدنا ونظمنـا فحسـب بل فى تاريخ الانسانية عموما .

لقد نشر فى اللغة العربية واللغات الاجنبية عن تاريخ الجزيرة قبل الاسلام وبعـده عدد غير قليل من الابحـاث التى تختلف فى قدمهـا وفى مدى تفاصيل معلوماتها ، فبعض هذه الابحاث كتب عامة قديمة كبلوغ الارب للالوسى وتاريخ العرب قبل الاسلام لجرجى زيدان ، وبعضهـا كتب عامة حديثة مفصلة كتاريخ العرب لجواد على ، أو مقتضبة كتاريخ العرب لفيليب حتى ، وتاريخ الشـعوب الاسلامية لبروكلمان ، وتاريخ العرب قبل الاسـلام لبروك نافع . كما ظهرت فى العربية بعض الدراسات المفصلة عن بعض نواحى حضارة تلك الفترة كفجر الاسلام لاحمد امين ، والحياة العربية من الشعر الجاهلى ، والمرأة العربية لمحمد احمد الحوفى ، والنظم الاجتماعية والسياسية عند الساميين لمحمد محمود جمعة ، والاساطير العربية قبل الاسلام لمحمد عبدالمعيد خان ، والحيرة ليوسف غنيمة وآل غسـان لنولدكه ، كما ظهر فى اللغات الاوروبية عدد غير قليل من الدراسات المفصلة عن بعض هذه الدول . ولكن هذه الابحاث بعضها عتيق ، وبعضها يكاد يكون نادرا ، وبعضها مفصل أو مقتضب . فمحاولتى هذه هى تقديم بحث شامل

منسجم يرضى الطالب والمثقف الذى يريد أن تكون له فكرة عن تاريخ الجزيرة دون أن يكون له وقت للتبحر فى الموضوع .

لقد اكدت ، بقدر ما تمكننى المصادر ، على نواحى الحضارة والحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية ، أما النواحى السياسية فقد بحثت بقدر ما يظهر امد كل من تلك الدول ومدى امتدادها الزمانى والمكانى ، دون ايجاز مخل أو تفصيل مضلل . ولما كان سقوط أى دولة لا يعنى فناء شعبها أو اندثار حضارتها ، لذا حاولت تتبع آثار حضارة كل دولة وتراثها ، وذلك كيما ابرز الاستمرار التاريخى وتطوره ، مما قد يساعد على القاء ضوء على جذور وأسس كثير من افكارنا وثقافتنا ونظمنا ومؤسساتنا .

ولابد من التأكيد على اننا لا يمكننا رسم صورة كاملة لمختلف نواحى هذه الحضارات أو تتبع خطوات تطورها ، نظرا لان معلوماتنا لما تزل غير وافية وغير موزعة بانتظام على الزمان والمكان ، فلدينا كمية طيبة نسبيا من المعلومات عن اليمن وبعض الدول الشمالية القديمة ، وعن احوال العرب فى الحجاز وبعض مناطق نجد والبحرين عند ظهور الاسلام ، ولكننا نكاد نجهل تماما تاريخ المناطق الاخرى . وقد كان هذا الاختلاف فى كمية المعلومات الموثوقة المتوفرة لدينا ، هى الدافع الرئيسى الذى حملنى على ان لا اسمى هذا الكتاب تاريخا ، بل اطلق عليه (محاضرات) التى تدل على انها ليست تاريخا شاملا متسقا ، بل هى بحث المواضيع التى تتوفر عنها المعلومات .

وقد بحثت مبادىء الاسلام وخطوات الدعوة الاسلامية وانتشارها بتفصيل واف نسبيا ، نظرا لاهميتها الكبرى فى كياننا الذاتى وفى تاريخ العالم ، ويكاد يكون القسم الثانى من هذا الجزء وصفا للاحوال التى ظهر فيها الاسلام ، والاسس التى قام على آثارها أو انقاضها وكان لها تأثير فى سيره ، وهذا هو السبب الذى فصلت فيه البحث عن الدين الجاهلى .

حاولت فى بحثى عن الاسلام دراسة خطوات تطوره الزمنى فى فترة نشوءه ،

ووصف تاريخ نشوء وتطور وانتشار العقيدة الاسلامية ، دون تحليل هذه العقيدة ، لان بحثي في التاريخ لا في العقائد . وقد كان اعتمادي الرئيسي على القرآن الكريم ، لانه الكتاب الاعظم الذي يرسم معالم الدين ويوضح حدوده . وقد حاولت أن اجلو معانيه كما فهمت آنذاك وبصرف النظر عن التأويلات والتحليلات التي قام بها العلماء المسلمون المتأخرون .

لقد حاولت اعطاء الصورة التي اعتقد ان المصادر تصورها لتلك الفترة ، وان اقصر عملي على تنظيم المادة وعرضها ثم تحليلها ومحاولة ايجاد الصلة بينها وابراز ارتباطاتها مع الحوادث والمؤسسات الاخرى . واذا كانت بعض مظاهر هذه الصورة تخالف بعض ما الفه الناس واعتقدوه ، فان ذلك راجع الى المصادر التي حاولت استيعابها واختيار ما أراه صحيحا دون أن تكون لي فكرة سابقة أحاول الدفاع عنها أو نقضها .

وقد حملني تحدد نطاق الكتاب وحجمه على الاقتصار على ايراد ما اعتقد بصحته أو بأنه أقرب الى الصواب ، واغفلت ذكر كافة الامور أو الآراء والحوادث التي اعتقد ان معلوماتنا العامة وتفكيرنا ومنطق الحوادث لا يؤيد صحتها . لذا أهملت بحث العرب البائدة مثلا ، لان الاخبار التي لدينا عنهم غير مضبوطة أو معتمدة . وقد قصرت عملي على الوصف والتحليل وتجنبت اصدار الحكم على حسن أو قبح أية حادثة أو مؤسسة ، كما تحاشيت مهاجمة أو الدفاع عن أية مؤسسة .

وقد اتبعت في كتابة المصادر طريقتان متباينتان ، اولاهما اتبعتها في بحث الدول العربية القديمة ، عدا مكة ودولة المناذرة ، والثانية في بقية فصول الكتاب ، فقد اكتفيت في بحث الدول العربية القديمة بذكر المصادر الرئيسية التي اعتمدت عليها ، في هامش مطلع كل فصل ، اما باقي اجزاء الكتاب فقد كنت اذكر مصدر كل خبر أو حادثة أو رأي في هامش الصحيفة التي تحويه . ويرجع هذا التباين الى ان معلوماتنا عن الدول القديمة كاليمن وبطرا وتدمر مستمدة من مكتشفات

الآثار اولا ، ومن اشارات الكتاب الاغريق والرومان القدماء ثانيا ، وقد استوفى بحث كل منها بعض المؤلفين المحدثين .

اما دولتا الغساسنة وكندة والمناذرة فمع ان المصادر الرئيسية لاخبارها هى الكتب العربية ، فان فى كل منها دراسة وافية قام بها واحد من المؤرخين المحدثين ، وليس هناك ما يمكن فى الحال الحاضر اضافته وتعديله على ابحاثهم ، لذا اكتفيت بالاشارة الى هذه الابحاث الرئيسية الحديثة فى هامش بداية كل فصل .

اما الفصول الخاصة عن مكة وعن الحياة البدوية ونظمها فان اعتمادنا الاول فيها على الكتب العربية التاريخية والادبية ، لذا أشرت الى مصدر كل خبر ، اللهم الا فى بعض النقاط التى فصل البحث فيها بعض المؤلفين المحدثين ، فاكتفيت بالاشارة الى مباحثهم دون أن اورد كافة المصادر التى اعتمدوا عليها ، وقد اجلت فهرس أسماء الكتب وطبعاتها الى نهاية الجزء الثانى تحاشيا من التكرار .

وانى اذ أرجو أن يكون فى هذا الكتاب بعض الفائدة للمهتمين بهذه الفترة من التاريخ ، أرى من الصعب ذكر اسماء كافة من أعاننى على اخراج هذا الكتاب سواء من رجال وزارة المعارف أو اخوانى وطلابى ، فلهم منى خالص الشكر والتقدير .

كلية الآداب والعلوم **صالح احمد العلى**

الفصل الأول

الساميون

يتميز معظم سكان الشرق الاوسط منذ أقدم الازمنة ببعض الصفات المشتركة التى ميزتها عن سكان البلاد الاخرى التى تقع وراء جبال طوروس وزاغرس . فاللغات التى يتكلم بها هؤلاء السكان تشترك فى كثير من الخصائص وقواعد اللغة كما ان عاداتهم الاجتماعية وأفكارهم السياسية وأساليب حياتهم فيها كثير من التشابه منذ أقدم الازمان . وهذا مما حمل الناس على الاعتقاد بأن هذا التشابه يرجع الى تحدرهم من أصل واحد ودعوهم بالجنس السامى (١) .

وتسميتهم بالساميين ترجع الى أزمنة قديمة ؛ فقد جاء فى التوراة (٢) انه كان لنوح ثلاثة أولاد تحدر منهم البشر بعد الطوفان ، هم سام وحام ويافث ؛ فسكن الساميون وهم أحفاد سام فى الشرق الاوسط . وانقسموا بعد تكاثرهم الى أقسام فرعية وقبائل . ولا ريب ان هذا التصنيف يوضح قدم الخصائص المشتركة التى يتميز بها سكان الشرق الاوسط . غير انه من الصعب أن نجزم بالقيمة التأريخية لقصة التوراة وأولاد نوح خاصة وان الشرق الاوسط جاءته موجات متعددة من أقوام غريبة استوطنت فيه وتكلمت بلغة أهله وتعودت بعاداتهم .

غير ان ما جاء فى التوراة عن أصل الساميين ظل مقبولا عند الناس واعتمد عليه النسابون العرب فى كتبهم عن الانساب ، فكرروا ما قالته التوراة مع اضافة بعض التعديلات الفرعية .

وفى منتصف القرن التاسع عشر ألف المستشرق الافرنسى ارنست رينان كتابا عن أديان الساميين أكد فيه على أن الساميين جنس منحدر من أصل واحد

---

(١) راجع ما كتبه كوك فى الفصل الرابع من الجزء الاول فى تاريخ كمبردج القديم بالانكليزية .

(٢) سفر التكوين ١٠-١٢ .

مشترك يتميز أفراده بتشابه لغاتهم وبتركيب عقليتهم وبنظرتهم الجزئية للاشياء وتأثرهم بالغيبيات وميلهم الى البساطة فى التفكير والوحدانية فى الدين ؛ وذكر ان ظهور الاديان الموحدة الثلاثة الكبرى (اليهودية والمسيحية والاسلام) بين الساميين يرجع الى طبيعة تفكيرهم • وقد أكد بأن هذه الميزات التى تتصف بها العقلية السامية ترجع الى عوامل بيولوجية ووراثية فى الجنس وانهم بذلك يختلفون أساسيا عن الآريين(٣) • ولا ريب أن رينان كان متأثرا بالنزعة القومية القومية المتطرفة وبالروح الاستعمارية التى سادت الاوروبيين آنذاك مما دفعهم الى الاعتقاد بأن الساميين يختلفون فى التركيب البيولوجى عن الغربيين • وانهم أحط من الاوروبيين فى العقلية • وقد أخذ بنظرية رينان هذه عدد غير قليل من الفلاسفة والعلماء والساسة • وظل كثيرون يعتقدون بها حتى السنوات الاخيرة •

غير ان علماء الانثربولوجيا ودارسى الشعوب المدققين انتقدوا نظرية رينان ومشايعيه وبرهنوا على أنه لا يوجد شعب يمكن أن يبرهن على نقاوة دمه • اذ ان الهجرات المستمرة والتزاوج قد أدى الى اختلاط دماء الشعوب • وهكذا فان الشعوب القاطنة فى الشرق الاوسط أو فى غيره من البلاد لم يكونوا منعزلين عن العالم كما انهم لم يحافظوا على نقاء دمهم • أضف الى ذلك ان اختلاف طرق تفكير الشعوب لا يرجع الى اختلاف تركيب دماء أفرادها • بل الى الظروف الجغرافية والاجتماعية التى أدت بعقولها الى ان تعمل بالشكل الذى تعمل فيه(٤) •

فاذا ما تحدثنا عن الجنس السامى فاننا لا ندعى نقاء دمه ؛ كلا بل نقصد مجموعة من البشر الذين يتميزون بحضارة ذات عناصر مشتركة تميزهم عن غيرهم من الامم • وخاصة فى اللغة التى هى أهم ما يميز الساميين • وعلى هذا فان تقسيم الشعوب يستند على أسس لغوية وحضارية أكثر مما يستند على أسس بيولوجية •

ولا ريب ان الساميين يتكلمون بلغات مختلفة ؛ ولكنها تشترك فى خصائص

---

(٣) « تاريخ عام للغات السامية » باريس ١٨٥٥ (بالفرنسية) •

(٤) انظر فى ذلك : كاسيرر « مقالة عن الرجل » (بالانكليزية) •
جوليان هكسلى وهدن « نحن الاوروبيين « بالانكليزية » •

عديدة مشتركة تميزها عن غيرها من اللغات وتحمل على الاعتقاد بأنها منحدرة من أصل واحد . ومن أهم هذه الخصائص وجود عدد كبير من الكلمات المشتركة بينهم وان الاساس فيها فعل الماضى ، وان تصريف الافعال يتشابه فيها ، وهى تعتمد على السواكن لا الحركات ، وأصل الكلمات مكونة من ثلاثة أحرف فى الغالب ، والفعل هو أساس الجملة ويعتمد عليه الاسم والضمير ، هذا الى ان للاسماء فيها صيغتان : المذكر والمؤنث ، وليس فيها صيغة ثالثة كال Neuter gender الموجودة فى اللغات الاوربية ؛ واللغة بصورة عامة بسيطة مباشرة لا تستعمل الافعال المساعدة وقلما تستعمل حروف الربط(٥) .

ولقد ظهرت نظريات متعددة عن أصل الساميين ، فمن أقدمها نظرية المستشرق الايطالى أغناس جويدى الذى قارن بين اللغات السامية المتعددة فوجد ان أغلب الكلمات التى تدل على السهول والمياه والنباتات مشتركة بين هذه اللغات . فاستنتج من ذلك ان هذه اللغات كان يتكلم بها فى الاصل أقوام يسكنون فى مناطق سهلية غزيرة المياه والنباتات ، وارتأى بأن العراق هو أقرب منطقة فيها هذه الظواهر ولذلك استنتج بأن أصل الساميين من العراق(٦) . ومما قد يؤيد نظريته هو ان التوراة تذكر ان سفينة نوح رست بعد الطوفان على الجودى فى شمال العراق ، ومنها انتشر الناس بعدئذ .

غير ان هذا الاستنتاج يثير عدة اعتراضات : فمن ذلك انه لا يبين لماذا يهاجر

---

(٥) فيليب حتى : تاريخ سوريا ص ٦٢ (بالانكليزية) .

(٦) ان بحث جويدى عن الاصل الاول للشعوب السامية ، نشر اول مرة بالايطالية فى مذكرات اكاديمية لنسى سنة ١٨٧٩ أما بحث بارتون فقد نشر بالانكليزية فى فيلادلفيا سنة ١٩٣٤ بعنوان « الاصول الاجتماعية والحامية للساميين » أما كايتانى فقد نشر بحثه بالايطالية بكتابيه « الحوليات الاسلامية » و « دراسات فى التاريخ الشرقى » ميلانو ١٩٠٧ ، ١٩١١ .

وتجد خلاصة ونقدا لهذه الآراء بالفرنسية فى كتاب « الساميون ودورهم فى تاريخ الدين » للاستاذ ديلا فيدا (بالفرنسية) ، كما تجد تلخيصا ونقدا لآراء كايتانى فى كتاب « شمال نجد » لالواموزيل بالانكليزية وفى كتاب « تاريخ العرب قبل الاسلام » للدكتور جواد على الجزء الاول .

الناس من هـذه المناطق الخصبة كالعراق الى المناطق الصحراوية الجرداء التى نجد انها آوت أنفس اللغات السامية منذ أقدم الازمان ؟ هـذا الى انه منـذ أقدم الازمنـة التأريخيـة نجد ان الاقوام الساميـة تهاجر من الجزيرة الى العراق ، لا العكس كمـا يدعى جويدى • يضـاف الى هـذا ان جويدى لم يطلع على الاستكشافات الجغرافية الحديثة التى أظهرت ان فى الجزيرة العربيـة مناطق كانت وفيرة المياه كثيرة المزروعات •

ومع سعة اطلاع جويدى على اللغات السامية الا انه كان يجهل فقه اللغات الاخرى وخاصة الحامية التى يتكلم بها سكان افريقية الشرقية والشمالية وتشترك مع اللغة العربية ببعض الخصائص •

وقد درس بارتون اللغة الحامية وقارنها بالسامية فوجدها تشترك فى بعض الكلمات والصيغ ؛ فاستنتج ان الساميين والحاميين كانوا متحدرين من أصل واحد تفرعوا منه ، وادعى ان أنسب منطقة ملائمة لسكنى « الاصل » هى شرق افريقية ، فى منطقة الصومال والاريتريا حيث يسهل عبور الساميين الى بلاد العرب من باب المندب وكذلك الانتشـار فى افريقيـة والواقع انه قد جرت اتصـالات تأريخية مستمرة بين اليمن وافريقية الشـرقية مما أكسب هذين الاقليمين بعض الصفات اللغوية والجسمية المتشابهة •

غير ان الكلمات والقواعد المشتركة بين الساميـة والحاميـة أقل مما تكفى لحملنا على الاعتقاد باشتراكهم فى الاصل • واذا كان سكان اليمن يشبهون بعض الشبه سـكان الصومال ، فان سكان العراق أبعد ما يكونون عن سـكان افريقية والكلمات المشتركة قد يرجع أصلها الى الاتصال التجارى لا الاشتراك فى الجنس ، لذلك لم يسلم المفكرون بصحة هذه النظرية •

وقد اعتقد فريق من العلماء ان أصل السـاميين من جزيرة العرب ، ولعل أعظم من دافع عن هـذا الرأى وأوضحه هو المسـتشرق الايطالى كايتانى الذى يتلخص رأيه بأن أصل الساميين من الجزيرة العربية • وهو يبنى اعتقاده هذا على ان الآثار القليلة المدروسة فى الجزيرة العربية تدل على وجود آثار المياه والنباتات

فيها • فقد وجد برترام توماس بقايا بحيرة فى الربع الخالى عند منخفض أبو بحر ، وآثار نباتات وحيوانات من جبل العترا هذا الى ان وادى الرمة لا يزال مليئا بالصخور الرسوبية والحصى مما يدل على أنه كان فى القديم مجرى نهر غزير المياه ، كما ان الأفيلة كانت تعيش فى الالف الثانية فى شمال سوريا ، أما الاسود فكانت كثيرة فى العراق ، وربما شمال الحجاز • والواقع ان الجيولوجيين قد قرروا ان مناخ العالم فى العصور الجيولوجية كان يختلف عما هو عليه الآن ، ففى عصر الميوسين كان مناخ الجزيرة العربية يشبه مناخ الهند اليوم من حيث الدفء وكثرة الرطوبة وغزارة المياه مما يساعد على سكنى البشر • فهو لذلك يرجح ان الساميين كانوا فى الاصل يقطنون الجزيرة العربية ، فلما تغير المناخ تدريجيا نقص السكان وتحولوا الى حياة البداوة • وهاجر منهم عدد الى أطراف الجزيرة حيث الخصب ووفرة المياه • والواقع اننا نجد ان العرب منذ أقدم العصور التاريخية المعروفة كانوا أوفر الامم حظا من الصفات والعادات الاجتماعية ولغتهم أقرب اللغات السامية الى الاصل وأنقاها •

لقد ظلت العلاقة بين سكان الجزيرة العربية وأطرافها وثيقة طوال الازمنة التأريخية ، حيث كانت تجرى هجرات متعددة ، بعضها موسمية أو محدودة كهجرات الرعاة الذين يتجولون وراء المراعى فيدخلون العراق وسوريا لمدة موقتة خاصة فى فصل الصيف والربيع ثم يعودون الى الجزيرة ، وفى بعض الاحيان يستقرون فى الهلال الخصيب ، خاصة عندما تساعدهم الظروف السياسية على ذلك • وفى بعض الاحيان تجرى هجرات واسعة تحمل عددا كبيرا من الناس الى بلاد الهلال الخصيب • وأبرز هذه الهجرات الكبيرة هى :-

(١) هجرة الاكاديين الذين استوطنوا العراق حوالى سنة ٣٥٠٠ ق•م• وكونوا الدولة الاكادية التى استطاعت فى عهد ملكها سرجون الاول أن توحد العراق ، وتمد نفوذها الى أعالى دجلة •

(٢) هجرة العموريين الى العراق ، والكنعانيين والفنيقيين الى سوريا (حوالى سنة ٢٥٠٠ ق•م•) •

(٣) هجرة الآراميين الذين انتشروا فى سوريا وفلسطين وشمال العراق ،

والعبرانيين فى فلسطين (حوالى سنة ١٥٠٠ ق٠م٠) ٠

(٤) هجرة الأنباط والتدمريين (حوالى سنة ٥٠٠ ق٠م٠) ٠

(٥) الموجة الاسلامية فى القرن اسلابع الميلادى ٠

وبوصول الساميين الى بلاد الهلال الخصيب إبدأوا يتركون حياة البداوة والاستقرار تدريجيا ويختلطون مع الامم الاخرى التى تقيم فى هذه البلاد ، مما كان يؤدى دائما الى تصادم مؤسساتهم الاجتماعية وحضارتهم مع مؤسسات وحضارات الشعوب الاخرى ، وينتج من هذا التصادم ظهور مدنيات جديدة مزدهرة يطغى عليها الطابع السامى ، الا انها تصبح مختلفة الى حد غير قليل عن حضارة اخوانهم من أهل الصحراء ٠ والواقع ان أزهى عصور الهلال الخصيب هى التى تعقب الهجرات السامية اليها ٠

ونظرا لتعقد حضارة الهلال الخصيب ووفرة المعلومات عن تاريخها ، فانها تدرس عادة بصورة مستقلة ٠ أما بحثنا هذا فسيقتصر على تاريخ البلاد العربية التى تخرج منها الموجات السامية وتغذى الشرق الاوسط بالعنصر السامى وحضارته ، والتى احتفظ سكانها بمظاهر الحياة السامية ، وخاصة اللغة وتقاليد البدو بدرجة أنقى مما هى فى بقية البلاد نظرا لقلة العناصر الدخيلة التى تأتى وتستوطن بلادهم ٠

وشبه جزيرة العرب[٧] مستطيلة الشكل ، يبلغ طولها من رأس الخليج

---

(٧) لقد درس سبرنجر فى كتابه « جغرافية الجزيرة العربية القديمة » (بالالمانية) ما ورد فى كتب القدماء عنها وحاول تعيين أماكنها ، وتجد خلاصة لها فى كتاب الدكتور جواد على ٠ كما درس لامنس فى كتابه « مهد الاسلام » (بالفرنسية) اقليم الحجاز ، ولعل أوفى ما كتبه العرب فى العصور الوسطى هو كتاب « صفة جزيرة العرب » للهمدانى ، وقد اعتمد عليه كثيرا ياقوت الحموى فى كتابه « معجم البلدان » ٠

ومع كثرة السياح والكتاب الحديثين عن جزيرة العرب الا أنه لا يوجد بحث مفصل شامل عنها ، ولكن تجد خلاصة لها فى كتاب « دليل جزيرة العرب » =

الفارسى الى العقبة حوالى ألف ميل ، ومن البحر العربى الى أطراف الهلال الخصيب حوال ألف ومائتى ميل • وهى هضبة مرتفعة فى الغرب وتنحدر تدريجيا نحو الشرق ، حتى تصبح كالسهل عند سواحل الخليج الفارسى •

ويمتد على طول الجزء الغربى منها سلسلة من الجبال تدعى « السراة » ، توازى البحر الاحمر ، ويزداد ارتفاعها فى الشمال ، ثم تنخفض فى الوسط ، حتى تصبح كالتلال المتقطعة ، ثم تعود الى الارتفاع فى الجنوب حيث يصبح ارتفاعها حوالى ١٢ ألف قدم كما تكون عريضة فتصبح كالهضبة • ويمتد من وسط الجزيرة سلسلتى جبال اجا وسلمى أو جبل شمر ، وهى تبلغ حوالى ٥٥٠٠ قدم فى الارتفاع • كما توجد سلسلة أخرى من الجبال التى تمتد موازية للساحل بحر عمان ، تدعى الجبل الاخضر ويبلغ ارتفاعها حوالى ١٠ آلاف قدم •

تحصر السلسلة الغربية (السراة) بينها وبين البحر الاحمر سهلا ساحليا ضيقا شديد الانحدار نحو البحر يقطعه عدد غير قليل من الاودية التى قلما يستفاد من مياهها الشتوية للزراعة ، نظرا لشدة انحدارها ، ولكن توجد فى فوهات الوديان موانىء متعددة أهمها الحوراء ، وينبع ، وجدة فى بلاد الحجاز ، والحديدة ومخا فى بلاد اليمن •

أما سطح الهضبة الوسطى فتتكون من النفود وهى أرض صلبة تكسوها قشرة ترابية تنبت فيها بعض النباتات البرية والاعشاب وخاصة فى الربيع بعد سقوط الامطار • وفى هذه الهضبة توجد منطقة الدهناء وهى أراضى تكسوها تلول من الرمال الناعمة البيضاء والحمراء التى تغير مواقعها بتأثير العواصف والرياح ، وتكون قاحلة جرداء لا نبات فيها ولا ماء ؛ وهى تكون عريضة فى الشمال حيث يبلغ طولها من الشرق الى الغرب ١٨٠ ميلا ، ومن الشمال الى الجنوب ١٤٠ ميلا ، ثم يمتد منها ذراع مواز للخليج الفارسى ، ويدعى الصمان ، ويبلغ عرضه حوالى خمسين ميلا وهو يمتد حتى يتصل بالربع الخالى الذى يمتد

= بالانكليزية الذى نشرته الاميرالية البريطانية واعتمد عليه كثيرا حافظ وهبة فى كتابه « جزيرة العرب فى القرن العشرين » •

تجد خلاصة واضحة عن جغرافية الجزيرة فى كتاب فيليب حتى (تاريخ العرب) ص ١٤-٢٢ •

فى جنوب الجزيرة ، ولم يمر به أى اوربى حتى سنة ١٩٣٢ حيث مر به برترام توماس ثم فلبى ووصفاه بأنه من منبسط من الارض الرملية والجيرية فيها يقايا بحيرات مالحة وآثار مياه البحر .

" وفى القسم الغربى من الهضبة عدد غير قليل من البراكين الهامدة والخامدة ، وتدعى الحرات ، وأشهرها حرة خيبر ، وحرة سليم ، وحرة يثرب ؛ وأغلب هذه الحرات خصبة وهى مراكز للحضارة .

يقطع هذه الهضبة عدد من الوديان ، وأهمها وادى الرمة الذى يسير من قرب الزبير متجها نحو الشرق حتى ينتهى عند خليج العقبة . ووداى سرحان الذى ينحدر من الشمال الى الجنوب الغربى حيث ينتهى عند البحر الميت . ووادى بيشة الذى يمتد فى عسير من الشرق الى الغرب حتى ينتهى فى البحر الاحمر . ووادى اليمامة الذى يمتد موازيا للبحرين والراجح ان هذه الوديان كانت فى الازمنة القديمة مجارى أنهار .

ان مناخ الجزيرة صحراوى ، حار جدا فى الصيف ، وبارد فى الشتاء ، وتسقط الثلوج على جبال اليمن ، كما تتجمد المياه أحيانا فى الطائف وفى اليمن . وأمطاره قليلة جدا ، وهى تسقط فى فصول الخريف والشتاء والربيع ، بدفعات غير منتظمة ، أما اليمن فتسقط فيها أمطار غزيرة فى الصيف تأتى بها الرياح الموسمية من منطقة شرقى افريقية .

ان مياه الامطار قليلة لا تكفى للزراعة ، بل تنبت الاعشاب والنباتات البرية وأهمها الاثل والغضا والطلح .

غير ان المياه الباطنية تتوفر فى معظم أنحاء الجزيرة ، وتكون أحيانا قريبة من سطح الارض ووافرة لدرجة تكفى للزراعة ولاستيطان عدد غير قليل من الناس ، وتدعى هذه المناطق الواحات . وتتوفر المياه ايضا فى بطون الاودية وفى اليمن كذلك ؛ وهذا مما يساعد على الزراعة والاستقرار ونشوء الحضارات . ولعل أهم المزروعات هو النخيل الذى يوجد منبثا فى مختلف الواحات ، ويكثر بصورة خاصة فى خيبر والمدينة ، وفى البحرين (وخاصة عند هجر) وفى اليمامة ، كما تكثر زراعة الشعير فى فدك ووادى القرى وخيبر والمدينة والبحرين ، والحنطة فى اليمامة ، والذرة فى عسير ، والكروم فى الطائف واليمن ، وأشجار

الفاكهة فى الطائف وفى عدد غير قليل من أودية الحجاز وفى اليمن • وتعيش الافاويه كالمر والمر المكاوى والصمغ فى أودية اليمن وحضرموت بكثرة •

يطلق على سكان الجزيرة العربية اسم العرب ، وقد ذكر هذا الاسم لاول مرة فى التاريخ فى نقوش ترجع الى زمن شلمانصر الثالث (حوالى سنة ٨٥٠ ق•م•) ، ثم يتردد ذكرهم منذ ذلك الوقت فى النقوش الآشورية والبابلية بأشكال مختلفة

Arubu, Arebi, Aribi, Urbi, Arbi Arabaian, Arabyaya' Arabya

وقد وردت ايضا فى نقش بهستون المدون فى زمن دارا الاول ، كما ورد ايضا فى أماكن مختلفة من التوراة فى سفر ارميا ، وحزقيال ، واشعيا ، والتواريخ ، وقد ذكره ايضا بعض الكتاب اليونان كايسخلوس وزينوفون •

وتعنى هذه الكلمة فى اللغات السامية الجدب أو القحولة ، ويبدو ان الدول القديمة اطلقت هذه الكلمة على سكان الصحارى القاحلة وخاصة اهل بادية الشام الذين كانوا يحتكون مع دول الهلال الخصيب ، ثم اتسع استعمال هذه الكلمة حتى أصبحت تطلق على كافة سكان الجزيرة العربية بما فيهم سكان المناطق الخصبة كاليمن والواحات(٨) •

---

(٨) راجع في ذلك فيليب حتى « تاريخ العرب » ص ٣٧-٤٦ • وكذلك مقال الاستاذ طه باقر عن صلات بلاد الرافدين فى الجزيرة المنشور فى العدد الثانى من المجلد الخامس من مجلة سومر •

الفصل الثانى

(١)
اليمن

تقع اليمن فى الطرف الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية ، تمر بها من الشمال الى الجنوب سلسلتان جبليتان تحصران بينهما هضبة عريضة ، وينحدر سطحها نحو البحر بشدة تاركا سهلا ساحليا ضيقا يقطعه عدد من الوديان المنصبة فى البحر • وتسقط على هذه البلاد أمطار وافرة فى الصيف تأتى بها الرياح الموسمية من شرق افريقية ، وقد ساعدت هذه الامطار على نشوء النهيرات الصغيرة والسيول التى يستفاد منها فى الزراعة التى ازدهرت فى هذه البلاد • وقد أدى ذلك الى استقرار الناس ونشوء المدن والمدنية •

ومن أهم المنتوجات اليمانية العطور والافاويه والبخور التى كانت لها أهمية كبرى عند الناس فى التأريخ القديم حيث كانت تستعمل فى المعابد والطقوس الدينية ، وللتحنيط ، كما كانت تستخدم أحيانا فى الاطعمة ، هذا الى أن العطور كانت تستخدمها النساء بكثرة • ويكفى للاستدلال على مدى أهميتها أن نذكر ان معبدا لآمون فى مصر استعمل فى أوائل القرن الثانى عشر ٢١٥٩ جرة فى سنة واحدة ، وان الكلدانيين كانوا يحرقون سنويا فى معبد بعل ببابل عشرة آلاف تالنت ، وان الاسكندر أرسل ٥٠٠ تالنت هدية لاستاذه أرسطو (٢) وكانت اليمن وحضرموت تزرعان أهم أنواع الافاويه والعطور العالمية وتعتبران أكبر مصدر لها فى العالم القديم • وقد ساعدت زراعة الافاويه على ازدهار تجارتها مع البلاد الاخرى ، وخاصة بلاد الهلال الخصيب وبلدان البحر المتوسط حيث كانت تصدر اليهم هذه المنتوجات ، كما ان وقوعها على طريق الهند ساعد على جعلها

---

(١) أهم مراجعنا فى هذا الفصل على كتاب « سناد الاسلام » لفلبى (الاسكندرية سنة ١٩٤٦) ، و « تاريخ العرب » لفيلب حتى ، و « جزيرة العرب قبل محمد » لاوليرى (بالانكليزية) ، و « تاريخ العرب قبل الاسلام » لجرجى زيدان ، و « تاريخ العرب قبل الاسلام » للدكتور جواد على •

(٢) فرياستارك « المداخل الجنوبية لجزيرة العرب » ص١٠ (بالانكليزية) •

مركزا هاما لتجارة الترانسيت ، ولسيطرة بحاريها على ملاحة البحر العربى والبحر الاحمر • ومن المعلوم ان الملاحة فى البحر العربى تعتمد على الرياح التى تسير من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى فى فصل الصيف ثم تسير بالعكس فى الشتاء ، ولم يكن يعرف هذه التبدلات فى اتجاه الرياح سوى الملاحين اليمانيين ، مما ساعدهم على احتكار الملاحة فيه حتى القرن الثانى قبل الميلاد • وقد أدت هذه الاحوال الطبيعية الملائمة الى ظهور المدن وازدهار المدنية منذ أقدم الازمنة فظهرت فيها دول ، أقدم ما نعرفه منها هى الدولة المعينية التى تشكلت فى الجوف وكانت عاصمتها قرناو أو معين •

وقد لاحظ بعض الباحثين ، وخاصة ونكلر وهومل ودوفرتى ، ان بعض مظاهر الحضارة المعينية تشبه حضارة البابليين ، فالاله شماش وعشتروت البابلية ، يشبه اسمها الاله شمس وعثر اليمانية ، كما ان النقوش والاختام المعينية تشبه ما عند العراقيين القدماء ، والمكارب اليمانيين يشبهون الملوك الكهنة السومريين • وقد استنتجوا من ذلك ان اصل المعينيين من العراق • غير ان هذا التشابه الجزئى فى مظاهر الحضارة لا يكفى أن يكون دليلا قاطعا على كونهم جاؤا من العراق ، اذ يجوز أن يكون الساميون العراقيون قد جاؤا من اليمن ، أو قد يكون العراقيون واليمانيون قد جاؤا من أصل واحد فى محل ما ، أو قد يكون التشابه فى مظاهر الحضارة نتيجة الاختلاط الذى كان بين البلدين منذ أزمنة سحيقة •

وقد اختلف الباحثون فى بداية نشوء دولتهم وذلك لان الآثار القليلة الباقية عنهم تذكر وجود خمسة أسر معينية حكمت معين • تتكون كل أسرة من عدد من الملوك المتسلسلين • ولكن لا توجد أية صلة بين كل أسرة من هذه الأسر وبين الأسرة التى تليها • وقد اختلف الباحثون فيما اذا كانت هذه الأسر متعاقبة ومتسلسلة أو ان هناك ملوكا حكموا المعينيين لم تصلنا أخبارهم •

ويرجح المؤرخون ان أولى هذه الأسر بدأت فى الحكم حوالى سنة ١١١٠ ق•م• وكانت الظروف الدولية مؤاتية لها • ففى مصر لم يتمكن ملوك الأسرة الحادية والعشرون الضعفاء من التدخل فى شؤون الجزيرة العربية ؛ وفى العراق كان يحكم بابل ملوك ضعفاء ؛ وفى آشور كان تغلات فلاسر منشغلا فى حروبه فى شمال العراق • وقد ساعدت هذه الظروف المعينيين على تثبيت ملكهم

ومد نفوذهم التجارى فى الشرق الاوسط ؛ فامتد نفوذهم فى عهد الأسرة الثانية الى حضرموت فى الجنوب ؛ كما امتدت تجارتهم ونفوذهم الاقتصادى الى شمال الحجاز حيث أقيمت مستعمرة معينية يرجح انها كانت مرتبطة بدولة اليمن • وقد أدى هذا التوسع الى احتكاك المعينيين بآشور والفنيقيين •

ويظهر انه فى نهاية عهد الأسرة الثانية بدأ احتكاكهم بحضرموت وقتبان فى الجنوب • كما بدأ يتردد فى النقوش ذكر قبيلة خولان وذكر السبأيين الذين أصبحوا فيما بعد ورثة المعينيين •

يرجع تاريخ القتبانيين الى سنة ١٠٠٠ ق•م• على الاقل ، وكانوا يسكنون فى الطرف الجنوبى الغربى من اليمن وعاصمتهم تمنا ، وهى قرب باب المندب ، وقد كشفت آثارها قبل بضع سنوات • ويذكر بعض كتاب الرومان انه كان فيها ٦٥ معبدا •

استفاد القتبانيون من موقعهم الجغرافى ومجاورتهم لحضرموت التى تنتج خير أنواع البخور ، فجنوا ثروة كبيرة وصارت لهم قوة عظيمة حددت من نفوذ المعينيين وكانت نظم ادارتهم تشبه النظم المعينية على ان الضربة النهائية التى قضت على المعينيين جاءت من السبأيين الذين ازدادت قوتهم حتى استطاعوا أن يقضوا على الدولة المعينية ويسيطروا على اليمن ويحدوا من نفوذ القتبانيين • الا ان المعينيين ظلوا محتفظين بكيانهم الاجتماعى حتى بعد انقضاء دولتهم اذ وجد لهم ذكر فى الآثار المصرية فى القرن الثانى ق•م• وفى ديلوس حيث امتدت تجارتهم •

يبدو من الوثائق القليلة الباقية ان نظام الحكم فى معين كان ملكيا مقيدا ، فكان الملك يدعى مزود ، ومعناه المقدس ، والملك ورائى وقد يشارك الابن أباه فى الحكم ، ولكن يحيطه مجلس استشارى يعاونه فى الحكم ويحد من سلطانه •

وكانت المدن التابعة لدولتهم تتمتع باستقلال ذاتى ، أما ادارتها فكانت بيد رؤساء ينتخبون لمدة سنة قابلة للتجديد ويعاونهم مجلس من المشايخ ، ويظهر انه كان لهؤلاء الرؤساء مكانة سامية ، اذ كانت تدون أسماؤهم فى سجلات المدينة أو المعابد ويذكرهم المؤرخون فى وثائقهم ، حتى ان بعض الملوك كانوا يؤرخون توليتهم ويحددونها بذكر الرئيس الذى كان قائما آنذاك •

كان المعينيون يمتهنون الزراعة والتجارة ، وفيهم عدد من القبائل البدوية يرعون الماشية ولا تختلف نظمهم عن نظم البدو .

والمجتمع المعينى ارستقراطى يستخدم العبيد ؛ وفيه عدد من الطبقات التى تتميز عن بعضها . وهم متدينون يعيرون رجال الدين أهمية كبيرة . وللمرأة حرية واسعة .

لقد كان المعينيون يستعملون فى كتابتهم الحروف ؛ ومن المحتمل انهم اول من اخترع الألفباء ثم انتقلت منهم الى سينا والفنيقيين ثم نقلت الى اليونان .

انتشر المعينيون فى بلاد واسعة متبعين تجارتهم حتى بعد انقراض دولتهم . فقد وجد ذكر للمعينيين فى مصر والعراق وسوريا وديلوس . وقد ذكرهم الكتاب اليونانيون والرومان فأشار بلينى الى وجودهم مع سبأ ووصفهم بطليموس بأنهم شعب قوى . وقال ديودورس بأنهم كانوا يأتون بالافاويه . ولا ريب ان ذكر هؤلاء الكتاب الاغريق والرومان فى القرون القريبة من ميلاد المسيح دليل على بقاء المعينيين محتفظين بنشاطهم الاقتصادى حتى بعد أن دالت دولتهم ، وكانت لهم مستعمرة واسعة فى شمال الحجاز .

ورد ذكر السبأيين فى النقوش الآشورية حيث يذكر كل من تغلات فلاسر (٧٤٥-٧٢٧ ق.م.) وسنحاريب وأسرحدون (٧١٥-٦٨٥ ق.م.) بأنهم أخذوا الجزية من يثعمر وكرب ايلو ملوك سبأ . كما ذكرت فى التوراة (فى سفر التكوين × ٧) سبأ جنوب جزيرة يقطان تعطى المر والجوهر والذهب ، وان بلقيس التى تزوجت سليمان كانت ملكة سبأ ؛ وان لم يكن هناك دليل قاطع بأن هذه المملكة كانت فى اليمن .

لا تذكر المصادر التأريخية شيئا واضحا عن أصل السبأيين ؛ ومن المحتمل أنهم كانوا فى الاصل قبائل بدوية يتجولون فى الشمال ؛ ثم انحدروا نحو الجنوب الى اليمن حوالى سنة ٨٠٠ ق.م. كعادة العرب فى التجوال ، أو نتيجة ضغط الآشوريين عليهم من الشمال ؛ واستقروا أخيرا فى اليمن وأخذوا يتوسعون فيها مستفيدين من ضعف المعينيين وقوتهم العسكرية فامتدوا الى الجوف .

ويمكن تقسيم حكمهم فى اليمن الى ثلاث فترات متميزة كان يطلق على

رؤسائهم فى الفترة الاولى لقب مكرب وهى كلمة دينيـة تعنى المقدس • ثم تلتها فترة أخرى أصبح يسـمى الرؤسـاء فيهم ملوك سـبأ ثم فى الفترة الثالثة كانوا يلقبون ملك سبأ وريدان •

وأول مكارب سـبأ هو سـمح على (حوالى ٨٠٠-٧٨٠ ق٠م٠) الذى لا يعرف عن حكمه الا خبر واحد هو انه قدم هدية من البخور والمر للاله المقه الذى أرشد القبيلة بعد تجوالها الى « أرض فيهـا اللبن والعسل » • وقد أعقبه ابنـه يدع ايل ضريح الذى بنى معبدا للمقه فى صرواح عاصمة مكارب سبأ ؛ كما بنى معبدا آخر للمقه وكذلك لعثر فى مأرب ؛ وهذه أول اشارة لمأرب مما يدل على انها كانت آنذاك مدينة كبيرة مهمة • وقد تلا هذا المكرب يثعمر وتر الذى بنى معبدا لآله القمر حوباس فى دابر التى كانت تقع بين مأرب والجوف فى وادى خريد • وقد ولى بعد هذا المكرب ابنه يدع ايل بين الذى حصن مدينة نشق فى الجوف عند حدود الدولة المعينية ، مما يدل على أنه كانت هناك حروب مع المعينيين • غير ان النقوش لا تذكر شيئا من هذه الحروب • وقد تولى بعد هذا المكرب سـمح على يناف ويثعمر وتر وكرب ايل بين الذين قدموا السنحاريب واسرحدون • ليست لدينا أخبار أخرى عن هولاء المكارب • مما قد يدل على انهم لم يقوموا بفتوحات تستحق الذكر وانهم انصرفوا الى الحياة السلمية واهتموا بالزراعة والاعمار والسدود •

وقد ولى بعد كرب ايل بين ابنـه (أو ابن اخيـه) ذمر على وتر الذى قام بتشييد سد مأرب الذى يعتبر أعظم سد شيد فى الجزيرة العربية ومن أعاجيب العالم القديم • وقد ظل ذكره يتردد بين الناس وأشير اليه فى القرآن فقال تعالى « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشـمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فاعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنيتهم جنتين ذواتى اكل خمط واثل وشىء من سـدر قليل • ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى الا الكفور • وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيهـا قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين • فقالوا ربنا باعد بين أسـفارنا وظلموا أنفسـهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » (سورة سـبا ١٥-١٩) وقد وصف هـذا السد العالم

اليمانى الهمدانى فى كتابه « الاكليل » • كما وصف بقاياه عدد من السياح المحدثين منهم ارنو وهاليفى وكلازر •

والسد(٣) طوله ٨٠٠ ذراع وعرضه ١٥٠ ذراع بنى على مقطع وادى أذنة الذى تتجمع فيه معظم مياه السيول التى تتكون من الامطار الساقطة على الجبال الواقعة أطراف صنعاء ، وهو مبنى بالتراب والحجارة ينتهى أعلاه بسطحين مائلين على زاوية منفرجة تكسوها طبقة من الحصى تمنع انجراف التراب عند تدفق المياه • ويستند هذا السد من طرفيه على جبلين ؛ وعند كل من هذين الجبلين تتفرع القنوات وتدعى ميزاب وعلى فتحة كل قناة سد آخر ذى فتحة مبنى بالحجارة ، فالسد يحصر المياه الآتية من السيل ويجمعها فتصبح كالخزان ، وترتفع المياه حتى تصل مستوى عاليا يقارب مستوى الجبلين ، ثم تفتح فوهات القنوات فيدخل منها الماء لارواء سطح الجبلين ، فاذا اكتفوا سدوا هذه القنوات بأبواب من خشب وحديد •

على ان ما بناه ذمار على لم يرو كل الاراضى ، لذلك اكمله ابنه يثعمر بيان فأنشأ سدا جديدا يدعى حبادر (أو حبايذ) ووسع سد رجاب • وقد جعلت هذه السدود منطقة مأرب غنية بالزراعة •

وقد اضيفت الى السد اضافات متعددة حتى اتخذ شكله النهائى على عهد شمر يرعش (٣٠٠ م) وقد أدى اضطراب الاحوال فى أواخر عهد الحميريين الى اهماله وحدوث تصدع فيه وقد حاول ابرهة اصلاحه ولكنه تخرب فيما بعد وكان لتخريبه تأثير فى اغراق الاراضى • ويروى العرب عن سبب تخريبه أقاصيص خرافية ويعزون الى هذا التخريب سبب هجرات الغساسنة والمناذرة والازد • ولا ريب انهم مغالون فى هذا ؛ اذ أن تخريبه أدى الى تدمير الزراعة فى المنطقة المزروعة حول مأرب فقط •

لقد ازدادت أهمية مأرب ببناء هذا السد وأصبحت عاصمة للسبايين بدل

---

(٣) راجع كتاب « تاريخ العرب قبل الاسلام » لجرجى زيدان ص ١٤١-١٤٨ وقد اعتمد فيه على وصف ارنو وتجد وصفا لبقايا السد فى كتاب « رحلة فى البلاد العربية السعيدة » لنزيه المؤيد العظم •

صرواح واتخذها يثعمر بيان قاعدة عسكرية قام منهـا بفتوحات دون اخبارها فى نقوش على السد فاخضع القتبانيين وقتل عددا كبيرا منهم ثم توجه شمالا الى معين وأخضعها كما أخضع قبائل أخرى فى نجران كالمحامر وعامر فقتل عـددا كبيرا من رجالهم وغنم منهم غنائم كبيرة غير انه لم يقض على معين •

وقد خلفه فى الحكم ابن عمه (أو ابن أخيـه أو حفيده) كرب ايل وتار (٦٢٠-٦١٠) الذى كان اول من اتخذ لقب الملك ؛ وحالف هذا الملك يدع ايل ملك حضرموت وداروايل ملك قتبـان واستعان بهما فى حروبه ، فهاجم مملكة اوسان التى كانت قد ظهرت فى الجنوب الغربى من اليمن واستفادت من ضعف القتبانيين فوسعت رقعتها وتحكمت فى حضرموت وسـيطرت على الطرق التجارية الآتية منها • وقد استطاع كرب ايل وتار من القضاء على هـذه المملكة واخضاع عدد من القبائل التى كانت تحالفها كالمحامر ، وامن له هـذا الانتصار السيطرة على طرق تجارة البخور والافاويه الآتية من الجنوب •

ثم توجه كرب ايل وتار الى معين وحلفائهـا فى الشـمال ، فهاجم نشـان والمناطق المجاورة لها • وقد حاول المعينيون أن يدرأوا خطره بالتحالف مع القبائل الموجودة فى الشمال ضده ، ولكنه عاجلهم وهاجم المحامر وعامر واوهاب اللائى كن يسكن بحران وغنم منهن غنائم كبيرة •

وقد ساعدت الظروف الدولية كرب ايل وتار على القضاء على خصومه ، ذلك ان مصر لم تكن قد استفاقت من تأثير غزو الآشوريين لها فى أواخر القرن السابع قبل الميلاد وكانت آشور منشغلة فى صد هجمات البابليين والكاشيين كما ان بابل كانت منشغلة فى حروبها مع الآشوريين ثم مع اليهود فى فلسطين كل هذا ساعد الملك السبائى على توطيد كيان الدولة السبأية وتأمين سلامتها وأمن السلم لاحفاده الذين ظلوا يتعاقبون فى الحكم على البلاد حتى سنة (٣٧٥ ق٠م٠) •

غير انه تعاقب على حكم الدولة السبأية فيما بعد ملوك ضعاف واستغلت ذلك القبائل التى تسكن الهضبة وخاصة حاشد وبكيل فرعى همدان ، وخولان وبنى ذى ريدان وزادوا من نفوذهم وسطوتهم واشـتبكوا فيما بينهـم بحروب طويلة زادت فى اضعاف نفوذ السبأيين ، وأدت الى استقلال حضرموت واوسان • غير ان

ظهور هـذه القبائل أدى الى تناقص أهميـة الهضبـة الوسـطى وانتقال مركز الحضارة منهـا .

وفى ذلك العهد كانت روما قد أخذت تمد نفوذهـا فى الشرق الاوسط ، فاستطاع بومبى أن يستولى على سوريا وفلسطين ، ثم قضى يوليوس قيصر على دولة البطالسة فى مصر ، فلما تولى اغسطس زمام الحـكم فى روما وأدرك ما تصرفه روما سـنويا من الاموال على البخور والافاويه ، أراد أن يضـم الى امبراطوريته البلاد التى تنتج هذه المنتوجات ، ويبـدو انه اعتقد بضعف اليمانيين وعجزهم عن مقاومة الرومان ، فأوعز الى واليه فى مصر اليوس كالوس بتجريد حملة لاحتلال اليمن سنة ٢٥ ق.م. ؛ ولا نزال نحتفظ بأخبـار هـذه الحملة بفضل ما دونه سترابو عنها ، فقد سلكت الطريق البرى ، وأخذت لها دليلا نبطيا سار بها عبر الحجاز الى حربد الذى هو الوادى الوحيد الذى تتوافر فيه الميـاه الدائمية ثم تقدمت الحملة فاحتلت اسكا (نسا أو نشق) واثرولا (يثيل أو البيضاء) وغنم منها غنائم كبيرة ثم تقدم الى مارسيابا (مأرب ؟) التى كان يحكمهـا الرامانيتيون وملكهم الاساروس (على ما يقول سترابو) . وقد لقى مقاومة شديدة اضطرته أن يتركها ويعود راجعا بعد أن حاصرها ستة أيام . وقد لاقى جيشـه فى طريق عودته الاهوال من الامراض والعطش . ويعزى الرومان سبب فشل الحملة الى عوامل المناخ . ولا ريب ان هذا تبرير لفشلهم اذ الراجح ان سبب فشلها مقاومة اليمانيين .

لم تسـتطع هـذه الحملة أن تؤدى الغرض الذى جاءت من أجله ، فظلت اليمن خارج الامبراطورية الرومانية ؛ غير انهـا فى نفس الوقت لم تؤد الى قطع العلاقات اذ استمرت تجارة الافاويه مع الرومان وكان يقوم بها اليمانيون . ويبدو ان حملة اليوس كالوس قد أحدثت بعض الانتعاش السياسى والعسكرى فى دولة سبأ ، فضعف خصومهم ، وزاد نفوذ الاسـرة الحاكمة ، فلم يبق من يخاصمهـا سوى حاشد وقد استطاع ملوك سـبأ أن يمدوا نفوذهم الى حضرموت كما يظهر من ألقابهم . غير ان الدمار الذى أصاب مأرب من جراء الحملة حملهم على نقل عاصمتهم الى ذمار فترة من الزمن .

لقد كان السبأيون يعتمدون فى الملاحة فى المحيط الهندى والبحر العربى

على حركة الرياح الموسمية ويسيرون سفنهم حسب اوقاتها ، التى تتبدل حسب المواسم تبدلا تاما ، وقد احتفظوا لانفسهم بمواعيد هذه الرياح ، واعتبروها سرا لم يبيحوا به لغيرهم ، مما مكنهم من احتكار تجارة الهند التى كانت تأتيهم بأرباح طائلة . غير انه فى أواخر القرن الثانى ق.م. استطاع هبار خوس ، وهو أحد الملاحين الرومان أن يتعلم مواعيد هذه الرياح الموسمية ثم علمها بدوره الى غيره من اليونان ؛ فأخذت السفن المصرية والرومانية تبحر بنفسها فى المحيط الهندى وتجلب البضائع من جنوب آسيا والهند من دون حاجة الى وساطة السبأيين ؛ وهكذا لم يعد هؤلاء يحتكرون التجارة وأخذت البضائع الهندية تسير فى الطريق البحرى من المحيط الهندى الى البحر الاحمر وتنزل بضائعها فى الموانىء المصرية أو فى العقبة رأسا . وقد أدى هذا الى تناقص أهمية الطريق البرى الذى كان يسير من عدن مخترقا الهضبة اليمانية الى وسط الحجاز ، كما أدى الى تضاؤل أهمية الهضبة اليمانية الوسطى وانحطاط مدنها التى كانت تعتمد كثيرا على التجارة المارة بها ؛ ولكنه أدى فى نفس الوقت الى ازدياد أهمية المدن اليمانية الواقعة على ساحل البحر الاحمر ، فانتعش الحميريون الذين كانوا يسكنون فى المنطقة الساحلية وازدادت قوتهم ؛ فكونوا لهم دولة عاصمتها ظفار استطاعت أن تمد نفوذها حتى تمكنت من القضاء على دولة سبأ . وقد تم تأسيسها تدريجيا .

وأول ذكر للحميريين فى آثار اليمن يأتى من سنة ١١٥ ق.م. حيث تذكر النقوش « ملك سبأ وذوريدان » وريدان هى ظفار عاصمة الحميريين ، (وهى تقع على بعد مائة ميل من مخا) وهذا يدل على ان الحميريين كانوا منذ ذلك الوقت ذوى كيان سياسى متميز ؛ وكانوا يسكنون المنطقة الساحلية ، وقد ساعدهم موقعهم الساحلى على المساهمة فى الحركة التجارية وتوثقت علاقتهم بالاحباش ، ثم صار لقبهم من سنة ٢٧٥ م « ملك سبأ وريدان وحضرموت واعرابهم من الجبال وتهامة » مما يشير الى توسع نفوذ اليمن وامتدادها الى تلك المنطقة ، ثم استطاعت حمير أن تنتزع الحكم من السبأيين وتصبح أسرتها هى الحاكمة فى اليمن .

ينسب بعض المؤرخين العرب للملوك الحميريين فتوحات واسعة فيروون ان فتوح ناشر النعم وصلت اسبانيا واروبا ، وان شمر يرعش امتدت فتوحاته فشملت العراق وايران حتى وصل الى تركستان ، وانه بنى سمرقند التى سميت

بأسمه وان اسعد كرب فتح اذربيجان والقسطنطينية(٤) . ولا ريب ان تواريخ الدول المعاصرة لا تذكر شيئا عن هذه الفتوحات ، مما يدل على كونها أساطير ومختلقات ، غير انها تدل على الاثر الذى تركته قوة الحميريين العسكرية فى النفوس ؛ ومن الثابت ان الحميريين استولوا على بلاد الحبشة فى القرن الاول قبل الميلاد .

وفي عهد الدولة الحميرية بدأت المسيحية تنتشر فى اليمن ، وكان انتشارها تدريجيا على ايدى المبشرين المسيحيين وخاصة اليعاقبة الذين جاؤا من الحبشة وأنشأوا لهم كنائس فى عدن وظفار ونجران وربما ساعد على نشر المسيحية ايضا الارساليات النسطورية من الحيرة وارساليات من سوريا(٥) وأخذوا يبثون منها الدعاية المسيحية حتى استطاعوا أن ينصروا عددا من أهل اليمن وفى سنة ٣٤٠ م هاجم الاحباش اليمن واستولوا عليها ، ووجدت المسيحية فيهم سندا قويا لها .

غير ان الحكم الحبشى لم يدم طويلا ، اذ أن رجال الدين المتعصبين للوثنية تعاونوا مع اليمانيين على مقاومة الاحباش النصارى الغزاة ، واستطاعوا اخراجهم سنة ٣٧٨ واعادة الوثنية الى مكانتها الاولى . وقد كانت هذه الحملة الحبشية الاولى محاولة لانتزاع التجارة من اليمن ولنشر الدين المسيحى ، وهى بمثابة حركة استطلاع مهدت للاستعمار الحبشى فيما بعد .

أدى خروج الاحباش الى أن تفقد المسيحية سندا قويا لها ، كما ان الملوك الحميريين ، وكانوا قد لجأوا الى يثرب عند الغزو الحبشى ، تأثروا بالديانة اليهودية التى كانت منتشرة فى يثرب ؛ غير انه ليس هناك دليل على اعتناقهم اياها فان ملك كرب الذى طرد اليهود كان يعبد « ذى سماوى بعل السماوات والارض » كما تنص النقوش التى بقيت من عهده . ويظهر من هذا النص ان اليمانيين قد أخذوا يعتقدون باله عظيم هو رب السماوات والارض ، الا أنهم لم يتركوا آلهتهم الاخرى كما انهم لم يدينوا باليهودية التى تعتبر الاهها يهوه ، لا بعل كما يدعوه هذا النقش .

---

(٤) راجع فى ذلك كتاب التيجان من ملوك حمير ، المنسوب لوهب بن منبه .

(٥) أنظر الفصل السابع من كتاب « جزيرة العرب قبل محمد » لاوليرى .

وقد جاء بعد ملك كرب ابنه أبو كرب أسعد الذى يدعوه المؤرخون العرب أسعد كامل تبع وينسبون اليه فتوحات واسعة وصلت بها جيوشه الى تركستان • ولا ريب ان هذه الاخبار هى من باب الاساطير ، اذ لا توجد اشارة اليها فى تواريخ الامم المعاصرة له ، ولكنها تدل على مدى ما تركته قوة الحميريين العسكرية فى أذهان الناس • ويبدو ان توسع أبو كرب لم يتجاوز يثرب التى زارها هذا الملك ردا لجميل اهلها الذين آووه واباه ، وربما أراد بذلك أن يتعاون مع اليهودية ضد الاحباش والنصارى •

وقد أعقبه شرجبيل يعفر الذى عمر بعض ما خرب من سد مأرب سنة ٤٥٠ نتيجة الفيضانات والاهمال • ثم تعاقب فيها على حكم اليمن بضعة ملوك لم تكن لهم آثار بارزة الى أن جاء ذو نواس الذى كان شديد التعصب على المسيحية فعزم على اجتثاثها من اليمن وطلب من النصارى ترك دينهم فلما أبوا أحرقهم بالنار فى اخدود حفره لهم وقد أشار القرآن الى هذه الحادثة « قتل أصحاب الاخدود • النار ذات الوقود • اذ هم عليها قعود • وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود • وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » (سورة الروح ٤-٨) •

ويروى ان ذو نواس دان باليهودية وتسمى يوسف أو فنحاص وان مقاومته للمسيحية كانت نتيجة تعصب دينى ، وقد تكون هناك دوافع أخرى لاضطهاده المسيحية : منها ان المسيحية فى الشرق كانت تجد سندها فى الدولتين البيزنطية والحبشية ، وان انتشارها قد يؤدى الى تزايد نفوذ البيزنطيين والاحباش فى اليمن ، أو على الاقل قد يكونوا بمثابة رأس حامس للبيزنطيين عند حدوث أى غزو بينما لم يكون اليهود أى خطر للاستيلاء على اليمن • ولعل اليهود هم الذين حرضوا ذو نواس على اضطهاد المسيحية انتقاما من البيزنطيين الذين قاموا باضطهاد اليهود فى بلادهم آنذاك • وجدير بالملاحظة ان ذى نواس أول ملك ذكر بأنه تهود ، وانه لم يكن متعصبا لليهودية ، فلم يضطهد الوثنية التى ظلت منتشرة حتى ظهور الاسلام •

غير ان اضطهاد ذى نواس للمسيحيين أثار البيزنطيين الذين اوعزوا الى الاحباش بالهجوم على اليمن ، فجهز الاحباش حملة بقيادة ارياط استطاعت أن تقضى على الدولة الحميرية وتنتصر للنصارى • وقد اتبع الاحباش سياسة لينة مع

اليمانيين ، واعتمدوا على الامراء المحليين فى الادارة ؛ فعين ارياط سميفع اشوع الحميرى على اليمن ؛ ولكنه لما مات أعقبه ابرهة الذى أراد اتباع سياسة سلفه فعين على كندة رجلا من ابنائهـا يدعى يزيد بن كبشة ، ولكن هـذا ثار على ابرهة ، مما حمل الاخير على تجريد حملة ضده ، ثم ألقى القبض عليه وقتله .

واهتم ابرهة كذلك فى اصلاح البـلاد ، فعمر سـد مأرب الذى كان قد تصدع ، وحشر للعمل فيه العمال من أهل البلاد ، وصرف على ذلك مبالغ طائلة ؛ فلما انتهى من اصلاحـه أقام احتفالا عظيما دعى اليـه مندوبين من كافة الدول المجاورة ؛ وقد سجل جهوده واحتفالاته فى نقش اكتشف فى السنين الاخيرة ، وألقى ضوءا هاما على أحوال ذلك الزمن(٦) .

ثم جرد ابرهة حملة للاستيلاء على مكة ؛ ولكن الحملة تدمرت عند مكة ، ومات ابرهة ، وقد أشـار القرآن الى ذلك بقوله تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا ابابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » .

لم يرض بعض أهل اليمن باحتلال الاحباش لبلادهم ، فاستنجدوا بالدولة الساسانيـة التى كانت عدوة البيزنطيين ؛ فانجدهـم انوشروان بقوة أبحرت من الخليج الفارسى ونزلت فى جنوب اليمن واستطاعت أن تطرد الاحباش منهـا ، وبذلك تحررت اليمن ، وقد أصبح سيف بن ذى يزن حاكما عليها ، وكان هو الذى استنجد بانوشروان . وقد ظلت القوة الساسانيـة فى اليمن ، وكانت تقيم فى صنعاء(٧) .

ثم ان سيف بن يزن قتل ، فتولى الحاكم الساسانى أمر ادارة اليمن تسانده القوة الساسانية غير ان الاضطرابات التى حدثت آنذاك فى الدولة الساسانية جعلت مركز هذا الوالى ضعيفا منعزلا ، فقوى نفوذ العشائر والامراء المحليين ، وحصروا نفوذ هذا الوالى فى صنعاء وما يجاورها .

---

٦ لقد كتب سدنى سميث فى نشرة مدرسة اللغات الشرقية (١٩٥٤) مقالة قيمة عن حكم الاحباش وأحوال الجزيرة فى القرن السادس الميلادى .

(٧) أنظر فى ذلك الطبرى ج ٢ ص ١١٥ فما بعد . ابن هشام : سيرة النبى ج ١ ص ٦٥ فما بعد .

ثم ادعى الاسود العنسى النبوة ، وحرض الناس ضد الفرس ، ثم تمكن من القضاء عليهم ، ولكن هذا لم يدم طويلا ، اذ سرعان ما دهمه المسلمون وقضوا على حركته ، بعد أن اغتاله بعض اليمانيين المعارضين له • وهكذا أصبحت اليمن جزءا من الدولة الاسلامية •

وقد ساهم كثير من اليمانيين فى الفتوح الاسلامية ، فانضموا الى الجيوش الاسلامية منذ عهد أبى بكر ، ثم استوطنوا الامصار الاسلامية كالكوفة والشام والفسطاط ، وشارك كثير منهم فى فتح الاندلس والاستقرار فيها ، وساهموا فى تكوين الحضارة الاسلامية التى نبعت فى هذه الامصار ، مما سنبحثه بالتفصيل فى الجزء الثانى •

قائمة اسماء الملوك المعينين حسب ترتيب فلبي (٨)

اليفع وقه
وقه ايل صديق
أبو كرب يثع
عم يثع نعت

فترة عشرين سنة لا نعلم ملوكها

صدق ايل ملك حضرموت ومعين
اليفع يثع
حفن ذرح
اليفع ريام
حوف عثت
أب يدع يثع
وقه ال ريم
حفن صدق
اليفع يفش

---

(٨) سناد الاسلام • الملحق الثانى ص ١٤١ •

فترة عشرين سنة لا نعلم ملوكها

يثع ال صديق
وقه ال يثع
اليفع يشر
حفن ريام ووقه ال نبت

فترة عشرين سنة لا نعلم ملوكها

أب يدع ريام
خال كرب صديق
حفن يثع

فترة عشرين سنة لا نعلم ملوكها

يثع ال ريم
تبع كرب
حكم اليفع وقه سنة ١١٢٠ ، ودام حكم كل ملك عشرين سنة .

وقد رتب البرايت قائمة ملوك معين بشكل آخر ، فان الملوك الاربعة الاول فى قائمة فلبى ، يعتبرهم البرايت تولوا الحكم بين اليفع يفش ويثع ال صدق، كما انه يرى أن اليفع وقه حكم سنة ٢٥٠ ق.م. ، وان اليفع يثع (اول ملوك معين) برايه حكم حوالى سنة ٤٠٠ ق.م.(٩) .

---

(٩) نشر البرايت قائمته فى نشرة مجلة المدرسة الامريكية فى الشرق Bsasoor سنة ١٩٥٠ .

ملوك سبا حسب ترتيب فلبى (١٠)

المكارب :

سمه على

يدع ال ذرح

يثعمر وتر

يدع ال بين

يثعمر وتر

كرب ايل وتر

ذمر على وتر

كرب ال بين

سمه على ينف

يثعمر بين

كرب ايل وتر

الملوك :

كرب ايل وتر

سمه على ذرح

كرب ايل وتر

الشرح

يدع ال بين

يكرب ملك وتر

يثع امر بين

كرب ال وتر

سمه على ينف

الشرح

ذمر على بين

يدع ال وتر

ذمر على بين

كرب ال وتر

فترة عشرين سنة لا نعلم اسماء ملوكها

الكرب يهنعم

كرب ال وتر

وهب ال (من بليل)

انمار يهنعم

ذمر على ذرح

نشاكرب يهنعم

فترة ثلاثين سنة

ناصر يهنعم

وهب ال يحز

كرب ال وتر يهنعم

(ثم اغتصب العرش يريم ايمن

وابنه علهان نهقان)

مزعم ينهب

الشرح يحصب

(ثم تعقبه فترة ذكرت فيها اسماء

ملوك لا نعلم ترتيبهم أو زمن حكمهم)

---

(١٠) سناد الاسلام ص ١٤١ .

ملوك سبأ وذو ريدان :	ذمار على يحابر
يزل بيان	ثاران يعب يهنعم
نشاكرب يمين يرحب	ذمار على يحابر (الثانى)
وتر يهمن	ذمار على بيان
ياسر يهصدق	

وقد اعتبر بداية حكم سمه على سنة ٨٠٠ ق٠م ، وقدر حكم كل مكرب عشرين سنة وهو رقم كيفى ٠

تتفق قائمة فلبى على ملوك سبأ مع قائمة هومل ، الا فى بعض الامور ، منها ان هومل يضع كرب ايل وتر الاول بعد الشرح ، ويعتبر اسمه على ينف مؤسسا لاسرة جديدة ، ويحذف اسم يدع ال وتر وذمر على بين ، ويرى ان الكرب يهنعم أعقب كرب ال وتر مباشرة(١١) ٠

وقد نشر فلبى مقالة فى مجلة الميوزيون الفرنسية عدل فيها هذه القائمة عن المكارب ، فأضاف سمه على ينف بعد يدع ال ذرح ، وذمر على ذرح بعد يدع ال بين ، وذمر على ينف بعد يثعمر بين ، كما اعتبر بداية حكم سمه على سنة ٨٢٠ ق٠م٠

ملوك سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنات

يريم يرحب	نوف
الاحتلال الحبشى الاول	لاهى عثت يتبن
	معد يكرب ينعم
ملكرب يهمن	ذو نواس
أبو كرب أسعد	
ورو عمار ايمن	غزو الاحباش
شرحبيل يعفر	سميفع اشوع
معد يكرب	معد يكرب وابرهة
عبد كلال	غزو الفرس
شرحبيل يكيف	دخول الاسلام

(١١) نقلت قائمة هومل من كتاب الدكتور جواد على ج ٢ ص ١٤٧-١٤٩ ٠

الفصل الثالث

(١)
بطرا

لقد كان الهلال الخصيب منذ أقدم العصور التاريخية مركزا لحضارة راقية ، فقد ساعدت خصوبة أرضه ووفرة المياه فيه على رقى الزراعة وازدحام السكان وظهور المدن وتكوين الحكومات ؛ وأدى هذا الى رقى المدنية والصناعة والتجارة • ومع وفرة منتوجات بلاد الهلال الخصيب ، ورقى بعض صناعته ، الا أنه كان محتاجا الى استيراد بعض البضائع ، وخاصة من الهند وشرق افريقيا وجنوب البلاد العربية ، كالبخور والعطور والبهارات والافاويه والعاج والمصنوعات الحريرية ؛ وكان يصدر بدوره بعض الفائض من منتوجاته وخاصة المنسوجات والمصنوعات الزجاجية •

ولما ازداد رقى الحضارة اليونانية والرومانية ، زاد الطلب على بضائع بلاد الهند وجنوب البلاد العربية ، وصار الهلال الخصيب مركزا لتجارة الترانسيت الى بلاد البحر المتوسط •

وكانت التجارة الهندية(٢) تأتى عن طريقين اولهما طريق الخليج الفارسى فتفرغ بضائعها عند رأس الخليج الفارسى حيث تنقل الى العراق ومنها الى سوريا فالبحر المتوسط (وفى بعض الاحيان كانت البضائع تفرغ فى موانىء البحرين

---

(١) رجعنا فى بحث الانباط بصورة خاصة الى كتاب « بطرا والانباط » لكاميرر (بالفرنسية) ؛ وكتاب « مدن القوافل » لروستوفزيف بالانكليزية و « بطرا : تاريخها وآثارها » لكندى (بالانكليزية) هذا بالاضافة الى كتابى جواد على وجرجى زيدان •

(٢) راجع عن طرق التجارة بالاضافة الى ما ذكر أعلاه كتاب ورمنجتن « تجارة الامبراطورية الرومانية مع الهند » ؛ وكتاب جارلسورث « الطرق التجارية والتجارة فى الامبراطورية الرومانية » • وسليمان حزين « جزيرة العرب والشرق الاقصى » وكذلك ما كتبه روستوفزيف فى الجزء الاول من كتابه « التاريخ الاجتماعى والاقتصادى للعالم الهلينى » ، وكذلك ما كتبه فى الجزء السابع من تاريخ كمبردج للعصور القديمة •

وخاصة كره Gerrhae التى تقع فى مكان لم يعين بعد فى منطقة البحرين ثم تنقل عبر الصحراء العربية الى العراق أو الى سوريا أو الى فلسطين ومصر) .

أما الطريق الثانى فكان من البحر العربى فالبحر الاحمر ومنها الى الموانىء المصرية الواقعة على ساحل البحر الاحمر الغربى ، أو الى ميناء العقبة حيث تنقل منها الى سوريا وموانىء البحر المتوسط ؛ ولا ريب ان الطريق الاول المار عبر الخليج الفارسى الى العراق كان أفضل لانه أقصر وأقل كلفة وليس فيه جزر مرجانية كالبحر الاحمر ؛ لذلك كان أكثر طروقا وخاصة عندما يكون الهلال الخصيب تحت حكم امبراطورية واحدة لا تتدخل فى عرقلة الطرق التجارية .

الا أن الطرق البحرية كانت فى العصور القديمة معرضة الى كثير من الاخطار الطبيعية أو البشرية كالعواصف والدوامات والحيوانات البحرية أو الشعاب المرجانية ، لذلك كان التجار يفضلون الطرق البرية بقدر المستطاع .

فكانت السفن الآتية الى الخليج الفارسى تفرغ أحيانا حمولتها عند البحرين فى ميناء كره Garrhae وتنقل منها برا الى العراق ، أو الى سوريا عبر الصحراء ، أما السفن الآتية الى البحر العربى فكانت تنهى رحلتها فى ميناء عدن حيث تنقل بعدها البضائع عبر اليمن فالحجاز ومنها الى مصر وفلسطين أو سوريا . وكانت الطرق البرية لابد وأن تقطع صحراء البلاد العربية ، سالكة الوديان أو القفار ؛ وأهم المصاعب التى تلاقيها هى قلة المياه ، فالآبار هى العامل الاول الذى يقرر اتجاه القوافل ومحطاتها فى الصحراء ، لذلك كانت كافة محطات القوافل حول الآبار . وتتوقف أهمية هذه المحطات على وفرة مياه آبارها والاراضى القاحلة التى تحيط بها أو وقوعها على تشعبات الطرق .

وقد كان شمال الحجاز منذ أقدم الازمنة ذا أهمية كبيرة لطرق القوافل ، وذلك لكون تلك المنطقة تقع عند طرف الهلال الخصيب ، تلتقى فيها الطرق الآتية من كره شرقا ، واليمن جنوبا ، وسوريا وفلسطين شمالا ، ومصر غربا . لذلك كانت تنشأ فيها مدن فى محطات القوافل ؛ وتنتعش هذه المدن خاصة عندما يحدث اضطراب فى الهلال الخصيب وينفصل العراق عن سوريا ، وقد رأينا كيف أن

المعينيين انشأوا لهم مستعمرة عند العلا فى الطرف الشمالى من البحر الاحمر لتكون محطة لقوافلهم البرية التى تنقل تجارتهم الى الهلال الخصيب أو الى مصر •

وكثيرا ما كانت القبائل العربية التى تجوب تلك المناطق تترك حياة التجول وتستقر حول الآبار وتقوم بتموين القوافل المارة بها ، وقد تقوم بحراستها •

ومن هذه المناطق التى اتخذت محطة للقوافل وادى موسى فى شرقى الاردن ؛ فقد كانت هذه المنطقة تتوفر فيها المياه والآبار ، فتصلح لان تكون محطة للقوافل تحميها الجبال التى كانت تحيط بها • ولسنا نعلم عن تفاصيل تاريخها فى القديم ، سوى أن الادوميين قطنوها منذ القديم ، وأنشأوا فيها بضعة مدن ، ولكن القبائل البدوية فى الجزيرة قامت بعدة هجمات على الادوميين فأقصتهم تدريجيا وحلت محلهم • فلما جاءت الامبراطورية الآشورية احتلت سوريا وفلسطين وبذلك وحدت الهلال الخصيب وجعلته خاضعا لامبراطورية واحدة قوية نشرت الامن والسلم فى ربوعه ، الامر الذى ساعد على انتعاش الطريق التجارى المار بالعراق ، ولابد ان هذا أدى الى ضعف التجارة التى كانت تمر من غربى الجزيرة • وقد أدرك اليمانيون ، وربما القبائل التى كانت تسكن غربى الجزيرة قوة الآشوريين وخطرهم ، فراحوا يتوددون اليهم ويرسلوا لهم الهدايا ، ولعلهم كانوا يستهدفون من ذلك ضمان مرور تجارتهم فى بلاد الامبراطورية الآشورية • ولكن ليس هناك دليل على ان الآشوريين احتلوا هذه الاماكن أو أدخلوها ضمن امبراطوريتهم • فظلت تلك المناطق تتمتع بالاستقلال ، ولابد أنهم أصابهم بعض الضعف لتحول التجارة الى طريق العراق ، اذ اننا لا نسمع شيئا عن سكانها سوى ان آشور بانيبال أرسل ضدهم حملة دون أن يخضعهم •

فلما جاء الاسكندر المكدونى أرسل بقيادة أحد قواده ضدهم حملة توغلت فى بلادهم ولكنها لم تستطع اخضاعهم ، فلما مات الاسكندر انقسمت امبراطوريته الى عدة أقسام ، وقد كانت مصر من نصيب بطليموس وسوريا من نصيب سلوقس ، وكان هذان الحاكمان متنافسين فحاول سلوقس قطع التجارة عن مصر ، بلاد خصمه بطليموس ، لذلك أراد احتلال بلاد الانباط التى كانت تسيطر على طرق التجارة البرية ، فأرسل حملة مكدونية من ٤٠٠٠ راجل و٦٠٠ فارس ، ولكنها أفنيت وشتتت ، واضطر الذين سلموا الى مصالحة الانباط • ثم أرسل

السلوقيين حملة أخرى لعقابهم ، فانسحب الانباط الى معاقلهم فى الجبال والصحارى ، ثم فاوضوا السلوقيين بالصلح ، ودفعوا لهم مبلغا من المال ، فوافق السلوقيون على الصلح بعد أن أدركوا أنه ليس بمقدورهم الاستيلاء على تلك البلاد .

وقد أدرك البطالسة أهمية بلاد الانباط وأثرها على التجارة الخارجية المصرية ، كما أدركوا صعوبة الاستيلاء على تلك البلاد الجبلية الصحراوية ؛ لذلك عزموا على أن يتركوا لهم استقلالهم ولكن يجعلوهم تحت نفوذهم ، فاستولوا على المدن الفنيقية وفلسطين التى كانت تنتهى اليها القوافل النبطية ، كما أرسلوا حملة احتلت أراضى اللحيانيين الواقعة فى الطرف الشمالى من الحجاز ، ثم أنشأوا فى الاردن ، عند أطراف بلاد الانباط ، عدة مستعمرات يونانية . وبذلك أحاطوا ببلاد الانباط وهيمنوا على منافذ الطرق التجارية(٣) .

وبجانب هذا شجع البطالسة تجارة البحر الاحمر ، وأنشأوا على سواحله المصرية الموانئ والمحطات والطرق ، الامر الذى أدى الى اضعاف التجارة البرية المارة ببلاد الانباط . وقد أدرك الانباط هذا الخطر الذى يتهددهم فقاموا ببعض النشاط فى القرصنة والانقضاض على السفن فى البحر الاحمر بقصد عرقلة التجارة البحرية .

ثم ان البطالسة ضعفوا فى القرن الثانى ق.م. واسترجع منهم السلوقيون سوريا ، فحاول هؤلاء أن يجلبوا الانباط الى جانبهم ، وقد استفاد الانباط من ذلك ، ونشطت تجارتهم مع سوريا ، وذهب تجارهم الى صور وديلوس حيث وجدت آثارهم هناك ، وربما امتد نشاطهم التجارى الى المدن السورية الاخرى .

ثم ضعف السلوقيون واضطربت أحوال الشرق الاوسط عامة والهلال الخصيب خاصة ، فاحتل البارثيون العراق ، واستقلت امارات متعددة فى شمال الهلال الخصيب وسوريا ، وكانت هذه الامارات متخاصمة ، فاضطرب الامن وتعرقلت التجارة المارة بالعراق فاستردت طرق التجارة فى غربى الجزيرة

---

(٣) راجع فى ذلك مقال روستوفزيف بعنوان « بطليموس الثانى والجزيرة العربية » المنشور فى مجلة الآثار المصرية سنة ١٩٢٧ .

أهميتها ، وعادت بطرا الى الازدهار ، والواقع أن معظم أخبارها وآثارها المكتشفة تأتى من هذه الفترة .

حاول الانباط الاستفادة من عدم وجود دولة قوية فى الهلال الخصيب وأرادوا بسط نفوذهم على البلاد المجاورة ؛ واضطر ملوكهم الاول : الحارث الاول ١٦٩-١٤٦ والثانى ١١٠-٩٦ ق٠م٠ وعبادة الاول (٩٠ ق٠م٠) الى الاشتباك بعدة حروب مع دولة الهيروديين اليهودية التى تأسست فى فلسطين ، وقد استطاع هذا الملك الاخير أن يستولى على جنوب شرقى سوريا بما فيها حوران وجبل الدروز .

ومن أشهر ملوك الانباط الحارث الثالث (٨٧-٦٢ ق٠م٠) الذى استطاع أن يكسر اليهود فى عدة مواقع ويحاصر القدس ، ثم استنجد به اهل دمشق وطلبوا منه أن يتولى أمرهم بدل السلوقيين الممقوتين ، وقد لبى نداءهم وخلصهم من السلوقيين ، وقد رحب به أهل دمشق وسموه محب الهلينيين Philhellenic وهكذا استطاع أن يبسط سيطرته على قلب سوريا .

ولما جاء القائد الرومانى بومبى الى الشرق حاول احتلال بلاد الانباط فأرسل حملة ضدهم ، ولكن الحارث الثالث استطاع صد تلك الحملة والاحتفاظ باستقلال بلاده ، رغم أنه خسر ما كان قد حصل عليه فى سوريا .

لقد ادخل الحارث الثالث الحضارة الهلنية فى بلاد الانباط ، فقد سك النقود على الطراز الهلنى وأخذ العيار البطليموسى للعملة ، وجاء بمعماريين سوريين شادوا له قبرا يعتبر حتى اليوم من آيات الفن الرائع ، وتسمى تلك البناية اليوم « الخزنة » كما أنشأ مسرحا ، وصارت بطرا فى زمنه مدينة تشبه المدن الهلينية لها طرق عظيمة وأبنية جميلة .

ثم ان روما أخذت تمد نفوذها الى الشرق ، فاستولت على آسيا الصغرى فسوريا ثم مصر ، وبذلك استحوذت على حوض البحر الابيض المتوسط وسيطرت على موانيه التى هى منافذ للتجارة النبطية ، وقد أدرك الانباط خطر الامبراطورية الرومانية ، فسعوا الى التقرب منها ، لذلك نجد أن ملكهم مالك الاول (٥٠-٢٧ ق٠م٠) أنجد يوليوس قيصر بقوة عندما حاصر هذا الاسكندرية ، كما ساعد ابنه

عبادة الثالث (٢٨-٩ ق٠م٠) حملة اليوس كالوس ضد اليمن وأمدها بادلاء من الانباط • ورغم فشل هذه الحملة ، الذى عزاه الرومان الى سوء نية الادلاء الانباط وتضليلهم لهم ، فقد ظلت العلاقات بين الانباط والرومان طيبة ، واستطاعوا أن يحافظوا على سلطانهم فى جنوب فلسطين وشرقى الاردن وجنوب شرقى سوريا وشمال الجزيرة ، وأنشأوا بضعة خانات ومحطات للقوافل ، وقلاعا فى وادى العرابة لتكون مركزا للحاميات التى تحمى القوافل •

غير ان مجىء الرومان أدى الى نشر الامن فى ربوع البلاد ، كما ان الاباطرة منذ عهد اغسطوس اتبعوا سياسة السلم ، واتفقوا مع البارثيين الذين كانوا يحكمون العراق • وهكذا عادت حياة السلم والطمأنينة فى بلاد الهلال الخصيب ، وأخذت التجارة الخارجية تسلك تدريجيا طريق العراق ، وهو الاقصر ، الامر الذى أدى الى انتعاشه ، أما الطريق المار بغربى الجزيرة ، والذى تقع فى نهايته بطرا ، فقد أخذت أهميته تتضاءل تدريجيا ، وقد تبع هذا الانحطاط بطرا التى كانت تقع على الطرف الشمالى من هذا الطريق ، والتى كانت تعتمد على التجارة الغربية فى كيانها •

وفى سنة ١٠٦ م جاء تراجان الى الشرق لاعادة تنظيمه ، فأرسل ضد بطرا حملة استطاعت أن تستولى عليها دون مقاومة ، وبذلك قضى على دولة الانباط ثم جعلها جزءا من المقاطعة العربية Arabia Provincia التى أنشأها فى الطرف الجنوبى من سوريا لتحميها من هجمات البدو ، وجعل عاصمتها بطرا التى تحول اليها طريق التجارة ، فانتهت بذلك حياة بطرا ولم نعد نسمع لها دورا أو ذكرا فى التاريخ •

مدنية الانباط

لقد نشأت مدينة بطرا كمحطة للطرق التجارية ، فلا عجب أن تكون التجارة وخدمة القوافل العمل الرئيسى للانباط والاساس الذى قامت عليه مدنيتهم • وقد مدوا نفوذهم الى ما يجاورهم من البلاد والمدن فحصنوها وأقاموا فيها حاميات للقوافل وأماكن لاستغلال المناجم ، وأصبحت مدينتهم فى القرن الاول قبل الميلاد المدينة الرئيسية للقوافل ، وسوقا عظيما ، فسيطرت على طرق غزة وبصرى

ودمشق وأيلة • وقد حفروا الآبار ، وأقاموا مشاريع المياه ، وحولوا بعض المناطق الصحراوية الى أراضى زراعية •

ولا ريب ان القوافل فى القديم كانت تتطلب كثيرا من الحاجيات ، ففضلا عن اعلاف الحيوانات ومأكولات البشر ، فانها كانت تتطلب السروج والأكسية للحيوانات والاكياس للبضائع والاسلحة للحراس ، وكل هذا يستلزم تزويدهم بمنتوجات النساجين والنجارين والحدادين والزراع ؛ وهكذا كانت محطات القوافل أسواقا • وكثيرا ما كان يقوم أصحاب تلك المحطات ببعض المعاملات التجارية من بيع وشراء واقراض ، لذا كانت تنشط الحركة فى هذه المحطات ، وتصبح مراكز تجارية ؛ وهكذا سرعان ما أصبحت بطرا مركزا تجاريا واقتصاديا ، يساهم أهلها فى التجارة والاقراض • وقد امتد نشاطهم التجارى الى مناطق واسعة ، فقد وجدت آثار تجارتهم فى سلوقية وموانىء سوريا والاسكندرية وديلوس ورودس ؟

وأهم السلع التى كانوا يتاجرون فيها الافاويه (من اليمن) ، والحرير من الصين ، والحناء من عسقلان ، والزجاج ، وصبغ الارجوان من صيدا وصور ، واللؤلؤ من الخليج الفارسى والخزف من روما ؛ هذا بجانب ما كانت تنتجه بلادهم من الذهب والفضة والقار وزيت السمسم •

ويروى ديودورس انه كانت لهم قوانين تمنع زراعة الاشجار وبناء البيوت أو استعمال الخمور لانها تؤدى الى الخضوع ، فاذا صح هذا فانه لابد وان يمثل أدوار حياتهم الاولى حيث كانوا أقرب الى البداوة ، يمتهنون الرعى والتجارة ، أما فى الادوار المتأخرة ، عندما اتسع حكمهم ، فقد أخذوا يشيدون البيوت والمسارح والابنية الفخمة للقصور والمعابد ودوائر الحكومة ، وكثير منها منقور فى الصخر ؛ ولا تزال بقايا موجودة فى الرقيم موقع بطرا ، فى وادى موسى ، وهى من أروع الابنية والآثار ، مشيدة على الطراز الهيلينى ، وتشهد على مدى تأثرهم بالحضارة الهلينية التى كانت سائدة فى الشرق الادنى آنذاك ، كما تدل على رقى الذوق الفنى والرخاء وتقدم المدنية •

ان الانباط من عرب شمال الجزيرة ، ولعلهم أقرب الدول القديمة الى

عرب الحجاز • فأغلب الاسماء التى كانت شائعة عندهم تشبه الاسماء المستعملة عند العرب عند ظهور الاسلام مثل حارثة ومليكة وجذيمة وكليب ووائل ومغيرة وقصى وعدى وعائذ وعمر وعميرة ويعمر وكعب ومعن وسعد ومسعود ووهب الله وتيم الله وعلى •

كما ان تركيب لغتهم يشبه تركيب النحو العربى المعروف لدينا فالفاء تستعمل للترتيب (بنيه فبناته) ومن لاسم الموصول (جاء من يعلم) والياء للمضاف اليه (تيم اللهى) ؛ كما كانوا يستعملون صيغة الماضى فى الدعاء بدل المضارع فيقولون (لعن ذو الشرى) كما يفعل العرب ، وبذلك يختلفون عن الآراميين الذين يستعملون صيغة المضارع فيقولون (يلعن ذو الشرى) •

غير انهم كانوا يستعملون فى الكتابة والمكاتبات الرسمية والمعاملات التجارية اللغة الآرامية التى كانت سائدة آنذاك فى كل بلاد الشرق الاوسط ، فكأنه كانت لهم لغة للخطابة ولغة للكتابة ، مثلما لدينا اليوم لغة عامية ولغة فصحى • والراجح ان كثيرا من تجارهم كان يعرف الاغريقية واللاتينية •

لقد استعمل الانباط الخط الآرامى المشتق من الفنيقى ، ولكنهم حوروه وصقلوه تدريجيا ، حتى أصبح خطا قائما بذاته • ومنه انحدر الخط العربى الكوفى (٤) •

عبد الانباط آلهة متعددة ، كان أعظمها لديهم ذو شرى ، وكان له صنم من صخرة سوداء مستطيلة ، ولا نعلم أصله ، وقد ذكر الكتاب الاغريق انه اله الشمس وانهم كانوا يقيمون له فى عيده احتفالات يشربون فيها الخمور ، وكان يعتبر حامى ملوكهم •

وقد عبد الانباط ايضا اللات (وكانت آلهة القمر) والعزى ، كما عبدوا الاله هبل ، وكذلك اتاركيتس (عشتروت) ؛ وقد أشار سترابو الى بعض الاحتفالات الدينية التى كان يقيمها الانباط ويقدمون فيها الخمور •

لقد ظلت عبادة ذو شرى حتى ظهور الاسلام فى شمال الحجاز ، أما العزى

---

(٤) أنظر المقال الذى كتبه يحى خليل نامى فى مجلة كلية الآداب للجامعة المصرية سنة ١٩٣٥ عن تطور الخط العربى •

واللات وهبل فقد عبدت فى مكة والحجاز ، ويروى ابن الكلبى ان عمرو بن لحى هو الذى ادخل عبادة الاصنام الى مكة ، وانه جاء بها من الانباط(٥) ، وهو خبر يظهر مدى اعتقاد الناس بأثر الانباط فى عبادة مكة عند ظهور الاسلام .

ملوك الانباط(٦)

* الحارث الاول ١٦٩ ق.م.
مالك ؟ ١٤٦ ؟
* الحارث الثانى ١١٠-٩٦
* عبادة الاول ٩٦-٨٧
* ريبال الاول ٨٧
* الحارث الثالث ٨٧-٦٢
* عبادة الثانى ٦٢-٤٧
* مالك الاول ٤٧-٣٠
* عبادة الثالث ٣٠-٩
* الحارث الرابع ٩-٤٠ م
* مالك الثانى ٤٠-٧٥ (أو ٣٨-٧١)
* ريبال الثانى ٧١-١٠٦

---

(٥) الاصنام ص ٨ .

(٦) اعتمدنا فى هذه القائمة على كتاب بطرا وبلاد الانباط لكاميرر . وقد نقل جرجى زيدان فى كتابه تاريخ العرب قبل الاسلام (ص ٦٩) عن دوسو قائمة تشبهها الا فى أمرين : اولهما هو انه وضع زيدايل مكان مالك ، وجعل آخر ملوك الانباط مالك الثالث الذى حكم ، فى راية من سنة ١٠١-١٠٦ .

الفصل الرابع

(١)

تدمر

نشأت تدمر فى بادية الشام حول منبع ماء يقع فى منتصف المسافة تقريبا بين الفرات من جهة ، وبين دمشق وحمص من جهة أخرى ، وهو يبعد حوالى ١٥٠ ميلا عن كل منها • وقد أصبحت محطة للقوافل السائرة بين العراق والشام • ولا نعلم على وجه التحقيق منشأها ؛ فاسمها عند اليونان والرومان Palmyre مشتق من التمر وهو لا يبين أصل هذه المدينة ، وتدعى التوراة ان النبى سليمان قد بنى تدمر (٢) ، وقد اعتقد بعض العرب بذلك فقال النابغة الذبيانى على لسان سليمان :

وخيس الجن انى قد اذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد

على انه لا يمكن الجزم بأن المدينة التى بناها سليمان يقصد منها هذه التى تقع فى بادية الشام ، خاصة وان سليمان لم يمتد حكمه الى هذه البلاد والظاهر ان هذه المدينة نشأت منذ أقدم الازمان من استقرار بعض البدو فى الواحة التى تكونت حول البئر ، وصارت محطة للقوافل • وقد ورد ذكرها فى نقوش تغلات فلاسر التى دون فيها أخبار حملته ضد العموريين فى سنة ١١١٥ ق٠م٠ ، كما ذكر ملالاس بأن التدمريين ساعدوا نبوخذنصر فى هجومه على القدس وأمدوه بـ ٨٠٠٠ من رماة النبال وقد استفاد التدمريون من قيام الامبراطورية الاخامينية التى وحدت الشرق الاوسط فنشط بذلك الطريق التجارى بين الهند والعراق وتركيا وسوريا •

---

(١) بالاضافة الى كتب جرجى زيدان ، وفيليب حتى ، وجواد على فقد اعتمدنا على كتاب « مقالة عن تاريخ تدمر » للاستاذ فيفريه (باريس ١٩٣٢) (بالفرنسية) وكتاب « مدن القوافل » لروستوفزيف (بالانكليزية) وكذلك المقالات التى نشرها سيريج فى مجلة سوريا (بالفرنسية) •

(٢) حزقيال ١٩/٤٧ ، ٢٨/٤٨ •

وظلت هذه المدينة محتفظة بمكانتها الطيبة فى عهد السلوقيين الذين وحدوا سوريا والعراق وشجعوا الطريق التجارى الذى كان يمر بالعراق وتدمر منافسة للبطالسة الذين أرادوا أن تمر التجارة الهندية عن طريق البحر الاحمر ومصر .

ولكن انقراض الدولة السلوقية وقيام الدولة البارثية فى العراق وايران أضرا بها ، لانه فصل العراق عن سوريا وهدد التجارة ؛ الا ان هذا لم يدم طويلا ، لانه سرعان ما جاءت الدولة الرومانية الى الشرق فسيطرت على سوريا وفلسطين ثم مصر . وقد حاولت هذه الامبراطورية فى عهد اغسطوس ان تتبع سياسة السلم فهادنت البارثيين ، وعادت التجارة الهندية تسير عن طريق العراق .

كانت علاقة تدمر بالرومانيين طيبة ، فتمتعت باستقلال ذاتى كبير ؛ غير ان تراجان حاول الاستيلاء عليها والقضاء على استقلالها ، كما انه هاجم البارثيين وعاد العداء بين الرومان والبارثيين ، فاضطربت التجارة وساءت أحوال تدمر ولكن هذه الحال لم تدم طويلا ، اذ أن توفى تراجان ، تولى منصب الامبراطور هادريان الذى عاد الى اتباع سياسة اغسطوس السلمية ، واعطى اهل تدمر حقوق الايطاليين ، ومنحهم استقلالا ذاتيا ، وسمح لمجلس شيوخهم أن يقرر الضرائب التى يرتأيها ، ثم اعفيت تجارتها من الضرائب . لذلك أخذت تدمر تزدهر ، وصاروا يكثرون من تسمية اولادهم باسماء رومانية ، وقدموا للرومان قوات من الخيالة التى كانت تحارب بالنبال ؛ واتسع نشاطهم التجارى وازدادت ثروتهم وكثر العمران فى بلادهم ، حتى ان أكثر الابنية العظيمة المكتشفة فى تدمر ترجع الى عهد هادريان . وقد وجدت نقوش تذكر تدمر « تدمر الهدريانية » الامر الذى يدل على العلاقة الوثيقة بين تدمر وروما .

ثم انشغل الرومان فى مشاكلهم الداخلية وفى صد الغزوات الجرمانية التى كانت تهدد امبراطوريتهم فى أوربا ، الامر الذى أضعف نفوذهم فى الشرق . وقد اغتنم التدمريون هذه الفرصة وأخضعوا القبائل المجاورة لهم ووسعوا رقعتهم . فلما قام الساسانيون واحتلوا العراق وحلوا محل البارثيين اتبعوا سياسة التوسع ؛ فجهز سابور الاول حملة احتلت تدمر وانطاكية وأسرت الامبراطور الرومانى فاليريان ٢٦٠ م ثم توغلوا فى آسيا الصغرى ، الا ان أذينة قام ينصر الرومان

فهاجم الساسانيين وكسرهم وطاردهم فقدر الرومان أعماله ومنحوه لقب Dux orientis .

ثم أنه استولى على الرها ونصيبين وحاول احتلال طيسفون ، ولعله كان يستهدف من ذلك تأمين السيطرة على طرق التجارة الهندية والعراقية التى اضطربت بعد ظهور الساسانيين ؟ الا أنه لم يستطع احتلال طيسفون ، ثم قتل فى حمص نتيجة مؤامرة يقال ان ابن أخيه دبرها . والحق أنه كان حاكما قديرا ، كان يحترمه أهل تدمر لما له من شجاعة وبذل وسخاء ولما كان يقدمه من هدايا فى الاعياد وغيرها .

وقد خلفه فى الحكم ابنه وهب اللات وكان ضعيفا فتولت الوصاية عليه أمه زنوبية . وهى من الشخصيات النسائية البارزة فى تاريخ الشرق الاوسط القديم ؛ فهى سورية الاصل تربت تربية راقية ودرست الفلسفة الافلاطونية المحدثة ، ثم جاءت بلاط تدمر ، فتزوجها أذينة . ولما قتل أصبحت وصية على ولدها وهب اللات وأخويه حيران وتيم الله وأمسكت أعنة الحكم فى تدمر وكانت تتقن الآرامية والاغريقية واللاتينية ، وترعى العلوم والآداب فعاش فى بلاطها الفيلسوف لونجينوس وأخذت تقلد البلاط الساسانى بما فيه من أبهة وفخفخة . وكانت قوية الجسم جميلة أنيقة تحب الصيد وركوب الخيل . وأرادت أن تستغل ضعف الرومان فى الشرق وانشغالهم فى الأزمات الداخلية فى روما وعزمت على توسيع حدود بلادها ، فأرسلت حملة بقيادة زبدا لغزو مصر وتأمين سيادتها على الشرق الأوسط ، والسيطرة على تجارة شرق البحر المتوسط ، ولتحرم روما من الحنطة التى كانت تموئها بها مصر . ثم أعلنت نفسها امبراطورة فاستقلت عن الرومان . غير ان مصر قاومت هذه الحملة مقاومة شديدة ، كما ان الرومان أرسلوا اسطولا الى انطاكية يهددون فيه مؤخرة هذه الحملة ، فاضطرت زنوبية الى سحب جيوشها من مصر .

ثم جردت زنوبية حملة أخرى على آسيا الصغرى ، واستطاعت أن تتوغل فيها وكانت الجيوش الرومانية منشغلة فى حروبها مع الجرمان فى حوض الدانوب ؛ فاضطر الامبراطور أورليان أن يهادن زنوبية ويعترف لها بما استولت عليه ، كما تدل على ذلك النقود . ولكنه بعد أن أنهى مشاكله فى الغرب ، تقدم

بجيش قوى الى الشرق لمحاربة زنوبية ؛ وقد حاولت أن تدافع فى جنوب آسيا الصغرى ، ولكنها خشيت أن يهاجمها الساسانيون من الشرق • فاضطرت الى الانسحاب الى حمص واشتبكت مع الرومان فى معركة انكسرت فيها ثم انسحبت الى تدمر حيث حاصرها أورليان واستطاع أن يأسرها ويفتح تدمر • وقد حاولت زنوبية أن تفلت من أسرها وتستنجد بالساسانيين ولكنها لم تفلح •

أما تدمر فبعد أن فتحها أورليان عاملها معاملة حسنة مستهدفا بذلك أن يجعلها مركزا أماميا لمجابهة خطر الغزو الساسانى ، فاكتفى بأن أبقى فيها حاكما رومانيا وحامية صغيرة وفرض عليها غرامة ، ولكن تدمر سرعان ما ثارت ضده فاضطر الامبراطور الرومانى الى أن يعود ثانية لفتحها ونهبها وأخذ زنوبية أسيرة الى روما حيث قضت بقية حياتها بالقرب منها •

وقد أدت هذه الحروب المستمرة الى اضعاف تدمر ، كما أن سيطرة الساسانيين على طرق التجارة الهندية أدى الى انحطاط تدمر ، فلم نعد نسمع لها ذكرا فى التاريخ حتى الفتح الاسلامى حيث مر بها خالد بن الوليد فدانت له بالطاعة ، ثم لجأ اليها مروان بن الحكم واتخذها قاعدة لحركاته بعد أن اختاره الامويون خليفة على أثر عزل معاوية الثانى •

الحضارة التدمرية

ليست لدينا معلومات واضحة عن تدمر الا منذ العصر الرومانى ، حيث تكثر الوثائق التاريخية التى تعطينا تفاصيل عن التنظيمات التدمرية وتطورها •

ويبدو من هذه المعلومات ان سكان تدمر كانوا مكونين من المواطنين والعبيد والاجانب • فأما الاحرار فكانوا مكونين من عدد من العشائر ، ينتسب أفراد كل منها الى جد واحد ، ولدينا من أسماء هذه القبائل بنى انوبات ، بلتى ، بلعا ، برسعه ، جدبعل ، جنجن ، زيدبعل ، حتار ، هالا ، حنفى ، حشاش ، يديب ، قمر ، مجدات ، ميتة ، معزيان ، متابعل ، عطار ، بنى بعل ، شمعون ، شيزا ، تيم ، تيمرسون •

ولم تكن هذه القبائل متكافئة فى مركزها الاجتماعى ، اذ كانت بعض القبائل تعتبر أشرف من غيرها وأسمى مكانة ، وقد احتكرت الوظائف الادارية • الا أن

كل قبيلة كانت تتمتع ببعض الاستقلال فى شؤونها الخاصة ، ولها مجلس خاص ، وكانت الخصومات تحتدم أحيانا بينها • ولدينا أخبار عن منازعات حدثت بين بنى قمر وبنى متابول • وكثيرا ما كانت هذه المنازعات تؤدى الى تكوين محالفات بين القبائل المتنازعة • وأغلب أفراد العشائر كانوا يتسمون بأسماء سامية ، والقليل منهم يتسمى بأسماء اغريقية •

ولما نشطت الحركة التجارية فى تدمر ، لم يقتصر التدمريون على نقل البضائع أو تزويد القوافل المارة بهم ، بل أخذوا يقومون بالتجارة فى أنفسهم ؛ وهكذا ازداد عدد التجار فيهم ، وكونوا لهم وكلاء وجاليات فى بابل وفولوكاسبا (وهى مدينة بالقرب من الكوفة على ما يظهر) وكرخ ميسان ، وفى الشام والمدن الفينيقية ومصر وروما حيث كان لهم معبد خاص يقدمون فيه الذبائح • وامتد نشاطهم الى داسيا (رومانيا الحالية) والغال (فرنسا) واسبانيا • ولا ريب ان التجارة قد ساعدتهم على الاحتكاك بالاجانب ووسعت أفق نظرهم ، كما أدت الى استعمال عدة لغات فى بلادهم ؛ فانتشرت الآرامية والاغريقية التى كتب بها معظم وثائقهم • كما استعملت الرومانية فى مكاتباتهم الرسمية فى العصر الرومانى •

أما الاجانب فكان أغلبهم من الاغريق والعبيد المحررون ، ولم تكن لهم مكانة كبيرة فى المجتمع ؛ غير أنه كان هناك عدد من الفرس ، وكانوا يعتبرون من الارستقراطية ويعاملون كأنهم من أهل المدينة لا كأجانب ؛ كما كان هناك بعض الرومانيين وخاصة من الموظفين • وبجانب هذا كان يوجد عدد من التجار الذين يقيمون فى المدينة لمدة موقتة ويقيمون فى خانات خاصة • ويكونون خاضعين الى موظف خاص • وتقيم الجاليات الاجنبية عادة بفنادق خاصة بها ، ولكل فندق رئيس يشرف على شؤون تلك الجالية •

وقد تأثرت أذواقهم وألبستهم وفنهم بالمؤثرات الخارجية ، فكانت ألبستهم من السراويل والاردية وهى تشبه الالبسة البارثية وزخرفتها متأثرة بالذوق الفارسى ؛ كما ان فنونهم كانت متأثرة بالفن البابلى والفارسى والفن اليونانى •

وقد عبد التدمريون آلهة متعددة تزيد على الاربعين ، أعظمهم ثلاثة هى الاله بعل الذى كان يعتبر الاها وطنيا وعبادته معروفة عند الساميين من أقدم

الأزمنة ؛ ويتلو هذا الاله بعل سمين أى بعل السماء ، وكان يعتبر حامى الزراعة وأصله معبود الفنيقيين والسوريين ؛ ثم الاله يرحبل اله القمر ؛ وكانت هذه الالهة الثلاثة ترسم فى الغالب مجتمعة بحيث يكون الاله بعل فى الوسط والاله بعل سمين فى اليمين والاله يرحبل فى اليسار ، وكانت تعبد عادة مجتمعة فى معبد واحد • وفى زمن الرومان ازدادت مكانة الاله بعل سمين ، وصار يوصف بالاله الطيب الرحيم ، وأخذ ينافس بعل فى مكانته وهناك اشارة الى ملك بعل وهو كالرسول للالهة •

وبجانب هذه الالهة عبد التدمريون الاله شماش وعشتروت ونانينا ونرجال وهى آلهة بابلية الاصل ؛ كما عبدوا الالهين حداد وعشتروت السورية ؛ والشمس واللات وعمى القوم وارسو (وكان يعتبر حامى القوافل ويرسم على هيئة جمل) كما عبدوا الاله العزيز (وكان يمثل نجمة الصباح وشكله جميل ويعبد عادة مع اله الشمس) واكلبول •

وقد كون رجال الدين طبقة قوية معقدة كان بعض أفرادها يقيم فى المعابد الرئيسية والبعض الآخر يقيم فى الحرم القبلية ، وكانت وظائفهم شرفية لا وراثية ؛ وهناك اشارات الى رجال دين يرأسون الموائد الدينية ولهم عدد كبير من الاتباع • وكانت تقام عادة حفلات دينية فخمة فى بعض الاعياد ، تشرب فيها الخمور وتعد فيها موائد فخمة للطعام ؛ كما كان دفن الموتى يجرى باحتفالات تنصب فيها موائد الأكل •

ليست لدينا عن تنظيمات تدمر معلومات واضحة قبل القرن الاول حيث تكثر الوثائق • وتظهر هذه الوثائق انه كان فى تدمر مجلس للشيوخ يدعى boule ومجالس للعشائر يدعى كل منها demos ، وان الاسماء اليونانية لهذه المجالس تدل على مدى تأثر تنظيم المدينة بالنظم الاغريقية • وكان مجلس الديموس يضم كافة أفراد العشائر البالغين ؛ أما البولى فكان يضم من كان يتميز بالجاه والثروة والسن ، وكان لهذا المجلس رئيس وسكرتير وللرئيس مركز هام فى تمشية أمور الدولة • ولقد ازداد نفوذ مجلس البولى فى القرن الثانى وتناقص نفوذ مجلس الشيوخ • ولكن فى زمن أذينة تناقص نفوذ كلا المجلسين •

وكان للمدينة رئيس (أراخون) يتولى ادارتها وموظف يدعى متقن المدينة ، وموظف للماليـــة يدعى procurator ، وموظف مســـؤول عن الاســـواق Agoranomos وظيفته تشبه وظيفة المحتسب فى الاسلام ، وموظف مسؤول عن المنازعات والشؤون القضائية Juridicus وقائد للجيش Argapad وقائد للحامية strategos ومعلوماتنا عن اختصاصاتهم وعلاقاتهم مع بعضهم قليلة جدا ، وأكثرها من عهد هادريان ، فلا نعرف عن تطورها شيئا كثيرا .

كانت الســلطة عادة فى يد الاراخون الذى كثيرا ما كان يجمع بين هـــذا المنصب ومنصب الستراتيجوس . وقد ركز أذينة معظم السلطات بيده وبيد ورود الذى كان يشـغل منصب متقن المدينة . ويشرف على ادارة دوائر المدينة . وقد أدى تركيز السلطان بيد أذينة وورود الى اضعاف سلطة مجلس العشائر وابولى والى اضعاف نفوذ الأرستقراطية .

وكانت للمدينة قوة من البوليس لحماية القوافل والطرق من غزوات البدو الذين كانوا يهددونها دائما . وهى مكونة من رماة النبال والخيالة أو الهجانة ، وتسند رئاستها عادة الى الزعماء والاغنيـاء ؛ ولا نعلم فيما اذا كانت قوة البوليس هذه تجمع من أهل تدمر أم انها كانت تجمع من المتطوعة المأجورين ؛ وهى على كل حال كانت توضع تحت حماية الالهين أرسو والعزيز .

وبجانب هذا كانت توجد قوة من المليشيا تعسكر عند الآبار والمناطق الهامة من الصحراء . وفى عهد الاضطرابات والحروب كانت تنشأ قوة أخرى يقودها الستراتيجوس لتشترك فى الحروب والدفاع عن المدينة والقيام بحملات ؛ ولدينا نقش يذكر أن الكردوس الواحـد والعشـرين كان مرابطا فى دورايوروبوس (جرابلس) ، ولكننا لا نعلم فيما اذا كان معنى هـذا انه كان للتدمريين أكثر من عشـرين كردوســا أم ان كلمة الكردوس لهـا مفهوم خاص عندهـم ، أو ان الكردوس الواحد والعشرين لا يعنى انه كانت هناك ٢١ كردوسا .

لا تزال بقايـا تدمر قائمة بين دمشق والفرات فى منتصف الطريق بينهما تجتلب السياح اليها ؛ وأبرز ما فى هذه الآثار معبد بعل ، وهو مقام على مرتفع من

الارض أمامه قوس هائل وطريق عريض طوله ١٢٤٠ ياردة وعلى جوانبه ٣٧٥ عمودا طول كل منها ٥٥ قدما ، ولا يزال منهـا ١٥٠ عمودا قائما مبنى معظمها من المرمر الابيض وبعضهـا من الجرانيت السماقى ، وكانت هـذه الاعمدة مرتبطة ببعضها • وهـذا الطريق هو الشارع الرئيسى فى المدينة وتتفرع منـه الطرقات الفرعية وعلى جوانبه الحوانيت والمخازن المفعمة بالبضائع •

ولا ريب ان معبد بعل لم يكن المعبد الوحيد فى المدينة ، بل هناك عدة معابد اخرى منبثة فيهـا كانت مبنية بالحجارة وتزينها مختلف النقوش والصور وبعض التماثيل ؛ كما ان هناك عدد من الخانات التى تنزل فيها القوافل ويقيم فيها الاجانب ، وهى ابنية ضخمة واسعة • اما المقابر فلا تزال بقايا بعضها قائمة فى اطراف المدينة كالابراج العالية ، وفيها غرف منقوشة وصور ملونة ومنحوتات كثيرة ؛ والعـادة ان يدفن الميت فى اعلاها • ومعظم ابنيتها الفخمة على الطراز الهلنستى •

أما بيوت الشعب فالراجح انها كانت مبنية بالطين فلم يبق من آثارها شىء •

لقد كان التدمريون يشربون من مياه الآبار ، وكانت الزراعة لديهم قليلة ؛ ولكن بعد تقدمهم فى المدنيـة اعاروا الزراعة بعض الاهتمام ، فبنوا بعض السدود لحصر مياه السيول وجمعها ، ولا يزال من آثارها سد يبلغ طوله نصف ميل بنى بين تلين لحصر مياه الامطار وتكوين مستودع من الماء يكفى للزراعة •

الا ان اهتمامهم الاكبر كان منصرفا الى التجـارة ؛ وقد تحدثنا عن امتداد تجارتهم وجالياتهم فى ميسان (عند البصرة الحالية) وفولوكاسكرته (عندالنجف) وسلوقية (سلمان باك) ودورايوربوس (جرابلس) والشام والمدن الفينيقية ومصر وروما وداسيا (رومانيا) والغال (فرنسا) واسبانيا ؛ كما انهم عقدوا معاهدات مع القبائل المقيمة على ضفاف الفرات ، واعطوا بعض شيوخهم الهدايا والاموال لتأمين مرور القوافل بسلام ، ولعل دولة المناذرة قامت فى الاصل بتشجيعهم لحماية الطرق التجارية خاصة بعد ضعف البارثيين •

وقد اكتشفت نقش يبين مقدار ضرائب الكمرك المفروضة على البضائع التى تمر بتدمر ، ويتبين من هذا النقش ان أهم هذه البضائع هى الانسجة الصوفيـة

وصبغ الارجوان والحرير والزجاج والعطور وزيت الزيتون والفواكه المجففة كالتين والجوز والجبن والخمر ؛ ويستنتج من هذه القائمة المنوعة ان تجارتهم كانت تشمل منتوجات دول متعددة كالصين والهند وبابل والمدن الفنيقية وبلاد الجزيرة .

الفصل الخامس

(١)
الغساسنة

لم يكن من الممكن لروما ، حتى بعد استيلاءها على تدمر ، أن تبسط سيطرتها التامة على بادية الشام نظرا لطبيعتها الصحراوية وقلة المياه فيها ، لذلك ظلت هذه المنطقة ميدانا للقبائل العربية التى كانت تتجول فيها وتتخذ من مرابعها ديارا لها . وقد لجأ الى هذه المنطقة بعض القبائل العربية التى هاجرت من العراق فرارا من حكم الساسانيين الذين يبدو انهم لم يحسنوا معاملة العرب ، فهاجرت تنوخ واستقرت فى الشمال ، كما سكنت قضاعة فى أطراف حوران والجولان ؛ ولسنا نعلم عن تاريخ هذه القبائل فى سوريا ما يمكن الوثوق بصحته . غير انه يبدو ان الرومان لم يسيئوا معاملتهم بل استعان بهم بعض الاباطرة فى حروبهم ضد الفرس ، الا أنهم لم يعترفوا لهم بأن يشكلوا دولة سوى الغساسنة الذين هاجروا ، على ما تقول المصادر العربية ، من اليمن ؛ وبعد ان أقاموا مدة فى جنوب الحجاز وفى يثرب ، تقدموا الى سوريا الجنوبية وأزاحوا الضجاعمة الذين كانوا مقيمين فى تلك المنطقة وعاونوا الرومان فى حروبهم معاونة فعالة حملت الرومان على أن يمنحوا امراءهم ألقابا رسمية عالية ويعترفوا لهم ببعض السيادة فى المناطق التى يقيمون فيها .

وقد أراد الرومان بذلك أن يستفيدوا منهم فى ضبط حدود سوريا الشرقية المفتوحة ، وأن يمدوا بواسطتهم نفوذهم على القبائل العربية ، ويجعلوهم دولة حاجزة بين سوريا والساسانيين ، ويستخدموهم لمساعدتهم فى حروبهم وحملاتهم فى الشرق الاوسط .

---

(١) اعتمدنا فى بحث الغساسنة على كتاب نولدكه « أمراء غسان » الذى ترجمه بندلى جوزى وقسطنطين زريق (بيروت ١٩٣٣) بالاضافة الى كتب جرجى زيدان وفيليب حتى وجواد على .

وليس لنا عن أصلهم وتاريخهم الاول معلومات يوثق بها فان المؤرخين العرب غير مجمعين على تاريخهم وعدد ملوكهم وسنى حكمهم ، اذ ان بعض هؤلاء المؤرخين يذكرون قائمة طويلة من أسماء ملوكهم لا تذكرها المصادر البيزنطية ، ولعل المصادر العربية كانت تدخل فى هذه القائمة الطويلة اسماء الامراء القدماء ومشايخهم . أما البيزنطيون فاكتفوا فقط بذكر من كان له علاقة بهم ومن اعترفوا بسلطانه .

وقد اجمعت الاخبار التاريخية على ان جد هذه الاسرة هو جفنة ، ولكن لا ريب ان جبلة هو أول ملوكهم البارزين الذين اعترف بهم البيزنطيون ، وتروى المصادر البيزنطية ان جبلة هذا غزا فلسطين فى سنة ٤٩٧ م .

وقد تلاه ابنه الحارث بن جبلة ، ويطلق عليه العرب أحيانا الحارث بن أبى شمر . وقد حارب الحارث هذا المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة وانتصر عليه فى سنة ٥٢٨ م ، كما انه أبلى بلاءا حسنا فى قمع ثورة السامريين سنة ٥٢٩ م ، وعلى أثر هذه الخدمات منحه جستنيان لقب فيلارك وبطريق ، وأقر له سلطته على القبائل العربية فى أطراف سوريا ؛ وكان غرضه من ذلك أن يقيم خصما بوجه المنذر بن ماء السماء الذى سرعان ما هاجم سوريا وعاث فيها . وكان لقب بطريق من أسمى الالقاب البيزنطية ، اذ أن طبقة البطارقة كانت تعد عند البيزنطيين أعلى الطبقات الاجتماعية بعد الامبراطور ، وعلاقتهم بالقيصر تشبه علاقة الكرادلة بالبابا .

وفى سنة ٥٣٨ قامت بين الحارث وبين المنذر أمير الحيرة حرب على الارض المعروفة بـ Strata وهى الارض الواقعة حول الطريق الممتدة من دمشق الى تدمر حتى مدينة سروج . فقد ادعى أمير الحيرة ان القبائل العربية النازلة فى تلك الاراضى خاضعة لسلطته وهى تدفع له الجزية ، فنازعه الامير الغسانى هذه السلطة ونشب القتال بينهما وكانت هذه الحرب من الاسباب التى عادت فأججت نار المنازعات بين الدولتين بعد أن كادت تنطفىء .

وفى سنة ٥٤١ م حارب الحارث فى العراق بجانب الروم وعبر نهر دجلة على رأس جيشه ثم عاد فارتد الى مركزه السابق عن طريق أخرى غير الطريق

التى اتبعها معظم الجيش البيزنطى ، ولم يحصل فى حملته هذه على نتائج تذكر الامر الذى أثار شكوك البيزنطيين فى اخلاصه .

ثم تجددت الحرب فى سنة ٥٤٤ م بينه وبين المنذر ملك الحيرة ووقع فى هذه الحرب أحد أبناء الحارث فى يدى المنذر فقدمه ضحية للعزى . وقد استمر القتال فى فترات متقطعة بين الغساسنة والمناذرة الى أن أحرز الحارث بن جبلة انتصارا حاسما فى سنة ٥٥٤ م فى معركة قرب قنسرين قتل فيها المنذر وهى الموقعة التى يدعوها العرب يوم حليمة .

سافر الحارث فى سنة ٥٦٣ م الى القسطنطينية لمفاوضة البيزنطيين فيمن يخلفه من أولاده فى عمالته على سوريا وفى ما يجب اتخاذه من التدابير لمقاومة عمرو بن هند ملك الحيرة وقد أثرت مظاهر البذخ والترف فى القسطنطينية تأثيرا كبيرا على الحارث ، كما انه أحدث بدوره تأثيرا قويا على سكان العاصمة وبالاخص على جوستين ابن اخى القيصر الذى كان مضطرب العقل ولما تسنم جوستين هذا منصب الامبراطورية كان أهل البلاد يخوفونه بالحارث بن جبلة كلما اساء التصرف .

وكان الحارث بن جبلة من المؤيدين للمذهب اليعقوبى ، واستطاع أن يقنع البيزنطيين بتعيين يعقوب البردعى وثيودورس (وهما منشئى هذا المذهب) اساقفة فى المقاطعات السورية العربية فتوطدت بذلك دعائم المذهب اليعقوبى وربما كان فى تأييده لهذا المذهب مدفوعا بعوامل سياسية لان أكثرية رعيته كانوا من اتباع هذا المذهب .

وقد توفى الحارث بن جبلة سنة ٥٦٩ بعد أن حكم اربعين سنة ؛ وأعقبه فى الحكم ابنه المنذر الذى بدأ حكمه بالهجوم على المناذرة وانتصر عليهم فى موقعة عين اباغ التى تبعد ثلاث مراحل عن الحيرة . غير ان البيزنطيين لم يحسنوا السياسة معه وخاصة لتطرفه فى تأييد المونوفستية ودبروا مؤامرة لاغتياله فثار عليهم ، واغتنم المناذرة الفرصة فهاجموا سوريا وعاثوا بها فاضطر الروم على مفاوضة المنذر ومصالحته سنة ٥٧٨ م .

ثم زار المنذر القسطنطينية سنة ٥٨٠ م ، فاستقبل فيها بكل احترام وتبجيل ،

وانعم عليه القيصر طيباريوس بالتاج ، مع ان الروم لم يكونوا ينعمون قبلا على عمالهم من العرب الا بالاكليل • وقد وصل خبر هذه الحادثة الى اسبانيا فذكره بعض مؤرخيها المعاصرين • وقد اغتنم فرصة وجوده فى عاصمة الروم فسعى لنيل العفو عن أصحاب مذهبه وعمل على توطيد السلام بينهما •

غير ان رجال الدين فى الدولة البيزنطينية وهم من المذهب الارثوذكسى كانوا يمقتون المذهب اليعقوبى ، لذلك أخذوا يحرضون الامبراطور على المنذر وكان يساعدهم فى ذلك بعض كبار رجال الدولة من المتمسكين بالمذهب الارثوذكسى • وقد حدث أن قام موريسيوس حاكم سوريا بهجوم على الفرس يعاونه المنذر ، ولكنه لم ينجح فيه فعزى فشله الى خيانة المنذر ، فزاد هذا من ايغار صدور البيزنطيين عليه ودبروا مؤامرة ضده ، فأوعز الامبراطور الى ماجنوس حاكم الروم فى سوريا بالقبض على المنذر ؛ فارسل الحاكم البيزنطى يدعو المنذر لحضور حفلة تدشين بعض الكنائس فى حوارين ، فلما جاء المنذر القى القبض عليه وارسل منفيا الى القسطنطينية ونقل منها الى صقلية حيث قضى نحبه فيها بعد أن أمضى فى الحكم ثلاثة عشر سنة •

لم يكتف الروم بنفى المنذر فحسب بل عمدوا ايضا الى قطع الاعانة السنوية التى كانوا يقدمونها لاسرته ، فكان ذلك دافعا آخر لاثارة الغساسنة فقام أبناء المنذر الاربعة وشقوا عصا الطاعة على دولة الروم ، ثم اوغلوا تحت قيادة أخيهم الاكبر - النعمان - فى الصحراء وأخذوا يشنون منها الغارات على أراضى الدولة فيسطون على أموالها وينهبونها ويعيثون فى داخل البلاد فسادا ووجهوا هجمات عنيفة موفقة ضد بصرى التى كانت أكبر قاعدة عسكرية بيزنطية فى جنوب سوريا •

وقد اضطر القيصر طيباريوس ازاء هذا الى تجهيز حملة بقيادة ماجنوس للقضاء على ثورة النعمان ولكن ماجنوس استعمل الحيلة والدهاء فارسل يطلب من النعمان مفاوضته ثم القى القبض عليه وأخذه اسيرا سنة ٥٨٤ م •

وعلى أثر هذا الحادث تصدعت أحوال العرب فى سوريا وتفككت عرى وحدتهم حتى اختارت كل قبيلة منهم أميرا لها • ولا ريب فى ان هؤلاء الامراء

كانوا من المشايخ الذين تقلص قسم كبير من سلطتهم ونفوذهم فى أيام الحارث والمنذر فانسحبوا الى الصحراء أو انتقلوا الى بلاد الامبراطورية الفارسية .

وقد ولد زوال دولة الغساسنة بعض الاخطار فى سوريا ، ذلك ان القبائل العربية البدوية أخذت تتطاحن وتتنازع فيما بينها ، كما أخذ بعضهم يهاجم السكان المتحضرين فينهبوا مواشيهم ويدمروا مزارعهم . وقد حملت هذه الاحوال الروم على التفكير فى اعادة تعيين عامل جديد مكان المنذر ، وفضلوا أن يكون هذا العامل من آل جفنة نظرا لما كان لهؤلاء الامراء فى الماضى من الهيبة فى قلوب جميع القبائل البدوية . غير أن المؤرخين السوريين والبيزنطيين انقطعوا عن رواية أخبار آل جفنة بعد المنذر . لذا فان المصدر الوحيد لاخبارهم هو ما جاء فى دواوين الشعراء المعاصرين رغم ما فى هذه الدواوين من الابهام وعدم تحديد زمان كل أمير يذكروه .

من المصادر التى تحفظ لنا شيئا من نسب آل جفنة بضعة أبيات تنسب الى النابغة الذبيانى يقول فيها :

هذا غلام حسن وجهه ... مستقبل الخير سريع التمام
للحارث الاكبر والحارث ... الاصغر والاعرج خير الانام
ثم لهند ولهند وقد ... أسرع فى الخيرات منه امام
خمسة اباء همو ما هم ... هم خير من يشرب صوب الغمام

فمن هذا نرى ان الشاعر يذكر فى هذه الابيات ثلاثة رجال من آل جفنة وامرأتين وتختلف الروايات فى البيت الثانى فمنهم من يذكر الحارث الاكبر والحارث الاعرج والاصغر ، ومنهم من يذكر الحارث الاكبر والحارث الاعرج والحارث ، ومنهم من يذكر الحارث الاكبر والحارث الاصغر والحارث الاعرج ، ومنهم من يذكر الحارث الاكبر والحارث الاصغر والحارث ، ومنهم من يذكر الحارث الاصغر والحارث الاوسط والاكبر ، مما قد يحملنا على الاعتقاد ان الاعرج هذا كان اسمه الحارث فاما اسم المرأتين فلعلهما أم الممدوح وزوجته والراجح ان الحارث الاكبر المقصود به هو ابن الحارث ابن جبلة وان الحارث الاصغر ابنه أما الاعرج فهو ابن الاصغر وأبو الغلام الممدوح .

والحارث الاصغر هذا هو الحارث الوهاب الذى مدحه علقمة فى قصيدته الشهيرة التى مطلعها :

طحا بك قلب فى الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

ويبدو من هذه القصيدة ان الحارث كان قد انتصر على بعض القبائل العربية وأسر كثيرا من رجالها منهم أحد أخوة الشاعر نفسه .

وقد مدح النابغة عمرو بن الحارث الاصغر فى قصائد منها التى مطلعها :

اهاجك من أسماء رسم المنازل بروضة نعمى فذات الاجاول

وفى قصيدة :

كلينى لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطىء الكواكب

وقد أشار النابغة فى القصيدة الاولى الى ان الحارث تهدد بنى مرة بن عوف التى كانت تنزل فى شمال الحجاز . كما أشار النابغة فى قصيدة أخرى الى أحد ملوكهم الذى أراد الاستيلاء على وادى القرى :

اتطمع فى وادى القرى وجنابه وقد منعوا فيه جميع المعاشر

وهذا يدل على امتداد نفوذ الغساسنة الى شمال الحجاز واطراف نجد .

ومن أمراء غسان كذلك النعمان بن الحارث الذى مدحه النابغة بعدة قصائد منها التى يقول فيها :

وان يرجع النعمان نفرح ونبتهج ويات معدا ملكها وربيعها

كما رثاه بقصيدته التى يقول فيها :

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل وكيف تصابى المرء والشيب شامل

بكى حارث الجولان من فقد ربه وحوران منه موحش متفائل

ويشير النابغة فى بعض هذه القصائد الى ان النعمان فتك بقبيلة أسد ، وأراد غزو فزارة ، وكلتا القبيلتان كانت تسكنان شمال الحجاز وفى أطراف خيبر .

وقد تلا النعمان ولداه عمرو وحجر اللذين مدحهما النابغة وأشار اليهما حسان بقوله :

ملكا من جبل الثلج الى جانبى أيلة من عبد وحر

اتيا فارس من دارهم فتناهوا بعدا عصام بقر

ثم صاحا بنى غسان اصبروا انه يوم مصاليت صبر

ويبين البيت الاول مدى امتداد سلطانهم ، وهو دليل على مدى قوتهم .

ولما احتل الساسانيون سوريا سنة ٦١٣ م قضوا على ملك بنى جفنة ، ففر بعض أمراءهم الى بلاد الروم والتجأ البعض الآخر الى داخل الصحراء .

ويبدو ان هرقل لما استعاد سوريا من الفرس سنة ٦٢٩ م لم يرجع للغساسنة حكمهم ، وظلت الحدود السورية الجنوبية مفتوحة ، فاعتدت بعض القبائل على التجارة البيزنطية دون أن تلقى مقاومة تذكر .

تروى المصادر العربية ان الغساسنة حاربوا المسلمين مرارا بجانب الروم وان خالد بن الوليد أوقع بهم سنة ٦٣٤ م فى مرج الصفر جنوبى دمشق وان جبلة بن الأيهم قاتل خالد بن الوليد فى دومة الجندل ، واشترك فى موقعة اليرموك ، الا أن الراجح ان جبلة كان أميرا من بقايا أمراء الغساسنة ولم يكن له ملك كبير ، وقد انضم فيما بعد الى العرب ، ثم عاد وانضم الى الروم بعد أن حكم عليه عمر بأن يلطم قصاصا للطمه اعرابيا عند الطواف حول الكعبة فى الحج .

لقد كانت سلطة أمراء غسان تمتد على كل القبائل البدوية التى كانت تنزل فى فلسطين ومنطقة الاردن وأطراف الشام .

على اننا لا نرى قط اشارة الى أن الغساسنة كانوا يمتلكون أيا من الاماكن المحصنة أو من المدن التى كانت مراكز للجيش كدمشق وبصرى أو كتدمر التى حصنها جستنيان .

كانت الجابية بالجولان قاعدة ملكهم وفيها معسكرهم ومقرهم ، ومع ان المؤرخين البيزنطيين والسريان كانوا يذكرون حرثا الغساسنة أو معسكر الغساسنة ، الا انه ليس هناك دليل على ان معسكرهم هذا أصبح مدينة كالحيرة اذ كانوا يتنقلون أحيانا ، وقد اتخذوا جلق عاصمة لهم أمدا من الوقت .

يذكر حمزة الاصفهانى عددا من الابنية والقصور وقنوات الماء التى أقامها الغسانيون غير ان المصادر الاخرى لا تؤيد قائمته . ويذكر حسان بن ثابت فى شعره فخامة الحياة فى قصور الغسانيين ولكن لم تكشف الحفريات القليلة حتى الآن عن هذه الآثار ، ومن الجدير بالملاحظة انه لم يظهر فيهم أى شاعر ، كما ان الشعراء الذين قصدوهم قليلون ، ومع انهم دانوا بالمسيحية ورعوا المذهب اليعقوبى ، الا اننا نشك فى عمق فهمهم لهذا الدين .

الفصل السادس

المناذرة (١)

لقد كانت حدود العراق الغربيـة مفتوحة للصحراء ، لذا كانت القبـائل العربية تستطيع التوغل فيه دون أن تصادف حاجزا جغرافيا يصدها • وكانت مثل هذه الهجرات تزداد بصورة خاصة عندمـا تكون الحكومات القائمة فى العراق ضعيفة • ولم يكن يعيق هذه القبائل حاجز ، الا نهر الفرات الذى يفصل الصحراء عن المناطق الخصبة فى العراق • غير ان نفوذ هـذه القبائل لا يصبح واضحا الا عندما تكون الحكومات المسيطرة على العراق ضعيفة ، حيث تستطيع القبائل العربية آنذاك التوغل الى الداخـل والتمتع بنفوذ قوى ، أو أن تؤثر فى أحوال السكان وطرق التجارة • ومع انه ليست لدينا أخبار دقيقة مفصلة عن هذه القبائل الا أن الاشارات القليلة المبعثرة فى الكتابات تدل على مدى أثرهم •

ويبدو ان القبائل المقيمة فى غربى الفرات استفادت من ضعف الدولة البارثية فى أواخر عهدها ، فأخذت تتمتع باستقلال كبير ؛ ولما كانت الطرق التجارية المارة بين سوريا والعراق عبر وادى الفرات تمر من منطقتهـا ، لذا اضطر التدمريون والتجار وأصحاب القوافل أن يسترضوا هذه القبائل فيدفعوا لرجالها مبالغ كبيرة لقاء حمايتهم للقوافل ، أى انهم اعترفوا ضمنيا بنفوذهم وسلطانهم •

ويروى الرواة العرب ان هـذه القبائل التى استوطنت أطراف الفرات هم من التنوخيين (٢) الذين هاجروا من اليمن بعد انكسار سد مأرب • ولا ريب ان ادعاءهم هذا غير صحيح ، لان سد مأرب بقى الى منتصف القرن السادس الميلادى ، كما ان الأزد كانت تسكن بعيدا عن منطقة سد مأرب ، وليس لدينا دليل ثابت على ان أصلهم من اليمن ، أو انهم كانوا ينتمون جميعـا الى قبيلة واحدة • والارجح

---

(١) لا ريب ان كتاب الحيرة ليوسف غنيمة (بغـداد ١٩٣٦) هو أوسع ما كتب عنها باللغة العربية وعليه كان اعتمادنا •

(٢) طبرى ج ٢ ص ٢٧ •

انهم كانوا قبائل عدة استقرت « تنوخت » فى وادى الفرات ، برئاسة شخصيات قوية واستغلت ضعف الدولة البارثية ، فتمتعت باستقلال ذاتى ، وقامت بحماية القوافل المارة فى وادى الفرات ، وانشأت لها علاقات وثيقة مع تدمر .

ويذكر المؤرخون العرب من ملوكهم الاول مالك بن فهم وعمرو بن فهم وجذيمة الابرش[٣] الذى عاش فى أواخر عهد الدولة البارثية وشهد انحلالها وسقوطها ؛ وقد استفاد من ذلك فوسع نفوذه على الضفة الشرقية للفرات ، كما حاول أن يمد نفوذه الى البحرين جنوبا والى بادية الشام غربا . فلما ظهرت الدولة الساسانية لم يخاصمها كما فعلت معظم القبائل العربية المقيمة بالعراق ، بل حالفها . وقد أقر له الساسانيون بالسلطة ، وتركوه يتمتع بالحكم فى منطقة غرب الفرات . ولعل الساسانيين أدركوا ما يجنوه من هذه المحالفة فى تأمين حدودهم الغربية وايقاف توغل البدو فى العراق ، كما يحتمل انهم أرادوا استخدامه فى حروبهم المنتظرة ضد الروم .

وقد استفاد جذيمة بدوره من محالفته الساسانيين ، فأمن لنفسه صداقة الدولة القوية التى أصبحت منذ ذلك الوقت أعظم دولة فى الشرق مدة أكثر من ثلاثة قرون ، وهكذا نجا من المصير الذى آلت اليه الحضر أو القبائل العربية التى قاومت حكم الساسانيين كقضاعة فأخرجت من العراق .

ويبدو ان جذيمة تأثر بالاوضاع المحيطة به فأراد أن يصبغ ملكه بصبغة دينية فتنبأ وتكهن على ما يروى الطبرى . وأوجد لنفسه صنمان هما الضيزنان . غير ان حكمه لم يدم طويلا ، اذ قتل غيلة على يد ملكة عربية تدعى الزباء . ومن المحتمل ان الزباء المقصودة هى ملكة تدمر ، وان كانت الروايات العربية لا تنص على ذلك صراحة . وتنسج حول مقتله قصصا طريفة لعلها أساطير مختلفة[٤] .

---

(٣) طبرى ج ٢ ص ٢٨-٢٩ ، المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٩٠ فما بعد . السكرى : المحبر ص ٣٥٨ .

(٤) الميدانى : مجمع الامثال ج ١ ص ٢٤٣ المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٩٠ فما بعد ؛ جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٣ ص ٩٨-١٠١ .

وبموت جذيمة انتقل الملك الى ابن أختـه عمرو بن عـدى[٥] الذى يعتبر مؤسس أسرة آل لخم أو آل نصر التى انحدر منهـا ملوك المنـاذرة • وقد اتبع عمرو بن عـدى سياسة جذيمة فى الانضمام الى جانب الساسانيين ، واستفاد من سـقوط الحضر ، وهى الدولة العربيـة الاخرى فى العراق • فأصبح أكبر أمير عربى بجانب الساسانيين ، وزاد نفوذه على العرب فى العراق واتخـذ مقرا له فى الحيرة التى أصبحت منذ ذلك الوقت عاصمة المناذرة • ولا ريب ان لموقع الحيرة أهمية كبرى ، فهى تقع مكان تقترب فيه الصحراء من طيسفون ، هـذا الى انهـا تقع قريبة من المكان الذى يصب فيه الفرات بالبطائح ، فهى لذلك مهمة من الناحية العسـكرية والتجارية حيث تتحكم فى الطريق التجارى بين الصحراء وطيسفون وفى الطريق النهرى المار فى نهر الفرات •

وقد أعقب عمرو ابنـه امرىء القيس[٦] (٢٨٨-٣٢٨) ، وكانت أحوال الدولة الساسانية فى زمنـه مضطربة ، اذ هاجمهـا الرومان واقتطعوا منهـا بعض المقاطعات ؛ كما جرت فتن كثيرة وخلافات على العرش ، كما ان الدولة الرومانية كانت تعانى اضطرابات كثيرة • وقد ساعدت هـذه الاحوال أمرىء القيس على ازدياد نفوذه وتوسيع سلطانه ، فأخضع القبائل العربية فى بادية الشام والجزيرة ، كما يدل على ذلك النقش الذى اكتشف على قبره فى وادى الصفا بسوريا والذى يذكر فيـه انتصاراته وترجمته « هـذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم ، الذى تقلد التاج ، وأخضع قبيلتى أسـد ونزار وملوكهم ، وهزم مذحج الى اليوم ، وقاد الظفر الى أسوار نجران مدينـة شمر وأخضع معدا ، واستعمل بنيه على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه الى اليوم • توفى سـنة ٢٢٣ فى يوم ٧ بكسلول • وفق بنوه للسـعادة » ويقابل تاريخ وفاته سـنة ٣٢٨ م[٧] •

وقد اعقب امرىء القيس عدة ملوك لم تكن لهم أعمـال بارزة الى أن جاء

---

(٥) طبرى ج ٢ ص ٥٩ ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ١ ص ١٣٧ •

(٦) طبرى ج ٢ ص ٦٥ •

(٧) جرجى زيدان ص ١٩٠ •

النعمان الاعور أو السائح[٨] الذى كون له جيشا قويا مكونا من كتيبتين هما الشهباء والدوسر[٩] ، وقد اشتهرت الاخيرة بقوة بطشها ، ومن المحتمل انها نظمت على أسس تنظيم الجيش الفارسى • وكانت تقيم عنده فى الحيرة قوة فارسية مكونة من ألف جندى ولا ريب ان هذه القوة الغسكرية قد أعانته على تقوية نفوذه عند القبائل العربية •

وقد بنى النعمان الخورنق ، وهو قصر فخم تردد ذكره فى كتب الشعر والأدب العربى ، واسمه فى الغالب فارسى معناه موضع الأكل وقد ظل الى العصر العباسى ، كما بنى السدير الذى لعله جناح من الخورنق[١٠] •

وقد دفع يزدجرد بابنه بهرام جور الى النعمان ليشرف على تربيته ، فقام بذلك خير قيام وأصبح من مهرة الصيادين • فلما مات يزدجرد وأراد الفرس اقصاء بهرام جور ، أنجده النعمان بقوة مكنته من استرداد العرش ، وبذلك زادت مكانته فى البلاط الساسانى •

لا نعلم شيئا محققا عن نهاية النعمان ، اذ تروى الروايات العربية انه فى نهاية عمره صدف عن زخرف الحياة الدنيا ، فغادر الحيرة وانطلق سائحا ، فلم يعلم عن مصيره شيئا •

ولما توفى النعمان أعقبه عدة ملوك ساعدوا الساسانيين فى حروبهم مع البيزنطيين ، وحاولوا توطيد نفوذهم على قبائل الجزيرة العربية ، واشتبكوا مع بعض هذه القبائل فى عدة معارك • ومن أبرز هؤلاء الملوك هو المنذر بن ماء السماء[١١] (٥١٤-٥٦٣) الذى عاصر حكم قباذ وساعده فى حروبه الاولى ضد

---

(٨) طبرى ج ٢ ص ٧٢ ابن الاثير ج ١ ص ١٥٩ •

(٩) الميدانى ج ١ ص ١٢٤ ابن الاثير ج ١ ص ١٥٩ طبرى ج ٢ ص ٧٢ ابن الاثير ج ١ ص ١٥٩ •

(١٠) ياقوت الحموى • معجم البلدان مادة خورنق ومادة سدير • وانظر ايضا ما كتبه لامنس عن الخورنق فى دائرة المعارف الاسلامية ، وكذلك يوسف غنيمة : الحيرة ص ١٩-٢٤ •

(١١) طبرى ج ٢ ص ٨٦-٩٢ •

البيزنطيين ولكن العلاقة ساءت بينهما ولعل ذلك راجع الى أن قباذا كان قد ناصر المزدكية واتخذها دينا رسميا[١٢] فأراد فرضها على المناذرة ، فأبى المنذر بن ماء السماء الاعتراف بها ، الامر الذى أغضب قباذ • فعزله وولى مكانه الحارث بن عمرو بن حجر الكندى على الحيرة • وقد لجأ المنذر الى القبائل العربية فى الصحراء وظل لاجئا عندهم الى أن مات قباذ وتولى مكانه أنوشروان فقاوم المزدكية ، ثم أرجع المنذر الى حكم الحيرة • وقد انتقم المنذر بن ماء السماء لنفسه فتتبع الكنديين ، وأثار عليهم القبائل وأوقع بهم فى يوم مرينا وفى يوم أوارة • والواقع ان دولة كندة كما سنتحدث عنها فيما بعد ، انقسمت على نفسها وتفككت بعد موت الحارث ، وأتاح تفككها الظروف للمناذرة فى التوسع بالجزيرة حتى أصبحوا أقوى الدول العربية فى الجزيرة وأصبح اسم ملوكهم يتردد ذكره عند الشعراء •

اشترك المنذر بن ماء السماء فى الحروب التى وقعت بين الساسانيين والبيزنطيين ، فأيد الساسانيين واشتبك مع الحارث بن جبلة فى عدة حروب انكسر فى أولها ولكن ثأر لنفسه وأعاد الهجوم على الغساسنة فانتصر عليهم وأسر منهم أربعمائة قدمهم ضحايا للآلهة العزى • ثم تجددت الحرب بينه وبين الحارث بن جبلة الذى هاجم المنذرة واستطاع ابنه أن ينتصر على المناذرة فى موقعة عين أباغ التى قتل فيها المنذر نفسه كما تحدثنا من قبل •

وفى زمنه قوى نفوذ النصرانية فى الحيرة فكانت زوجته هند نصرانية واليها ينسب دير هند ويقال ان المنذر نفسه تنصر •

والى المنذر ينسب الغريين ويوم البؤس والنعيم[١٣] •

وقد تلاه ابنه عمرو بن هند ، وكان ملكا طموحا قوى الشكيمة ، عاون الساسانيين فى حروبهم ضد البيزنطيين ، واستغل اضمحلال دولة كندة ، فوسع نفوذه وسلطانه فى الجزيرة ، واشتبك مع تغلب وتميم وطى بمعارك كسرهم فيها •

---

(١٢) راجع عن حكم قباذ والمزدكية • كرستنسن : ايران فى العهد الساسانى : الفصل السابع (بالفرنسية) وكذلك حكم قباذ والمزدكية (بالفرنسية) •

(١٣) الميدانى : مجمع الامثال ج ١ ص ١٠٧ •

وقد قصده عدد من الشعراء الجاهليين كطرفة والاعشى والنابغة ومدحوه بقصائد عدة ؛ ولكنه قتل أخيرا على يد الشاعر التغلبى عمرو بن كلثوم الذى لم يتحمل ، فيما يقال ، محاولة عمرو بن هند اذلال أمه .

وقد تلا عمرو بن هند على امارة الحيرة عدد من اخوته أبرزهم أبو قابوس النعمان بن المنذر(١٤) الذى عاش النابغة الذبيانى فى كنفه ومدحه بعدة قصائد مشهورة ، كما قصده عدد من الشعراء البارزين وخاصة المنخل اليشكرى وطرفة بن العبد ، ويبدو من قصائد هؤلاء مدى روعة بلاط النعمان وأثره فى نفوس العرب .

وقد امتد سلطان النعمان جنوبا الى منطقة البحرين ، ولعله امتد غربا الى جبلى طى حيث بسط نفوذه عليهم ، ويبدو انه استفاد فى ذلك من وهن أمر منافسيه الغساسنة وكانت قوافله ولطائمه تذهب الى الحجاز . وقد أدى هذا التوسع الى احتكاكه مع كثير من القبائل العربية فاشتبك مع بنى يربوع فى يوم طخفة كما اشتبك مع بنى عامر بن صعصعة وقد كسر جيشه فى كليهما(١٥) .

وقد ساءت العلاقة بين أبى قابوس وبين بلاط كسرى لاسباب يختلف المؤرخون فى ذكرها فمنهم من يدعى انها بسبب سجن النعمان أبو قابوس لرجل اسمه عدى من مقربى كسرى ثم قتله ، فاستغل ذلك خصوم النعمان واوغروا صدر كسرى عليه(١٦) . ولكن أبو حنيفة الدينورى ينقل فى كتابه الاخبار الطوال كتابا منسوبا الى كسرى ابرويز يقول فيه « ... فان النعمان واهل بيته واطئوا العرب واعلموهم توكفهم خروج الملك عنا اليهم وقد كانت وقعت اليهم فى ذلك كتب فقتلته ، ووليت الامر اعرابيا لا يعقل من ذلك شيئا » ولعل الدافع الاساسى هو ما جاء فى هذا الكتاب ، وان قصة عدى ، ان صحت فقد اتخذت حجة عليه(١٧) .

---

(١٤) ياقوت : معجم البلدان مادة عزى .
(١٥) الطبرى ج ٢ ص ١٤٦-٧ .
(١٦) طبرى ج ٢ ص ١٥٠ ، الاغانى ج ٢ ص ٢٨ .
(١٧) الدينورى : الاخبار الطوال ص ١٠٧-٩ .

القى كسرى القبض على النعمان وسجنه وبذلك انتهى حكم المناذرة فى الحيرة ، وعين مكانهم رجلا من طى إسمه أياس بن قبيصة[١٨] ، ويبدو ان أياسا لم يكن محبوبا ولم يتمكن من املاء مركز المناذرة ، اذ كان هؤلاء قد ثبتوا سلطانهم ونفوذهم فى الحيرة ، فلم يطق اهل الحيرة احتمال أياس لذلك اضطر الفرس الى اسناده بحامية فارسية قوية تشد ازره ، ولكن يبدو انه لم يستطع أن يجلب قلوب الناس اليه ، فظلوا كارهين للفرس .

أدى زوال أسرة المناذرة الى خسران الساسانيين الواسطة المهمة التى كانت تقف أمام العرب وتسيطر عليهم وتمنعهم من الاعتداء على الامبراطورية الساسانية . فلما زال هذا الحاجز وقفت القبائل العربية وجها لوجه أمام الامبراطورية الساسانية ، ولم تعد هناك قوة تصدهم ، فأخذوا يقومون بالغزوات على أطراف الحدود العراقية ، وساعدهم على ذلك الاضطراب الداخلى والحروب المتعددة والفتن والمنافسات على العرش وضعف الأكاسرة ، فتوغل بعضهم الى داخل بلاد العراق .

ولعل أهم هذه الحروب هى حرب ذى قار التى وقعت بين الفرس وبين العرب من بنى بكر وخاصة شيبان ويذكر العرب انها وقعت عقيب زوال أسرة المناذرة من الحيرة ، وكنتيجة مباشرة لها وذلك لان النعمان أودع سلاحه عند هانىء بن مسعود الشيبانى فأراد كسرى استرجاعه بالقوة ولكن هانىء رفض ونشب القتال بينهما وكانت نتيجته انكسار الجيش الفارسى[١٩] .

ورغم صغر القوة الفارسية التى اشتبكت فى القتال ، الا أن أهميتها كبيرة فهى أول اصطدام مسلح مباشر بين العرب والفرس ، وهى أول معركة تنتصر فيها القبائل العربية على الجيش الفارسى ، مما أعطاهم الثقة بأنفسهم فجرأ القبائل الاخرى على الهجوم المباشر على بلاد الساسانيين الغنية ، وكانت بمثابة حركة استطلاعية ومقدمة للفتوح الاسلامية التى اكتسحت امبراطورية الساسانيين .

---

(١٨) طبرى ج ٢ ص ١٥٢ ، أغانى ج ٢ ص ٢١ .

(١٩) طبرى ج ٢ ص ١٤٧ ، أغانى ج ٢ ص ١٣١ فما بعد ابن الاثير ج ١ ص ١٩٦-٧ .

فلا عجب أن يروى عن النبى انه قال « هذا يوم انتصف به العرب من العجم وبى نصروا » .

وعلى أثر معركة ذى قار التى وقعت فى أطراف بادية الحيرة . فقد اقصى الفرس أياس بن قبيصة عن حكم الحيرة ، وعينوا عليها حاكما فارسيا يحكمها بصورة مباشرة[٢٠] ، الا ان هذا لم يؤد الى تحسين العلاقة بين العرب والفرس .

أما المناذرة فقد حاول احد اولاد النعمان واسمه المنذر الغرور أن يؤسس له دولة فى البحرين وقد نجح فعلا فى ذلك وحد من توغل النفوذ الفارسى فى الجزيرة العربية ، ولكن نفوذه لم يكن مكينا اذ كان لرؤساء القبائل سلطان قوى حد من سلطان المنذر ، ولما جاء الاسلام يبسط سلطانه على الجزيرة قاومه المنذر ولكن المسلمين تمكنوا من دحره وتشتت قواته . فانصاعت البحرين الى الاسلام ولم نعد نسمع منذ ذلك الوقت عن المناذرة شيئا كما سنفصل ذلك فى الجزء الثانى .

أما الحيرة فلم يعد لها ذكر حتى جاء خالد بن الوليد العراق فهاجمها وتمكن من احتلالها بعد مقاومة بسيطة وفرض عليها مبلغا من المال تؤديه للمسلمين . يذكر المؤرخون انه ٩٠ ألف درهم[٢١] وهو مبلغ ضئيل بالنسبة الى واردات العراق التى كانت تبلغ مائة مليون درهم . والواقع انهم لم يبدو مقاومة فعالة وأسرعوا فى مفاوضة خالد والاستسلام له ، وليس فى الاخبار ما يظهر انه كانت تقيم فيها آنذاك جالية فارسية ؛ بل ان وفد المفاوضة مع خالد كانوا من الحيريين النصارى .

ويبدو من حوادث غزوات خالد ان الحيرة كانت آنذاك مدينة صغيرة وفيها بعض القلاع والحصون والقصور المنبثة حولها وفيها كانت المقاومة ، كما كان حولها عدد كبير من الاديرة المسيحية . هذا الى بعض الترع والقنوات التى كانت تمتد حولها والتى لابد انها كانت تروى الحقول والمزارع حولها .

وقد تأثرت الحيرة من انشاء الكوفة قربها ولكنها لم تندثر اذ ظلت الحياة فيها قائمة نشطة فاستفاد أهلها من الفتوح الاسلامية ومن نصرانيتهم . فقاموا بكثير

---

(٢٠) طبرى ج ٢ ص ١٥٦ ، ابن الاثير ج ١ ص ١٩٩ .
(٢١) طبرى ج ٤ ص ٥ .

من الاعمال التجارية وشراء الغنائم والصيرفة وربما أعمال البنوك[٢٢] ، كما كانت مدينتهم مركزا للهو ومحلات شرب الخمور والأنس • هذا الى أن الصناعة فيها ظلت قائمة وخاصة صناعة البسط والوشى • وقد نزلها عدد من الخلفاء العباسيين عند مجيئهم الكوفة ونظم الشعراء من القصائد فى وصفها[٢٣] •

ولما انشئت الدولة العباسية وبدأت حركة الترجمة قام سكان الحيرة بقسط وافر من ترجمة الكتب الى اللغة العربية ، وبهذا قدموا أساس الحركة العلمية فى الاسلام • كما انهم قاموا بالتعليم وتظهر الكلمات التى استعملوها فى الترجمة مدى تفهمهم للغة العربية وأسرارها • ومدى قابلية اللغة العربية على الاستعمال فى الفلسفة والعلوم والفنون •

تقع الحيرة عاصمة دولة المناذرة فى أطراف العراق فى منطقة سهلة منبسطة قريبة من الصحراء ، هواؤها جاف عذب صحى ، ويجرى بالقرب منها نهر الفرات الذى يتفرع فى أطرافها الى عدة فروع وتأخذ منه جداول وترع تروى تلك المنطقة ، فتجعلها من أخصب مناطق العراق وأكثرها انتاجا • وكانت بعض هذه الأنهار تصل الى الحيرة وخاصة نهر الحيرة ونهر برسف ونهر كافر • وتتجمع هذه الانهار فى مجتمع الانهر • أو ما يدعوه الآراميون فرثا والعبرانيون حاشير[٢٤] وهى تصب فى بحر النجف الذى كان مليئا بالماء وتصل اليه السفن البحرية فيما يذكر المسعودى[٢٥] • وهكذا اجتمع فى هذه المنطقة نقاوة هواء الصحراء وخصب العراق وتجارة البحر • فلا عجب أن اتخذ المناذرة مقرهم فيها وقد دعى هذا المقر الحيرة • وهو فى الأغلب مشتق من الكلمة الآرامية حرتا ومعناها المعسكر والمقام • وهى قد تشير الى انها كانت فى البداية معسكرا لهم •

وقد اتخذها آل لخم عاصمة لهم ؛ وليست لدينا تفاصيل عن أصلها أو عن تطوراتها التاريخية ، ولكن يبدو من ثنايا الاخبار عن تاريخ المناذرة ان أغلب

---

(٢٢) ابن سلام : كتاب الاموال ص ٢٥٣ ، البيرونى : الجماهير فى معرفة الجواهر ص ٦٨-٦٩ •

(٢٣) أنظر يوسف غنيمة : الحيرة ص ١٢ فما بعد •

(٢٤) راجع المقال الذى كتب عن الحيرة فى دائرة المعارف الاسلامية ، وما كتبه الواموزيل فى كتابه « الفرات الاوسط » ص ٢٨٧ فما بعد (بالانكليزية) •

(٢٥) مروج الذهب ج ١ ص ١٠٣ •

سكانها من العرب البدو . ويقسم المؤرخون سكانها الى ثلاثة أقسام عرب الضاحية والعباد والاحلاف[٢٦] فأما عرب الضاحية فهم من القبائل العربية التى استقرت فى الحيرة أو فى أطرافها . وكانت تسكن اما بيوت الشعر والخيام وتمتهن الرعى ، أو تستقر وتبنى البيوت . ويطلق النسابون عليهم تنوخ والراجح ان تنوخ ليست فى الاصل قبيلة واحدة كما يزعم النسابون . بل هى مجموعة قبائل تجمعت و « تنوخت » وكونت وحدة وعلى ممر الايام ظن النسابون انها قبيلة تربط أفرادها رابطة الدم . ولا نعلم بالضبط من هى القبائل التى اشتركت وكونت تنوخ وان كان من المحتمل أن يكونوا من مختلف القبائل المجاورة كطى وتميم وأسد أو صعاليك القبائل الاخرى .

أما العباديون فهم قوم من النصارى على الارجح ينتمون الى قبائل شتى ويجمعهم الدين وعبادة الله والزهد ، ويبدو انه يشيع فى تسميتهم اسم عبد . وقد عرفوا فيما بعد بنصرانيتهم وبظهور بعض الشعراء منهم كعدى بن زيد . وقد لعب العباديون دورا كبيرا فى مفاوضة خالد بن الوليد وفى مساعدة المسلمين عند الفتح الاسلامى[٢٧] .

أما الاحلاف فهم القبائل العربية التى حالفت المناذرة واعترفت بسيادتهم وتجولت فى أطراف الحيرة أو استقرت عندها . وهم غير ثابتين ، ويتوقف عددهم على مدى امتداد حكم المناذرة وتجول القبائل . والراجح انه فى أواخر أيام المناذرة كان أهم الاحلاف تغلب التى هاجرت بعد حرب البسوس فى أيام عمرو بن هند واستقرت على ضفاف الفرات شمال الحيرة ، وكذلك وبكر وخاصة بنى عجل وشيبان .

وبجانب هؤلاء فقد كان النبط وهم سكان العراق الاصليين من بقايا البابليين والسريان وكانوا يمتهنون الزراعة والفلاحة[٢٨] .

---

(٢٦) طبرى ج ٢ ص ٥٩ .

(٢٧) أنظر الاغانى ج ٢ ص ١١٦ ج ٨ ص ٧٦ ج ١١ ص ١٥٦ ابن أبى اصيبعة : طبقات الاطباء ج ١ ص ١٣٥ ، ١٨٤ يوسف غنيمة ص ١٦ .

(٢٨) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١١٩ .

يضاف الى ذلك اليهود الذين استقروا بعد السبى البابلى فى هذه المنطقة وأنشأوا لهم مدارس وكان لجاليتهم رئيس خاص (راس جالوثا) وفى هذه المنطقة كتب التلمود البابلى الذى يعتبر من أعظم كتب الفقه اليهودية(٢٩) .

وبجانب هذا فقد أقام الفرس جالية لهم فى الحيرة ؛ ولعل عددا من أصحاب المهن والتجار أقام فيها ايضا .

وبامتداد التجارة الحيرية انتشر الحيريون فى مختلف البلاد ويروى بعض المؤرخين العرب « انك لا ترى بلدا فى الارض ليس فيه حيرى(٣٠) » . ولعل هذا الانتشار قديم ولكن مصادرنا عنه قليلة .

وقد أبدى المناذرة للساسانيين مساعدات فأيدوهم عند تأسيس دولتهم وساعدوهم فى الحروب ضد البيزنطيين ، وصدوا القبائل العربية وضبطوها وحاولوا جلبها الى جانب الفرس . وقد قدر الفرس هذه الخدمات العظيمة وهذا الاخلاص ، فمنحوهم قيطا وافرا من الاستقلال ولم يتدخلوا فى شؤونهم الداخلية أو يعرقلوا أعمالهم وأباحوا لهم أن ينشئوا لبلاطهم كثيرا من التقاليد والمراسيم بل ان يزدجرد أرسل ولى عهده بهرام جور ليتربى فى الحيرة ، الامر الذى قوى من مركز المناذرة ومتعهم بنفوذ خاص فى البلاط الساسانى . بل انهم كانوا فى بعض الاحيان يلعبون دورا هاما فى الشؤون الساسانية . وقد رأينا كيف ان المناذرة كانوا العامل الاول فى تغلب بهرام جور على خصومه وتسنمه عرش الأكاسرة .

وقد عزز هذا جانب ملوك المناذرة وقوى من مركزهم ونفوذهم ، فكانوا يلبسون التيجان ولعلهم كانوا يقيمون ستارة تحجبهم عن زوارهم ، فلا يظهروا شخصيا الا لأشد المقربين اليهم ، وقد اتخذوا لهم حجابا ، وكانت تحيتهم الخاصة بهم (ابيت اللعن) . وكانت لهم روادف وهم كالوزراء فى الاسلام . فكان الملك اذا ركب يركب الرديف وراءه واذا أجلس جلس الرديف عن يمينه . واذا شرب

---

(٢٩) نيومان : الحياة الزراعية ليهود العراق حسب ما جاء فى التلمود (بالانكليزية) .

(٣٠) الهمدانى : مختصر كتاب البلدان ص ٥١ .

سقى الرديف بكأسه وبغده ، واذا غاب خلفه وكانت مقصورة على بنى يربوع • ولما أراد النعمان أبو قابوس تحويلها الى الحارث الدارمى ثار بنو يربوع عليه مما يدل على أهميتها(٣١) •

أما جيشهم فقد رأينا ان النعمان السائح اتخذ جيشا نظاميا كون منه كتيبتين هما الدوسر والشهباء ، فأما الدوسر فيبدو انها نظمت على الطراز الفارسى وانه كان لها قائدان كما قد يستدل من اسمها ، وقد ظلت الى عهد أبى قابوس حيث كانت تعتبر أخشن الكتائب وأشدها بطشا ؛ وكانت تجمع من مختلف القبائل العربية وخاصة من قبيلة بكر •

وأما الشهباء فلا نعلم عن أصلها شيئا • ويرى المؤرخون العرب ان اسمها مشتق من البياض لان جنودها كانوا بيض الوجوه • ولكن يوسف غنيمة يرى انها مشتقة من شاه باى أى موطأ الملك • فكأنها قد نظمت على الطراز الفارسى ايضا وانها كانت كالحرس الملكى • والواقع ان هذه الكتيبة كانت فى زمن أبى قابوس مكونة من اخوته وبنى عمه واتباعهم واعوانهم •

وبجانب هذا فقد كان للمناذرة الرهائن وكانوا حوالى خمسمائة رجل يأخذهم الملك رهائن من قبائل العرب ليقيموا عنده سنة ويستعملهم فى حروبه وغزواته • وهم يتبدلون كل سنة •

ثم الصنائع وكانوا خواص الملك والمقربين اليه وهم من بنى قيس بن ثعلبة وبنى تيم اللات من بكر ولابد ان هؤلاء قد نشأوا مؤخرا أى بعد هجرة بكر الى أطراف العراق •

ثم الوضائع وهم حوالى ألف رجل من الفرس يضعهم كسرى تحت تصرف ملك المناذرة فى الحيرة ويبدلون كل سنة(٣٢) •

لقد رقيت الصناعة فى الحيرة رقيا كبيرا فازدهرت فيها صناعة الانسجة •

---

(٣١) أغانى : ج ١٢ ص ١١ •

(٣٢) الميدانى : ج ١ ص ٨٧ أنظر ايضا غنيمة ص ٩٨ •

وقد ذكر عدد من الشعراء فى أشعارهم نساجى الحيرة فقال عمرو بن كلثوم :

اذا لا ترجى سليمى أن يكون لها من بالخورنق من قين ونساج

كما اشتهرت الحيرة حتى العهد الاسلامى بالوشى بالقصب والتطريز بخيوط الذهب اشتهر عندهم ايضا نسيج الانماط والنطوع الحارية وقد ذكرت فى الشعر ايضا فقال النابغة :

والادم قد خيست فتلا مرافقها مشدودة برحال الحيرة الجدد

وقال آخر :

عقما ورقما وحاريا يضاعفه على قلائص أمثال الهجانيع

وقال امرؤ القيس :

فلما دخلناه أضفنا ظهورنا الى كل حارى جديد مشطب

واشتهرت ايضا صناعة الاسلحة فاكتسبت السيوف الحيرية سمعة بين العرب • كما ان الصياغة لابد وانها ازدهروا لتموين بلاط المناذرة بحاجاته من الحلى والزينة والادوات وكذلك لتموين الناس بما يحتاجونه •

وقد عرفوا كذلك فى النجارة والتنجيد ، وفى صناعة الخزف وأواني الفخار والنقوش[٣٣] • وان المكتشفات التى ظفرت بها بعثات الآثار فى الحيرة وخاصة بعثة تالبوت رايس ورتلنكر لخير دليل على تقدمها فالآثار التى كشفوها فى أطلال الحيرة سنة ١٩٣١ وجدوا أن معظم الغرف مزينا بزخارف من جص منقوش نقوشا جميلة ، ومصبوغا بألوان لطيفة بهية ، وأغلبها زخارف من رسوم الازهار والفواكه والبقول • وهى مزيج من الطراز الفارسى والرومانى[٣٤] •

أما البناء فقد رقى رقيا عظيما ، فبنوا كثيرا من القصور وأهمها الخورنق الذى بناه النعمان الاعور لكى يقيم فيه بهرام جور • وقد أكثر الشعراء والكتاب من ذكره ونسجوا حول بنائه الاساطير • وقد بقى هذا القصر حتى العصر العباسى ولكن ليس لنا تفاصيل وافية عنه •

أما السدير فقد تردد ذكره ايضا مقرونا بالخورنق وكان على ما يقال مكونا

---

(٣٣) راجع عن صناعة الحيرة ما كتبه يوسف غنيمة ص ٨١-٩٥ •

(٣٤) لقد نشر تالبوت رايس نتائج حفرياته فى مجلة الجمعية الملكية لآسيا الوسيطى سنة ١٩٣٢ •

من ثلاث غرف ولعله أساس طراز البناء الاسلامى المعروف بالحيرى ذى الكمين، والذى يتكون من ايوان فى صدره غرفة وفى جانبيه غرفتين وهو الذى ظل مستعملا فى العراق حتى السنوات الاخيرة .

وبجانب هذا توجد قصور أخرى منها قصر سنداد . والقصر الابيض وقصر الفرس وقصر الزوراء التى بناها النعمان المنذر . وقصر العدسيين وهو أول ما فتحه المسلمون(٣٦) ، وقصر بنى بقيلة ، هذا بجانب عدد كبين من الاديرة(٣٧) . وقد ذكرت معظم هذه القصور عند الفتح الاسلامى .

دان سكان الحيرة الاول بعبادة الاصنام ، فقد روى أن جذيمة الابرش قد تكهن وكان له صنمان يدعيان الضيزنين(٣٨) . وقد ظل هذان الصنمان حتى أيام المنذر بن ماء السماء حيث نقلهما وأقامهما على باب الحيرة(٣٩) ، ينحنى لهما الداخلون الى المدينة . كما كانوا يحلفون بسبد وهو صنم كان فى الحيرة(٤٠) . ولا نعلم تفاصيل عن هذه الآلهة أو عبادتها . وبجانب هذا فقد كانوا يعبدون العزى ، وقد رأينا كيف ان المنذر بن ماء السماء ضحى لها بأربعمائة من الاسيرات الغسانيات .

وقد امتدت اليهم بعض الاديان الفارسية ، فقد حاول قباذ بنشر الديانة المزدكية ، ولما حاول المنذر مقاومته أقصاه عن الملك وأتى بالحارث الكندى مكانه كى يعينه هذا على نشرها ، ولكن ذلك لم يدم اذ أن أنوشروان أعقب قباذ فاضطهد المزدكية وأعاد المنذر الى العرش . ومن المحتمل ان الزرادشتية كانت موجودة خاصة بين الجالية الفارسية وربما دان بها بعض سكان الحيرة .

---

(٣٦) طبرى ج ٤ ص ٥ فما بعد . أنظر ايضا ياقوت : معجم البلدان مادة قصر ويوسف غنيمة ص ١٩-٢٩ .

(٣٧) عن أديرة الحيرة انظر : الشابشتى : كتاب الديارات طبع كوركيس عواد ، وياقوت الحموى مادة دير ويوسف غنيمة ص ٤١-٤٩ .

(٣٨) طبرى ج ٢ ص ٢٩-٣٠ .

(٣٩) ابن سيدة : المخصص ج ١٣ ص ١٠٤ .

(٤٠) أغانى : ج ٢ ص ٢٠ .

على ان أهم الديانات التى انتشرت فى الحيرة هى المسيحية • ولا شك ان بداية التبشير المسيحى فى العراق ترجع الى القرن الاول المسيحى ، حيث جاء اثنان من تلامذة المسيح لنشر الدعوة فيه ، وأنشأوا لهما مقرا فى كسكر (عند واسط) • وقد أخذت المسيحية تنتشر ببطء نظرا للعقبات التى كانت تواجهها • وقد امتدت الى الحيرة • ويدعى الطبرى ان امرىء القيس أول من تنصر من ملوك الحيرة ؛ ولكن أخبار تنصر الملوك لا تأتى واضحة الا من عهد المنذر بن ماء السماء الذى تنصر وبنى عدد من الاديرة وتزوج بهند وهى نصرانية ينسب اليها دير هند •

وقد حدثت منافسة بين النساطرة واليعاقبة على اجتذاب الحيريين اليهم ، ولكن النساطرة تفوقوا على اليعاقبة ، فانتشر مذهبهم ، وكان لهم فى الحيرة اسقفية واشتركوا فى المجامع الكنسية التى كانت تعقد فى طيسفون مركز البطريركية • على ان اليعاقبة أنشأوا لهم ايضا مركزا دينيا فى عاقولا (الكوفة) فى طرف الحيرة(٤١) •

ومن مظاهر انتشار المسيحية فى الحيرة كثرة الاديرة التى كانت منبثة فى أطراف الحيرة وقد ذكر فى الاخبار أكثر من عشرين ديرا فيها • وقد كشفت الحفريات على آثار عدد من هذه الاديرة والآثار المسيحية • وكانت هذه الاديرة مراكز للتعليم الدينى • فتخرج منها عدد من رجال الدين المسيحيين الذين احتلوا مكانة عظيمة فى تاريخ الكنيسة ، ولابد ان هذا قد ساعد على رقى نظام التعليم عندهم ، ولدينا بعض الاوصاف للنظام التعليمى فى الحيرة من القرن الثانى الهجرى حيث كان يتميز باستعمال المختصرات وطريقة الاسئلة والاجوبة(٤٢) •

---

(٤١) عن المسيحية فى الحيرة أنظر : لابور : المسيحية فى الشرق فى العهد الساسانى •
ناو : العرب النصارى فى الجزيرة وسوريا فى القرن السابع والثامن •
كرستنسن : ايران تحت حكم الساسانيين (وكلها بالفرنسية) •
يوسف غنيمة : الحيرة ص ٢٩ فما بعد •
اوليرى : جزيرة العرب قبل محمد ص ١٢٥-١٥٠ (بالانكليزية) •

(٤٢) أنظر ما كتبه ماكس مايرهوف فى مقدمة كتاب المقالات العشرة فى العين لحنين بن اسحق والفصل الذى كتبه فى كتاب تراث الاسلام عن الطب والعلوم •

وكان التعليم الدينى يتطلب معرفة للفلسفة ومباحثها التى تتعرض للخالق وطبيعته وصفاته وطرق المعرفة ؛ لذلك أخذوا يتداولون الابحاث الفلسفية ويدرسون الفلسفة اليونانية التى كانت قد عالجت هذه المواضيع . والواقع انهم درسوا وترجموا كثيرا من الكتب الفلسفية والدينية الى اللغة السريانية التى كانت شائعة عندهم . ولما بدأ العرب بحركة الترجمة الى العربية من العصر العباسى الاول ، قام سريان الحيرة بالدور الاول فيها . فنقلوا مئات الكتب ، حتى ان حنين وحده ينسب اليه أكثر من مائة كتاب مترجم الى العربية . ولم يكن عملهم مقصورا على الترجمة فحسب بل وعلى الشرح والتأليف والدرس سواء فى الفلسفة أو الطب أو العلوم الاخرى وهكذا كان لهذه المدينة الأثر الاول فى نقل ثرات الفكر اليونانى الى العرب وفى ترويض اللغة العربية وجعلها أداة ممتازة للتعبير عن الفلسفة والعلوم(٤٣) .

ملوك المناذرة اللخميين(*)

اسم الملك	مدة حكمه	
	يوسف غنيمة	كوسن دى برسفال
١ - عمرو بن عدى	٢٦٨-٢٨٨	٢٦٨-٢٨٨
٢ - امرىء القيس الاول	٢٨٨-٣٢٨	٢٨٨-٣٣٨
٣ - عمرو الثانى	٣٢٨-٣٧٧	٣٣٨-٣٦٣
٤ - أوس بن قلام العمليقى	٣٧٧-٣٨٢	٣٦٣-٣٦٨
٥ - امرىء القيس الثانى	٣٨٢-٤٠٣	٣٦٨-٣٩٠

(٤٣) راجع الفهرست لابن النديم ففيه قائمة طويلة باسما ما ترجم الى العربية .

ماكس مايرهوف : من الاسكندرية الى بغداد (فصل فى كتاب التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية) .

أحمد أمين : ضحى الاسلام : الجزء الاول .

(*) نقلنا هذين الجدولين من كتاب الحيرة ليوسف غنيمة ص ٢٤٢-٣ ، وهى تطابق القائمة التى أوردها جرجى زيدان فى كتابه (ص ١٨٥-١٨٦) .

اسم الملك	مدة حكمه	
٦ ـ النعمان الاول السائح	٤٠٣-٤٣١	٣٩٠-٤١٨
٧ ـ المنذر الاول	٤٣١-٤٧٣	٤١٨-٤٦٢ (**)
٨ ـ الاسود	٤٧٣-٤٩٣	٤٧١-٤٩١
٩ ـ المنذر الثانى	٤٩٣-٥٠٠	٤٩١-٤٩٨
١٠ ـ النعمان الثانى	٥٠٠-٥٠٤	٤٩٨-٥٠٣
١١ ـ أبو يعفر علقمة	٥٠٤-٥٠٧	٥٠٣-٥٠٥
١٢ ـ امرىء القيس الثالث	٥٠٧-٥١٤	٥٠٥-٥١٣
١٣ ـ المنذر الثالث بن ماء السماء	٥١٤-٥٦٣	٥١٣-٥٦٢
١٤ ـ عمرو بن هند	٥٦٣-٥٧٨	٥٦٢-٥٧٤
١٥ ـ قابوس	٥٧٨-٥٨١	٥٧٤-٥٧٩
١٦ ـ فيشهرت	٥٨١-٥٨٢	ـــــ
١٧ ـ المنذر الرابع	٥٨٢-٥٨٥	٥٨٠-٥٨٣
١٨ ـ النعمان أبو قابوس	٥٨٥-٦١٣	٥٨٣-٦٠٥
١٩ ـ المنذر الغرور	٦٢٨-٦٣٢	٦١٤-٦٣١

(**) يضيف برسيفال ملكا اسمه النعمان قبل حكم الاسود (٤٦٢-٤٧١)
حكم الحارث الكندى بين ٥٢٩-٥٣١ .

الفصل السابع

كندة [1]

لقد نشأت كندة فى الجزيرة العربية وبسطت نفوذها على القبائل الموجودة فيها بالمحالفات والمصاهرات أو بالقوة • وحاولت توحيد هذه القبائل ونشر السلم والأمن • وقد امتد حكمها فترة من الزمن الى الحيرة نفسها ، كما ظهر فيها أعظم شاعر جاهلى وهو امرىء القيس •

ويبدو من اسماءهم « شرحبيل ومعد يكرب » • انهم فى الأصل من جنوب الجزيرة العربية ، ويؤيد هذا قول امرىء القيس :ـ

تطاول علينا الليل دمون دمون انا معشر يمانون وانا لاهلنا محبون

وليست لدينا معلومات عن أصلهم أو البلد الذى جاؤا منه ، اذ ان النقوش والمصادر الاغريقية لا تذكر بوضوح اسم قبيلة كندة فى الجنوب ، سوى نقش فى مأرب يذكر قبيلة اسمها (كدت) تقطن حضرموت ، الا أنه من الصعب الجزم بأن المقصود بهم قبيلة كندة • ومع اننا نعلم ان قبيلة كندة كانت تسكن عند ظهور الاسلام فى حضرموت ، الا ان هذا لا يستلزم حتما أن يكون أصل كندة من حضرموت اذ يجوز أن تكون قد جاءت الى حضرموت بعد سقوط دولتهم •

أما الاخبار العربية عن نشأتهم فمتباينة اذ أن ابن خلدون يروى بأن التبابعة حاربتهم ، وأما ياقوت الحموى فيروى ان حربا نشبت بين حضرموت والسكون وبين كندة انكسرت فيها كندة واضطرت الى الانسحاب • وقد أدى انكسارها الى التفافها حول ملك واحد [2] ، ولكن ليس فى النقوش ما يؤكد هذه الاخبار •

---

(١) اعتمدنا فى البحث عن كندة على ما كتبه أبو الفرج الاصبهانى فى كتاب الاغانى ج ٨ ص ٦٠ـ٧٣ وابن قتيبة فى كتاب الشعر والشعراء ص ٣٧ـ٥٦ ، واليعقوبى فى كتاب التاريخ ج ١ ص ١٧٦ـ١٨١ ، وعلى كتاب اولندر عن « مملكة كندة وأسرة آكل المرار » (بالانكليزية) •

(٢) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ١ ص ٢٤٧ •

ولعل الكنديين كانوا فى جنوب اليمن ثم هاجروا بعد الانحطاط الذى أصاب اليمن من جراء تحول الطريق التجارى • غير اننا لا يمكن أن نعين بالضبط زمن هجرتهم سوى اشارة فى معجم البلدان لياقوت يذكر فيها عدة ملوك سبقوا حجر بحوالى قرن أو قرن ونصف من الزمن ، ولما كان حجر قد ظهر فى القرن الخامس ، فتكون أول هجرة الكنديين فى منتصف القرن الثالث •

وليس لدينا من أخبار ملوكهم الاول شيئا سوى أسماء وسنى حياتهم التى يذكرها اليعقوبى • فهو يقول بأن مرتع بن معاوية حكم (٢٠) سنة وابنه ثور مات فى سن مبكرة ثم تلاه معاوية ثم الحارث الذى حكم (٤٠) سنة ثم وهب الذى حكم (٢٠) سنة •

ويجمع المؤرخون العرب على ان حجرا كان اول ملوكهم ، ولكننا لا نعلم شيئا ثابتا عن كيفية تعيينه فان ابن الكلبى يقول بأن تبع عينه عندما كان فى طريقه الى العراق • ويروى ابن الكلبى بأن حسان تبع هو الذى عينه ، غير اننا لا نعلم بالضبط من هو حسان تبع • ولعل كلمة تبع كانت لقبا للملوك العظام ، ومهما يكن فان هذه الروايات تدل على وجود علاقة قوية بين كندة ودولة حمير •

ويبدو ان حجرا وسع سلطته بطريق الزواج ، فيروى ابن الكلبى بأنه تزوج هند بنت ظالم بن وهب بن الحارث ، كما تزوج بامرأة من حمير وبزوجة ثالثة هى أم أياس بنت عوف بن محلم الشيبانى •

يبدو ان حجرا اتخذ مقرا له فى غمر كندة ، وقام منها بحملات ضد القبائل الساكنة فى الحجاز وشمال الجزيرة العربية والبحرين بل وصل فى فتوحاته الى حدود دولة المناذرة منتزعا منهم بعض أراضيهم(٣) • كما أنه بسط نفوذه على بعض اجزاء اليمامة حيث عين ابنه معاوية حاكما عليها • ومن المحتمل ان بعض الفتوحات التى روى أنه قام بها قد نسبت اليه خطأ ، وانها فى الحقيقة فتوحات حفيده الحارث •

ليس لدينا دليل على تاريخ حكم حجر سوى ان حفيده مات سنة ٥٢٨ ،

---

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ١ ص ٣٧٥ •

ويمكننا أن نقدر على أساس هذا التاريخ انه عاش فى الثلث الاخير من القرن الخامس •

وقد أعقبه ابنه عمرو المقصور الذى سمى بهذا الاسم لاقتصاره على ملك أبيه ، على ما يقول ابن الكلبى ، أى ان سلطته كانت محدودة جدا ومقصورة على قبيلة كندة ، اذ فقد سلطته على قبائل ربيعة التى ظهر فيها فى هذا الوقت قائد جديد هو كليب التغلبى • على انه حافظ على علاقته الطيبة مع الحميريين ، كما كان مرتبطا مع المناذرة بأواصر الصداقة والقربى ، اذ كانت ابنته زوجة المنذر بن ماء السماء وأم النعمان الاسود الذى حكم الحيرة مدة أربع سنوات •

الا أن علاقته مع الغساسنة كانت غير وثيقة • فقد اشتبك مع الحارث بن أبى شمر فى حروب قتل فيها •

وقد أعقبه الحارث بن عمرو الذى يعتبر أقوى ملوك كندة وأبرزهم ، كما ان معلوماتنا عنه أوسع وأوضح ، كما ان ذكره ورد فى الكتب البيزنطينية ، فيقول ثيوفانس بأن رومانوس حاكم فلسطين فى عهد الامبراطور انستاسيوس كسر سنة ٤٩٧ م قائدين عربيين ، فطرد الحارث بن جبلة وأسر الحارث ، وبعد أربع سنين قام أخوه معد يكرب بهجوم انتقامى على فلسطين ، الامر الذى حمل انستاسيوس على أن يعقد صلحا مع الحارث بن عمرو لتأمين المدن السورية • ولعل هذا الحلف موجه ضد الساسانيين والمناذرة ؛ ويشير ملالاس الى تاريخ وفاة الحارث •

وقد حكم الحارث مدة طويلة من الزمن تزيد على الاربعين عاما وقد توسط الحارث بين بكر وتغلب وعقد بينهما صلحا انتهت به حرب البسوس التى دامت بينهما اربعين سنة انهكتهما جميعا ، وقد بسط سيادته على قبيلة بكر بعد ذلك •

وقد استغل الحارث فرصة ضعف ملوك المناذرة وسوء علاقتهم مع الساسانيين فى زمن قباذ • فاستطاع أن يصبح ملكا على الحيرة مدة من الزمن بتأييد من قباذ • ويبدو أن قباذا كان يريد أن يستغل نفوذ الحارث لاخضاع القبائل العربية ، وخاصة بكر وتغلب التى أخذت تنزح الى أطراف العراق ، على ان

الحارث لم يتخذ الحيرة مركزا له بل كان يتجول أطرافها ولعل ذلك راجع الى كره أهل الحيرة له والواقع انهم لم يذكروا اسمه فى قائمة ملوكهم • ويقال أن قباذا حاول اقناعه باعتناق المزدكية ولكنه لم يفلح ، فعزله •

كما انه حاول على أثرها أن يتفق مع البيزنطيين ، كما تدل على ذلك الاقوال التى وصفه بها ثيوفانس وملالاس عند موته ، ولكن ليست لدينا معلومات واضحة عنه وعن علاقته بالحارث بن جبلة الذى عينه جستنيان ملكا على العرب البيزنطيين • ويشير امرؤ القيس الى مطاردة أنوشروان له •

الا يا عين بكى لى شنينا ... وبكى لى الملوك الذاهبينا
ملوكا من بنى حجر بن عمرو ... يساقون العشية يقتلونا
فلو فى يوم معركة اصيبوا ... ولكن فى ديار بنى مرينا

وقد ارتبط الحارث مع عدة قبائل برابطة الزواج فتزوج أم قطام بنت سلمة بن الحارث بن معاوية فولدت له حجرا ، واختها اسماء فولدت له شرحبيل ومعد يكرب ، وجاريتهما فولدت له سلمة ، كما تزوج ببنت عوف بن محلم فولدت له عمرو •

ولى الحارث ابان حكمه اولاده على القبائل التى يحكمها بعد أن احتفظ لنفسه بحكم كندة • وتتفق أغلبية الروايات على انه :

عين حجرا على أسد وكنانة وغطفان ، وهم يقطنون عند وادى الرمة بين جبل شمر وخيبر •

وعين شرحبيل على بكر وحنظلة والرباب وتميم ، وهم يقيمون فى شرقى نجد بين الفرات والبحرين •

وعين سلمة على تغلب والنمر بن قاسط ومساكنهم بادية الشام •

ومعد يكرب على قيس عيلان وهم يقطنون فى تهامة وأطراف الحجاز •

ومن هذا يتجلى مدى سعة سلطان الحارث وامتداد حكمه الى نجد وأطراف الحجاز والبحرين واليمامة •

لقد كانت مناطق حجر ومعد يكرب عند حدود الدولة البيزنطية ، لذا كانت لهما علاقة بها ؛ وقد ذكر ثيوفانس بأنهما قاما بحملة ضد فلسطين •

لقد كان حجر أكبر اخوته ، وكانت له بعض الاقدمية عليهم كما تدل على ذلك رواية ابن الكلبى التى يقول فيها بأن حجرا تقدم بجيش من كنانة وربيعة لاخضاع قبيلة أسد التى ثارت عليه .

وتختلف الروايات فى كيفية مقتله ، فيروى ابن الكلبى والشيبانى وابن السكيت ان حجرا ارسل جباتا لاخذ الاتاوة من أسد ، فرفضت هذه القبيلة ، فتقدم اليهم حجر بجيش من ربيعة وقيس وكنانة ، وأسر رؤساءهم وقتل كثيرا منهم بالعصا ، فسموا عبيد العصا ثم نهب أملاكهم وأمرهم بترك تهامة ، ولكن عبيد بن الابرص ألقى بين يديه قصيدة استعطفه فيها ، فعفا عنهم . ثم أن كاهنا لأسد تنبأ بموت حجر فقويت معنوياتهم وركبوا خيولهم وأعادوا عليه الكرة فقتلوه ، ودعوا كنانة وقيسا لمناصرة اخوانهم بدل أن يناصروا أجنبيا فثارت هاتان القبيلتان ونهبت متاع حجر . ويقول أبو عمرو الشيبانى بأن حجرا شعر بخطر أسد فارسل ثقله الى بعض التميميين ووعد قبيلة أسد أن يتركها اذا سمحت له بمغادرة البلاد فرضوا بذلك ولكن بعض الاسديين قتلوه فى طريق عودته . ويروى ابن السكيت ان حجرا زار أباه عند موته ، ثم عاد الى بنى أسد فظلمهم ، فلما سمع بنو أسد بموت الحارث ابى حجر ثاروا ضد حجر وأسروه ثم قتله علباء . ويروى ابن الهيثم ان حجرا جهز جيشا ليحارب أسدا ولكن علباء عاجله فقتله . ويروى اليعقوبى ان علباء هذا هو قائد الاسديين .

أما ابن قتيبة فيقول بأن حجرا ظلم أسد فتذمرت منه ، وشعر بالخطر فطلب من حنظلة المساعدة ولكن هذه اتخذت موقف الحياد ، مما أضعف مركز حجر فانكسر فى المعركة ولكنه قتل أثناء هروبه . وقد أشار امرؤ القيس الى قتل علباء لحجر بقوله :

وقصدة علباء بن قيس بن كاهل منية حجر فى جوار ابن جدان

أما شرحبيل وسلمة فقد حكما ربيعة وتميم اللتين كانتا تقطنان شرقى نجد . وقد دب الخلاف بين الاخوين بعد موت أبيهما ، وربما كان للمنذر بن ماء السماء أثر فى توسيع شقة الخلاف بينهما ، اذ يروى انه دس لكل من الاخوين من يفهمه ان الآخر يريد الاتفاق مع المنذر مما أثار ضغينتهما وقد أدى هذا الخلاف الى اشتباكهما فى القتال .

أما معد يكرب فيقال أنه جن .

وقد حاول امرؤ القيس ، وهو أصغر اولاد حجر ، أن يثأر لمقتل أبيه ويسترجع الملك ويعيد شتات الكنديين ومن الغريب ان المؤرخين لا يذكرون أى أحد من اخوته حاول الثأر لمقتل حجر • وامرؤ القيس لقب به • أما اسمه الأصلى فمختلف فيه ، فهو يروى حندج أو عدى ومليكة وسليمان ؛ وامه مختلف فى اسمها فمنهم من يقول انها فاطمة اخت كليب والمهلهل التغلبيين ومنهم من يقول ان اسمها علباء • وقد ولد فى بنى أسد كما تدل على ذلك كثرة ورود اسماء بلادهم فى شعره • وقد غضب عليه أبوه لسبب يختلف الرواة فى ايراده فان الكلبى يروى ان أباه غضب عليه لانه أحب الشعر وابن قتيبة يروى ان سبب ذلك ما ذكره امرىء القيس بما حدث فى يوم دارة جلجل • ولعل سبب غضبه عليه تكلمه فى زوجات ابيه ، فانضم الى صعاليك العرب من طى وبكر وكلب • ويروى ابن سلام بأنه التجأ بعد طرده الى عمه شرحبيل فى بنى دارم وظل هناك الى أن قتل شرحبيل ، أما ابن الهيثم فيدعى بأن امرىء القيس كان مع ابيه عند هجوم بنى أسد عليه وانه فر على حصانه ، ويروى ابن الكلبى بأنه ذهب الى دمون فى اليمامة بينما يذكر الهمدانى انها فى حضرموت حيث كان لكندة ثأر فيها • وقد ذكر امرؤ القيس دمون فى شعره مرتين •

كأنى لم ألهو بدمون مرة ولم أشهد الغارات يوما بعندل
تطاول علينا الليل دمون دمونٌ انا بعشر يمانون وانا لاهلنا محبون

ويضيف ابن الكلبى الى انه عند مقتل ابيه أرسل اليه رسول يبلغه الخبر وقد أشار الى ذلك بشعره :

أتانى وأصحابى على رأس صيلع حديث أطال النوم عنى فأنعما
فقلت لعجلى بعيد ما به ابن لى وبين لى الحديث المجمجما
فقال ابيت اللعن عمرو وكاهل اباحا حمى حجر فأصبح مسلما

وصيلع على قول ياقوت تقع فى جنوب جزيرة العرب •

أما الهيثم بن عدى فيقول بأن امرىء القيس كان فى حنظلة عند قتل أبيه ويلاحظ ان بقية اولاد حجر لم يحاولوا الثأر لابيهم ولم ينضموا الى امرىء القيس فى محاولته •

حاول امرؤ القيس أن يجلب تغلبا وبكرا الى جانبه وقد أشار الى الصعب بن عكابة فى شعره :

يحملننا والاسد النواهلا وحى صعب والوشيج الذابلا

ويقول ابن قتيبة انه استنجد بذى جدان الحميرى ولكن يلاحظ ان امرىء القيس لا يشير فى شعره الى أى حميرى .

ومهما يكن فقد عرفت قبيلة أسد باستعدادات امرىء القيس ، وحاولت تفادى الحرب ، فأرسلت كبار رجالها يسترضوه ولكنه امتنع عن مقابلتهم ثلاثة أيام فلما سألوا عن السبب اخبروهم بأنه يستعد للحرب . ويقول ابن الكلبى بأن بنى أسد لما قطعت أملها من استرضائه هاجرت من دارها فلم يلقها امرؤ القيس وهاجم كنانة للثأر من أبيه وقد أشار فى ذلك بشعره :

ألا يا لهف هند أثر قوم هم كانوا الشفاء فلم يصابوا
وقاهم جدهم ببنى أبيهم وبالاشقين ما كان العقاب
وأفلتهن علباء جريضا ولو أدركته صفر الوطاب

وقد لحق امرؤ القيس بأسد وقتل بعضهم ، ولكن بكرا وتغلبا أبتا أن تستمرا بمطاردتهم لانهما رأتا انه قد أخذ بثأره . وقد ذهب امرؤ القيس الى أزد شنوءة يطلب معونتها فرفضت معاونته ضد حليفتها أسد فذهب الى مرثد ذو جدن أحد أقيال اليمن . ولكن مرثدا مات وخلفه قرمل الذى تلكأ فى ذلك وحاول أن يصده فقال :

واذ نحن ندعو مرثد الخير ربنا واذ نحن لا ندعى عبيدا لقرمل

وقد اضطر قرمل بعد هذا أن ينجده بقوة سار بها للانتقام من أسد . وقد مر بوادى بيشة فوقف يستخير ذا الخلصة . فلما كانت الاستخارة ضد ما يريد ضرب الصنم وقال :

لو كنت ياذا الخلص الموتورا مثلى وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا

ولكنه لم يستطع أن ينتقم من أسد لان المنذر بن ماء السماء كان قد بسط نفوذه على الجزيرة فاحتمت به أسد ، وخشى من معه من الجيش بطش المنذر

وتفرقوا الا عددا قليلا من المخلصين ، فأخذ يتنقل فى القبائل يطلب معونتهم وعونهم دون جدوى • فذهب الى أياد وطى وجديلة ونبهان والى السموأل الذى أشار عليه بالذهاب الى امبراطور البيزنطيين • وقد أشار فى شعره الى استنجاده العشائر ، وخاصة المعلى الجديلى :

كأنى اذ نزلت على المعلى ... نزلت على البواذخ من شمام
فما ملك العراق على المعلى ... بمقتدر ولا الملك الشامى
أصد نشاص ذى القرنين حتى ... تولى عارض الملك الهمام
أقر حمى امرىء القيس بن حجر ... بنو تيم مصابيح الظلام

وقد سار الى القسطنطينية مارا ببعلبك وحمص وحماة وشيزر كما ذكر ذلك فى شعره :

لقد انكرتنى بعلبك وأهلها ... ولابن جريج كان فى حمص أنكرا
تقطع أسباب اللبانة والهوى ... عشية جاوزنا حماة وشيزرا

لا يذكر امرؤ القيس فيما حفظ من شعره شيئا عن مقابلته للقيصر ولكن الكتب العربية تروى بأن قيصر تلكأ فى مساعدته ، وكان فى القسطنطينية بعض أنصار بنى أسد أثاروا عليه القيصر ، فأعطاه حلة مسمومة تسمم جسمه منها بعدما لبسها • ولا ريب ان فى حديثهم هذا مسحة اسطورية وهو يدل على ان القيصر لم ينجده فمات هناك • ولعل القيصر لم يرد أن يغامر بارسال جيش مع عربى ليس له من يسنده ليحارب لمصلحة هذا العربى فقط ، لا لمصلحة الروم أنفسهم • هذا الى ان الغساسنة كانوا لما يزالوا محالفين للروم يقومون لهم ببسط النفوذ على القبائل ويعينوهم فى حربهم ضد المناذرة والساسانيين •

لا تدل الاخبار على انه كان لكندة مستوى راق من الحضارة المادية ، أو انهم ادخلوا الى الجزيرة دينا أو ثقافة جديدة • كما ان نظمهم البدوية لم تكن تختلف كثيرا عن نظم القبائل الاخرى • غير انهم انتجوا أعظم شاعر عربى جاهلى هو امرؤ القيس الذى ادخل فى الشعر العربى فنونا وأبوابا جديدة • ولا ريب ان ظهوره فى كندة يدل على ان الحركة الادبية ونظم الشعر كان راقيا فيها • ومن المحتمل انهم كانوا موئل الشعراء وملجأهم • فلما انقرضت دولتهم توجه الشعراء صوب المناذرة يقصدونهم • والواقع ان كل الشعراء الجاهليين البارزين

نشأوا فى مناطق كانت كندة تبسط نفوذها عليها • هذا الى أن هؤلاء الشعراء لم يقصدوا المناذرة الا بعد سقوط دولة كندة •

لم يحاول الكنديون فى تنظيمهم السياسى أن يغيروا النظم السياسية القبلية ؛ فتركوا كل قبيلة تحتفظ بتنظيماتها وتقاليدها بل ورؤسائها مكتفين بالاعتراف برئاستهم العليا • وبذلك كونوا نوعا من الاتحاد Confederation كانت كندة رأسه ومنظمته وموجهته فنظامها الذى اتبعته أقرب الى مجلس هيئة الامم ، أدى الى نشر الامن والسلم والحد من الخصومات والحروب الطاحنة فى الجزيرة • فلما انقرضت دولة كندة حلت دولة المناذرة محلها مدة قصيرة ثم سقطت فتفككت القبائل البدوية واستقل كل منها فى شؤونها الداخلية وأخذت تتبع مصالحها الخاصة ، وكثيرا ما كانت تحارب القبائل الاخرى • مما أدى الى اضطراب الامن والنظام وارهاق كثير من القبائل وتركها بحالة اعياء الامر الذى ساعد الاسلام فى محاولته لضم الجزيرة العربية اليه •

الفصل الثامن

مكة

أهميتها :

ان لمكة أهمية كبيرة فى التاريخ العربى والاسلام ، فقد ولد فيها النبى وعاش وبلغ رسالته لمدة عشرة سنوات ، وكانت لاوضاعها الدينية والاجتماعية الاثر الاكبر فى تكوين آرائه ومعتقداته • فقد أقر الاسلام بعضها ، وعدل بعضا ، وهاجم الكثير مما كان سائدا فيها من معتقدات وأوضاع • فمعرفة احوالها اذا ضرورية لفهم الاساس الذى قام عليه الاسلام الاول • وقد كانت فى مكة عند ظهور الاسلام ادارة خاصة لا تعتمد على السلطة التنفيذية بل على الاقناع ؛ كما كانت مركزا تجاريا نشطا وسع افق نظر أهلها وأعانهم على الاطلاع على البلاد المجاورة واحوالها ؛ هذا الى انها كانت من اكبر المراكز الدينية فى الجزيرة ، يؤمها عدد كبير من مختلف انحاء الجزيرة من القبائل المختلفة ، وقد ساعد هذا على اكساب اهلها سعة نظر ومرونة فى معاملتهم الناس • فكانت مكة مدرسة دربت اداريين استطاعوا بعد الفتح الاسلامى أن يديروا الامبراطورية الجديدة بنجاح وتوفيق •

مناخها :

وتقع مكة فى منطقة جافة مناخها قارى حار جدا فى الصيف وكان القرشيون يعذبون بعض المسلمين الاول بايقافهم فى رمضاء الصيف تعذيبا لهم • غير ان جفاف المناخ أدى الى جعلها صحية فكانت خالية من الاوبئة ، وخاصة الملاريا التى كان يعانى منها سكان المناطق ذات المياه الوفيرة كخيبر ويثرب •

وامطارها قليلة وقد تمر سنوات بدون أن يسقط أى مطر لذلك كانت مياهها شحيحة • وأصبح السكان يعتمدون على مياه الآبار للشرب ، ولكن معظم

هذه الآبار ذات مياه مالحة ، ومنها بئر زمزم . وقد ألقت قلة المياه على المسؤولين عن ادارة مكة عبء ايجاد المياه لها ، فحفروا فيها كثيرا من الآبار[١] ، وعينوا رجلا اودعوا له مهمة تدبير سقاية الحجيج ، وكثيرا ما كانوا يضطرون الى مزج الماء بالزبيب كيما يجعلوه صالحا للشرب[٢] .

غير انه اذا سقطت الامطار ، وخاصة فى الشتاء واوائل الربيع ، فانها تكون غزيرة وتسيل المياه من الجبال الى الوديان والشعاب ، مكونة سيولا قوية جارفة تهدد الابنية فى بطون الوديان ، وكثيرا ما كانت تجرف الكعبة ، وقد حاول البعض لايقاف السيول اقامة بعض السدود كى تقى محلاتهم ، فمن ذلك ردم بنى جمح وردم آل عبدالله ، ثم أقام عمر بن الخطاب سدا كبيرا استعان فى بنائه بمهندسين وبنائين من الفرس[٣] .

لا تكفى هذه المياه للزراعة ، لذلك كانت مكة « فى واد غير ذى زرع » على أن قد تنبت بعض الاعشاب مدة قصيرة من السنة فتكفى لرعى المواشى ، وقد تنبت بعض الشجيرات الصحراوية فى الجبال المحيطة بها . ويروى ان قصى عندما أراد بناء الكعبة اقتطع شجيرات كانت قائمة هناك[٤] . غير ان هذه لم تكن تكفى لسد حاجة السكان فى المواد الغذائية . لذلك كانوا يضطرون الى استيراد الاغذية من البلاد الاخرى وخاصة عن الطائف واليمامة ؛ ولكن المواد الغذائية تتوفر فيها ، وقد أشار القرآن الى ذلك « رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات » (البقرة ١٢٦) .

التجارة :

وقد أدت هذه الاحوال الجغرافية بسكانها الى الاتجاه نحو التجارة ،

---

(١) الازرقى : أخبار مكة ج ١ ص ٦٤-٦٥ ج ٢ ص ١٧٢-١٨٣ خاصة .

(٢) كذلك ج ١ ص ٦٥ .

(٣) راجع عن السدود : الازرقى ج ٢ ص ١٤٢-٤ أما عن الردم فراجع ما ذكره فى ص ١٦٥-٦ .

(٤) ابن اسحق : فى الطبرى ج٢ ص ١٨٤ سيرة ابن هشام ج١ ص ١٣٧ .

وساعدها على ذلك كونها واقعة على الطريق التجارى البرى بين اليمن والهلال الخصيب ، وهو يفضل طريق البحر الاحمر المعرضة سفنه لخطر الجزر المرجانية الكثيرة • وقد أصبحت منطقتها حرما مقدسا منع قتل الحيوان فيه أو قطع الشجرة وكانت مساحته عند ظهور الاسلام تبلغ حوالى ١٢٥ ميلا مربعا[٥] • وكانت تتخذ القوافل محطة منذ قديم الزمن ، ولا ادل على قدسية هذا المكان من تسميته فى كتب اليونان باسم مكارابو التى تعنى بلغة الحميريين المقدس •

ويبدو ان أهميتها التجارية قد جلبت أنظار الدول المجاورة ، وخاصة البيزنطيين اليها ، فاستولى عليها أليوس كالوس من طريقه الى اليمن[٦] ، كما ان قصيا عندما قام بانتزاع ملك مكة من خزاعة ، استعان بقضاعة[٧] التى نشأ فيها والتى كانت ضمن نطاق حكم البيزنطيين ؛ وقد حاول أبرهة الاستيلاء عليها بتحريض من البيزنطيين كما ان عثمان بن الحويرث الاسدى اعتمد على مساندة البيزنطيين عندما حاول أن يضع مكة تحت نفوذهم[٨] • ويروى الطبرى فى تفسير آية « ألم غلبت الروم وهم من بعد غلبهم سيغلبون » ؛ بأن قريشا كانت تميل الى الفرس[٩] ولعل ذلك راجع الى ارتيابهم فى نوايا الروم •

وقد أخذت أهمية مكة بالازدياد منذ القرن الخامس عندما سقطت الدولة الحميرية بيد الاحباش ونشبت بين الفرس والبيزنطيين حروب دامية مما عرقل التجارة العالمية المارة بالعراق ، وحمل البيزنطيين على الاهتمام بطريق البحر الاحمر الذى لم يكن تحت النفوذ الساسانى • ومع ان أنوشروان ارسل حملة احتلت اليمن ، الا أنه لم ينجح فى ايقاف التجارة ، لان اليمن كانت بعيدة عن بلاد الفرس فلم يكن بمقدور الملك الساسانى أن يوطد نفوذه فيها ويقضى على

---

(٥) أنظر فى حدود الحرم : الازرقى ج ٢ ص ١٠٤ •

(٦) أنظر ص ١٧ •

(٧) الازرقى : ج ١ ص ٥٧-٥٨ طبرى ج ٢ ص ١٨٣ • ويقول ابن قتيبة ان قيصر (ملك البيزنطيين) هو الذى أعانه ، المعارف ص ٢٧٩ •

(٨) مصعب الزبيرى : نسب قريش ص ٢١٠ •

(٩) الطبرى : مجمع البيان فى تفسير القرآن ج ٢١ ص ٣-٤ •

تجارة البيزنطيين . لذلك ظلت التجارة نشطة بين اليمن وسوريا تمر فى مكة .

على ان المكيين لم يكتفوا بأن تكون مدينتهم ممرا للقوافل فقط ؛ بل ساهموا بأنفسهم فى النشاط التجارى ، ولا ادل على ذلك من كثرة التعابير المالية والتجارية التى استعملها القرآن كالحساب والميزان والقسطاط والذرة والمثقال والقرض[١٠] ، وقد ساعدها ذلك كونها مركزا دينيا يحجه سنويا عدد كبير من العرب ، وبذلك يتيحون للمكيين سوقا تجارية للمبادلة والاستهلاك . كما انهم مدوا تجارتهم الى الاقطار الاخرى فى سوريا واليمن والحبشة والعراق .

العراق :

فأما مع العراق فقد كانت تجارتهم خاصة مع الحيرة ، والواقع ان المناذرة استطاعوا أن يمدوا نفوذهم التجارى الى أواسط وجنوب وغربى الجزيرة العربية ، وكانوا يرسلون قوافل تجارية الى الاسواق الرئيسية ومنها عكاظ ، وكانت تسمى اللطائم ، وهى تحمل المسك والمنسوجات ، وربما بعض المنتوجات الحيرية التى يستعملها العرب . وكانوا يأخذون لها الأدلاء والخفراء ويؤمنوها من هجمات القبائل الساكنة على طول الطريق التجارى[١١] . وبجانب هذا فقد كان التجار المكيون أنفسهم يذهبون الى الحيرة ليتاجروا معها حتى بعد انقراض دولة المناذرة ، ولدينا أسماء بعض من ذهب كأبى سفيان وابن جدعان وغيلان بن سلمة والمغيرة بن شعبة ومسافر بن أبى عمرو والحارث بن كلدة الذى يقال أنه درس الطب هناك .

الشام :

فأما مع الشام فقد كانت علاقتهم وثقى حيث كانوا يصدرون لها بضائع الهند واليمن ويستوردون منها الزيت والحبوب والخمر وربما الاسلحة والجوارى

---

(١٠) لقد جمع توري وحلل « التعابير التجارية فى القرآن » بكتاب موسوم بهذا الاسم (بالانكليزية) .

(١١) راجع مصعب الزبيرى ص ١٣٦ الاغانى ج ١٩ ص ٧٥ ج ٢٠ ص ١٣٤ ابن سعد ج ٢ ص ٦ وقد بحث لامنس فى كتابه « مكة فى أيام الهجرة » (بالفرنسية) وفى مقالته عن مكة فى دائرة المعارف الاسلام أحوال مكة ونشاطها التجارى بالتفصيل .

والمنسوجات • والواقع انه كان فى مكة عند ظهور الاسلام عدد من الاغريق العبيد والمحررين منهم صهيب وسنان وزيد بن حارثة ربيب النبى • وكانت القوافل التجارية تذهب سنويا فى الصيف وكل قافلة تضم اعدادا ضخمة من الرجال ، وكانت تجاراتهم تذهب الى غزة حيث دفن هاشم جد النبى ، والى أيلة وبصرى ، فكانت الاولى ميناء فلسطين وربما كانت الثانية ميناءا تنقل منه البضائع الى مصر • ولا يخفى انه كان للعرب تجارة مع مصر وكان المكيون يذهبون اليها كما نعلم ذلك من حياة عمرو بن العاص •

الحبشة :

ولم تؤثر غزوة أبرهة على تجارة مكة مع الحبشة كثيرا ، بل سرعان ما عادت الى الانتظام الذى كانت عليه فى السابق ، فكانت أرض الحبشة متجرا لقريش يتجرون فيها ويجدون فيها رفاغا من الرزق وامنا ومتجرا حسنا[١٢] وقد اختارها المسلمون الاول ملجأ لهم من اضطهادات قريش ، كما ذهب وفد من أهل مكة الى النجاشى يطلب ردهم • وقد ذهب اليها عمرو بن العاص كذلك[١٣] • وكانت هذه التجارة تجرى بطريق البحر ، فكانت الجار ميناء المدينة[١٤] والشعيبة ميناء مكة[١٥] • وقد تردد ذكر السفن والجوارى المنشآت فى البحر فى القرآن ، كما تردد فيه ذكر تجارة البحر وما اليها • والراجح ان المكيين لم يكونوا ملاحين أو ملاكين للسفن ، ويبدو أنهم كانوا يجهلون الملاحة ويتهيبون ركوب البحر ، فأغلب السفن فى البحر الاحمر لابد وان كانت مصرية أو حبشية أو عدولية[١٦] • ميناء الصومال • وقد بنى القرشيون الكعبة بأخشاب سفينة حبشية تحطمت على

---

(١٢) طبرى ج ٢ ص ٢٣١ •

(١٣) طبرى ج ٢ ص ٢٢٥ ج ٣ ص ١٠١ أغانى ج ٨ ص ٥٢ •

(١٤) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٥ ، البكرى : معجم ما استعجم ص ٣٣٥ • ابن حوقل : المسالك والممالك ج ١ ص ٣١ •

(١٥) طبرى ج ٢ ص ٢٢١ •

(١٦) أنظر عن الملاحة البحرية عند ظهور الاسلام كتابى : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة ص ٢٢٧ فما بعد •

ساحلهم[١٧] ، وجاء عدد غير قليل من اهل اليمن الى الحجاز بالبحر .

اليمن :

أما تجارة اليمن فكانت تجرى فى الشتاء وكانت أغلبها من العطور والجلود والاقمشة والسيوف .

التجـار :

لقد اشـتهر المكيون بالتجارة فمن لم يكن تاجرا لم يكن عندهم بشى[١٨] ، وقد قيل ان تسعة أعشار الرزق فى التجارة . وكانت تجاراتهم متنوعة : وقد عدد بعض المؤرخين التجارات التى كان يمتهنهـا أشراف مكة فهى منوعة فمنهم تاجر الأرز والحبوب والخيـاطة والحيـاكة والخمر والزيت والاسـلحة والسـيوف والنبل[١٩] . ولم تكن التجارة مقصورة على الرجال بل شاركت فيهـا النساء ، ولعل أبرز مثل على ذلك خديجة زوجة النبى وهند بنت عبدالمطلب . وقد نقل المهاجرون مهارتهم فى التجارة معهم الى المدينة فجعلوها مركزا تجاريا ينافس مكة بعد أن كانت بلدا زراعيا . وقد ضرب المثل بمهارة بعضهم فى التجارة فقيل عن عبدالرحمن بن عوف انه كان يحصـل الذهب من الحجـارة[٢٠] . ورغم أنهم جاؤا المدينة ولا مال لهم فقد استطاعوا بمدة وجيزة أن يحصلوا على ثروات طائلة ، فاستطاع عثمان أن يجهز فى حملة تبوك ألف بعير[٢١] ، وجهز عبدالرحمن بن عوف عددا من الجمال كذلك .

وكان بعض هؤلاء التجار يقوم بالتجارة لنفسه مسـتقلا ، ولكن الغالب ان التجارة الخارجية كان يساهم فيها عدد كبير ، فالقافلة التى هاجمها المسلمون فى

---

(١٧) طبرى ج ٢ ص ٢٠٠ الازرقى ج ١ ص ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٤ .
(١٨) أغانى ج ١١ ص ٦٧ .
(١٩) ابن قتيبة : المعارف ص ٢٤٩ .
(٢٠) ابن حنبل : المسند ج ٣ ص ٢٧١ ج ٦ ص ١١٧ .
(٢١) أغانى ج ١٣ ص ١ـ٥ .

قردة بلغ خمسها عشرين ألفا[٢٢] ، أى ان تجاراتها كانت حوالى مائة ألف ، كما ان القافلة التى هاجمها المسلمون فى بواط كانت مكونة من ألفين وخمسمائة بعير[٢٣] ، ويقال ان القافلة التى أرادوا مهاجمتها فى بدر » لم يكن من قريش بيت الاوله فيها شىء[٢٤] » . وكان أصحاب التجارة يسيرون مع القافلة أو يرسلوا شريكا لهم أو أجيرا ، أو عبدا ، على ان القوافل كانت تنظم بصورة اجماعية ، فيعين لها رئيس وحراس وأدلاء وأناس يعملون فيها ، هذا الى عدد من التجار الذين يرافقونها ويمهد لسيرها عادة باتفاقات دبلوماسية مع رؤساء القبائل التى تمر فيها لكى لا تنهب أو يعتدى عليها . وكذلك تجرى اتصالات مع الدول التى تقصدها ، وتدعى هذه الاتفاقات بالايلاف ، وقد ذكرها القرآن فى سورة قصيرة خاصة ، ويروى ان اول من أخذ الايلاف هشام[٢٥] .

وكان بعض التجار يتخذون لهم شركاء بشروط مختلفة[٢٦] لا نعلم عن تفاصيلها شيئا سوى شركة القراض التى يعطى فيها الغنى مالا لرجل يستعمله فى التجارة على أن يقتسموا الربح بنسبة يتفقون عليها . ومن المحتمل أن بعضهم انشأ له فروعا تجارية مع البلاد التى كان يتاجر معها ؛ هذا الى أن بعض أهل البلاد الاخرى انشأوا لهم فى مكة فروفا تجارية مستقلة أو بالاشتراك مع المكيين . والراجح إن أغلب الحلفاء فى مكة كانوا من هؤلاء الوكلاء التجاريين ، ولدينا أسماء عدد منهم .

الصيرفة :

لم يقتصر نشاط أهل مكة على التجارة فقط بل قاموا بأعمال الصيرفة كذلك .

---

(٢٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ١ قسم ٢ ص ٢٥ . المسعودى : التنبيه والاشراف ص ٢١٠ .

(٢٣) ابن سعد : ج ١ قسم ٢ ص ٢ . المسعودى : ص ٢٠٢ .

(٢٤) ابن سعد : ج ١ قسم ٢ ص ٢ .

(٢٥) طبرى : ج ٢ ص ١٨١ ، سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٧ . المحبر : ص ١٦-١٧ .

(٢٦) ابن سعد : ج ٤ ص ٣٢ ، ٥١ . ابن حنبل : ج ٤ ص ٦ . طبرى : ج ٣ ص ٩٦ .

وقد استفادوا من موقعهم المتوسط بين الامبراطورية الساسانية التى تستعمل الفضة ، والبيزنطيين الذين كانت عملتهم ذهبية ، فأخذوا يقومون بأعمال الصيرفة • وكان لاستقلال مكة أثر فى اعطاءها حرية واسعة فى مبادلة العملة بدون قيد ، اذ لم تكن تفرض على العملة سعرا رسميا ، بل كانت تقدر قيمتها بحسب وزنها باعتبارها معدنا • وهكذا كانت النقود ، وخاصة الكميات الكبيرة منها تقدر بالوزن كالقنطار والاوقية والنش والمثقال ، وأغلب ما ورد فى القرآن عن الثروات ، كان يقدر بالوزن لا بالعد كالقناطير والمثاقيل • وكانت النقود التى ترد مكة فضية من الساسانيين واليمن ، أو ذهبية من الدولة البيزنطية[٢٧] • ولا ريب أنه كان للدينار البيزنطى أهمية كبرى لدقة عياره وسكه وأهميته فى التجارة الخارجية ، وخاصة مع الهند حيث كان يستخدم الذهب فقط فى التبادل •

ولم تكن مهمة الصراف هينة • اذ كان عليه أن يكون ذا معرفة بالمعادن ليميز جيدها من رديئها ، كما كان عليه أن يعرف وزنها ، وأن يعرف الاسعار العالمية لكى يقدر سعر التبادل • وهذا أمر ليس بالسهل •

الربا :

لقد كان المثرون يقومون بأعمال التجارة والصيرفة بمفردهم أو يكونون شركات ولم تكن أعمالهم مقصورة على نوع واحد من التجارة • بل حيثما وجدوا الربح • وفى كثير من الاحيان يقومون بالاقراض ولم يكن لهم على اقراضهم ضمان الا الثقة • اذ لم تكن هناك سلطة تجبر المدين على دفع دينه وهذا قد يحمل المدين على العصيان وعدم الدفع • لذلك قلما كانوا يدينون البدو لصعوبة استرجاع دينهم منهم • هذا الى أنهم كانوا يفرضون فوائد عالية على ديونهم ، وقد أشار القرآن الى ذلك فى القرآن بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » (آل عمران ١٣١) كما حرمه ووصفه « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ، ومن عاد

---

(٢٧) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥١ فما بعد •

فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (البقرة ٢٢٧) « وما أتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله » (الروم ٣٩) .

لقد كان على الدائن أن يسترجع دينه بنفسه ، وهذا لا يتم الا بعد الحاح شديد . وقد حفظ الأدب العربى كثيرا من الاقوال والاشعار التى تصور الحاح الدائن وتهرب المدين .

يؤمنك منهـــا طارق كل ليـلة حثيث كما وافى الغريم المداين[٢٨]

وكل غريـم حظه جحـــد ماله اذا شح يوما أو أســاء التقاضيا[٢٩]

من أفلس الناس من دين ومن حسب وأظلم النـاس طرا للمساكين[٣٠]

وقد حملت هذه المعاملة البعض على وصم التجار بأشنع الاوصاف فقالوا ان التجار هم الفجار .

الطوبوغرافيا :

تقع مكة فى وادى طويل تحيطه الجبال من معظم الجهات وتخفيه ، حتى ان أبنيتها لا ترى للقادم الا اذا اقترب منها وأطل على الوادى ، وقد سهلت هذه الجبال على أهلها مهمة الدفاع عنها[٣١] . غير ان فى هذه الجبال وديانا وشعابا تجرى فيها السيول بعض الامطار ، وكثيرا ما تهدد أبنية مكة ، وقد أغرقت الكعبة وهدمتها عدة مرات . كما ان هذه الشعاب كانت ملجأ لمن يكره أهل مكة أو يكرهونه ؛ وقد اتخذ المسلمون من بعض هذه الشعاب لهم مركزا يقيمون فيه طقوسهم الدينية وعباداتهم بمأمن من أعين النظار[٣٢] ، كما لجأوا اليها عندما قاطعهم القرشيون .

---

(٢٨) البكرى : معجم ما استعجم ص ١٢٦٨ .

(٢٩) أغانى : ج ١ ص ١٣ ، ٣٧ .

(٣٠) البحترى : الحماسة ص ١٤١٥ .

(٣١) الازرقى : ج ١ ص ٣٨ .

(٣٢) ابن هشام : السيرة ج ١ ص ٢٦٥ ، ٢٧٥ الطبرى : ج ٢ ص ٢١٣ (عن ابن اسحق) .

السكان :

ويرجع تاريخ مكة الى عهود قديمة ، فقد ذكرها بطليموس باسم مكرابو[٣٣] ، أى المقدسة مما يدل على قدم قدسيتها ، ويزعم بعض النسابين العرب ان آدم نزل فيها ، ويذكر القرآن ان ابراهيم نزل فيها ودعى « رب اجعل هذا البلد آمنا وارزقه من كل الثمرات » .

وقد ورد ذكرها فى القرآن باسم مكة (الفتح ٢٤) ، وبكة (آل عمران ٩٦) ، وأم القرى (الانعام ٩٢) (الشورى ٧) وقد أشار القرآن الى المناطق التابعة لها وسماها حاضرى المسجد الحرام (البقرة ١٩٦) .

ويذكر الطبرى فى تفسير هذه الآية ان حاضرى المسجد الحرام هم عرفة وعرنة ومرو ضجنان والرجيع ونخلتان[٣٤] .

وتروى المصادر العربية انه كانت السيادة فى مكة فى القديم لجرهم ، ثم انتزعها منهم خزاعة ، ثم انتزع قصى السيادة من خزاعة[٣٥] ، وبذلك جعل لقريش المكانة الاولى ، ولكنه ترك بعض الوظائف الدينية بيد أصحابها القدماء كما سنتحدث فى آخر هذا الفصل .

قريش :

لا نعلم تفاصيل عن مكانة قريش ونشأتها فى القديم ؛ فان النسابين العرب يذكرون ان أصلهم يرجع الى ابراهيم الخليل ، حيث تحدروا من ابنه اسماعيل الذى أسكنته أمه فى هذا الوادى غير ذى الزرع . ويختلف النسابون اختلافا كبيرا فى شجرة النسب[٣٦] ، ويظهر البعض ارتيابهم فى القيمة التاريخية للاسماء التى تذكر بين عدنان واسماعيل .

---

(٣٣) جغرافية بطليموس الكتاب السابع (نقلا عن دائرة المعارف الاسلامية مادة مكة) .

(٣٤) مجمع البيان فى تفسير القرآن : ج ٢ ص ١٤٩-١٥٠ .

(٣٥) الازرقى : ج ١ ص ٥٩-٦١ ، ابن سعد : الطبقات ج ١ قسم ١ ص ٤٠ ، ابن هشام : ج ١ ص ١١٧ ، ١٣٠ .

(٣٦) راجع فى اختلاف النسابين الطبرى ج ٢ ص ١٩١-١٩٤ .

ومهما يكن فان القبائل الشمالية كلها تحدرت من نسل اسماعيل ، كما اختلفوا فى تعيين أول من سمى باسم قريش ، وفى معنى هذه الكلمة ، وقد اجمل الطبرى ذلك فى قوله « وقيل سميت قريش قريشا بقريش بن بدر بن يخلد بن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة ، وبه سميت قريش قريشا لا عير بنى النضر كانت اذا قدمت قالت العرب قد جاءت عير قريش ؛ قالوا وكان قريش هذا دليل بنى النضر فى أسفارهم وصاحب مبرتهم ، وكان له ابن يسمى بدرا .. وقال ابن الكلبى انما قريش جماع نسب ليس بأب ولا أم ولا حاضن ولا حاضنة ، وقال آخرون انما سمى بنو النضر بن كنانة قريشا لان النضر بن كنانة خرج يوما على نادى قومه فقال بعضهم لبعض انظروا النضر كأنه جمل قريش ، وقيل انما سميت قريش قريشا بدابة تكون فى البحر تدعى القرش ، فشبه بنو النضر بن كنانة بها لانها أعظم دواب البحر قوة وقيل ان النضر بن كنانة كان يقرش عن حاجة الناس فيسدها بماله ، والقرش فيما زعموا التفتيش ، وكان بنوه يقرشون أهل الموسم عن الحاجة فيسدونها بما يبلغهم .. وقيل ان النضر بن كنانة كان اسمه قريشا ، وقيل بل لم تزل بنو النضر بن كنانة يدعون بنى النضر حتى جمعهم قصى بن كلاب فقيل لهم قريش من اجل ان التجمع هو التقرش فقالت العرب تقرش بنو النضر أى قد تجمعوا ، أو قيل انما قيل قريش من اجل انها تقرشت عن الغارات .. وعن محمد بن سعد .. سميت قريش قريشا حين اجتمعت الى الحرم من تفرقها فذلك التجمع التقرش ، قال عبدالملك ما سمعت هذا ولكن سمعت ان قصيا كان يقال له القرشى ولم يسم قريشى قبله[٣٧] » .

ويتبين من هذا النص ان قريش ليست اسم شخص بل هو اسم سمكة أو طوطم ، أو صفة أطلقت اما على (١) قريش بن بدر بن يخلد ، ويؤكد هذه الرواية مصعب الزبيرى[٣٨] وابن حزم[٣٩] . أو على (٢) النضر ويؤيد ذلك

---

(٣٧) الطبرى : ج ٢ ص ١٨٧ .
(٣٨) مصعب الزبيرى : نسب قريش ص ١٢ .
(٣٩) ابن حزم : جمهرة النسب ص ١٠ .

ابن دريد[٤٠] وأبى الفرج الاصبهانى[٤١] والازرقى[٤٢] . أو على (٣) فهر ويؤيد ذلك ابن الكلبى[٤٣] ، ومصعب الزبيرى وابن قتيبة[٤٤] وأخيرا يدعى البعض انها تطلق على قصى[٤٥] .

قصى :

ولا ريب ان اول رئيس بارز هو قصى الذى استطاع أن ينتزع السيادة والادارة المكية من خزاعة ، بعد أن عاونته كنانة وقضاعة كما سنتحدث عند البحث عن نسب الرسول . وينسب اليه انه اول من قسم قريش الى بطون ، وميز بين قريش الظوهر والبطاح[٤٦] ، على اننا لا نعلم بالضبط طبيعة وماهية هذا التقسيم ، ولا الاساس الذى استند عليه ، ولا فيما اذا كان قد اقتبسه من البلاد الاخرى أم أنه كان قائما على تنظيم القبائل القائمة فى عصره . على انه من المؤكد ان الاسماء التى ترددها كتب النسب لمن تحدر من النضر أو فهر عددها أقل مما يكفى للاعتماد عليه فى القيام بحركات مؤثرة لانتزاع السيادة من خزاعة ؛ فان الاسماء التى يذكرونها هى أجداد العشائر التى كانت فى زمن النبى ، ولابد ان عددا كبيرا من الاشخاص أغفلت اسماؤهم .

لقد كانت قريش عند ظهور الاسلام منقسمة الى قسمين هى قريش البطاح وقريش الظواهر .

البطاح :

فاما قريش البطاح فهى البطون التى كانت تسكن فى مكة نفسها ، ويحتكر رجالها الادارة والوظائف الكبرى ، ومنهم التجار والرأسماليون والمثرون الذين

---

(٤٠) ابن دريد : الاشتقاق ص ١٨ .
(٤١) الاغانى : ج ١ ص ١٢ .
(٤٢) الازرقى : ج ١ ص ٦١ .
(٤٣) الطبرى : ج ٢ ص ١٨٦ .
(٤٤) ابن قتيبة : المعارف ص ٣١ .
(٤٥) الازرقى : ج ١ ص ٦١ .
(٤٦) ابن سعد : الطبقات ج ١ قسم ١ ص ٢٥ . المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٥٨ .

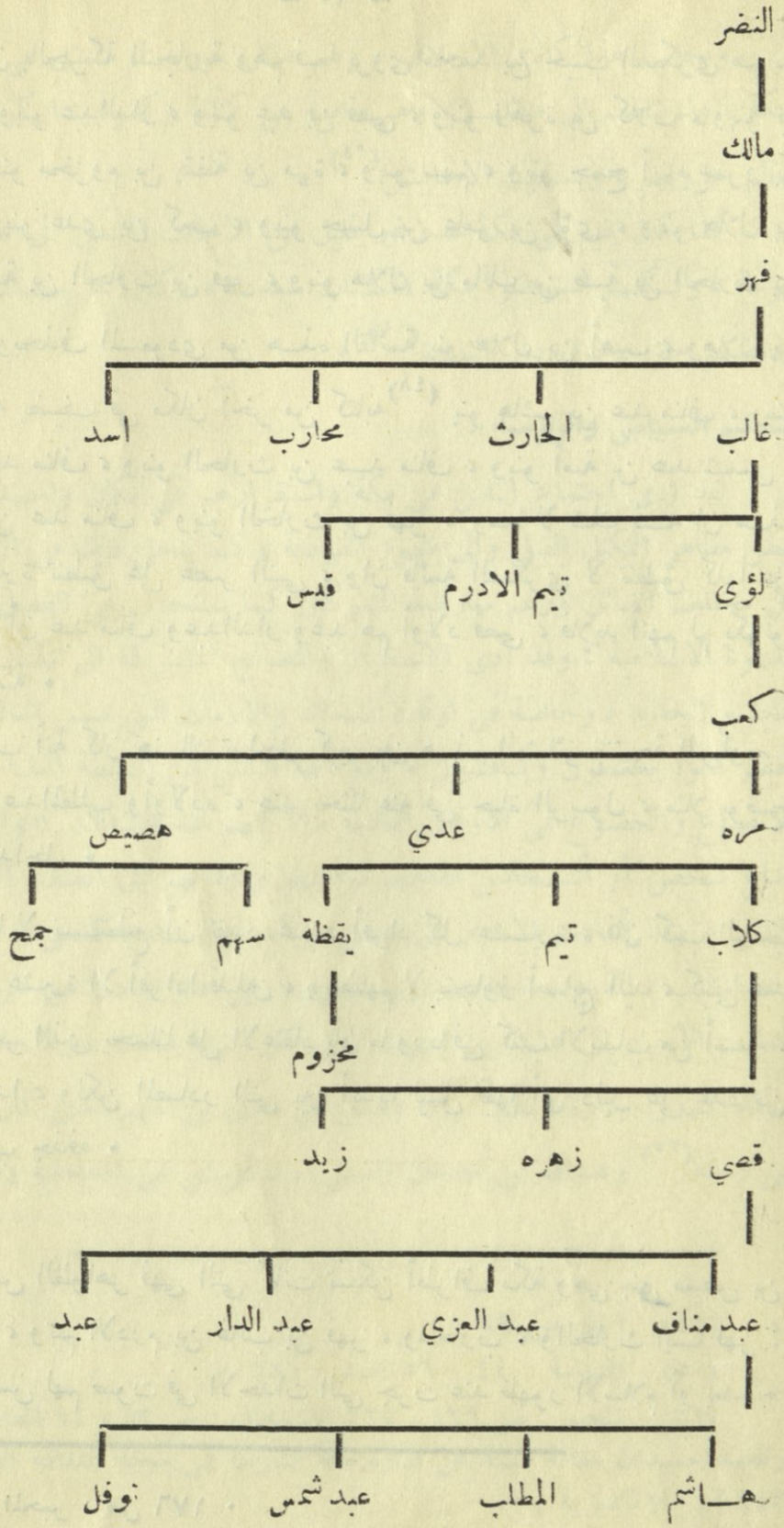
النضر
مالك
فهر
غالب
الحارث
محارب
اسد
لؤي
تيم الادرم
قيس
كعب
مره
عدي
هصيص
كلاب
تيم
يقظة
سهم
جمح
مخزوم
قصي
زهره
زيد
عبد مناف
عبد العزي
عبد الدار
عبد
هاشم
المطلب
عبد شمس
نوفل

كانوا يقومون بالحركة التجارية وهم فيما يروى محمد بن حبيب السكرى هم بنو عبد مناف ، وبنو عبدالدار ، وبنو عبد بن قصى ، وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو تيم بن مرة ، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة ، وبنو سهم ، وبنو جمح أبناء عمرو بن هصيص ، وبنو عدى بن كعب ، وبنو حسل بن عامر بن لؤى ، وبنو هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر ، وبنو هلال بن مالك بن ضبة بن الحارث بن فهر[٤٧] . ويحذف المسعودى من هـذه القائمة بنو هلال بن أهيب ، وهلال بن مالك ، ولكنه يضيف فى مكان آخر من كتابه[٤٨] بنو هاشم بن عبد مناف ، وبنو المطلب بن عبد مناف ، وبنو الحارث بن عبـد مناف ، وبنو أمية بن عبد شمس ، وبنو نوفل بن عبد مناف ، وبنو الحارث بن فهر . ومما لا شك فيـه ان هـذه الاضافة الاخيرة تنطبق على عصر النبى ، وان قائمة السكرى لا تنطبق كلها على زمن قصى اذ أن عبد مناف وعبدالدار وعبد هم أولاد قصى ، فلابد أنهم لم يكونوا عشائر فى زمنه .

ولا ريب أنه كان هنـاك تداخل كبير بين هـذه العشائر بنتيجة التزاوج ، وسنأخذ عن عبدالمطلب وأولاده ، عند بحثنا عنه فى حياة الرسول ، مثلا يوضح مثل هـذا التداخل .

كما اننا لا نسـتطيع أن نقدر عـدد أفراد كل عشـيرة ، فان كتب النسب لا تذكر لكل عشيرة الا أفرادا قليلين ، وبعضهم لا يتجاوز أصابع اليد ، كبنى عبد بن قصى ، الامر الذى يحملنا على الاعتقاد بأن ما ورد فى كتب الانساب من أسماء ، هى ناقصة جدا ، ولكن المصادر التى بين أيدينا ليس فيها أى دليل على عدد من حذف أو سبب حذفه .

الظواهر :

أما قريش الظواهر فهى التى كانت تسكن أطراف مكة وهى بنو معيص بن عامر بن لؤى ، وتيم الادرم بن غالب بن فهر ، ومحارب ، والحارث ابنـا فهر ؛ ويلاحظ انه ليس لهم صوت فى الاحداث التى جرت عند ظهور الاسلام أو بعده .

---

(٤٧) المحبر : ص ١٧٦ .

(٤٨) مروج الذهب : ج ٢ ص ٥٨ ، ١٧٦ .

وبجانب هذا كانت الاحلاف ، وهم قبائل بدوية لم تتمثل فى النظام القائم بمكة ، ولم تنضم الى قبائلها ، وهم خاصة من كنانة وكانوا يشاركون المكيين فى معظم حروبهم ، ويسمون الاحابيش[٤٩] .

كما كان يقيم فى مكة عدد غير قليل من الاجانب المنتمين الى عشائر أو أمم منوعة ، ولكنهم استوطنوا مكة لاسباب متعددة ، وكثيرا ما يسكنوا الشعاب ، ولبعضهم حق دخول دار الندوة[٥٠] .

التنظيم السياسى والرؤساء :

لقد أدى اجتماع الناس فى مكة واستقرارهم فى مكان واحد الى تضحية بعض مظاهر التكتل القبلى والى ظهور الفردية ، كما يتجلى ذلك فى انتشار الاسلام بين مختلف القبائل ورغم معارضة المشركين كما سنتحدث فى الفصل الخاص فى الدعوة الاسلامية ؛ وقد أدى الاستقرار والمصالح المشتركة الى تكيف الناس نحو المجتمع الجديد ، وخاصة فى اوقات الشدائد والازمات التى تمس الغالبية العظمى ، حيث كانوا يجتمعون ويتناقشون . ومع أنفة الناس من السلطة العليا وعدم رغبتهم للانصياع والخضوع فى الاوقات العادية ، الا أنهم عند الشدائد كانوا لا يعارضون أتباع شخص أو أشخاص تقدمهم مواهبهم وقابلياتهم الى الصف الاول ليقودوا الناس . وقد أشارت الاخبار الى بعض هؤلاء الرؤساء ، كقصى ، وعبد مناف ، وعبدالمطلب ، الذين سنتحدث عنهم بتفصيل أوفى عند البحث عن الرسول . وقد أشارت الاخبار الى هشام بن المغيرة الذى كان سيدا مطعاما ، ولما هلك نادى مناد بمكة اشهدوا جنازة ربكم[٥١] ، وقيس بن عدى بن سهم الذى كان سيد قريش فى زمانه[٥٢] وعبدالله بن جدعان التيمى سيد قريش فى الجاهلية وفى داره كان

---

(٤٩) أنظر ص ٩٩ .

(٥٠) النهاية : ٤٤ ، ٥٩ أسد : ٣٨١ .

(٥١) المحبر : ص ١٣٩ ، ٤٢٧ الاشتقاق : ص ٦٣ ، ٩٤ المعارف : ص ٣٢ ولمحمد حميدالله مقالة قيمة عن ادارة مكة نشرها فى مجلة الثقافة الاسلامية سنة ١٩٤٣ (بالانكليزية) .

(٥٢) جمهرة النسب : ص ١٥٦ .

حنف الفضول[٥٣] ، كما كان أبو سفيان شيخ قريش وكبيرها وسيدها المطاع الذى كان يقود القوافل ويتزعم الحروب ضد الرسول[٥٤] . ويقول محمد بن حبيب السكرى « فلما هلك حرب بن أمية ، وكان حرب رئيسا بعد عبدالمطلب ، تفرقت الرياسة والشرف فى بنى عبد مناف ، فكان فى بنى هاشم : الزبير وأبو طالب والحمزة والعباس بنو عبدالمطلب ؛ وفى بنى أمية : أبو احيحة وهو سعيد بن العاص بن أمية وهوذ والعمامة كان لا يعتم أحد بمكة بلون عمامته اعظاما له . وهو قول الشاعر :

فتاة أبوها ذو العمامة منهم ومروان ما اكفاؤها بكثير

وفى بنى المطلب : عبد يزيد بن هاشم بن الاطلب ، وعبد يزيد هذا هو المحض لاقذى فيه ، وفى بنى نوفل المطعم بن عدى بن نوفل ، وفى بنى أسد بن عبدالعزى : خويلد بن أسد ، وعثمان بن الحويرث بن أسد[٥٥] » .

ولما لم يكن من السهل عمليا فى الاوقات الاعتيادية جمع كافة الناس ومناقشتهم فى الامور العامة ، لذا كان لابد من اختيار ذوى القابليات الخاصة ليقوموا بأمر بحث الأمور العامة ومناقشتها ، وقد اشار اليهم القرآن باسم الملأ .

دار الندوة :

كان هذا الملأ يجتمع منذ زمن مضى فى دار الندوة التى كانت تقع قرب الكعبة من جهة الشمال[٥٦] ، ولعل الغرض من اقامتها قرب الكعبة هو اسباغ شىء من الحرمة لها . ولم تكن دار الندوة من الابنية العامة ، بل هى ملك خاصة لبنى عبدالدار ، توارثوها حتى صارت لعكرمة بن عامر بن هشام الذى باعها لمعاوية بن أبى سفيان بمائة ألف دينار[٥٧] . وليس فى الكتب اشارة الى سلطة مالكى دار

---

(٥٣) اشتقاق : ص ٨٨ نسب قريش : ص ٢٩١ أغانى : ج ٨ ص ٢-٣ .
(٥٤) الطبرى : ج ٣ ص ٤٤ ، ٧٧ .
(٥٥) المحبر : ص ١٦٤ .
(٥٦) الازرقى : ج ٢ ص ٧٤ .
(٥٧) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٢ ص ٥٢٤ ، ويقول مصعب الزبيرى ان حكيم بن حزام اشتراها من هشام ثم باعها لمعاوية (نسب قريش ص ٢٥٤) . أنظر ايضا ابن الاثير : أسد الغابة ج ٢ ص ٤١ .

الندوة أو الرسوم التى كانوا يتقاضونها .

لقد كانت قريش لا تقضى أمرا الا فى دار الندوة ، فهى أشبه بمجلس السناتو ، تجرى فيها المناقشات والمباحثات فى الامور المهمة كالاشتراك فى الحروب أو عقد المعاهدات والاتفاقات أو تجهيز القوافل وتنظيمها ، ويروى ايضا ان الفتيات اذ بلغن أدخلن فيها فشقت جيوبهن[٥٨] ومعنى هذا انه كان يجرى فيها ما يشبه عند الاغريق الاقرار بالوصول الى سن المواطنة والايجات .

يروى ابن جريج وابن اسحق انه لم يكن يدخلها من قريش من غير ولد قصى الا ابن اربعين سنة للمشورة ، وكان يدخلها ولد قصى كلهم اجمعون ، وحلفاؤهم[٥٩] . ولا ريب ان هذا النص قد ينطبق على الاوضاع أيام قصى حيث كان عدد أولاده محدودون معينون ولا يمكن أن ينطبق على أيام ظهور الرسول حيث أصبح عدد أحفاد قصى يكونون عددا كبيرا . ويلاحظ ان كتب السيرة رووا عن أحد اجتماعات دار الندوة للنظر فى أمر المسلمين ، فقد حضرها ، حسب ما روى ابن اسحق ، من بنى عبد شمس عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ؛ ومن بنى نوفل بن عبد مناف طعيمة بن عدى وجبير بن مطعم والحرث بن عامر بن نوفل ؛ ومن بنى عبدالدار النضر بن الحارث بن كلدة ؛ ومن بنى أسد بن عبدالعزى أبو البخترى بن هشام وزمعة بن الاسود بن المطلب وحكيم بن حزام ؛ ومن بنى مخزوم أبو جهل ؛ ومن بنى سهيم نبيه ومنبه أبنا الحجاج ؛ ومن بنى جمح أمية بن خلف[٦٠] ، أى من كل قبيلة بين الشخص والثلاثة .

ولكن ذلك لم يكن ليراعى بدقة ، فقد دخلها حكيم بن حزام وعمره خمسة عشر سنة[٦١] ، ودخلها أبو جهل وعمره ثلاثون سنة[٦٢] .

لم تكن للملأ سلطات تنفيذية ، فكان لابد أن تكون قراراته بالاجماع اذا

---

(٥٨) الطبرى : ج ٢ ص ٢٤٢ . الاشتقاق : ص ٩٧ .
(٥٩) الازرقى : ج ١ ص ٦١ .
(٦٠) الطبرى : ج ٢ ص ٢٤٣ . ابن هشام : ج ٢ ص ٩٣ .
(٦١) ابن عساكر : تاريخ دمشق ج ٤ ص ٤١٩ .
(٦٢) الاشتقاق : ص ٩٧ .

أريد تنفيذها ، ولكن بمقدور الاكثرية اذا أقرت قرارا أن تقاطع معارضيها أو تستخدم الضغط الاجتماعى ضدهم .

وبجانب هذا فقد كان لكل قبيلة ناد أو مجلس خاص تجرى فيه المسامرات والمناقشات ، وقد أشار القرآن الكريم الى النوادى فى بعض الآيات « فليدع ناديه سندع الزبانية » (العلق ١٧) « تأتون فى ناديكم المنكر » (العنكبوت ٢٩) .

الوظائف الدينية :

ونظرا لان مكة مركز دينى مهم يحجه سنويا عدد كبير من الناس ، فان هذا دعى الى ظهور عدة وظائف للقيام بما يتطلبه الحج ؛ ومع ان هذه الوظائف متصلة بالدين وأموره ، الا انها ليست وظائف دينية بالمعنى الدقيق ، بل تتطلب مهارة وأسلوبا خاصا وقابلية منظمة ومالا للقيام بخدمات العدد الكبير من الحجاج .

وكانت أغلب هذه الوظائف قديمة جدا ، ولما ظفر قصى سيادة مكة أبقى بعضها بيد أصحابها القدماء ويقول الطبرى انه بعد جرهم (وليت خزاعة البيت ، غير انه كان فى قبائل مضر ثلاث خلال : الاجازة بالحج للناس من عرفه وكان ذلك الى الغوث بن مر وهو صوفة ، فكانت اذا كانت الاجازة قالت العرب اجيزى صوفة ، والثانية الافاضة من جمع غداة النحر الى منى ، فكان ذلك الى بنى زيد بن عدوان ، فكان آخر من ولى ذلك منهم أبو سيارة عميلة بن الاعزل بن خالة بن سعد بن الحارث بن وابش بن زيد ، والثالثة النسىء للشهور الحرم فكان ذلك الى القلمس وهو حذيفة بن فقيم بن عدى من بنى مالك بن كنانة ثم بنيه ، حتى صار ذلك الى آخرهم أبى تمامة وهو جنادة بن عوف بن أمية بن قلع بن حذيفة ، وقام عليه الاسلام وقد عادت الحرم الى أصلها فأحكمها الله وابطل النسىء)[٦٣] .

ويروى الطبرى ايضا عن ابن اسحق ان قصيا قد أقر للعرب فى شأن حجهم ما كانوا عليه ، وذلك لانه كان يراه دينا فى نفسه لا ينبغى له تغييره ، وكانت صوفة على ما كانت عليه حتى انقرضت صوفة فصار ذلك من أمرهم الى آل صفوان بن الحارث بن شجنة وراثة ، وكانت عدوان على ما كانت عليه ، وكانت النسأة

---

(٦٣) الطبرى : ج ٢ ص ١٩٩ . المسعودى : ج ٢ ص ٥٧ . ابن هشام : ج ١ ص ٤٥ .

من بنى مالك بن كنانة على ما كانوا عليه ومرة بن عوف على ما كانوا عليه فلم يزالوا على ذلك حتى قام الاسلام فهدم الله به ذلك كله(٦٤) . ويقول محمد بن حبيب السكرى ان أئمة العرب بعد عامر بن الضرب (العدوانى) فى مواسمهم وقضاتهم بعكاظ (بنو تميم) .. وكان ذلك يكون فى أفخاذهم كلها ، ويكون الرجلان يليان هذا من الامرين جميعا ، عكاظ على حدة ، والموسم على حدة ، فكان من اجتمع له الموسم والقضاء سعد بن زيد مناة بن تميم ، ثم تولى ذلك حنظلة بن زيد مناة بن تميم ، ثم تولاه ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ، ثم مازن بن مالك بن عمرو بن تميم ، ثم ثعلبة بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة ثم معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم ، ثم الاضبط بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة ، ثم صلصل بن اوس بن مخاشن بن معاوية بن شريف بن جردة بن أسيد ، ثم سفيان بن مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة ؛ فكان سفيان آخر تميمى اجتمع له الموسم والقضاء بعكاظ ، فمات سفيان فافترق الامر ، فلم يجتمع الموسم والقضاء لاحد منهم حتى جاء الاسلام ، فكان محمد بن سفيان بن مجاشع يقضى بعكاظ ، فصار ميراثا لهم فكان آخر من قضى بينهم الذى وصل الى الاسلام الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان وأجاز بالموسم بعد صلصل بن اوس العلاق بن شهاب بن لؤى ، من بنى عوافة بن سعد بن زيد مناة ، فكان آخر من أفاض بهم كرب بن صفوان بن جناب بن شجنة بن عطارد بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة(٦٥) .

النسىء :

أما الافاضة فسنتحدث عليها عند الكلام عن الحج ، وأما النسىء فوظيفة يعلن فيها القائم عليها الاشهر الحرم . ومن المعلوم انه كانت هناك أربعة أشهر حرم لا يجوز فيها الحرب والقتال ، بل يسود السلم والامن ، وهى أحوال ضرورية للتنقل وممارسة التجارات وغيرها . وكانت أشهر الحرم فى قريش هى ذى القعدة وذى الحجة والمحرم (للحج الاكبر) وصفر (للحج الاصغر والعمرة) . وقد

---

(٦٤) الطبرى : ج ٢ ص ١٨٤ . أنظر ايضا نسب قريش ص ٣٣ . المعارف : ص ٣١ .

(٦٥) المحبر : ص ١٥٦-١٥٨ .

أشار القرآن الكريم الى الاشهر الحرم بقوله تعالى « ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السماوات والارض منها أربعة حرم » (التوبة ٣٦)[٦٦] ويظهر انه كان لقريش دور كبير فى جعل العرب تحترم هذه الاشهر الحرم ، ولكنها لم تنجح نجاحا تاما فى ذلك ، فلم تكن خثعم وطى لترعاها[٦٧] ، كما كانت لبعض القبائل الاخرى أشهر[٦٨] حرم غير هذه ، فكان لغطفان البسل وهى ثمانية أشهر حرم لهم من كل سنة من بين العرب .

ولما كانت العرب تستخدم الاشهر القمرية ، وهى تختلف عن الاشهر الشمسية ، لذلك كان الاعتماد عليها قد يخل بأمور التجارة التى تجرى حسب فصول السنة ؛ لذلك « كانت العرب فى الجاهلية تكبس فى كل ثلاث سنين شهرا وتسميه النسىء[٦٩] » ، أى انه كان يضاف شهر فى كل ثلاث سنوات لكى تتطابق السنة الشمسية مع القمرية ، وهذا يؤدى الى تغيير فى الاشهر الحرم ، وكان المختص بالنسىء هو الذى يعين الشهر المضاف .

يروى الازرقى ان النسىء كان فى كندة ثم صار فى بنى مالك بين كنانة ؛ ولبنى القلمس منهم خاصة ، وقد ظلوا يقومون فيه حتى جاء الاسلام فحرمه[٧٠] بعد فتح مكة على ما يظهر حيث نزلت الآية « انما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما انزل الله » (التوبة ٣٧) ولا نعلم بالضبط الامور الاخرى الناجمة عن النسىء والتى أوجبت اعتباره زيادة فى الكفر .

يروى ابن اسحق ان قصيا كانت اليه الحجابة والرفادة والسقاية والندوة واللواء[٧١] ، أى انه أخذ لنفسه الامور المالية والادارية والعسكرية ؛ وهناك

---

(٦٦) تفسير الطبرى : ج ١٠ ص ٨٨ فما بعد .
(٦٧) المحبر : ص ٣١٩ . اليعقوبى : ج ١ ص ٢٢٧ .
(٦٨) ابن هشام : ج ١ ص ١٧٤ـ٥ .
(٦٩) المسعودى : ج ٢ ص ٢١٤ وأنظر عن النسىء ما كتب عنه فى دائرة المعارف الاسلامية .
(٧٠) الازرقى : ج ١ ص ١١٨ .
(٧١) الطبرى : ج ٢ ص ١٨٤ . ابن هشام : ج ١ ص ١٣٧ .

اشارات فى الكتب الى وظائف أخرى لا نعلم ما موقف قصى منها ، وهل انه هو الذى أوجدها أم أقرها أم ظهرت بعده .

الحجابة :

فأما الحجابة فكان القائم بهـا يمتلك مفاتيح الكعبـة ، فهو الذى كان يأذن للناس بالدخول فى الكعبة ، والراجح انها لا تتطلب أن يكون صاحبهـا عالما فى الدين ؛ كما لا ريب فى انها كانت مورد رزق للقائمين بها . وقد أخذها قصى من خزاعة ، وقد صارت من بعده لابنه عبدالدار ثم لاولاد عبدالدار من بعده ، وقد أرجعها الرسول الى بنى عبدالدار(٧٢) بعد فتح مكة تطبيقا لحكم الآية التى نزلت فى ذلك « ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها » (النساء ٥٨) .

عمارة البيت :

وقد أشار القرآن الى وظيفة أخرى هى عمارة البيت فقال تعـالى « أجعلتم سقاية الحـاج وعمارة المسـجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهـد فى سبيل الله » (التوبة ١٩) .

الرفادة :

أما الرفادة فكانت « خرجا تخرجه قريش فى كل كل موسم من أموالها الى قصى بن كلاب فيصنع منه طعامـا للحاج يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد ممن يحضر الموسم ، وذلك ان قصيا فرضه على قريش فقال لهم حين أمرهم به يا معشر قريش انكم جيران الله واهل بيته واهل الحرم وان الحاج ضيف الله وزوار بيته وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم شرابا وطعامـا أيام هـذا الحج حتى يصدروا عنكم ففعلوا ، فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم فيدفعونه اليه فيضعه طعاما للناس أيام منى فجرى ذلك من أمره على قومه فى الجاهلية حتى قام الاسلام ، ثم جرى فى الاسلام الى يومنا هـذا فهو الطعام الذى يصنعه السلطان

---

(٧٢) الازرقـى : ج ١ ص ٦٢ ، ٧٧ ج ٢ ص ١٢ . نسـب قريش : ص ٢٥١ . المعارف : ص ٣٢ .

كل عام بمنى للناس حتى ينفض الحجيج[٧٣] » ؟ ويبدو ان مقدار هذه الضريبة يختلف تبعا لثروة الدافعين وهى قد تصل مائة دينار[٧٤] . وكانت هذه الوظيفة لبنى عبدالدار ، ثم أخذها منهم هاشم فكان « يطعم الناس فى كل موسم بما يجتمع عنده من ترافد قريش ، كان يشترى بما يجتمع عنده دقيقا ويأخذ من كل ذبيحة من بدنة أو بقرة أو شاة فخذها فيجمع ذلك كله ثم يحرز به الدقيق ويطعمه للحجاج ، فلم يزل على ذلك من أمره حتى أصاب الناس فى سنة جدب شديد ، فخرج هاشم بن عبد مناف الى الشام ، فاشترى بما اجتمع عنده من ماله دقيقا وكعكا فقدم به مكة فى الموسم[٧٥] » .

ونظرا لقلة الاخبار ، فلا نستطيع أن نعين مقدار ما كان يجبى منها أو من كانت تسند اليه ، فيروى ابن سعد من أن وهب بن عبد بن قصى كان صاحب الرفادة[٧٦] ، كما يروى مصعب الزبيرى ان الرفادة كانت فى يد حميد بن زهير من بنى أسد بن عبدالعزى[٧٧] . ويروى البلاذرى انها صارت من بعد هاشم للمطلب ثم لعبدالمطلب ثم للزبير ثم لابى طالب ، ثم أخذها العباس وظلت فى اولاده[٧٨] .

وما دام بحث الرفادة يتصل بالمالية ، فجدير أن نشير الى مصادر أخرى من الواردات ، منها ما كان يؤخذ من الحجاج ، مما يمكن استدلاله مما رواه ابن دريد من أن (بنو لؤى بن شمخ (من ذبيان) ومن رجالهم ظويلم ويلقب مانع الحريم ، وانما سمى بذلك لانه خرج فى الجاهلية يريد الحج فنزل على المغيرة بن عبدالله المخزومى ، فأراد المغيرة أن يأخذ منه ما كانت قريش تأخذ ممن نزل

---

(٧٣) الطبرى : ج ٢ ص ١٨٥ . ابن هشام : ج ١ ص ١٤٤ ، ١٤٦ . الازرقى : ج ١ ص ٦٢ ، ١٢٧ ويروى المسعودى أن عبدالمطلب أول من أقام الرفادة والسقاية للحاج (ج ٢ ص ١٢٧) .

(٧٤) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤٥ .

(٧٥) الازرقى : ج ١ ص ٦٣ .

(٧٦) ابن سعد : ج ٣ قسم ١ ص ١٥٢ .

(٧٧) نسب قريش : ص ٢١٢ .

(٧٨) أنساب الاشراف : ج ٣ ص ٥٣٣ (مخطوطة القاهرة) .

عليها في الجاهلية وذلك سمى الحريم ، وكانوا يأخذون بعض ثيابه أو بعض بدنته التى ينحر فامتنع عليه ظويلم[٧٩] ، ولعل هذه هى من الضرائب التى كانت تؤخذ من تأجير ثياب الحاج من الحلة ، اذ كان على الحجاج من غير قبائل الحمس (وهم قريش وحلفائها) أن يؤجروا ثيابا خاصة ، أو يحجوا عرايا كما سنتحدث عن ذلك عند البحث عن الدين .

ومن مصادر ماليتها كذلك ضريبة العشور على التجارات[٨٠] ، وقد يعفى منها البعض لظروف خاصة مثلما اعفوا منها بحارة السفينة التى بنيت الكعبة من حطامها .

ومن مصادر ماليتها كذلك العطايا التى كانت تقدم للكعبة ، وكانت تودع فى بنى سهم[٨١] .

السقاية :

أما السقاية فهى حياض من ادم كانت على عهد قصى توضع بفناء الكعبة ومنى وعرفة ، ويسقى فيها الماء العذب من الآبار على الابل ويسقاه الحاج[٨٢] . وهى لا ريب مهمة فى بلد كمكة يقل فيها الماء العذب الصالح للشرب ، وكانت مثل هذه الوظيفة تدر فى تدمر ثمانمائة دينار سنويا ، ولعلها كانت تدر فى مكة أرباحا طيبة ؛ ومن المحتمل ان السقاية كانت تقتصر على الحجيج ، أما اهل مكة فلم يكونوا يدفعوا شيئا عن الماء ، وكانت السقاية عند ظهور الاسلام مودعة للعباس الذى كثيرا ما كان يمزج الماء بالزبيب[٨٣] .

الأمن والجيش :

وكانت مشكلة الامن من الامور الهامة التى توجب الاهتمام فى مكة نظرا

---

(٧٩) الاشتقاق : ص ١٧٢ .
(٨٠) الازرقى : ج ١ ص ١٠١ . المسعودى : ج ٢ ص ٥٨ .
(٨١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص ٢٠٣ .
(٨٢) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤١ ، ٤٥ .
(٨٣) ابن سعد : ج ٤ قسم ١ ص ١٦ . الازرقى : ج ١ ص ٦٥-٦٦ .

لكثرة الخلعاء والصعاليك وسراق الحجيج الذين قد تدفعهم نزعاتهم الخاصة وسوء الاحوال الى ارتكاب الجرائم كالسرقة أو عدم مراعاة قدسية الحرم ، يضاف الى ذلك الاخطار الخارجية التى قد تهدد مكة من الغزوات ، أو قد تقوم مكة نفسها بحرب ضد اعدائها • لذلك كانت مضطرة الى اعداد جيش لمواجهة الاخطار ، ومع ان اهل مكة كان أغلبهم تجارا الا انهم لم يغفلوا عن الاستعداد العسكرى فكانوا يساهمون فى الحروب التى تقوم بها مكة ، فضلا عن انهم عقدوا محالفات عسكرية مع القبائل كالقارة والحيا والمصطلق وبنى الحارث بن كنانة لكى تعاونهم فى الحروب التى ينشبونها • ويسمى هؤلاء الحلفاء الاحابيش[٨٤] •

وبجانب هذا فقد كان المكيون يستخدمون المرتزقة وخاصة من السودان والاحباش الذين اشتهروا بحسن استعمالهم للحراب والسكاكين التى ترمى من مسافة ، ويدعى لامنس ان هؤلاء هم القسم الاعظم من الجيش المكى ، وانهم هم الاحابيش[٨٥] • ويستنتج من هذا ضعف شجاعة قريش وانعدام الروح العسكرية ، وهو رأى بعيد عن الصواب لان أخبار الحروب بين اهل مكة تظهر بوضوح ان قريش كانت تكون القسم الاكبر من الجيش وتقوم بالقسط الاعظم من الحرب • وان منها المهاجرون الذين حاربوا مع الرسول فى عدة وقائع ، كما ظهر منها عدد كبير من الرجال الذين قادوا الجيوش الاسلامية فى معارك ناجحة ضد الروم والساسانيين فى بلاد نائية •

ومما يتعلق بتنظيم الحروب عدة وظائف ، منها اللواء والقيادة والأعنة والحكومة •

فأما اللواء فكان العلم الذى يحمل فى المعارك ، وتدور حوله المعركة ، وكان يسند الى بنى عبدالدار ، وقد قتل منهم فى غزوة أحد سبعة وهم يدافعون عنه[٨٦] •

---

(٨٤) نسب قريش : ص ٩ • الاشتقاق : ص ١١٩ • ابن سعد : ج ٢ ص ٤٧ وص ٧٠ •

(٨٥) أنظر فى ذلك مقال لامنس عن الاحابيش والتنظيمات العسكرية فى مكة الذى نشره فى كتابه (العربية الغربية عند ظهورالاسلام) (بالفرنسية) •

(٨٦) نسب قريش : ص ٢٥١-٢ • الازرقى : ج ١ ص ٦٣ •

أما القيادة فهى غير اللواء ، وكانت القيادة بيد بنى أمية[٨٧] ، فقد قاد حرب بنى أمية الناس فى الفجار وفى ذات نكف ، كما قاد الناس فى بدر عتبة بن ربيعة ، لان أبا سفيان كان فى القافلة التى سببت المعركة وقاد أبو سفيان قريشا فى أحد والخندق .

وهناك ذكر للاعنة ، ويكون صاحبها المقدم على خيول قريش فى الحرب[٨٨] . والحكومة والاموال التى يسمونها لآلهتهم ، وكانت عند ظهور الاسلام للحارث بن قيس السهمى[٨٩] .

لم تكن فى مكة وظيفة لقاض أو حاكم يفصل فى القضايا التى تنشب بين الناس . فاذا حدث خلاف بين أفراد عشيرة واحدة فان رئيس العشيرة هو الذى يحكم فيه . أما اذا حدث خلاف بين أفراد قبائل متعددة فانهم كانوا يلجأون الى الكاهن أو الهاتف أو العايف أو الاستقسام بالانصاب والايسار . وكان تقدير قيمة الخسائر يدعى الاشناق وهى وظيفة كانت تقوم بها أسرة أبى بكر[٩٠] . وقد أورد محمد بن حبيب السكرى أسماء عدد من الحكام فى قريش[٩١] .

غير انه حتى فى حالة حكم الحكم بقضية ما فانه كان يترك ذلك لتراضى الناس وموافقتهم اذ لم تكن هناك سلطة تنفذ قرارات الحكام وقد أدى هذا الى غبن الضعفاء وكثرة المظلومين . وقد استفزت هذه الحالة الخطرة بعض الناس فكونوا حلف الفضول لمساعدة المظلومين وحمايتهم من الظالمين . وكاد هذا يتطور الى تكوين سلطة تنفيذية . ولكن مجيء الاسلام عوض عنه وحل محله فى العمل .

---

(٨٧) الازرقى : ج ١ ص ٦٣ ، ٦٦ .
(٨٨) ابن الاثير : أسد الغابة ج ٢ ص ١٠١ .
(٨٩) ابن الاثير : أسد الغابة ج ٣ ص ٢٠٦ .
(٩٠) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص ٢٠٣ .
(٩١) المحبر : ص ١٣٢-٣ أنظر ايضا نسب قريش : ص ٢٩١ .

القسم الثاني

الحياة البدوية ونظمها

الفصل التاسع

النظم البدوية قبيل ظهور الاسلام

أهميتها :

لقد انحلت قبيل ظهور الاسلام الدول العربية التى حاولت أن تقيم نظاما سياسيا عاما لا يقتصر على مجموعة صغيرة • وأصبح النظام القبلى هو السائد لا فى الصحراء فحسب ، بل حتى فى أغلب المدن الموجودة فى أطراف الجزيرة •

فى الدين الاسلامى :

ولم تقتصر النظم البدوية على تأثيرها فى نظم الحياة عند ظهور الاسلام • بل كان لها تأثير فى الاسلام نفسه • والواقع ان الاسلام وقف موقفا معاديا للبدو بصورة عامة فوصفهم بأنهم أشد كفرا ونفاقا • وأجدر ألا يعلموا حدود الله (التوبة ٢٩٤) « وقالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم » (الحجرات ١٤ انظر ايضا سورة التوبة ٩٠ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ الاحزاب ٢٠ ، الفتح ١١ ، ١٦) والواقع ان الاسلام حارب كثيرا من معتقداتهم ونظمهم الاجتماعية ومثلهم الاخلاقية • غير انه فى نفس الوقت أقر بعض هذه العادات واعترف بها حرفيا ، أو بعد تعديل بسيط ، كما سيظهر لنا من سياق البحث • وهكذا دخلت كثير من النظم البدوية كجزء من الاسلام ، وأصبحت قانونا يسير عليه المسلمون حيثما كانوا ومتى عاشوا •

فى الدولة الاسلامية :

غير انه حتى المظاهر والنظم التى شن عليها الاسلام حربا ، لم يقض عليها تماما ، بل ظل العرب يدينون بها أمدا طويلا ، ذلك ان هؤلاء البدو كونوا مادة الاسلام الاولى والجزء الاعظم من الجيوش الاسلامية التى دحرت الفرس والروم وانشأت الامبراطورية الاسلامية ، حتى لقد كان الاسلام مقرونا بالعرب فى أدواره الاولى ، وكان من الصعب التمييز بينهما • وكان للدور الذى لعبه هؤلاء البدو فى الفتوح والانتصارات أثر فى زيادة اعتدادهم بنفسهم وبمثلهم

الاخلاقية والروحية وبلغتهم وبثقافتهم • فأصبحت هذه جزءا هاما من المدنية الاسلامية ومثلها •

فى الفكر الاسلامى :

ثم ان اللغة العربية والشعر الجاهلى كانا صدى لحياة البداوة وممثلين لها ، يرسمان مثل البدو وغاياتهم كما كانت اللغة تعبر عن عواطفهم وخيالاتهم[١] ، وقد أصبحت اللغة العربية أداة التعبير فى الامبراطورية الاسلامية ، وصار الشعر الجاهلى مثالا يحتذى فى طريقه نظمه وأسلوبه وأخيلته وأفكاره وظل كذلك أمدا من الزمن • وبهذا ادخل المثل البدوية فى الحياة الثقافية الاسلامية •

فى تاريخ الاسلام :

ويلاحظ كذلك ان البدو كانوا أهم عنصر فى الامصار الاسلامية التى كانت أهم قواعد عسكرية وادارية فى الامبراطورية الاسلامية • وقد تأثرت نظم هذه الامصار فى الانظمة البدوية سواء فى النواحى الادارية أو المالية أو السياسية أو القانونية • ولما ظهر الفقهاء فى هذه الامصار دونوا معظم مظاهر الحياة فيها ، وبذلك سجلوا كثيرا من النظم البدوية باعتبارها جزء من النظم الاسلامية ، وقد صارت بذلك هذه النظم البدوية جزءا من الشريعة الاسلامية المقدسة التى يسير عليها المسلمون • والتى يقوم القسم الاعظم منها على ما دونه الفقهاء الامصار الاول[٢] •

فى التاريخ عامة :

والواقع ان النظم البدوية لم تقتصر على الفترة التى سبقت ظهور الاسلام ، بل يبدو ان تاريخها أبعد • اذ ان الاخبار القليلة التى لدينا عن نظم سكان الجزيرة فى العصور السحيقة توحى بأن نظمها كانت نظما بدوية ، ولم تقتصر على سكان

---

(١) أنظر فى ذلك أحمد أمين : فجر الاسلام ص ٦٢ فما بعد •

(٢) لقد وصفت فى كتابى « التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة فى القرن الاول الهجرى » تنظيمات احدى هذه الامصار وأشرت فى مواضع مختلفة الى علاقتها بالفقه •

الجزيرة فقط بل وامتدت الى الشعوب السامية ، ففى شريعة حمورابى وحياة العبرانيين كثير من مظاهر النظم البدوية التى تشبه نظم البدو قبيل ظهور الاسلام ؛ كما اننا لما نزل فى الوقت الحاضر متمسكين بكثير من نظم البداوة فى العراق لا فى الصحارى والارياف فحسب بل فى المدن كذلك .

فدراسة النظم البدوية اذا مهمة جدا لفهم حياة الساميين عامة ، وكذلك لفهم القرآن والاسلام والمدنية الاسلامية والشعر والثقافة العربية بل ولفهم حياتنا الحاضرة ايضا .

عزلة الصحراء :

ونظرا لبيئة البدو الصحراوية التى لم تتغير منذ الازمنة التاريخية ، فقد أصبح البدوى منعزلا عن الامم الاخرى ، فلم يؤثر احتكاكه المحدود بالامم الاخرى من عاداته وأساليب حياته ، اللهم الا اذا خرج من الصحراء وسكن المناطق الغزيرة المياه وشيد له الحضارة بعد ترك البداوة . والواقع ان المؤثرات الاجنبية على الجزيرة العربية والتى وصفها وصفا طيبا كل من اوليرى فى كتابه عن الجزيرة العربية قبل محمد واحمد امين فى فجر الاسلام ، كانت مقصورة على أطراف الجزيرة وفى المناطق الزراعية التى تحضر اهلها ؛ كما ان هذه المؤثرات لم تتوغل فى المدنية البدوية ، بل ظلت فى الغالب سطحية محدودة ، فلم تتغلغل فى الاعماق ، وظلت حياة البداوة تتسم بطابع خاص لا يزول الا بعد استقرار طويل فى ارض معينة وممارسة الزراعة والاتصال الدائمى مع الامم الاخرى .

صفات البدوى :

ويتسم البدوى بصفات عامة تميزه عن غيره ، ولكن يجدر قبل ذكرها أن نؤكد انها نتيجة وراثة اجتماعية لا بيولوجية ، وانها تولدت فى الغالب نتيجة حياتهم الطويلة فى الصحراء . هذا الى انها صفات عامة ، وبجانبها فوارق فردية كبيرة .

فأما صفاتهم الجسمية فهم فى الغالب ضعاف الاجسام ، متوسطو القامة ، ذوو أنف اقنى ، وعيون سوداء لوزية مفتوحة ، وشعر مسترسل وجمجمة مستطيلة ،

سوى ان عرب الجنوب فهم من ذوى رؤوس مستديرة والشعر الاجعد ؛ ولهم قابلية كبيرة على الصبر وتحمل المشاق الجسمية من مشى طويل وغذاء يسير ، وهم يتميزون كذلك بالشجاعة والاقدام وانجاد الضعيف وحماية المرأة .

والبدوى عصبى المزاج ، مرهف الحس ، سريع التهيج ، يحب الحرية والمساواة ، ويتميز بالنظرة الواقعية ودقة النظر وقوة الذاكرة وقلما يهتم بما وراء الطبيعة والافكار الفلسفية العميقة ، هذا الى انه يميل الى وصف المرئيات ، وما البراعة التى اشتهر بها البدوى فى القيافة الا مظهر من مظاهر دقة الملاحظة والاهتمام بالمظاهر المادية .

ثم ان البدوى دقيق الملاحظة والحس ، يهتم بالجزئيات دون الكليات ، ويتميز تفكيره بالتنقل دون أن يهتم بالروابط بين الاشياء ، فاذا وصف بعيرا مثلا فقد يبدأ بذكر اذنه ثم ذيله ثم يعود الى وصف رأسه ورجله وسنامه ، وهو يدقق فى وصف كل من هذه الاجزاء تدقيقا رائعا ، ولكنه لا يتبع طريقا منطقيا فى تسلسل الاجزاء التى يصفها ؛ هذا الى انك لو قرأت وصفه للبعير ولم تكن قد رأيته فانك قلما تستطيع أن تتصوره من وصفه . ولا ادل على ما نقول من الشعر البدوى الذى نجد فى قصائده الطويلة يطرق عدة مواضيع لا رابط بينها ولا تسلسل .

وخيال البدوى من نوع خاص فهو خيال تصورى لا سمعى ، صوره منتزعة من الواقع لا من ابتكار الخيال وأوضح مثل على هذا التشبيهات التى كانوا يذكروها :-

فيقول امرىء القيس :

له ايطلا ظبى وساقا نعامة وارخاء سرحان وتقريب تتفل

ويقول طرفة :

كأن حدوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دد

ويقول امرؤ القيس :

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

وهذه التشبيهات تختلف عن تشبيه الشاعر الهندى مشية البقر بمشية

المخمور بسكرة الشباب المغرور • أو تشبيه الولد ذاهبا الى أمه ساكتا كدبيب الخيال • أو قوله مخاطبا النجم « تعال مع مركبك الذى هو أسرع من طروق الخيال » وتشبيه شيلى القبرة بالفرح مجردا عن المادة •

ان هذه التشبيهات تختلف عن تشبيه شعراء البدو بعر الآرام بحب الفلفل ، والشحم بهداب الدمقس المفتل ، وجيد الفتاة بجيد الريم ، وفرع الشعر بقنو النخلة المتعثكل أو آثار الطلول بالوشم ، أو الرماح بأشطان البئر •

حقا ان هذه صور جديدة جميلة ، ولكنها مستمدة من الواقع وليس فيها ابتكار : انها أقرب الى المقارنة واستثارة الذاكرة عن شيئين متباعدين ؛ بل حتى الاشخاص الخرافيين لم يتصورهم العرب خارقين شكلهم أو قدرتهم •

ونعيد الذكر بأن تصورهم بصرى وقلما يهتمون بالتصور السمعى كأصوات الطيور وغيرها[٣] •

القبيلة :

لقد كان النظام البدوى قائما على أساس القبيلة ، وهى جماعة من الناس ينتمون ، أو يزعمون انهم ينتمون الى جد واحد مشترك انحدروا منه ، ويسكنون عادة فى منطقة واحدة ، واذا انتقلوا ساروا سوية ، وهم يحملون واجبات مشتركة فى الدفاع ودفع الدية • ومع ان خير ما يميز القبيلة عن غيرها هو اشتراك افرادها فى دفع الدية ، الا انه من الصعب جدا تحديد عددها فالقبائل يختلف عددها ، والارجح ان عددها يتوقف على قدرتها على الدفاع وعلى قابلية المراعى على اعاشة مواشيها • فالقبيلة التى تقطن فى ارض ممرعة ، يمكن أن يتزايد عدد افرادها مع الاحتفاظ بوحدتها أما اذا زاد عددهم وعدد مواشيهم عما يمكن أن تحتمله الارض ، فانه ينخزع منها بعضها ويكونون لأنفسهم وحدة مستقلة تتخذ لها أرضا خاصة ، وتكون بذلك قبيلة مستقلة • الا انها تبقى متصلة بالقبيلة الأم برابطة النسب التى تعتز بها • أما اذا كانت هذه الوحدة المنخزعة صغيرة

---

(٣) أنظر فى ذلك أحمد أمين : فجر الاسلام ص ٣٧ فما بعد •
محمد عبدالمعيد خان : الاساطير العربية قبل الاسلام ص ٢٢ فما بعد •

لا تستطيع الدفاع عن نفسها أو الاحتفاظ بكيانها ، فانها تندمج بالقبائل الاخرى ، والغالب انها تفضل الاندماج بأقرب القبائل نسبا منها • وهكذا فان عدد القبائل غير ثابت ، بل قد يزيد أو ينقص وقد تظهر قبائل جديدة ، أو تندثر قبائل أخرى ، اما بانضمامها الى قبائل أصغر منها ، اذا كانت كبيرة ، أو بانضمامها الى قبائل أخرى اذا كانت صيرة لا تستطيع الدفاع عن كيانها •

ولا يمكن تحديد عدد أفراد كل قبيلة بالضبط ، فبعض القبائل صغيرة جدا ، وقد ذكر السكرى عددا من القبائل لا يزيد أفراد كل منها على أصابع اليد ، كما ان هنالك قبائل كبيرة العدد(٤) ؛ والغالب ان القبائل الكبيرة تقسم الى أجزاء تدعى العشيرة والبطن والفخذ والفصيلة والرهط والحى ، ولكن حتى هذه الاقسام لا يمكن تحديدها بالضبط •

تطورها فى الاسلام :

لقد حافظ العرب على نظامهم القبلى عندما استوطنوا الامصار الاسلامية • فكانت هذه الامصار مقسمة الى قبائل ، ولكل منها خطة خاصة يسكن أفرادها معا فيها كما كانوا يستلمون عطاءهم سوية ، وعلى كل قبيلة عريف خاص بها ؛ والغالب ان افرادها يحملون مسؤوليات مشتركة • فيدفعون دية القتل غير العمد الذى قد ترتكبه أحد أفرادها ، كما تكون لهم الشفعة أو حق الافضلية فى شراء البيت الذى يباع فى خطتهم ، ويرثون مال من لا وارث له فى عشيرتهم ، ويتحملون مسؤولية المشاغبين والمتمردين فى عشيرتهم • وهكذا صار نظام القبائل هو أساس التنظيم الاجتماعى والادارى والمالى والجنائى فى الامصار الاسلامية •

غير انه نظرا لان كلا من هذه الامصار الاسلامية كانت تضم قبائل كثيرة متنوعة ، فقد اضطر الولاة أحيانا الى دمج القبائل الصغيرة بالكبيرة ، وعلى مر الايام أخذت هذه الوحدات الصغيرة تفقد كيانها المستقل ؛ غير انه اذا كانت أفراد الوحدات المندمجة شديدة التماسك فانها تحافظ على كيانها ، ولكن تصبح من الناحية الادارية مندمجة فى القبائل الكبيرة • واذ ذاك يقال ان عدادها مع القبيلة

---

(٤) المحبر : ص ٢٥٦ •

الكبيرة[٥] . ومن هذا يتبين ان الامصار وان كان تنظيمها قد قام على أسس قبلية ، الا انه دخل فيها تعديلات غير قليلة .

نظرية سميث :

وقد حملت هذه التغيرات بعض المستشرقين وخاصة روبرتسن سميث على الاعتقاد بأن الانساب العربية مختلقة كلها منذ زمن عمر لكى ينظم توزيع العطاء[٦] . ومما يقوى الشكوك فى شجرات الانساب ان جميع ما خلف الينا منها كتب منذ منتصف القرن الثانى فما بعد . فهى اذا متأخرة ، كما انها متأثرة باحوال المدن التى كتبت فيها وخاصة الكوفة والبصرة ، فهى لا تعطى تفاصيل وافية أو مضبوطة عن قبائل وانساب النواحى الاخرى من الجزيرة العربية كاليمن مثلا ، هذا الى انها قد لا تمثل الاحوال التى كانت عليها قبل الاسلام ؛ يضاف الى ذلك ان شجرات النسب التى يذكرها هؤلاء النسابون قلما تذكر أكثر من ستة آباء بين أفراد القبيلة الذين عاشوا عند ظهور الاسلام وبين الجد الاعلى لكل قبيلة ، واذا افترضنا ان كل جيل كان ٢٥ سنة ، كانت القبائل العربية حسب شجرات النسب أو أغلبها قد تفرع منذ القرن الرابع الميلادى وهو أمر لا تقره الادلة التأريخية .

على انه اذا كان ما ورد فى كتب الانساب المتداولة بين ايدينا عما يتعلق بالعصور السحيقة قبل الاسلام غير مضبوط أو مغلوط ، فانه يجب ألا ننكرها تماما ، أو نعتقد انها اختلفت كلها فى زمن عمر لكى تخدم المسلمين فى توزيع العطاء ، وذلك لان الاخبار التأريخية عن حياة النبى وحروب الردة تؤيد وجود هذه القبائل كوحدات مستقلة فى معظم أنحاء الجزيرة ، هذا الى أن الشعر العربى الجاهلى يرد فيه أسماء هذه القبائل ويلقى ضوءا هاما على العلاقات بينها ، بل نذهب أبعد من هذا فنقول ان التوراة قد ذكرت بعض القبائل العربية كسليم مثلا ، كما ان النقوش اليمانية التى ترجع الى القرون الاولى قبل الميلاد تذكر الادوار

---

(٥) فى الفصل الاول من كتابى « عن التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة » شرح واف عن هذه التطورات .

(٦) روبرتسن سمث : القرابة والزواج عند العرب الفصل الاول (بالانكليزية) .

المهمة التى لعبتها القبائل اليمانية كبكيل وحاشد وهمدان والتى ظلت الى العصر الاسلامى محتفظة بوحدتها .

أهمية النسب :

لقد كان الاهتمام بالنسب مهما منذ العصر الجاهلى ، اذ هو المرآة التى تظهر فيها نقاوة دم الفرد وارتباطه بالقبيلة . وقد ظل الاهتمام به حتى بعد مجىء الاسلام فأصبح أساسا للتنظيم المدنى والاجتماعى فى الامصار العربية وعند العرب ، بل حتى غير العرب كثيرا ما اضطروا عند سكناهم الامصار الى الانتساب الى القبائل العربية باعتبارهم موالى لها ، ثم أصبح كثير منهم على مر الايام يدعون بأنهم صرحاء فى النسب . ولا أدل على الاهتمام بالنسب فى الاسلام من الاحاديث التى تنسب الى النبى والتى يحض فيها على حفظ النسب(٧) .

ولا ريب ان للاهتمام بالنسب فى الاسلام أهمية كبيرة ، فهو يوضح علاقة الانسان بالعرب الفاتحين الارستقراطيين ، ويوضح العلاقة بالنبى وأصحابه الذين أصبح الانتساب اليهم فخرا ، أو بالخلفاء والولاة الذين قد يؤدى الاقتراب منهم الى بعض المنافع ، هذا الى أهميته فى الوراثة اذ ان الارث يتقرر حسب النسب ، هذا الى أن الزكاة تعطى للاقربين الذين هم أولى بالمعروف(٨) . والمعروف الذى يحسن بالاغنياء أن يدفعوه الى الاقرباء تبعا لما أمر الرسول « تعلموا أنسابكم ما تصلوا به أرحامكم » .

وان الاهمية الزائدة التى كانت للانساب فى صدر الاسلام جعلتها الى أن تمتد الى غير العرب فرتبت لهم على مر الايام شجرات من النسب أوصلتهم بأجداد العرب القدماء جدا .

أسماء القبائل :

ان اسماء القبائل العربية مستمدة اما من الآلهة الوثنية القديمة كزيد اللات ووهب اللات وسعد مناة وعبد شمس ، أو من أسماء أشخاص ولكن أغلبها

---

(٧) ابن حنبل : المسند ج ٢ ص ٣٧٤ .

(٨) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٣-٦ .

مستمدة من أسماء حيوانات مثل بكر ، أسد ، بهثة (بقر الوحش) ، ثعلبة ، ثور ، جحش ، جعدة (غنم) ، جعل ، حداء ، حمامة ، حنش ، الأراقم ، دؤل ، دب ، ذئب ، ضبة ، ضبيعة ، عنزة ، غراب ، فهد ، قرد ، خندف ، فهد ، كلب ، نعامة ، غبر ، هوازن ، يربوع ، جراد ، ظبيان ، عقاب ، أوس ، قريش ، حمير ، حنظلة ، صخر ، بدن .

الطوطمية :

ان كثرة أسماء الحيوانات فى تسمية القبائل حملت المستشرق الانكليزى روبرتسن سميث الى الاعتقاد بأنها مظهر من مظاهر الطوطمية التى كانت سائدة عند العرب قبل الاسلام(٩) .

والطوطم كائنات تحترمها بعض القبائل المتوحشة ويعتقد كل فرد من أفراد القبيلة بعلاقة نسب بينه وبين أحد منها يسميه طوطمه . والطوطم قد يكون حيوانا أو نباتا ، وهو يحمى صاحبه ويبعث اليه الاحلام اللذيذة كما ان صاحبه يحترمه ويقدسه ، فاذا كان حيوانا فلا يقدم على قتله ، واذا كان نباتا فلا يقطعه ولا يأكله الا فى الازمات الشديدة . والقبيلة تتسمى باسم الحيوان ، وتعتبره أبا لها وتعتقد انها من سلالته ، وهى تحترمه وتحرم لمسه أو النظر اليه والتلفظ به ، وتحتفل بدفنه عند موته ، وتعتقد انه يدافع عن القبيلة عند الملمات(١٠) .

وللتدليل على ان تسمية القبائل العربية باسماء حيوانات هو مظهر من مظاهر الطوطمية يقول روبرتسن سمث بأن العرب اعتقدوا بأن بعض الحيوانات أصلها انسان ثم مسخت كالقرد والخنازير ولذلك حرمت أكلها ، ثم ان العرب عبدت بعض الاصنام التى تمثل الحيوانات ، فكان يغوث بشكل أسد ، ويعوق بشكل حصان ، ونسر بشكل نسر ، كما عبد الاسبذيون الفرس ؛ ولعل اسم ربيعة الفرس يدل على ان ربيعة كانت تعبد الفرس . كما ان الحمام كان بمكة مقدسا لا يجوز قتله(١١) .

---

(٩) روبرتسن سمث : القرابة والزواج عند العرب الفصل السابع .
(١٠) راجع الاساطير العربية قبل الاسلام ص ٥٥-٨٥ .
(١١) جمعة : ص ١١٦ فما بعد .

على ان روبرتسن سميث متطرف فى استنتاجاته ؛ فانه لم يعرف عن العرب انهم عبدوا الحيوانات نفسها أو اعتقدوا أنهم منحدرون منها ، وليس مسخ الحيوان دليل على قدسيته ، كما ان نحت الصنم على شكل حيوان لا يعنى انهم عبدوا الحيوان نفسه ، ما عدا الاسبذيين • وليس هناك دليل على ان القبائل التى كانت تعبد النسر أو الفرس وغيرها كانت تسمى بأسماء هذه الحيوانات أو تدعى انها متحدرة منها(١٢) •

يقسم النسابون القبائل العربية الى قسمين كبيرين هما القبائل القحطانية أو العاربة وأصل موطنها جنوب الجزيرة ، وخاصة اليمن ، والمستعربة وموطنها وسط وشمال الجزيرة ويذكر بعضهم ان بين هذين الفرعين خصومات منذ أيام الجاهلية • والواقع ان الاجزاء الجنوبية من الجزيرة يختلف سكانها بعض الاختلاف عن سكان الاجزاء الشمالية • حيث ان رؤوسهم مستديرة وشعرهم مجعد وفى أنوفهم بعض الفطسة متأتية من اختلاطهم فى الازمنة القديمة بسكان شرق افريقية بينما يتميز سكان الشمال بأن جماجمهم مستطيلة وشعرهم مسترسل وأنفهم اقنى ولهجاتهم تختلف بعض الاختلاف عن لهجة سكان الجنوب(١٣) • الا انه ليس هناك دليل على الخصومات بين الطرفين بل ان الخصومات تنشأ عادة بين القبائل المتجاورة فى محل السكن حتى ولو كانت من فرع واحد • بل الواقع ان أغلب أيام العرب التى ذكرت لنا فى التاريخ(١٤) نشبت بين قبائل يعدها النسابون متقاربة مع بعضها فى النسب • ثم ان التقسيم الذى يذكره النسابون ليس دقيقا دائما فهناك بعض القبائل كقضاعة كانت فى الاسلام تنتسب مرة الى قحطان ومرة الى عدنان ولكن مثل هذه القبائل محدودة والغالب ان سبب تغيير نسبتها ترجع الى العصر الاموى حيث اشتدت الخصومة بين المضريين واليمانيين فأخذت بعض القبائل تنحاز الى أحد الجوانب لاسباب خاصة مدعية بأنها ترتبط فيها بصلة النسب •

---

(١٢) راجع : جرجى زيدان : الانساب العربية القديمة •
(١٣) فيليب حتى : تاريخ العرب ص ٣٠ (بالانكليزية) •
(١٤) راجع عن أيام العرب : ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ١ ص ٢٠٥-٢٨٨ •

ان أهم القبـــائل على مـا تقوله كتب النسـب الشـائعة هى المبينـة فى الجدول التالى[١٥] :-

القبائل الشمالية (العدنانية)

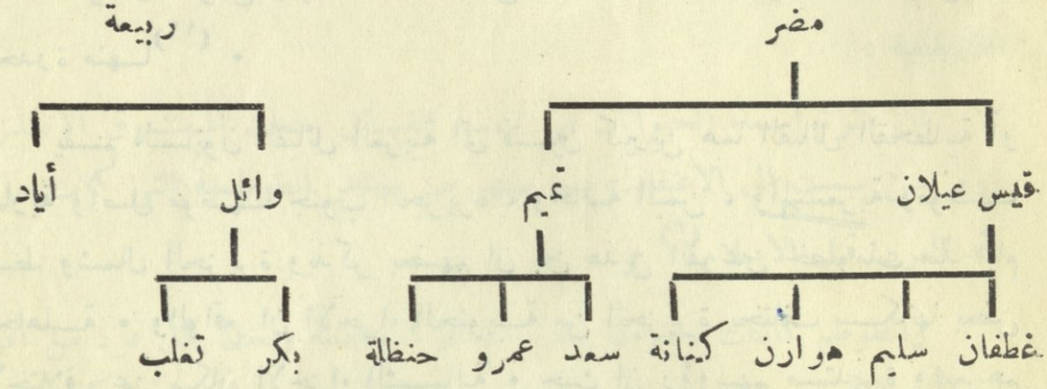

القبائل الجنوبية (القحطانية)

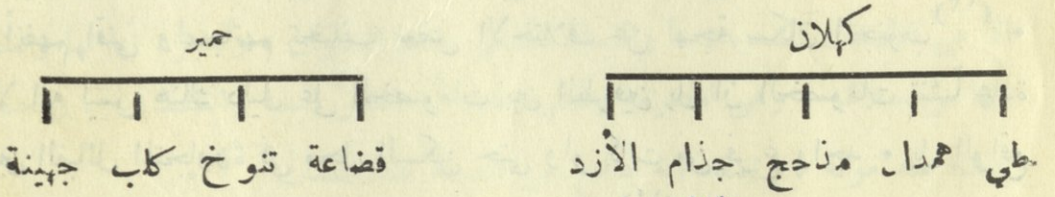

(١٥) أنظر فى كتب النسب : نسب قريش لمصعب الزبيرى ، جمهرة انساب العرب لابن حزم ، الاشتقاق لابن دريد والانباه على قبائل الرواه لابن عبدالبر . وقد نظم وستنفيلد جدولا مفصلا فى انساب القبائل وتفرعاتها .

الفصل العاشر

التنظيمات الاجتماعية عند البدو

الصليبة :

تعتبر القبيلة الوحدة الاجتماعية التى يقوم عليها النظام البدوى • وهى تتكون من العرب الصلبية والحلفاء والعبيد • فأما العرب الصلبية فهم جميعا متحدرون من أصل واحد مشترك هو الجد الأعلى للقبيلة ؛ لذا كانوا يعتبرون أنفسهم متساوين ، نظريا على الاقل • وكان كل فرد يعتز بشخصيته وفرديته ويرى لنفسه مكانته فى القبيلة • الا انهم فى الواقع يتباينون فى صفاتهم الجسمية والخلقية مما يجعل للبعض مكانة خاصة يعترف لهم بها الناس • وأهم الصفات الخلقية التى تكسب المرء مكانة هى المروءة والشرف[1] ، وهى تعبيرات خلقية يصعب تحديدها بالضبط ولكن أهم متطلباتها هى الشجاعة وحب الحرية والثأر وحماية الجوار والدفاع عن العرض • وهذه لا ريب صفات شخصية تكسب صاحبها الشرف والرفعة وتميزه عن الذليل المهان • ولكنها لا تورث فلا يكون ابن الشريف شريفا الا اذا حافظ بأعماله على صفات المروءة ومتطلباتها •

الحلفاء :

أما الحلفاء فهم ليسوا متحدرين من الجد الأعلى للقبيلة ولا تربطهم بأفرادها رابطة الدم ، ولكنهم لجأوا الى القبيلة ووضعوا أنفسهم تحت حمايتها أو حماية أفرادها • وقد يكون الحليف فردا أو قبيلة • فأما حلف القبيلة للقبيلة فسنتحدث عنه فى الفصل التالى • أما حلف الافراد فان الغرض منه أن ينال حماية القبيلة التى يحالفها ويستطيع أن يعيش فى كنفها بأمان • ومثل هؤلاء الحلفاء عادة غرباء يأتون الى القبيلة ليتاجروا معها ، أو ليتزوجوا احدى نسائها ويسكنوا مع

---

(١) بشر فارس : الشرف عند العرب (بالفرنسية) ، مباحث عربية ص ٩٣ فما بعد •

قبيلة المرأة ؛ ولكنهم فى الغالب من الخلعاء وهم الذين ارتكبوا جرائم القتل فى قبائلهم الاصلية ، أو أساؤا السلوك لدرجة أصبح وجودهم بين القبيلة غير مرغوب فيه ، فتخلعهم وتطردهم • ولما كان من الصعب على الفرد أن يعيش بمفرده فى الجزيرة • لذلك كانوا مضطرين الى الالتجاء الى قبيلة أخرى يقعوا فى دخالتها ويطلبوا حمايتها[٢] ويكفى للفرد أن يدخل خيمة رجل أو يمسك حبل الخيمة[٣] (الطنب) أو يرتمى بين يدى المرأة[٤] • أو يذكر بأنه أصبح دخيلا لكى يظفر بالدخالة والحماية • وكان على رجل القبيلة أن يحميه ويدافع عنه • اذ أن رد الدخالة ليس من المروءة • ولكن يجوز للحامى أن يفسخ الجوار متى شاء على أن يعلن ذلك فى المحلات العامة ويعطى الدخيل مهلة ليدبر أمره •

والحلف قد يكون موقتا أو دائميا وتدافع القبيلة عن حلفائها باعتبارهم أفرادا منها ، وترثهم ان لم يكن لهم وارث فى القبيلة[٥] ، وتعينهم فى دفع دية القتل غير العمد الذى قد يرتكبوه • كما انها تطالب بديتهم ان قتلوا ، ولكن ديتهم عادة نصف دية الصرحاء ، كما أن الحليف لا يقتل بالصريح[٦] •

ويتم الحلف عادة بالقسم ليكتسب صبغة قدسية وقد يصحبه لعق الدم ليعوض الدم الملعوق عن الدم الموروث[٧] • وقد يغمس فى الطيب كما حدث فى حلف المطيبين فى مكة[٨] •

لا يكون الحلفاء عادة مشاكل للقبيلة ، لان قبائلهم الاصلية قد تركتهم

---

(٢) محمد محمود جمعة : النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء الساميين ص ١٤٨ فما بعد (وسنرمز اليه جمعة) ، محمد احمد الحوفى : الحياة العربية فى الشعر الجاهلى ص ٢١٧ فما بعد •

(٣) أغانى : ج ١٩ ص ٨٠ •

(٤) المحبر : ص ٤٣٣ •

(٥) الاغانى : ج ٢ ص ١٦٧ •

(٦) الاغانى : ج ٣ ص ٤١ •

(٧) الاغانى : ج ٧ ص ٢٦ وكذلك ابن منظور : لسان العرب مادة سم •

(٨) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٤٢-٣ •

ونفضت أيديها منهم ، فلم تعد لهم علاقة بها ، ولذلك فهم يستطيعون تكوين علاقات جديدة مستقلة مع القبيلة الجديدة .

العبيد :

أما العبيد فأغلبهم من أسرى الحروب ولكن بعضهم نتيجة الشراء وخاصة من افريقية ، أو الولاة ، أو الدين ، أو القمار ويعملون عادة فى الاعمال اليدوية والحلب ولا يشتركون فى الحروب ويعاونون أسيادهم فى الاعمال التى تسند اليهم . ولما كان الرق المتولد من الاسر له حالة خاصة فان الرقيق فيه يكون من العرب وقد تكون له مكانة فى قبيلته ، والغالب انه يحسن معاملتهم . كما ان قبائلهم الاصلية تفكهم بالفداء أو بمبادلة الاسرى ، اذ ليس من الشرف للقبيلة أن تترك أفرادها المأسورين ارقاء عند القبائل الاخرى .

المرأة :

لقد كان المجتمع البدوى يتبع نظام الابوة Patrimonial system [٩] ، فللرجل السيادة والسلطة على البيت وعلى المرأة وعلى الاولاد قبل البلوغ . ولكن مع هذه الحقوق كانت للمرأة مكانة كبيرة تتناسب مع الخدمات التى تقوم بها اذ انها كانت تقوم بقسط كبير من العمل فى البيت وخاصة فى ذلك المجتمع القاسى الذى كان الرجال فيه يمتهنون الحرب والرعى ، ثم ان المرأة هى الوسيلة الوحيدة لانتاج الرجال الذين يزيدون قوة القبيلة فى السلم والحرب . وخاصة اذا كان أولادها « نجباء » قادرين على أن يكونوا لانفسهم مكانة مرموقة فى المجتمع . ولا ريب ان المرأة كانت تقوم بنفسها بدور فى الحروب ، كتضميد الجرحى ورعايتهم وتزويد المقاتلين بالزاد والماء ؛ هذا الى ان المرأة قد تكون مصدر ربح لوليها الذى يأخذ عند زواجها صداقا . وأخيرا فان المرأة قد توحى للشعراء بالخيال وللرجال بالطموح وقد تدخل فى البيت بهجة وحياة روحية جميلة [١٠] .

---

(٩) جمعة : ص ١٢ .

(١٠) الحوفى : الحياة العربية فى الشعر الجاهلى ص ١٥٧ . وعن مساهمة نساء قريش فى بدر راجع سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٥-٦ .

وقد اعطتها هذه الخدمات مكانة مرموقة فى المجتمع فكانت تعتبر من أهم عناصر الشرف والدفاع عنها من المروءة التى تستحق الفخر ، كما لا يجوز رفض من يستجير بها • ولا أدل على احترامها من مخاطبتها بالحرمة من الاحترام وبربة البيت كدليل على تقدير مكانتها فيه •

يا ربة البيت قومى غير صاغرة ضمى اليك رحال القوم والقربا[١١]

الوأد :

والواقع ان المرأة كانت تلقى على الرجال اعباءا ثقيلة فى مداراتها والمحافظة عليها من اعتداء الآخرين أو من الفقر أو عاديات الزمن • وقد أدى بهم هذا الى الاغتياظ من ولادتها وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك « واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم • يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب » (النحل ٥٧-٩) « أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين • واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم » (الزخرف ١٦-١٧) • وقد أدى هـذا بالبعض الى أن يئد البنات تخلصا مما قد تلقيه من مسؤوليات •

يروى البعض ان الوأد حدث قبيل الاسـلام عند بنى تميم عندمـا حاربهم النعمان بن المنذر فأسر نساءهم ، ولما أرادوا افتداءهن رفضت بنت قيس بن عاصم ، شيخ بنى تميم أن تفدى من الاسر وفضلت البقاء مع من أسرها ، فقرر مع قبيلته أن يئد كل بنت تلد[١٢] • ولا ريب ان هذه النسبة غير دقيقة ، فهنـاك روايات نشير الى وجودها فى قبائل أخرى ، فيروى الميدانى عن الهيثم بن عدى انه كان فى قبائل العرب قاطبة يستعمله واحد ويتركه عشرة فجاء الاسلام وقد قل الا فى بنى تميم فانه تزايد فيهم قبيل الاسـلام ، رغم ان جد الفرزدق بذل مجهودا فى ابطاله حيث كان يشترى البنـات التى يريد أهلهن وأدهن[١٣] ، ويقول السكرى

---

(١١) الحوفى : المصـدر السـابق ص ١٥٥-٦ • المرأة العربيـة ص ١٦٠ فما بعـد •

(١٢) الاغانى : ج ١٢ ص ١٤٤ •

(١٣) الاغانى : ج ١٩ ص ٢-٥ •

بأنه اشترى اربعمائة واربعة جوارى لافتدائهن من الوأد[١٤] ؛ ويذكر القرطبى ان الوأد كان فى مضر وخزاعة[١٥]، وقد تردد ذكر الوأد فى القرآن الى درجة توحى بأنه كان مألوفا فى الحجاز « واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، ايمسكه على هون أم يدسه فى التراب » (النحل ٥٧-٩) « يا ايها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن اولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين ايديهن وارجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم » (الممتحنة ١٢) « واذا المؤودة سئلت بأى ذنب قتلت » (التكوير ٨-٩) « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل اولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون .. قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراءا على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين » (انعام ١٣٦ ، ١٤٠) « ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق . نحن نرزقهم واياكم » (الاسراء ٣١) « ولا تقتلوا اولادكم من املاق . نحن نرزقهم واياكم » (انعام ١٥٠) .

ان الآيتين الاخيرتين (الاسراء ٣١ ، الانعام ١٥٠) تظهران ان الوأد كان لعامل اقتصادى أما الآية الاولى (النحل ٥٧-٩) فقد تدل على ان الدافع اليه اجتماعى ، أما الآية (١٣٦ ، ١٤٠ من سورة الانعام) فواضح منها ان الدافع دينى ؟ والواقع ان تقديم الضحايا البشرية للآلهة أمر معروف لدى الساميين ، فقد ذكر القرآن تقديم ابراهيم لابنه قربانا الى الله ، كما أشرنا من قبل الى تقديم المنذر بن ماء السماء الاربعمائة أسرى ضحايا للعزى[١٦] ، وأراد عبدالمطلب أن يقدم ابنه عبدالله ضحية وقربانا[١٧] . وربما كان مما يتصل بالدين أن البنت تؤد عادة عند ولادتها أو عندما تبلغ السادسة من العمر .

---

(١٤) المحبر : ص ١٤١ .
(١٥) تفسير القرطبى : ج ٩ ص ١١٧ .
(١٦) أنظر ص ٥٥ .
(١٧) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٦٧ وانظر ايضا سمث : القرابة والزواج ص ٢٩١ فما بعد .

وكثيرا ما تعارض الام فى وأد البنت فيهددها الاب ، ويروى الطبرى عن عكرمة فى تفسير آية سورة الانعام انه « كان الرجل يشترط على امرأته أن تستحى جارية وتئد اخرى ، فاذا كانت الجارية التى توأد غدا الرجل أو راح من عند امرأته وقال لها انت على كظهر امى ان رجعت اليك ولم تئديها فتخد لها فى الارض خدا وترسل الى نسائها فيجتمعن عندها ثم يتداولنها حتى اذا بصرته راجعا دستها فى حفرتها ثم سوت عليها التراب[١٨] » .

مكانة المرأة :

على ان الوأد لا يمكن أن يكون دليلا على احتقار العرب للمرأة ، فان بعض الآلهة كن بنات . والواقع ان المرأة كانت لها حقوق غير قليلة ، فكان لها الحق أن تمتلك أملاكا خاصة ، وخير مثل على هذا خديجة زوجة النبى ، وجليلة بنت المهلهل التى كان لها غنم يرعاها أخوها زيد الخيل[١٩] . وهى لا تفقد هذه الحقوق حتى بعد الزواج ، لان عقد الزواج كان يبيح للزوج حق الحياة مع الزوجة وحق انجاب الاولاد له ، لا حق تملكها . والغالب انها لا تزوج الا بعد أخذ موافقتها ولها الحق أن ترفض من لا تريده ممن يطلب يدها[٢٠] . كما انها تظل حتى بعد زواجها مرتبطة بقبيلة أهلها التى تحميها وتدافع عنها[٢١] ولبعضهن حق الطلاق[٢٢] ولذلك فهى تشعر بأن لها شخصيتها التى لا تذهب بعد الزواج رغم الحقوق الواسعة التى يتمتع بها الزوج . على انه لا ريب ان سلطتها تضعف كلما بعد محل سكنى زوجها عن قبيلتها .

الامومة :

وقد حملت هذه المكانة السامية بعض الباحثين ، وخاصة روبرتسن

---

(١٨) تفسير الطبرى : ج ٨ ص ٣٨ .

(١٩) الاغانى : ج ١٦ ص ٤٩-٥٠ .

(٢٠) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤١ سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٨ .

(٢١) الطبرى : ج٢ ص١٧٦ سمث : القرابة والزواج ص١١٦ فما بعد .

(٢٢) المحبر : ص ٣٩٨ .

سميث[٢٣] ، على القول بأن العرب كانت تتبع فى الازمنة القديمة نظام الامومة ، وهو النظام الذى تكون فيه المرأة هى صاحبة السيادة والسيطرة فى المجتمع ، ويكون عادة سائدا فى المجتمعات التى يمتهن رجالها الرعى والصيد ويقضون معظم أوقاتهم خارج بيوتهم • وقد استدلوا على ذلك من أن المجتمع البدوى العربى يمتهن أهله الرعى والصيد ، وانه يمكن أن نرى فى اللغة العربية آثارا لنظام الامومة فالرحم تدل على القرابة فهم يقولون « وصل وقطع رحمه » ، والبطن تطلق على احدى الوحدات الاجتماعية فى القبيلة • وان كثيرا من القبائل تسمى بأسماء مؤنثة كخندف ومزينة وعاملة وعائدة ، كما ان كثيرا من الناس كانوا يسمون باسم أمهم • وقد ألف محمد بن حبيب السكرى كتابا فيمن سمى باسم أمه من الشعراء • بل يروى ان عوف بن محلم شرط على عمرو بن حجر عندما خطب هذا أم أياس بنت عوف أن « أزوجكها على أن أسمى بنيها وأزوج بناتها فقال عمرو بن حجر أما بنونا فنسميهم بأسمائنا وأسماء آبائنا وعمومتنا وأما بناتنا فينكحهن اكفاؤهن من الملوك[٢٤] » وجدير بالذكر ان أغلب الاشياء المهمة فى الحياة كالشمس والارض مؤنثة[٢٥] • هذا الى أن شخصيات نسوية بارزة ظهرت فى المجتمع الجاهلى فى الدين والسياسة كالزباء التدمرية وسجاح التميمية وهند زوجة أبى سفيان وخديجة زوجة النبى • كما انه كان للخال مكانة كبيرة فى النسب وكان يعتقد ان أغلب صفات الولد تورث من خاله فالعرب تقول نزعه عرق الخال[٢٦] ، ويقول الفرزدق « نزعتك والام اللئيمة تنزع » • ويقول جرير :

لا تطلبن خؤولة فى تغلب فالزنج اكرم منكم اخوالا

غير ان الادلة التى يسوقها "ولكن" و"سميث" غير كافية لاثبات وجود الامومة

---

(٢٣) سمث : القرابة والزواج ص ١٤٥ فما بعد أنظر ايضا ولكن : الامومة عند العرب (ترجمة بندلى جوزى) محمد عبدالمعيد خان : الاساطير العربية قبل الاسلام ص ٦٥ جمعة : ص ٧٩ فما بعد • الحوفى : المرأة العربية ص٥٦-٦٧ •

(٢٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ١٩١ •

(٢٥) فنسنك نظرية الجنس فى اللغات السامية (بالانكليزية) انظر فى الزواج ايضا : شترن الزواج فى العهود الاسلامية الاولى •

(٢٦) ابن سعد : ج ٣ قسم ١ ص ٢٣٥ •

عند العرب بل هناك دلائل تنقض ذلك : فالمجتمع السامى منذ عرف فى التأريخ كان يعتبر الاب هو رأس الاسرة • والبعل أو الزوج هو السيد ، والقبائل المنسوبة الى امها قليلة جدا اذا قورنت بمن دعى باسم ابيه كما ان أصلها قد يكون سببه الزواج بامرأتين مما يجعل الاولاد تنتسب لامهاتهم لكى يتميزوا ، يضاف الى ذلك ان صيغة التأنيث للفظ القبيلة لا لاسمها • وان الزواج المباضعة والمتعة أحوال شاذة[٢٧] •

الزواج :

لقد ذكرنا ان الوظيفة الرئيسية للمرأة هى انجاب الاولاد ، وانه يتوقف عليها مستقبل العشيرة ومكانة الجيل الجديد ، فهى قد تنجب النجباء والسامين أو بالعكس ، هذا الى انها قد تقوم بدور سياسى واجتماعى هام فالزواج يؤدى الى ترابط الاسر البعيدة ، وقد يؤدى الى ترابط العشائر مع بعضها ؛ فان رابطة الفرد مع عشيرة أخواله قد لا تقل قوة عن رابطته مع أعمامه وفى هذا أثر كبير على تقارب الناس وتعاونهم •

لذلك كانت العرب تهتم باختيار الزوجة ، وكانوا يهدفون دائما أن تكون زوجتهم كفوءا ، وأن تكون من النجيبات المتوفرة فيهن النجابة والذكاء والجمال • ويمكن أن نستنتج من أوصاف النساء المعجبات للشعراء بأن العربى كان يستذوق المرأة اذا كانت طويلة العنق فارعة القامة لينة الجسم ممتلئة الذراعين والساقين عظيمة الوركين ناعمة البشرة طيبة رائحة الفم •

الزواج بالأباعد :

لقد كانت العرب تعتقد ان الزواج بالاباعد ادعى الى انجاب النجباء من الاولاد[٢٨] ، الا انهم قلما يميلوا الى الزواج خارج العشيرة ، لان هذا يستلزم عليهم أن يأخذوا من ترضى ترك عشيرتها وأهلها لتسكن مع عشيرة زوجها الغريبة

---

(٢٧) انظر : جرجى زيدان : الانساب العربية وجمعة ص ٧٥ فما بعد ناشد سيفين : الامومة عند العرب (المقتطف سنة ١٩٣١) •

(٢٨) الحوفى : المرأة العربية ص ١٢٦ •

البعيدة عنها ، والا فان الرجل اما أن لا يرى زوجته الا فترات قصيرة يزورها خلالها ، أو ان عليه أن يسكن مع عشيرة زوجته الغريبة عنه والتى قد لا تعطف عليه • لذا فان مثل هذا الزواج كان فى الغالب مقصورا على رؤساء القبائل الذين يريدون مثل هذا الزواج لاسباب سياسية أو لكى يقترنوا بمن هو كفوء لهم • وقد يتزوج الحلفاء ايضا مثل هذا الزواج من خارج قبيلتهم الاصلية ، ويختاروا زوجاتهم من القبيلة التى تجيرهم ، وهو أغلب شيوعا • وتستطيع المرأة الطلاق لمجرد تغيير باب جنائها حجابا •

الزواج الداخلى :

فالزواج الشائع عند العرب اذا هو الزواج فى داخل العشيرة ، فهو ادعى الى أن تحافظ العشيرة على انسجامها ووحدتها ، ويتم عادة بأن يخطب الرجل ، أو من يرسله ، البنت من أبيها أو وليها وهو أقرب أقربائها الكبار • وتستشار المرأة عادة فى الزوج ، وقلما تجبر على الزواج بمن لا ترغب • وليس من الضرورى أن تكون موافقتها بالنطق ؛ بل ان سكوتها يكون دليلا على رضاها • وقد تخطب الفتاة عند الطفولة ، وتكون ملزمة أدبيا بالزواج عندما تكبر ؛ ولكن يحق لها أن ترفض •

المهر :

وعلى الخطيب أن يدفع بعد الموافقة مهرا لابيها ، ويختلف مقداره باختلاف مركز الخطيب وابوه ، أو الفتاة وأبيها[٢٩] • ولا ريب ان العرب كانت تراعى فى تزويج بناتها الاكفاء • وقد تعطى المرأة صداقا أو هدية لها • ولا يحق للرجل استرداد الصداق ، ولكن يحق له رد المهر اذا لم يتم الزواج ، بل انه كان الزوج أحيانا يطلب رد المهر اذا ماتت زوجته ، أو قد يطلب من أبيها أن يزوجه باختها بعد موتها •

واذا مات الرجل فلابنه الاكبر حق التزوج بها من دون مهر لان الاب كان قد دفع المهر • ويدعى هذا الزواج زواج الضيزن وقد حرمه القرآن بقوله

---

(٢٩) الحوفى : المرأة العربية ص ١٤٩ ، ١٥١ جمعة : ص ٤٤ فما بعد سمث : القرابة والزواج عند العرب القدماء ص ٥٠ فما بعد •

تعالى « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم الا ما قد سلف انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا (النساء ٢٢)[٣٠] » .

كما ان القرآن منع استرداد ما يعطى للمرأة (الطلاق مرتان ، فامساك بمعروف أو تسريح باحسان) ، « ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا الا أن يخافا ألا يقيما حدود الله .. وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم الا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح » (البقرة ٢٢٩ ، ٢٣٧) « وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وأتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا واثما مبينا . وكيف تأخذونه وقد افضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا » (النساء ١٩) .

وقد يستعاض عن المهر بأن يدفع الخطيب أخته لاخ خطيبته بدل المهر ، ويدعى مثل هذا الزواج زواج الشغار ، وقد حرمه الاسلام فقال تعالى « واتوا النساء صدقاتهن نحلة » (النساء ٤)[٣١] .

تعدد الزوجات :

وللرجل حق الزواج بأكثر من واحدة . ولا ريب ان تعدد الزوجات موجود عند معظم الشعوب القديمة والابتدائية ، وله أهمية كبرى فى تكثير عدد المولودين ، وتصريف النساء الفائضات فى المجتمع الذى يزيد فيه عدد النساء على الرجال ، هذا الى انه قد يحل مشكلة العقم . أى ان الرجل يحتفظ بزوجته العاقر اذا كان راضيا عنها ، ويتزوج بجانبها من تنتج له نسلا . ويقول الطبرى نقلا عن الضحاك انه كان للرجل أن يتزوج عشرة[٣٢] ؛ ويعدد السكرى اسماء عدد من الثقفيين تزوج كل منهم عشرة[٣٣] . وقد حدد الاسلام عدد الزوجات

---

(٣٠) تفسير الطبرى : ج ٤ ص ٢٠٧ . مصعب الزبيرى : نسب قريش ص ١٠ ، ٩٩ . ابن قتيبة : المعارف ص ٥٠-٥١ . المحبر : ص ٣٢٥ .

(٣١) تفسير الطبرى : ج ٤ ص ١٦٢ أما عن الاحاديث النبوية عن الشغار فانظر فنسنك : الفرس المفصل لالفاظ الحديث النبوى مادة شغار ، جمعة : ص ٤٠-٤١ .

(٣٢) تفسير الطبرى : ج ٤ ص ١٥٧ .

(٣٣) المحبر : ص ٣٥٧ وانظر ايضا جمعة ص ٥٩ فما بعد .

بأربعة « وان خفتم الا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » ، (النساء ٣) • وكان يجوز الجمع بين الاختين فحرم الاسلام ذلك « حرمت عليكم •• وان تجمعوا بين الاختين الا ما قد سف » (النساء ٢٣) •

التسرى :

وللرجل أن يمتلك ما شاء من الاماء • وقد أقر الاسلام تملك الجوارى « وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم » (النساء ٣) « حرمت عليكم أمهاتكم •• والمحصنات من النساء الا ما ملكت أيمانكم •• ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » (النساء ٢٤ ، ٢٥) (أنظر ايضا النساء ٣٦ ، النحل ٧١ ، المؤمنون ٦ ، النور ٣١ ، ٣٣ ، ٥٨ ، الروم ٢٨ ، الاحزاب ٥٠ ، ٥٢ ، المعارج ٣٠) • ولكن مكانة الاماء والسرارى أقل من مكانة المرأة الحرة ، وأولادها أقل مكانة من أولاد الحرائر •

غير انه رغم فوائد تعدد الزوجات ، فانه لم يكن عاما ، لانه كان يلقى على الرجل عبئا اقتصاديا ، فضلا عما يخلقه من مشاكل عائلية واجتماعية ، وما يحدثه من خصومات بين الضرائر •

نكاح الرهط :

والسائد فى الجاهلية أن يختص المرء بزوجته ، ولكن هناك نوعا من الزواج يدعى زواج المشاركة أو الرهط يشترك فيه عدة رجال بزوجة واحدة • ولعل أصل منشأه الاسرى وصعوبة توزيعهن فتعطى لكل جماعة فتاة من الاسرى يشتركون فيها • وقد يكون منشؤه الصعوبات المالية فى الزواج فيشترك الاخوة فى زوجة واحدة • أو قد يكون بسبب الوراثة ، اذ يرث الاولاد زوجة أبيهم فيشتركوا فيها ، وقد روى البخارى عن عائشة انها ذكرت أربعة أنواع من الزواج ، احدهما هو نكاح الرهط وهو (أن يجتمع الرجال ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها ، فاذا حملت ووضعت ومر ليال بعد أن تضع حملها ارسلت اليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم قد عرفتم الذى من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان تسمى من أحبت باسمه

فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل[٣٤] . وفى مثل هذا الزواج تختار الام عادة الاب من بين أزواجها المتعددين ، أو قد يسمى الولد باسم أمه .

ولا ريب ان هذا النوع من الزواج كان قليل الانتشار وشاذا ، وكان يتطلب من الرجل تضحية كبيرة فى عواطف الابوة ، والانانية التى هى عماد الحياة الزوجية .

المتعة :

والزواج عقد دائم بين الرجل والمرأة ، غير أن كان فى بعض الاحيان يحدد الزواج بمدة معينة يكون خلالها الاتصال حلالا ، فاذا انتهت المدة حرم اتصال الرجل بالمرأة . وتختلف مدة العقد حسب رضاء الطرفين ، ولكن يجوز تمديده بموافقة المرأة ، ويكون الاولاد تابعين عادة لامهم ، فهى التى تسميهم وتنسبهم .

وفى القرآن آية قد يفهم منها المتعة ، وان لم تكن صريحة فى ذلك « والمحصنات من النساء الا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة » (النساء ٢٤) .

وقد أباح الرسول المتعة فترة من الزمن ، فى غزوة بنى المصطلق وفى فتح مكة لمدة ثلاثة أيام[٣٥] ، ثم حرمت فيما بعد[٣٦] . والمتعارف ان الذى شدد فى

---

(٣٤) البخارى : كتاب النكاح الباب الخامس عشر . وانظر ايضا سمث : القرابة والزواج عند العرب القدماء ص ١٤٥ فما بعد ، جمعة : ص ١٤ فما بعد .

(٣٥) عن ترخيص الرسول بنكاح المتعة أنظر كتب النكاح فى البخارى : الباب ٣١ النسائى الباب ٧١ مسلم ٣-١٥ ابن ماجة الباب ٤٤ الدارمى الباب ١٦ ابن حنبل ج ١ ص ٤٢٠ ، ٤٣٢ ج ٣ ص ٣٢٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٣ ، ٣٨٠ ج ٤ ص ٤٧ ، ٥١ .

(٣٦) البخارى : كتاب المغازى : الباب ٣٨ ، كتاب النكاح : الباب ٣١ ، كتاب الذبائح : الباب ٢٨ كتاب ٢٨ كتاب الحيل : الباب ٤ . مسلم : كتاب النكاح ٢١-٣٢ ابن حنبل : ج ١ ص ٧٩ ، ١٠٣ ، ١٤٢ ج ٢ ص ٩٥ ، ١٠٣ ج ٣ ص ٤٠٤ ، ٤٠٥ ج ٤ ص ٥٥ .

تحريمها هو عمر الذى استند على شهادة شهود فى تحريم الرسول لها[٣٧] . ولا ترى الشيعة ان هناك دليلا ثابتا على تحريم الرسول لها ، ولا تعترف بصحة الاحاديث المنسوبة الى النبى فى تحريمها ، كما لا تعترف بأن تحريم عمر لها يقر الالتزام الشديد فى المنع ؛ فهى لذلك لا تنكرها . والواقع ان المتعة تحل مشكلة العلاقات الجنسية وخاصة فى المجتمعات التى تتخذ موقفا صلبا تجاهها كالاسلام ، وخاصة فى الاحوال التى يضطر فيها المرء الى الاقامة موقتا بعيدا عن أهله . ولكنها لا تحقق الغاية الاساسية من الزواج وهو ايجاد حياة اجتماعية مستقرة دائمية .

لقد كان الطلاق مباحا وهو أنواع : منه الطلاق المعروف والعادة أنه يتم الاتفاق بين الزوج وأبو الزوجة لكى يسترد الزوج الصداق . ولكن الزوج أحق بمطلقته من غيره اذا أراد الزواج بها . ويقول السكرى (انه كانت عند الجاهلية ثلاث تطليقات . وقد أقر الاسلام ذلك ؛ وحرم جواز الرجوع الى الزوجة بعد التطليقات حتى تنكح زوجا غيره) « الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان .. فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ، فان طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا ان ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون » (آل عمران ٢٢٩-٢٣٠) .

وهناك أنواع أخرى من الطلاق منها الظهار[٣٨] ، وهو أن يقول الرجل لزوجته انت على كظهر أمى أو اختى فتحرم عليه ، وقد أشار اليها القرآن « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودوا لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا » (المجادلة ٣) « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم الآتى تظاهرون منهن أمهاتكم » (الاحزاب ٤١٧) .

---

(٣٧) مسلم : كتاب النكاح ١٦ ، ١٧ ابن حنبل : ج ٣ ص ٣٠٤ ، ٣٢٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٣ ، ٣٨٠ .

(٣٨) البخارى : كتاب الطلاق : الباب ٢٣ . ابن حنبل : ج ٤ ص ٣٧ ، ج ٦ ص ٤١٠ .

ومن أنواع الطلاق الايلاء وهو أن يقسم الرجل يمينا بألا يمسها[٣٩] ؛ وقد أقره الاسلام ، ولكن حدده بأربعة أشهر يقرر بعدها الرجل فيما اذا كان يبقى المرأة أم ينفصل عنها « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر ، فان فاؤوا فان الله غفور رحيم ، وان عزموا الطلاق فان الله سميع عليم » (البقرة ٢٢٦-٢٢٧) .

وقد تبقى الزوجة فى عصمة الرجل ولكنه لا يمسها ، يريد بذلك أن يحرجها ويستغلها ماديا لترجع ما دفعه لها وقد حرم القرآن ذلك « واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه . واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن اذا تراضوا بينهن بالمعروف » (البقرة ٢٣١-٢٣٢) « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن الا أن يأتين بفاحشة » (النساء ١٩) .

واذا مات الرجل فلا يحق للمرأة الزواج الا بعد أن تتربص سنة فلا تتزين خلالها[٤٠] وقد أشار القرآن الى ذلك باسلوب يفهم منه اقراره لذلك « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لازواجكم متاعا الى الحول غير اخراج فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف » (البقرة ٢٤٠) .

ويبدو ان صداقة النساء للرجال ومخادنتهن كانت معروفة عند العرب ، وقد ذكرها القرآن فى معرض الانكار « محصنات غير مسافحات ولا متخذى اخدان » (النساء ٢٥) . كما ان القصص الكثيرة التى يرويها الشعراء عن أيام الانس التى قضوها مع صديقاتهم اللواتى كثيرا ما تذكر اسماؤهن ، وخاصة فى شعر امرىء القيس ، انما هو دليل على الحرية الواسعة التى كانت تعطى لمثل هذه العلاقات . والغريب اننا قلما نسمع بشاعر قتل أو هدد لوصفه ليالى الانس وتمتعه بخدناته ؛ وقد ظلت آثار ذلك بعد الاسلام كما يظهر من دراسة حياة عمر بن أبى ربيعة وغيره من شعراء الحجاز .

أما الزنا فقد كان موجودا ، وان كنا لا نعلم مدى انتشاره ؛ وقد ذكره القرآن

---

(٣٩) البخارى : كتاب الطلاق : الباب ٢١ .

(٤٠) تفسير الطبرى : ج ٢ ص ٣١٦-٣١٩ ، ٣٦١ المحبر : ص ٣٣٨ .

وشدد فى تحريمه بعدة آيات « ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا » (الاسراء ٣٢) « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين • الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين » (النور ٢-٣) « يا أيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين ايديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم » (الممتحنة ١٢) « والذين لا يدعون مع الله الاها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما » (الفرقان ٦٨) •

وفى القرآن تعبير آخر هو الفاحشة ، وقد تكررت فى القرآن أربعا وعشرين مرة ، مقرونة بالكبائر وبأنها ظاهرة وباطنة ، وبأنها من عمل الشيطان ، وان الله لا يأمر بها ، وهم يعملوها لانهم وجدوا آباءهم عليها ، وتأتى النساء بالفحشاء ، « واللائى يأتون الفاحشة من نساءكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فامسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا » (النساء ١٥) و « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن الا أن يأتين بفاحشة مبينة » (النساء ١٩) « ومن يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين » (الاحزاب ٣٠) « يا أيها النبى اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن الا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله » •• (الطلاق ١) وكل هذه الآيات تدل على ارتكاب بعض النساء الفحش الذى هو عمل وجدوا آباءهم عليه (أنظر الاعراف ٢٨) ويدلهم عليه الشيطان (أنظر البقرة ١٦٩ ، ٢٦٨) وهى حرام (الانعام ١٥١ ، ٣٣) ؛ ومع أن الزنا فاحشة ومقتا وساء سبيلا (الاسراء ٣٢) الا أنه يصعب الجزم بأن الفاحشة مرادفة للزنا ، بل الارجح ان الفاحشة اسم عام لرذائل اجتماعية كانت موجودة ولا نعرف تفاصيلها •

وقد أشار القرآن ايضا الى السفاح وهو الاتصال الجنسى غير الشرعى ؛ وتردد ذكره مقابل المحصن « واحل لكم ما وراء ذلك أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين » (النساء ٢٤) « •• اذا آتيتموهن اجورهن محصنين غير مسافحين

ولا متخذى اخذان » (المائدة ٥) « وآتوهن اجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات » (النساء ٢٥)

لقد كان البغاء موجودا ، وقد ورد ذكره فى القرآن « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا » (النور ٣٣) وقد وردت كلمة الفتيات فى آية اخرى بمعنى الامة « فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » (النساء ٢٥) ؛ ويورد الطبرى فى تفسير هذه الآية أسماء عدد من البغايا ومن كان يملكهن ، مما يدل على وجوده[٤١] . والراجح انه يكثر فى الاسواق والمدن كمكة والطائف ، وكان لبيوت البغايا عادة رايات يعرفن بها ولذا كان يطلق عليهن أحيانا أصحاب الرايات[٤٢] . ولا ريب انه لم يكن ينظر اليهن نظرة احترام ؛ والراجح ان أصل معظمهن من الجوارى أو العبيد . وينسب ولد البغى عادة الى أمه ، ولكنه قد ينسب الى من تختاره أمه ممن اتصل بها ؛ ولعل أشهر ولد بغى هو زياد الوالى المشهور الذى كان يسمى باسم أمه سمية ، ثم استلحقه معاوية بنسبه فصار يسمى زياد بن أبى سفيان .

---

(٤١) تفسير الطبرى : ج ١٨ ص ١٠٠-١٠٤ .
(٤٢) المحبر : ص ٣٤٠ .

الفصل الحادى عشر

التنظيمات السياسية عند البدو

القبيلة :

القبيلة هى الوحدة السياسية عند البدو ، وهى كما رأينا ، جماعة من الناس ينتمون أو يعتقدون انهم ينتمون الى أصل واحد مشترك ، ويرحلون ويقيمون سوية ، وتربطهم رابطة العصبية وهى كما قال ابن خلدون :

« ولا يصدق دفاعهم وذيادهم الا اذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد لأنهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم اذ نعرة كل أحد على نسبه وعصبيته أهم وما جعل الله فى قلوب عباده من الشفقة والنعرة على ذوى أرحامهم وقربائهم موجودة فى الطبائع البشرية وبها يكون التعاضد والتناصر وتعظم رهبة العدو لهم[1] » .

ويتضح من تعريف ابن خلدون هذا ان العصبية هى شعور التماسك بين من تربطهم رابطة دم نقية ، فهى لا توجد الا حيث يوجد المجتمع المعزول ، وانها دافع غريزى فى الانسان ، قائمة على أساس رابطة الدم ، فهى دائمية ثابتة ، طبيعية لا مكتسبة وفيها عنصر أخلاقى يجعلها قوة اجتماعية وسياسية ، ولها أهمية كبرى اذ انها قوة سياسية دفاعية تربط بين الناس وتكتلهم فتعمل بذلك على بقاء المجتمع وتحفظ كيانه . فالعصبية اذ تشبه الشعور القومى فى عصرنا الحاضر . ولكن رابطة الدم فيها أقوى وأوضح مما فى القومية .

وتستوفى القبيلة كافة مقومات الدولة سوى الارض المعينة الحدود . ذلك ان فيها شعب يرى انه ينتسب الى أصل واحد ، ولها سيادة تامة ، كما ان لها تقاليد وعرف تتبعه كالدستور ولا ينقصها الا أرض مثبتة الحدود . اذ أن القبيلة قلما تثبت فى مكان واحد أمادا طويلة . بل تتجول من مكان الى آخر ، وان كانت فى غالب الاحيان تكون لها منطقة خاصة تتجول فى نطاقها وهى ما تدعى بالدار .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٢٢ .

أو قد تنشىء لنفسها حمى أى منطقة ثابتة من الارض لا يجوز لغيرها أن يخترقها أو يستعملها[٢] .

الفردية والتماسك :

والبدوى يعتز بفرديته وشخصيته ، ويرى نفسه مساويا لغيره من الافراد فى الاصل والحقوق والواجبات وينفعل اذا حاول أحد مس هذه الفردية أو جرح شعوره بالمساواة . الا أن فرديته منسجمة مع الجماعة فهو متماسك مع جماعته ينصر اخوانه ظالمين أو مظلومين ويلبى دعوتهم اذا طلبوا النجدة أو اذا دهم القبيلة خطر يهددها بل انه يرضى عن طيب نفس أن يتحمل بعض مسؤولية أعمال غيره فيساهم فى دفع الدية عنهم ويشارك فى الحروب التى قد تنشب نتيجة سوء تصرف أحد أفراد قبيلته أو نتيجة الاعتداء عليهم . والواقع ان الباقين ينظرون اليه كجزء لا ينفصل عن القبيلة فقد يحملوه جريرة غيره ويقتلوه مقابل قتيل لهم قتله أحد أفراد قبيلته[٣] .

ففردية البدو اذن ليست مظهرا للتفكك السياسى بل هى فى نفس الوقت يرافقها الشعور بالجماعة الذى يزداد قوة وقت الخطر فيحمل البدوى أن يتناسى هذه الفردية تجاه المجموع ، وبدون هذا التعاطف لا تستطيع القبيلة أن تعيش وتدوم .

على انه رغم ان أساس التماسك فى القبيلة هو العصبية أو الشعور برابطة الدم ، الا أن هذا لا يجعلها ثابتة جامدة ، كلا بل هى قابلة للتوسع أو الانقسام . اذ أن حجم القبيلة يتوقف على المراعى ، وان عددها اذا ازداد لدرجة لا تتحمله مراعى مواشيها ، فانها تنشطر الى اجزاء صغيرة . وبجانب هذا فان القبيلة يمكن أن تقبل فى عضويتها بعض الغرباء ليكونوا أحلافا فيها . يحملون واجبات وحقوق مشتركة . ولكنهم يحق لهم مغادرة القبيلة متى شاؤوا فدرجة عصبيتهم أضعف وحقوقهم أقل .

---

(٢) انظر لوكجارد : الضرائب الاسلامية فى الازمنة الاولى ص ٢٠-٣٧ .

(٣) انظر فى طبيعة البدوى : احمد امين : فجر الاسلام ص ٣٧ فما بعد . بشر فارس : مباحث عربية ص ٧٥ فما بعد . لامنس : مهد الاسلام القسم الثالث (بالفرنسية) .

العلاقات السياسية :

والعلاقات السياسية البدوية ذات صبغة أخلاقية ، فهي تتمثل بالشعور التعاونى الذى يعبر عن نفسه بواجب العصبية والاخوة وتحمل الفرد ، وأن يرحم الضعيف ويزور المريض ويطعم الفقير ويرعى الارملة ويشيع الموتى ويبذل أيام القر والضنك لاطعام الضعيف • وواجباته تكون فى الدرجة الاولى نحو أقربائه ثم نحو العشيرة التى يجب عليه أن يلبى نداءها فى الحق والباطل • والعشيرة بدورها تقوم ببعض الواجبات عن الافراد كأن تفك العانى وتعين على دفع دين المدين ، أو تدفع الدية أو تأخذ الثأر • وهذه الصبغة الاخلاقية لا تقتصر على العلاقات الداخلية ، بل تشمل حتى العلاقات الخارجية ، اذ رغم عدم وجود قوانين دولية أو قوة عليا ملزمة تطيعها العشائر ، فانه كانت هناك تقاليد خلقية متينة من الوفاء ورعاية العهود والاتفاقات • وكثيرا ما تكون مصطبغة بصبغات دينية ، لذا تكون قوية •

غير انه قد وجد بعض من لا يخلصون فى واجباتهم نحو أفراد العشيرة بل يتبعوا مصالحهم الذاتية ويقوموا بأعمال قد تجر للقبيلة عدة مشاكل كاقتراف جرائم القتل أو حماية المجرمين أو انتهاك الحرمات • فالحرية الفردية التى يتمتع بها البدوى اذا لا يحدها قانون الزامى ، والمسؤولية الاجتماعية لم تكن واحدة بل هى أقوى تجاه العائلة منها تجاه بقية أفراد العشيرة •

ان زمالة الدم هى مبعث كافة الالتزامات السياسية والحربية فى القبيلة • فعلاقة الفرد بالقبيلة كعلاقته بعائلته • وليس هناك فرق بين الشىء العام والخاص • بل ان الافراد ، نظريا على الاقل ، لهم جميعا نفس الحقوق والواجبات ، ويقومون بواجباتهم نتيجة شعورهم بالمسؤولية نحو روح الاخوة والجوار ، لا نتيجة الزام سياسى أو قانونى ، اذ لم يكونوا ليحتملوا وجود طبقة مصطنعة فوقهم تحكمهم فلم تكن هناك محاكم ادارية • ولا ادارة مركزية للحكومة • ولا ضرائب أو واردات أو موظفين خاصين للجباية • اذ انهم يشتركون جميعا فى ادارة وظائف المجتمع (٤) •

---

(٤) انظر فى ذلك المقال القيم الذى كتبه ولهاوزن عن المجتمع البدوى فى الجزء السادس من تاريخ العالم للمؤرخين (بالانكليزية) •

المجلس :

لكل قبيلة عادة مجلس هو ندوة لهم[٥] • يستطيع كل فرد من أفراد القبيلة حضوره والتحدث فيه متى كان مجتمعا • وليس هناك أوقات معينة لاجتماعه • والغالب أن يجتمع يوميا فى المساء فى بيت شيخ القبيلة ، وقد يجتمع فى النهار ، أو قد يرسل مناد ينادى الناس للاجتماع • فهو لهم كالبرلمان •

يتحدث الناس فى المجلس مختلف الشؤون الخاصة ، ويبحثون الامور والمسائل التى تخص القبيلة ويناقشون الامور السياسية والخارجية فيه ، ولكل فرد فيه الحق فى ابداء رأيه والدفاع عنه • ولكن الغالب أن يسود ذلقو اللسان أقوياء التفكير والمنطق والحجة فى المناقشات • وذلك بحكم مواهبهم لا بحكم القانون • ومن مصادر الفخر أن يكون الانسان من المتحدثين فى المجالس • كما ورد ذلك فى أشعارهم :

ولكن ستبكينى خطوب ومجلس ... وشعث اهينوا فى المجالس جوع
حمال الوية شهاد اندية ... قوال محكمة جواب افاق
حمال الوية هباط اودية ... شهاد اندية للجيش جرار
اذا سيد منا خلا قام سيد ... قؤول لما قال الكرام فعول
لكم نائل عمر وأحلام سادة ... والسنة يوم الخطاب مسالق

وفى هذا المجلس ينشد الشعراء أشعارهم • ويظهر الخطباء مواهبهم • ويسمع الناس الآراء الطريفة والاحاديث الطيبة ، فهو اذا مدرسة أدبية تربى الافراد على قوة البيان واللغة وتكشف المواهب الادبية والسياسية • وتتخذ قراراته بعد المناقشات ، بالاغلبية • والغالب ان المعارضة تذعن لهذه القرارات •

الرئيس :

تتجلى وحدة القبيلة بوجود شخصية عليا يطلق عليها اسماء مختلفة كالامير

---

(٥) اعتمدنا فى بحث المجلس والرئيس وواجباته على البحث المفصل الذى كتبه لامنس فى القسم الثالث من كتابه (مهد الاسلام) والذى وفى فيه ذكر الاشارات فى الكتب العربية عن هذه الامور • ولناللينو بحث قيم فى النظام السياسى البدوى •

والرب والرئيس والشيخ • فأما الرب كان يستعمل قبل الاسلام للمالك أو الحاكم • فيقال رب الشام ورب الحجاز ورب الخورنق كما يقال رب القبة ورب الراقصات الى منى ورب الداميات نحورها وأرباب العقول والخطاب • ولكن منذ هجرة النبى وسيادة الاسلام بدأ هذا التعبير يتحدد فى الله ، أما تعبير الامير فكان عادة يستعمل للجيوش فيقال أمير السرايا وأمراء الشام ، واستعمل لقب أمير المؤمنين فيما بعد باعتبار ان المؤمنين كانوا محاربين •

ولقب الرئيس استعمل فى الغالب مرادفا للقائد ، فهو بمثابة الرأس للقبيلة فيقال رئيس ورئيس فارس • ورئيس ربيعة •

أما الشيخ فكان المقصود فيه عادة الكبير السن سواء ساد أم لم يسد •

وأكثر الالقاب اطلاقا هو السيد • ولما كان السيد عادة كبير السن وقائد القبيلة فكان أحيانا يوصف بالشيخ أو الرئيس أو الامير •

صفات الرئيس :

وكان المطلوب ممن يرأس أن يتصف ببعض الصفات الخلقية التى تعتبر حيوية للمجتمع البدوى • وقد عددها الجاحظ فقال « كان أهل الجاهلية لا يسودون الا من من تكاملت فيه ست خصال السخاء والنجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان » • وقد أجاب قيس بن عاصم لما سئل كيف سودك قومك ؟ فقال « ببذل الندى وكف الاذى ونصرة المولى وتعجيل القرى •

فاصبحت فى أمر العشيرة كلها ... كذى الحلم يرضى ما يقول ويعرف
وذلك انى لا اعادى سراحهم ... ولا عن اخى حراتهم اتنكف
وانى لأعطى سائلى ولربما ... اكلف ما لا استطيع فاكلف
وانى لأعفو عن سفيههم واحلم عن جاهلهم وأسعى فى حوائجهم
وأعطى سائلهم[٦] » •

وقد رويت أقوال كثيرة تمدح سخاء الرؤساء وبذلهم وخاصة اوقات الشدة • وذلك لا ريب أمر هام فى المحيط البدوى الفقير والمعرض لعاديات

---

(٦) الألوسى : بلوغ الارب فى معرفة أحوال العرب ج ٢ ص ١٨٧ •

الدهر ونكبات الطبيعة . اما الذكاء فضرورى للافصاح عن الرأى والاقناع والادارة فى مجتمع ليس فيه سلطة الزامية .

واما الحلم فيتطلب الذكاء والتسامح والنصح ، والنشاط ، وهى ضرورية لشعب يشعر بفرديته المتطرفة وينقاد لعواطفه العنيفة وليس للرئيس عليه سلطة قانونية أو عقاب .

وتتم الرئاسة بانتخاب حربين الافراد لا بالوراثة . واذا حدث وانتخب رجل بعد أبيه فان ذلك يكون عادة لما يتصف به الرئيس الجديد من مميزات تؤهله للمنصب ، لا لبنوته للرئيس القديم . والواقع ان العرب لم تكن تفضل أن يخلف الابن أباه لما قد يجره ذلك من تقرير مبدأ الوراثة فى الرئاسة وما قد يؤديه من تقييد حرية البدوى . وليس فى تاريخ العرب قبل الاسلام أكثر من أربع أسر تتابع فيها أربعة أحفاد بالتعاقب على الرئاسة[٧] .

على انه لابد للرئيس المنتخب من عصبية له فى داخل العشيرة ، وقرابة تشد أزره وتسنده وتعينه على تنفيذ مطالبه . ومثل هذا السند يعتمد على القوة العددية وعلى الحسب والشرف . ومثل هذا الشرف لا يتوقف على فعال الخير فقط . بل على نقاوة الدم ايضا . وعلى هذا فلا تتم الرئاسة الا للصليبة أما الموالى والحلفاء فلا مجال لهم للحصول عليها[٨] .

واجباته :

كانت على الرئيس وجائب غير قليلة ، فعليه أن يعين الضعفاء ويواسى المنكوبين ويفتح فى بيته مضيفا للضيوف والوافدين ومندوبى العشائر الاخرى . ولكنه لم يحتكر هذه الاعمال التى قد تستنزف ثروته ، فقد يقوم أى فرد فى العشيرة فى هذا العمل .

---

(٧) مقدمة ابن خلدون (فصل فى أن نهاية الحسب فى العقب الواحد أربعة آباء) ص ١٣٠-١٣١ . انظر كذلك الاغانى : ج ١٧ ص ١٠٦ .

(٨) مقدمة ابن خلدون (فصل فى أن الرياسة لا تزال فى نصابها المخصوص من أهل العصبية) (فصل فى ان الرياسة على أهل العصبية لا تكون فى غير نسبهم) ص ١٢٥-١٣٠ .

وعليه أن يدير المناقشات فى المجلس • ويتولى المفاوضات الدبلوماسية مع القبائل الاخرى أو يبدى رأيه ، ولكن ليست له سلطة قانونية لمنع أحد من الكلام أو اقرار رأى دون آخر أو أن يفرض رأيه الا بقدر ما له من حجة فى الاقناع •

وعليه أن يفض المنازعات ويحكم فى الخلافات اذا لجأ اليه المتخاصمون ، ولكنه لا يحتكر وظيفة القضاء ، فقد يلجأ المتنازعون الى غيره من الحكام والعارفة الذين يشتهرون بدقة الحكم والتميز والعدالة سواء فى العشيرة أو خارجها •

وهو يقود العشيرة فى اوقات الحرب • ولكنه لا يحتكر هذا • فقد يظهر قائد مبرز أو وفارس شجاع يقوم بالقيادة •

وهو يقسم الغنائم بين المحاربين وله فيها حقوق اجملها البيت التالى :-

لك المرباع منهـا والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

فالمرباع هو ربع الغنيمة • والصفايا هى الأشياء التى يصطفيها الرئيس لنفسه من خير ما يغنم والحكم هو أن يبارز الفارس فارسا قبل التقاء الجيشين فيقتله ويأخذ سلبه فالحكم فى ذلك للرئيس ان شاء نفله وان شاء رده فى جملة المغنم • والنشيطة ما أصاب الجيش فى طريقه قبل أن يصل الى هدفه • والفضول ما يفضل من الغنيمة فلا ينقسم •

وهو يقوم بكل هذه الوظائف والواجبات معتمدا على قوة الاقناع وقوة شخصيته ونفوذه اذ لم تكن له سلطة الزامية يجبر بها أفراد القبيلة على تنفيذ قراراته ، فلم تكن له شرطة تنفيذ أوامره أو سجون يسجن بها من يعصيه • انه يفاوض أفراد القبيلة ويمارس ضغطا معنويا ، هو الأقدم بين أقرانه Primus inter pares له سلطات واسعة ولكن ليست له قوة حاكمة • وهذا ولا ريب لا يكفى لتسيير لشؤون الداخلية أو الخارجية للمجتمع • فعندما تعلن القبيلة الحرب مثلا لا يستطيع أن يعلن التجنيد الاجبارى أو يفرض الانضباط أو يطلب طاعة مطلقة من الافراد • وكلما يستطيع عمله هو الهزء والسخرية والهجاء لمعارضيه • غير ان صعوباته تكون عادة فى تمشية المشاكل

الداخلية أما عند حدوث خطر خارجي فيندر أن يمتنع الافراد أو يعصوا رئيسهم[٩] .

العلاقات الخارجية :

لقد كانت القبيلة تعتبر نفسها مستقلة استقلالا تاما . وفي حالة حرب دائمية مع غيرها . يباح لها أو لافرادها أن تأخذ كل ما تحصل عليه من الغير . فالغزو أمر طبيعي وقانوني عندهم . ودوافعه متعددة . منها الحاجة : فان اجداب الجزيرة العربية وأخطار الطبيعة قد تأتي على ما تملكه القبيلة فتضطر الى الغزو لتنهب من القبائل الاخرى أموالها ومواشيها . وقد تكون دوافع الغزو حب السيطرة والسيادة . ومن هذا القبيل معظم الحروب التي شنها المناذرة والغساسنة وكندة . أو قد يكون الغزو نتيجة عامل شخصي كأن يكون رئيس القبيلة حاقدا على قبيلة اخرى لسبب من الاسباب .

وقد حفظت لنا كتب التاريخ والادب اسماء عدد غير قليل من هذه الحروب أو أيام العرب[١٠] كما يدعوها ولا ريب ان ما حفظ أقل بكثير من الحروب التي كانت تنشب سنويا وغفل عن ذكرها الرواة .

وعند دراسة أيام العرب التي يذكرها الرواة نجد ان اغلب هذه الحروب كانت تنشب بين مجموعات من القبائل الكبيرة ، وقليل جدا منها بين القبائل اليمانية والمضرية . فان الخصومة بين اليمن ومضر حدثت بعد الاسلام لا قبله .

ثم ان أغلب هذه الحروب وقتية أو غزوات قلما تدوم مدة طويلة ، أو تؤدي الى ابادة أحد الطرفين أو طرده من أراضيه أو تولد نتائج ثابتة معينة كأن تبقى قبيلة بكاملها خاضعة ومستعبدة لقبيلة اخرى ، فآثارها المادية من قتل تافهة

---

(٩) لقد جرت في الجزيرة محاولات لانشاء نوع من الملكية ، فيما عدا المناذرة والغساسنة وبلاد اليمن . فيروى الطبري ان هوذة بن علي الحنفي لبس التاج (الطبري ج ٢ ص ١٣٣) ويروى الاغاني ان عباس بن أنس الرعلي كانت بنو سليم أرادوا عقد التاج على رأسه (الاغاني ج ١٧ ص ٥٥) ولكن معلوماتنا عنها أقل مما تكفي لتكوين فكرة واضحة .

(١٠) أنظر في أيام العرب : نقائض جرير والفرزدق . ابن عبد ربه : العقد الفريد (الجزء الثاني) . ابن الاثير : الكامل في التاريخ (الجزء الاول) .

اذا قورنت بالحروب الحديثة • ولكنها ولا ريب أدت الى حدوث حالة من القلق فى الجزيرة • كما أن النهب والاسر الذى يصحبها يؤدى الى عدم الاستقرار فى الجزيرة • وكان لها أثر كبير فى ظهور تقاليد وعرف يشبه القانون الدولى اليوم ويتعلق بمعاملة الاسرى وفكاكهم وكيفية الحروب • ومثل هذه التقاليد قائمة على مبادىء أخلاقيـة هى مبادىء الشرف والمروءة • وكانت من أهم المصـادر التى كونت قوانين السلم والحرب فى الاسلام •

وقد حملت أخطار الحرب وتهديدات الغزو المستمر فى الجزيرة بعض القبائل وخاصة الصغيرة والضعيفة منهـا الى أن تحالف القبـائل القوية وخاصة المجاورة لها وذلك اما لتتقى شرها ، أو لتضمن المعونة والمساعدة اذا دهمها خطر مهدد • ويكون الحلف اما موقتا وهو الاغلب أو دائميا • وكثيرا ما تسبقه مفاوضات وتمهيدات دبلوماسية بعض المراسيم كالقسم ولعق الدم وغير ذلك لتوكيده[١١] • أو قد يرافقه زواج الرؤساء •

وقد يكون غرض مثل هـذه المحالفات التوسع ، أو قد يكون تثبت مركز شخصية بارزة ويكون للمتحالفان عادة حقوق وواجبات متبادلة •

ولا ريب انه كان للحلف بين القبائل أثر كبير فى نشر الامن والسلام فى بعض ربوع الجزيرة العربية كما كان عاملا مهما فى تكوين دول أو شـبه دول بينها • هذا الى أن كثيرا من القبائل الكبيرة تكونت بواسـطة التحالف ثم خلقت نسبها لتبرر التحالف •

---

(١١) انظر فى الامثلة على ذلك جمعة : ص ١٤٧ فما بعد •

الفصل الثانى عشر

المفاهيم القانونية عند البدو

لم يكن للبدو قانون منظم مكتوب ، بل كانت لهم تقاليد بسيطة واضحة يتمسكون بها أشد التمسك ومفعولها يقتصر على العشيرة ولا يتعداه الى العشائر الاخرى ، وهى تقاليد على بساطتها صلبة جامدة • ألفوها ويصعب تغييرها ، اذ ان العربى بطبيعته محافظ على سنن آبائه لا يميل لتغييرها ، وقد لقى الرسول مقاومات شديدة عندما كان يريد تغيير سنتهم ، ونجد صدق ذلك فى القرآن حيث يذكر فى آيات كثيرة بمعرض الذم والسخرية « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم لمقتدون » (الزخرف ٢٣) •

ولما لم تكن هناك سلطة تنفيذية تقتص للفرد أو تنزل العقاب بالجانى ، فقد كان يترك للمجنى عليه أن يقتص لنفسه ، وقد تعاونه العشيرة فى ذلك ، الا ان الجرم كان يعتبر دائما حقا خاصا وليس هناك حق عام ، فاذا أعفى المجنى عليه لم يكن على الجانى أى عقاب •

والفكرة الاساسية فى القانون الجنائى هو القصاص أو الانتقام ، فليس هناك أثر للعقاب الذى يستهدف الاصلاح وما الى ذلك • فاذا جرح شخص آخر كان للمجنى عليه أن يطلب أن يجرح الجانى أو يقطع منه عضوا جريا على مبدأ العين بالعين والسن بالسن ، أو قد يطلب تعويضا عن الجرح يتناسب مع الجرح أو القطع وأثره • ذلك ان أساس العقاب هو التعويض عن الخسارة التى ألحقت بالمجنى عليه • وقد اتبع هذا المبدأ فى الجنايات والجراحات فى الاسلام •

أما فى حالة القتل ، فانه اذا قتل شخص آخر من عشيرته فان القبيلة تخلعه وتقصيه عنها ، فيغادرها ويصبح خليعا أو طريدا[1] ، فانه يضطر أن يصبح

---

(١) الاغانى : ج ١٣ ص ٢ • العقد الفريد : ج ٢ ص ٧٢ • وقد يخلع الفرد لسوء سلوكه : انظر البخارى : التاريخ الكبير ج ١ قسم ٢ ص ٨٧ • ابن قتيبة : المعانى الكبير ج١ ص٢٠٨ ، الاغانى : ج٨ ص٥٢ ، ٥٣ ج١٩ ص٧٥ •

صعلوكا[٢] سارقا قاطع طريق ، أو قد يلجأ الى الاماكن المقدسة ليعيش فى أمن حرمها ، أو الى قبيلة يحالف رجالا فيها ، والواقع ان عددا غير قليل من الحلفاء كانوا من هؤلاء الخلعاء .

واذا قتل رجل رجلا من غير قبيلته ، فان قبيلة المقتول ترى من واجبها أن تثأر له وتقتص من القاتل دون تمييز بين القتل العمد أو غير العمد ، ولكن قبيلة القاتل عادة لا تسلمه بل تحميه ، الامر الذى قد يسبب توتر العلاقات بل واشتعال الحرب بين القبيلتين ، ولكن قد ينتهى الامر بالسلم فيدفع مبلغ من المال دية لعشيرة المقتول .

وتختلف الدية باختلاف مكانة القاتل أو المقتول ، وحدها الاقصى ألف بعير وهى التى تدعى دية الملوك . ولما لم يكن هناك تدقيق واضح فى مقدار الدية ، فانه قد يحدث خلاف ، اذ قد تغالى عشيرة المقتول بمركزه وقيمته وتأبى الا أخذ مبالغ كبيرة بل قد تصر على أن تثأر للمقتول بقتل القاتل ، أو من يعدله مكانه الامر الذى لا يحسم . فعندما قتل جساس كليبا ارسل التغلبيون رجالا منهم الى بنى شيبان فأتوا مرة بن ذهل بن شيبان وهو من نادى قومه فقالوا له انكم أتيتم عظيما بقتلكم كليبا بناقة وقطعتم الرحم وانتهكتم الحرمة وانا نعرض عليك خلالا أربعا لكم فيها مخرج ولنا فيها مقنع اما أن تحيى لنا كليبا أو تدفع الينا قاتله جساسا فنقتله به أو هماما فانه كفء له أو تمكننا من نفسك فان فيك وفاءا لدمه فقال لهم اما احيائى كليبا فلست قادرا عليه واما دفعى جساسا اليكم فانه غلام طعن طعنة على عجل وركب فرسه فلا ادرى أى بلاد قصد واما همام فانه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة كلهم فرسان فلن يسلموه بجريرة غيره ، واما أنا فما هو الا أن تجول الخيل جولة فأكون أول قتيل فما اتعجل الموت ، ولكن لكم عندى خصلتان اما احدهما فهؤلاء أبنائى الباقون فخذوا أيهم شئتم فاقتلوه بصاحبكم ، واما الاخرى فانى أدفع اليكم ألف ناقة سود الحدق حمر الوبر فغضب القوم وقالوا قد أسأت ببذل هؤلاء وتسومنا اللبن من دم كليب[٣] .

---

(٢) الاغانى : ج ١٣ ص ٢ وانظر ايضا احمد امين : الصعلكة والفتوة عند العرب .

(٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ١ ص ٢١٨ .

وكثيرا ما يلجأ فى مثل هذه الحالات من الخلاف الى الحكم أو العارف[٤] ممن عرفوا بالاتزان واصالة الرأى والتمييز ، وليس من الضرورى أن يكونوا شيوخ عشائر ، أو ذوى مراكز سامية وهم يصدرون قراراتهم بعد دراسة الوضع ، ولكن رأيهم استشارى ، فليست لهم سلطات أو قوة تلزم الفريقين بطاعته وتنفيذه اذا لم يرد أو من تلقاء نفسهما الرضوخ لذلك فهؤلاء الحكام اذا ليسوا قضاة بالمعنى المفهوم الآن .

وقد عدل الاسلام من هذه النظم فقنن الدية وجعلها ثابتة معينة يستوى فى مقدارها الجميع لا فرق بين فرد وآخر ، كما جعل تنفيذها بيد السلطة العليا أى بيد الدولة ، فلا يجوز للفرد أن يقتص بنفسه ، وقد ابقى الاسلام المسؤولية المشتركة ، فأوجب أن تشترك القبيلة فى دفع دية القتل غير العمد[٥] ، وبذلك منعت الثأر وما يجره من مشاكل وويلات .

أما فى حالة السرقة فان على من سرق منه شىء أن يفتش عن المسروق ، والعادة ان البدوى لا يرى فى السرقة ما يناقض المروءة لذا قلما يظهر ما سرقه ، ولكن الرجل المسروق يستطيع أن يعلن اللعنة على السارق ، اذ أن البدوى يخشى اللعان ويخاف شره والغالب انه يعيد الشىء المسروق .

أما الوراثة فان العادة ان الرجال وحدها ترث ، أما البنات فلا يرثن[٦] ، ويقتسم الارث بين البنين بالتساوى وللرجل حق الوصية والهبة . وقد قرر الاسلام انه « للرجال نصيب مما ترك الوالدان وللنساء نصيب (النساء ٧) وان للذكر مثل حظ الانثيين » .

---

(٤) أنظر ص ١٠١ .

(٥) أنظر كتابى : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة ص ٣٥ .

(٦) تفسير الطبرى : ج ٤ ص ١٥٣ ، ١٨٥ . ابن حجر : الاصابة فى معرفة الصحابة ج ١ ص ٩٢ .

الفصل الثالث عشر

(١)

الدين الجاهلى (١)

المعبودات

الدين هو الاعتقاد بكائنات غيبية ذات قوى مؤثرة والقيام بطقوس وعبادات لها • وهو يتوقف على عقلية الناس وحالة الافراد • فكان له فى القديم دور كبير • وذلك لان البشر كانوا آنذاك أشد محافظة ، كما ان فهمهم لمسببات الحوادث كان يختلف عن فهمنا فكانوا يرون ان وراء كل حركة أو ظاهرة قوة غيبية تسيرها • وهكذا كانوا يعتقدون ان للقوى الغيبية تأثير أوسع مما نعتقده له اليوم •

والدين يتطلب خبرة نفسية والقيام ببعض الاعمال للآلهة • فهو ليس بعمل فردى أو محاولة شخصية لاظهار الروحية الانسانية ، بل يشمل عملية حية متبادلة بين الانسان والقوى فوق الطبيعية • ومع ان للفرد فى الدين أهمية كبيرة الا انه فى الغالب كانت الاديان القديمة اجماعية تتعلق بالقبيلة كلها • فالاله للقبيلة كلها يحميها كلها ويشمل برعايته كافة أفرادها •

علاقة الآلهة بالمجتمع :

وللناس علاقة وثيقة بالآلهة ، والمرء يرث هذه العلاقات ويتأثر سلوكه بها باعتباره عضوا فى المجتمع ، فلا فرق بين نظام الحياة والدين ، والاعمال الاجتماعية

---

(١) استفدنا فى دراسة هذا الموضوع من الابحاث التالية :ـ

(أ) روبرتسن سمث : محاضرات فى أديان الساميين (بالانكليزية) (وسنرمز اليه سمث) •

(ب) مقالة نولدكه عن الدين الجاهلى فى دائرة معارف الدين والاخلاق (بالانكليزية) وسنرمز اليها نولدكه •

(ج) محمد عبدالمعيد خان : الاساطير العربية قبل الاسلام • وسنرمز اليها الاساطير العربية •

العامة لها علاقة بالآلهة والبشر على السواء ؛ وهناك علاقة متبادلة فالاله يحمى القبيلة أو المجتمع ويدافع عنه وقد يضطر أحيانا أن يحارب الآلهة الاخرى اذا اشتبكت القبيلة بحرب مع القبائل الاخرى • ولهذا لم يكن يستطيع المرء تغيير ديانته الا اذا غير قبيلته أو خرج عنها ، وهو أمر ليس من السهل القيام به •

وفى حالة ما اذا اختلطت القبائل أو الشعوب ذات الآلهة المختلفة فان اختلاطها يؤدى الى اختلاط الآلهة • وهذا يتخذ أشكالا متعددة فقد يقتصر هذا التغيير على تغيير صفات الاله الاصلى ، أو أن تضاف اليه صفات اخرى ، أو قد يصبح له اسمان ، وقد تجعل آلهة القبائل الاخرى أولادا أو أخوة لآله القبيلة الاصلية ؛ ومن هذا نشأت فكرة تعدد الآلهة •

الأساطير :

وتنشأ عادة حول الآلهة قصص وأخبار تشرح طبيعتها وأعمالها • وقد يتوارث الخلف هذه القصص ؛ وهى فى الاصل ليست جزءا من العبادات أو الدين ، ولا يجبر الناس الاعتقاد بها ، فهى ثانوية بالنسبة للدين ، مستمدة من العبادات ومتنوعة • والغالب انها تفسر الاعمال والعادات الدينية ولكنها ملذة تثير الخيال وتشوق للعبادة ، وتنمو عندما تضعف الطقوس الدينية • وقد تنشأ الاساطير نتيجة فلسفة قديمة تفسر الكون ، أو قد تخلق لغرض سياسى يراد به جمع شمل الناس العباد ضمن وحدة واحدة ، أو قد تنشأ بمجرد الخيال والادب • ولا ريب انها ليست أساسية فى الدين ولكنها تضفى حياة جديدة وأهمية جديدة على الاشكال القديمة •

ولا ريب ان الاساطير تتضمن ما يميل الناس لتصديقه ، وهى كما ذكرنا ليست من جوهر الدين ولا تقتصر على الآلهة فقط • بل قد تنسج حول الاشياء العادية وليس لها صفة رسمية بل قد تتغير •

العقلية البدائية :

ويلاحظ ان الانسان البدائى يخلط بين الواقع والتخيل ، فلا يميز تمييزا دقيقا بين ما يراه حقيقة وما يتصوره ، كما انه يميل دائما الى التعميم • وقد بدأ حياته العقلية بمعرفة المادة والماديات ولاحظ مظاهر الحياة فيها ، ثم اتسعت فكرته فى معرفة مظاهر الحياة على وجه التعميم ، فظن انه لا فرق بينه وبين الموجودات

فى العصر الذى عرف فيه نفسه فظن ان للحيوان والجماد حياة حقيقية ، ولما رقت مداركه ظن ان الجمادات تحل فيها الحياة أحيانا ؛ أى أن لها شخصيتين • احداهما جامدة والاخرى فيها حياة ، مثل حالنا فى الحلم حيث نكون فى حالة النوم ساكنين ولكننا قد نرى احلاما نبدو فيها متحركين وما نحن بمتحركين •

ويسمى المبدأ الاول الذى تعتبر فيه الجمادات حية المذهب الحيوى Animism • والمذهب الثانى الذى يعتقد ان الجمادات قد تحل فيها الحياة المذهب الفتيشى fetishism • ونجد كلا المذهبين لهما آثارهما عند العرب • فالمذهب الاول يتجلى فيما روى عن اعتقادهم بأن الدم والهواء هما الحياة • وانهما مخلوقات حية كالطير ؛ وان اسافا ونائلة كانا بشرين ثم مسخا • وان الضب كان انسانا ثم مسخ ، وان بوادى حضرموت قوم يقال لهم الصعر تنقلب فرقة منهم ذئابا ضارية أيام القحط هذا الى اعتقادهم بأن جبل قبيس يزيل وجع الرأس وان للنخل حياة ومن مظاهر المذهب الثانى هو الاصنام التى هى جمادات يعتقد ان الآلهة تحل فيها[٢] •

مصادر دراسة الدين الجاهلى :

معلوماتنا عن الديانة العربية قبل الاسلام قليلة مشوهة ، لان الهدف الاول للاسلام كان محاربتها وازالتها ، كما ان المسلمين المتدينين لم يروا من الخير رواية أخبارها • هذا الى انه لم تجر فى الجزيرة العربية ، عدا اليمن وبلاد الهلال الخصيب ، حفريات منظمة قد يظهر فيها بعض التماثيل أو الكتابات التى تلقى عليها ضوءا •

غير ان الاسلام الذى طمس أخبار الديانة الجاهلية لم يطمسها تماما • فقد بقى لها ذكر غير قليل • ففى القرآن اشارات الى بعض الاصنام والمعتقدات الجاهلية ذكرت فى معرض الرد عليها وتفنيدها ، هذا الى ان الاسلام لم يمح كل آثارها ، اذ أقر بعضها بعد أن عدلها أو حور الغايات منها ، كالحج والحرم وما الى هذا ؛ يضاف الى ذلك ان الشعر العربى الجاهلى الباقى لنا يتردد فيه أحيانا ذكر للآلهة القديمة وما يتعلق بالديانة • هذا الى أنه بقيت فى كتب الادب والتاريخ والاخبار

---

(٢) راجع ما كتب عنهما فى الاساطير العربية ص ٤١-٥٥ •

أخبار متناثرة عن الديانة العربية القديمة والاصنام • ولعل أقدمها وأوسعها هو كتاب الاصنام لابن الكلبى ، وما رواه المفسرون فيما يتعلق بالآيات التى تذكر الاصنام أو ما روى فى معرض سيرة النبى وخاصة فى سيرة ابن هشام أو أخبار مكة للازرقى أو فى بعض المعاجم اللغوية والجغرافية • وجدير بالملاحظة ان هذه الكتب تصف فى الاغلب الاصنام والاوثان وهى من المظاهر الفيتشية ، وانها قلما توضح طقوسها وعقائد الناس فيها أو مدى عمق عبادتها أو مدى انتشارها ؛ ثم ان بعض المسلمين الذين لم يتشبعوا بروح الاسلام حافظوا لا اراديا على بعض المظاهر الوثنية حتى بعد اسلامهم ومن الممكن بعد دراستها وتحليلها ومقارنتها بما عند الساميين ، أن تكمل لنا الصورة التى عن الديانة العربية قبل الاسلام •

وربما كان من آثار الديانة القديمة انتشار اسماء اعلام مسبوقة بعبد وهى تدل فى بعض الاحيان على اسماء آلهة قديمة ، كاسم عبد مناف ، وعبدالشارق ، وعبد شمس ، وعبدالعزى ، وعبد مناة • غير ان المضاف اليه فى هذه الاسماء المركبة ليس من الضرورى أن تدل على الآلهة ، فلا نزال فى العراق نسمى عبدالزهرة وعبدالامير وعبدالحسين ، احتراما لهم لا لعبادتهم ؛ كما ان هذه الاسماء قد تكون مرادفات ، كما نقول عبدالقادر وعبدالرزاق وعبدالمجيد ، وكلها مرادفات لاسم الله تعالى • ثم ان هذه الاسماء مختصرة جدا ، وغير كافية لالقاء نور واضح على الآلهة القديمة أو طبيعتها •

ان المعلومات الموجودة فى المصادر الآنفة الذكر تعطينا صورة تقريبية لديانة الجاهليين قبل الاسلام • ويبدو منها آثار لمعتقدات متنوعة كانت موجودة جميعا ، كالمذهب الحيوي والطوطمى والفتيشى • غير انه من الصعب جدا اظهار مدى أهمية وآثار كل من هذه المعتقدات والدور الذى لعبته ، اذ أن أغلب المعلومات السالفة الذكر تتعلق بديانات أهل الحجاز أو عن الوثنية عند ظهور الاسلام ، كما اننا لا نعلم شيئا مفصلا عن تطورها التاريخى ، اذ كل ما يذكر عن أصولها وتاريخها هو مجرد أساطير مختصرة غامضة يصعب فهم أصولها ومع ان الحفريات والمكتشفات الاثرية فى اليمن وبلاد الهلال الخصيب قد كشفت عن وجود كثير من الآلهة ، وألقت ضوءا على طقوسها ومراسيمها وأفكارها ، الا أنه من الصعب جدا أن نوضح العلاقة بينها وبين آلهة الجاهليين ، أو التثبت مما اذا كانت الطقوس

والعبادات المتعلقة بهذه الآلهة هى واحدة • كما اننا لا نعرف بالدقة والتفصيل التوزيع الجغرافى للآلهة ، وأى القبائل كانت تعبد كل اله ، وأى الآلهة تشترك فيها القبائل وعدد القبائل التى تشترك فى عبادة هذه الآلهة العامة ، وطقوسها ، والعلاقات القائمة بينها •

لذلك فان دراستنا عن ديانة العرب قبيل الاسلام لا تزال ناقصة وكل محاولة فى هذا الشأن ، ما هى الا محاولة أولية ناقصة ، رغم انها ضرورية لفهم الديانة الإسلامية التى كان هدفها الاول محاربة تلك الديانة •

الأديان الخارجية :

وجدير بالملاحظة ان الجزيرة العربية لم تكن منعزلة تماما بل تعرضت الى كثير من المؤثرات الخارجية • فقد جاءتها البعثات التبشيرية المسيحية من العراق وسوريا والحبشة ، وانشأت لها فى القطر مطرنة كما انشأت لها عدة كنائس فى اليمن وكانت عند ظهور الاسلام منتشرة فى البحرين واليمامة واليمن وعند الغساسنة والمناذرة وطى وبكر وتغلب وكانت فرقا متعددة ولكن أغلبها من النساطرة واليعاقبة • وقد تطرقنا الى انتشارهم فى اليمن وعند المناذرة والغساسنة •

أما اليهودية فلا نعلم بوضوح زمن دخولها الجزيرة أو تطورها[٣] ، ولكن يبدو انها جاءت بموجات متعاقبة ، واستوطن اليهود فى الواحات الخصبة من الحجاز ، كفدك وتيماء ووادى القرى وخيبر والمدينة ، كما انتشروا فى اليمن واليمامة والبحرين وربما عمان • ومع ان الديانة اليهودية قومية غير تبشيرية وصلبة شديدة الطقوس الا انها انتشرت ايضا بين عدد من العرب وخاصة فى المدينة كما سنتحدث فى الجزء الثانى •

وهناك اشارات الى أديان فارسية دخلت الجزيرة ، ففى البحرين كان بنو دارم التميميون يدينون بالاسبذية ، واسمها مشتق من الاسب أى الفرس أو

---

(٣) راجع عن اليهودية فى جزيرة العرب : مارجوليوث (العلاقات بين الاسرائيليين والعرب قبل الاسلام) (بالانكليزية) ، وولفنسون (تاريخ اليهود فى بلاد العرب) •

الحصان(٤) . ويدل اسمها على انها فارسية ، وان كنا لا نعلم تفاصيل هذا الدين. أو من أين ورث ، اذ لم يعرف عن العرب انهم عبدوا الحصان .

ولليمن ومكة أحوال دينيـــة خاصـــة فأمـا اليمن فقـد كشـفت عنهـا الجفريات واوضحت كثيرا من اخبارهـا ومعالمها واما مكـة فان الـكتب والقرآن أوردت عنها معلومات واسعة كما ان لها علاقة وثقى بالاسلام لذا سنفرد لها بحثا خـاصـا .

ديانة مكة :

ويلاحظ ان القرآن يقدم عن الدين الجاهلى صورة تختلف تماما عما تقدمه كتب التاريخ والادب ؛ والمعلومات التى فيه قلما يقدم الشراح والمفسرون عنها معلومات اضافية مكملة ، كما ان القرآن لا يتردد فيه ، بل واحيانا لا يشير الى ما يتردد فى كتب التاريخ والادب . وجدير بالملاحظـة ان المؤرخـين القدماء والمحـدثين لم يحاولوا ، فيما اعلم ، دراسة دين الجاهلية كما وصفه القرآن ، اللهم الا ما قام به حديثا محمد عزة دروزة فى كتابه عصر الرسول .

وسنحاول هنا ايراد الصورة التى تتجلى فى القرآن عن عبادة الجاهليين من اهل مكة ثم نذكر ما تورده المصادر التاريخيه والادبية .

الله :

وفى القرآن آيات كثـيرة تذكر بصراحـة ان المشركين كانوا يعبـدون الله (قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تتفكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون الله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون . سيقولون الله قل فأنى تسحرون) (المؤمنون ٨٤ - ٨٩) (ولئن سـألتهم من خلق السمـاوات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفـكون .. ولئن سـألتهم من

---

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٩٨ . ابن سلام : الاموال ص ٢٠-٢١ ويذكر السكرى فى المحبر ص ١٣١ اسـماء زنادقة قريش ، كمـا يقول صاعد أن الزندقة كانت فى قريش (طبقات الامم ص ٤٤) .

نزل من السماء ماءاً فأحيا به الارض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون) (العنكبوت ٦١ ، ٦٣) (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله قل الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون) (لقمان ٢٥ والزمر ٣٨) (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون) (الزخرف ٨٧) ٠

(هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا انهم احيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين) (يونس ٢٢) (واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن اهدى من احدى الامم) (فاطر ٤٢) (وما بكم من نعمة فمن الله ثم اذا مسكم الضر فاليه تجارون ٠ ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون) (النحل ٥٣-٥٤) ٠

الشركاء :

غير انهم (وجعلوا لله اندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فان مصيركم الى النار) (ابراهيم ٣٠) ٠

(قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين وتجعلون له اندادا ذلك رب العالمين) (فصلت ٩) (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له اندادا ٠٠) (سبأ ٣٣) (ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله) (البقرة ١٦٥) ٠

(وجعلوا لله شركاء قل سموهم) (الرعد ٣٣) (وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) (فصلت ٤٧) (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم) (الرعد ١٦) ٠

بنات الله :

وهؤلاء الشركاء هم ، أو معظمهم بنات الله (وجعلوا له من عباده جزءا ان الانسان لكفور مبين ٠ أم اتخذ مما يخلق بنات واصفاكم بالبنين ٠ واذا بشر احدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم ٠ أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ٠ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن أناثا اشهدوا خلقهم

ستكتب شهادتهم ويسألون) (الزخرف ١٥-١٨) . (فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون . أم خلقنا الملائكة أناثا وهم شاهدون . الا انهم من افكهم ليقولون . ولد الله وانهم لكاذبون . اصطفى البنات على البنين) (الصافات ١٤٩-١٥٢) (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون . واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون أم يدسه فى التراب الا ساء ما يحكمون) (النحل ٥٧-٥٩) (ذلك فما اوحى اليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله الهاً آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا . افأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة أناثا انكم لتقولون قولا عظيما) (الاسراء ٣٩-٤٠) (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون) (انعام ١٠٠) (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقون بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين) (الانبياء ٢٦-٢٩) .

(وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا أدا تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا ان دعوا للرحمن ولدا وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ان كل من فى السموات والارض الا آتى الرحمن عبدا) (مريم ٨٨-٩٢) .

وهذه الآلهة التى عبدوها ليست فى سويته تعالى بل هى من دون الله أى أقل منه مركزا ورتبة وهم شفعاء لعابديهم عند الله (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل اتنبئون الله بما لا يعلم فى السماوات ولا فى الارض سبحانه وتعالى عما يشركون) (يونس ١٨) (أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولوا كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون) (الزمر ٤٣) (ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم فيما هم فيه يختلفون ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار) (الزمر ٣) .

الجبت والطاغوت :

وفى القرآن ايضا ذكر للجبت والطاغوت (لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم • الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون) (البقرة ٢٥٦-٧) (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) (النساء ٥١) (ألم تر الى الذين يزعمون انهم آمنوا بما انزل اليك وما انزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به) (النساء ٦٠) (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت) (النساء ٧٦) (قل هل انبؤكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت اولئك شر مكانا واضل سبيلا) (المائدة ٦٠) (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) (النحل ٣٦) (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا الى الله لهم البشرى) (الزمر ١٧) •

ويلاحظ ان الجبت ذكر مرة واحدة مع الطاغوت الذى ورد ذكره فى ثمان آيات سبع منها مدنية ، وقد ورد بصيغة المفرد المذكر مرة ، والمؤنث الجمع مرتين • وهو ولى الذين كفروا ، يضلهم ، ويتجنبه من يعبد الله ، ويؤمن به الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ، ويريدون أن يتحاكموا اليه ، وهم يعبدوه ويقاتلون فى سبيله •

وقد أورد المفسرون فى معنى الطاغوت روايات متعددة ، منها انه البيوت المقدسة ، أو كعب بن الاشرف ، أو صنمى قريش أو صنمها الذى يحتكمون اليه(٥) • ولا ريب ان تفسيرهم الطاغوت بالبيوت المقدسة أو كعب الاشرف لا ينطبق على منطوق الآية ، والراجح انه أحد آلهة قريش ولما كان هبل هو الذى كانوا يستقسمون عنده ويحتكمون اليه ، فالراجح انه هو المقصود بالطاغوت • أما الرد على ذلك بعدم ذكر اسم هبل صراحة فى القرآن فهو غير كاف لان القرآن لم يرد فيه ذكر لاى صنم أو اله كان فى مكة أو ما يجاورها

---

(٥) انظر عن الجبت والطاغوت تفسير الطبرى ج ٣ ص ١٣ ج ٥ ص ٨٣ ، ٩٦-٩٧ •

مما ذكره المؤرخون كهبل وأساف ونائلة ونهيك ومطعم الطير .

الجن :

لقد ذكر القرآن الكريم ان العرب عبدوا الجن (وقالوا سبحانك انت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم به مؤمنون) (سبأ ٤١) (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) (الانعام ١٠٠) (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون) (الصافات ١٥٨) .

وقد أشارت الكتب الى بعض القبائل التى كانت تعبد الجن ، فيقول ابن الكلبى ان بنو مليح الخزاعيين كانوا يعبدون الجن [٦] ،ويقول الطبرى ان بنى مالك بن اقيش كانوا من الجن [٧] ، ويقول الازرقى ان بنى سهم سموا الغياطلة لانهم قتلوا الجن [٨] .

لقد تصور العرب الجن كائنات غيبية ومخلوقات غريبة تملأ الارض وتصوروها تشبه البهائم ، ذات شعور طويلة ، واحيانا تشبه بعض الحيوانات كالنعام أو الحية ، ولها قوة غريبة على الظهور والاختفاء بل وتغيير اشكالها وظهورها أحيانا باشكال انسانية . واذا اعتدى عليها احد فأنها تنتقم بمسه فيصبح به جنة أو مجنون، وقد يصاب بالامراض .

والجن فى الغالب لا تعيش فى المجتمعات الانسانية ، بل تعيش فى البرارى والقفار ، ولها مناطق خاصة بها كوادى عبقر . ولكن هذه لمناطق ليست حرما مقدسة ؛ وكان الناس يقدمون لها احيانا الهدايا ، ومن الجدير بالملاحظة ان كلمة الجن هم اسم جنس لا اسم علم [٩]

لا تبحث كتب التاريخ والادب فيما بيناه ، بل تذكر وجود الاصنام فى مكة ومن

---

(٦) ابن الكلبى : الاصنام ص ٣٤ (وسنرمز اليه دائما الاصنام) .
(٧) الطبرى : ج ٢ ص ٢٣٣ .
(٨) الازرقى : ج ٢ ص ١٢ .
(٩) أنظر عن الجن ما كتبه المسعودى فى مروج الذهب ج ٢ ص ١٥٥-١٦٠ وما كتبه سمث ص ١١٩ فما بعد ، ٥٣٨ فما بعد .

الجدير بالذكر أن القرآن لم يرد فيه ذكر الاصنام التى فى داخل مكة ، كما ان الكتب لم تذكر لنا عن فهمهم وتصورهم لله تعالى أو الملائكة ؛ أما الاصنام التى ذكرت فى مكة فأهمها :-

هبل :

وهو « أعظم أصنام قريش[١٠] » . وكان على بئر فى جوف الكعبة تجمع فيه الهدايا[١١] . وقد كان شعار قريش يوم أحد (اعل هبل[١٢]) .

لا نعلم بالضبط معنى كلمة هبل أو اشتقاقه[١٣] وربما كان مشتقا من بعل وهو اله معروف فى بلاد الهلال الخصيب سنتحدث عنه فيما بعد .

ومما يجلب النظر ان هبل وضع فى الكعبة ، مع ان الكعبة بيت الله .

يروى ابن الكلبى ان عمرو بن لحى الخزاعى جاء بهبل من هيت من العراق ونصبه على بئر الاخسف فى بطن الكعبة ، وكان من عقيق أحمر على صورة انسان مكسور اليد ، فجعلت يده من ذهب[١٤] . وكانت حجاج قريش تطوف حوله وتحلق رؤوسها وتلبى عنده (لبيك اللهم لبيك . اننا لقاح حرمتنا على أسنة الرماح يحسدنا الناس على النجاح[١٥]) . ويروى ابن سعد عن ابن الكلبى ان خزيمة بن مدركة هو الذى وضع لهبل موضعه فكان يقال له صنم خزيمة[١٦] .

---

(١٠) ابن هشام : سيرة الرسول ج ١ ص ٨٦ (وسنرمز اليها سيرة هشام) . الطبرى : ج ٢ ص ١٢٧ ، ١٧٣ (عن ابن اسحق) .

(١١) الطبرى : ج٢ ص٢١١ . الازرقى : ج١ ص ٢٤ ، ٦٧ ج٢ ص ٣٧ .

(١٢) أنظر عن هبل ما كتبه نولدكه ، وما جاء فى الاساطير العربية ص ١١٤ - ١١٧ .

(١٣) الاصنام ص ٨ . الازرقى ج ١ ص ٢٧ ، ٥٤ ، ٦٩ ويقول المسعودى وابن اسحق انه جيء به من البلقاء (مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٨) .

(١٤) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٢ .

(١٥) المحبر : ص ٣١٥ . وكلما سنورده من صيغ التلبية مستمد مما أورده هذا الكتاب فى ص ٣١١-٣١٥ . وقد أورد اليعقوبى صيغة اخرى لتلبيات العرب (التاريخ ج ٢ ص ٢١٢) .

(١٦) ابن سعد : الطبقات ج ١ قسم ١ ص ٣٩ (وسنرمز اليه الطبقات) .

وكان عند هبل سبعة أقداح ، كل قدح منها فيه كتاب : قدح فيه العقل اذا اختلفوا فى العقل من يحمله منهم ضربوا بالقداح السبعة ، وقدح فيه نعم للامر اذا أرادوه يضرب به ، فاذا خرج قدح نعم عملوا به • وقدح فيه لا ، فاذا أرادوا أمرا ضربوا به فى القداح ، فاذا خرج قدح النعم عملوا به • وقدح فيه لا ، فاذا أرادوا أمرا ضربوا به فى القداح ، فاذا خرج ذلك القدح لم يفعلوا ذلك الامر • وقدح فيه منكم ، وقدح فيه ملصق وقدح فيه من غيركم • وقدح فيه الحياة ، اذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح وفيها ذلك القدح فحيثما خرج عملوا به • وكانو اذا أرادوا أن يختنوا غلاما أو ينكحوا منكحا أو يدفنوا ميتا أو شكوا فى نسب احد منهم ذهبوا به الى هبل وبمائة درهم وجزور فاعطوها صاحب القداح الذى يضربها ، ثم قربوا صاحبهم الذى يريدون به ما يريدون ، ثم قالوا يا الهنا هذا فلان بن فلان قد أردنا به كذا وكذا فاخرج الحق فيه ، ثم يقولون لصاحب القداح اضرب ، فيضرب ، فان خرج عليه منكم كان وسيطا ، وان خرج عليه من غيركم ، كان حليفا ، وان خرج عليه ملصق كان على منزلته منهم لا نسب له ولا حلف ، وان خرج من شىء سوى هذا مما يعملون به فقد عملوا به ، وان خرج لا أخروه عامهم ذلك حتى يأتوا به مرة اخرى فينتهون فى أمورهم الى ذلك مما خرج فيه القداح[١٧] • ويروى الازرقى ان قربانه مائة بعير[١٨] يعطوها لغاضرة بن حبشية بن سلول الخزاعى[١٩] •

ويقول السكرى ان هبل كان لبنى بكر ومالك وملكان وسائر بنى كنانة وكانت قريش تعبد صاحب بنى كنانة وبنو كنانة يعبدون صاحب قريش[٢٠] •

أساف ونائلة :

أما أساف ونائلة ففى الرواية العربية أنهما فى الاصل رجل وامرأة فسقا

---

(١٧) الازرقى : ج ١ ص ٢٧ ، ٦٧ • انظر ايضا سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٦٤-٥ • الطبرى : ج ٢ ص ١٧٣ •

(١٨) الازرقى : ج ١ ص ٦٩ •

(١٩) الازرقى : ج ١ ص ١٢٥ •

(٢٠) المحبر : ص ٣١٨ •

فمسخا حجرين فاخرجا من الكعبة ، فنصب احدهما على الصفا والآخر على المروة ، وانما نصبا هناك ليعتبر بهما الناس ويزدجروا عن مثل ما ارتكبا لما يرون من الحال التى صارا اليها ؛ فلم يزل الامر يدرس ويتقادم حتى صارا يمسحان ، يتمسح بهما من وقف على الصفا والمروة ، ثم صارا وثنيين يعبدان ، فلما كان عمرو بن لحى أمر الناس بعبادتهما والتمسح بهما ، وقال للناس ان من كان قبلكم كان يعبدهما ؛ فكانا كذلك حتى كان قصى بن كلاب فصارت اليه الحجابة وأمر مكة فحولهما من الصفا والمروة ، فجعل احدهما بلصق الكعبة وجعل الآخر فى موضع زمزم ، ويقال جعلهما جميعا فى موضع زمزم[٢١] .

وكان اهل الجاهلية يمرون بأساف ونائلة ، ويتمسحون بهما ، وكان الطائف اذا طاف بالبيت بدأ بأساف فيستلمه ، فاذا فرغ من طوافه ختم بنائلة فاستلمها ، فكانا كذلك حتى كان يوم الفتح ، فكسرهما رسول الله (ص) مع ما كسر من الاصنام[٢٢] . وكان يطرح بينهما ما يهدى للكعبة وينحر عندهما ويحلقون رؤوسهم . ولم تكن تدنو منها امرأة طامث[٢٣] .

ويروى الشعبى والسكرى ان أساف ونائلة كانا على الصفا والمروة[٢٤] . ونحن نرجح رواية الازرقى لانه أوسع اطلاعا على أحوال مكة وشؤونها . وكانت أساف ونائلة ، على ما يروى السكرى ، لقريش والاحابيش .

أما ابن الكلبى فيروى عن ابن عباس ان عبادها كانوا خزاعة وقريش ومن حج البيت بعد من العرب[٢٥] . وكان نسكهم لاساف (لبيك اللهم لبيك لبيك

---

(٢١) الاصنام : ص ٢٩ . الازرقى : ج ٢ ص ٣٤ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٦ .

(٢٢) الازرقى : ج ١ ص ١١٢ . ويروى الازرقى (ان فى دار العباس هذه حجران عظيمان يقال لهما اساف ونائلة صنمان كانا يعبدان فى الجاهلية فى ركن الدار) ج ٢ ص ١٨٨ .

(٢٣) الازرقى : ج ١ ص ٦٩ ، ٤٤ ، ٧٠ ج ٢ ص ١٨ .

(٢٤) رواية الشعبى فى تفسير الطبرى : ج ٢ ص ٢٧ . ورواية السكرى فى المحبر : ص ٣١١ .

(٢٥) الاصنام : ص ٩ .

لا شريك لك ، الا شريك هو لك تملكه وما ملك) .

نهيك ومطعم الطير :

ويروى الازرقى عن ابن اسحاق ان عمرو بن لحى نصب على الصفا صنما يقال له نهيك مجاود الريح ، ونصب على المروة صنما يقال له مطعم الطير[٢٦] .

أصنام منى :

ويروى الازرقى عن ابن اسحاق « ان عمرو بن لحى نصب بمنى سبعة أصنام : نصب صنما على القرين الذى بين مسجد منى والجمرة الاولى على بعض الطريق ، ونصب على الجمرة الاولى صنما ، وعلى المدعا صنما ، وعلى الجمرة الوسطى صنما ، ونصب على شفير الوادى صنما ، وفوق الجمرة الوسطى صنما ، وفوق الجمرة العظمى صنما ، وقسم عليهن حصى الجمار احدى وعشرين حصاة يرمى كل وثن منها بثلاث حصيات . ويقال للوثن الذى يرمى أنت أكبر من فلان الصنم الذى يرمى قبله[٢٧] » . غير اننا لا نعلم اسماء هذه الاصنام . كما ان القرآن لم يذكر اطلاقا كافة الاصنام فى مكة .

مناف :

ومعناه العلو ، وقد تسمى به عدد غير قليل من الناس ، منهم عبد مناف أحد أجداد النبى ، ويقول الطبرى انه كان أعظم أصنام مكة[٢٨] ، كما يروى ابن حجر عن عمر بن شبة ان بنى سلمة كانت تعبد منافا[٢٩] . غير اننا لا نعلم شيئا عن مكانه أو أمره شيئا .

قزح :

لم تذكر الكتب العربية ان قزحا كان الاها أو صنما ؛ بل تذكر انه موقع على المزدلفة ، وكانت الحلة والحمس تجتمع عنده فى الحج ، وفى الاسلام يقف

---

(٢٦) الازرقى : ج ١ ص ٧٣ .
(٢٧) الازرقى : ج ٢ ص ١٤٢ .
(٢٨) الطبرى : ج ٢ ص ١٨١ .
(٢٩) الاصابة : ج ١ ص ٢٤٥ .

عنده الامام ، وعنده توقد النيران فى الحج[٣٠] .

ويسمى العرب قوس قزح بالنسبة له ، ويرى كوك انه هو الاله كوز الادومى[٣١] ، فكان قزح كان اله المطر ، وأن الطيف الذى يظهر بعد الامطار هو قوسه ، وان الناس فى الحج كانت تتجمع عنده ، فاذا صح ذلك فمعناه اما أن تكون عبادته قد نسيت عند ظهور الاسلام او ان المسلمين اطمسوا ذكره نظرا لان موضعه أصبح من طقوس الحج الاسلامية .

لقد ورد فى القرآن ذكر لعدد من الآلهة الجاهلية كان مقرها خارج مكة ، وأوردت عنها كتب التاريخ والادب والجغرافية معلومات غير قليلة . وأهم هذه الآلهة هى اللات والعزى ومناة والشعرى ؛ وقد ذكرت فى سورة النجم ؛ ويعل وقد ورد فى سورة الصافات ، وود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا . وقد وردت فى سورة نوح .

العزى :

وهى من الآلهة التى عبدها اهل مكة وتسموا بها ، وكان يعبدها اللخميون ايضا وقدم المنذر بن ماء السماء اربعمائة من اسرى الغساسنة ضحايا لها ويقول بروكوبيوس ان هذه الضحايا قدمت لأفروديتى ، مما يحمل على الاعتقاد بأن العزى كانت تقابل افروديتى أو نجمة الصباح . ويقول الطبرى ان الزهرة عند العرب هى بالفارسية اناهيدا[٣٢] ، وهذه النجمة هى التى تقابل عشتروت[٣٣] غير انه من الصعب الجزم ان العزى هى عشتروت أو نجمة الصباح (الزهرة) لان اسمها مشتق من العزة ، أى القوة والرفعة . ولم يرو فى الكتب العربية أى دليل يشير الى نوع اختصاص العزى وعملها والهة أى شىء كانت .

---

(٣٠) الازرقى : ج ١ ص ٣٢ ، ١٢٣ ج ٢ ص ١٥٠-١٥١ ، ١٥٤ . البكرى : ص ٣٩٢-٣ . ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ١١٨ ، ج ٤ ص ٨٥ .

(٣١) انظر الاساطير العربية قبل الاسلام ص ١٣٢-١٣٣ .

(٣٢) تفسير الطبرى : ج ١ ص ٣٦٤ .

(٣٣) أنظر فى ذلك ما كتبه نولدكه ، والاساطير العربية : ص ١١٩-١٢٥ وما كتبه بوهل عن (العزى) فى دائرة المعارف الاسلامية .

لقد كانت العزى فى بطن نخلة « بواد من نخلة الشامية يقال له حراض بازاء الغمير عن يمين المصعد الى العراق ، من مكة وذلك فوق ذات عرق الى البستان بتسعة أميال » • ويروى ابن الكلبى ان الذى اتخذها ها ظالم بن اسعد ، أما ابن اسحاق فيقول ، فيما يروى الازرقى ، ان عمرو بن لحى هو الذى جاء بها ؛ وأما الازرقى فيروى ان اول من دعا لعبادتها هو عمرو بن ربيعة والحارث بن كعب • ويروى محمد بن حبيب السكرى انه عبدتها غطفان وقريش وغنى وباهلة ، بينما يروى الطبرى عن ابن زيدان ثقيفا عبدتها • وفى رواية للازرقى ان نصرا وجشم وسعد بن بكر وهم اعجاز هوازن كانوا يعبدوها • ويروى الازرقى عن ابن اسحاق ان العزى كانت لخزاعة وقريشا وكنانة كانت تعظم العزى • ويروى ابن الكلبى انها احدث من اللات ومناة وانها كانت تسمى بها وكانت أعظم الاصنام عند قريش وان قريشا حمت لها شعبا من حراض يقال له سقام يضاهون به حرم الكعبة وان كانت قريش تخصها بالاعظام ولم يكن قريش بمكة ومن أقام بها من العرب يعظمون شيئا من الاصنام اعظامهم العزى ثم اللات ثم مناة فأما العزى فكانت قريش تخصها دون غيرها فى الزيارة والهدايا لقرب مكانها منها • ويروى الازرقى عن ابن اسحاق انهم كانوا اذا فرغوا من حجهم وطوافهم بالكعبة ، لم يحلوا حتى يأتوا العزى فيطوفون بها ويحلون عندها ويعكفون عندها يوما ويقول ابن الكلبى ان قريشا كانوا يزورنها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبح وانه كان لها منحر يذبحون فيه هداياها ، ويقال له الغبغب فكانوا يقسمون لحوم هداياهم فيمن حضرها ، وكان عندها[٣٤] وكانت تلبيتها (لبيك اللهم لبيك لبيك وسعديك ما احبنا اليك) •

يروى الازرقى عن ابن اسحاق وابن الكلبى ان سدنتها بنى شيبان ابن مرة السلميين وان آخر سدنتها منهم دبية بن حرسى السلمى وكان قبله على ما يروى الازرقى أفلح بن النضر السلمى ولكن يروى السكرى وابن الكلبى ايضا ان سدنتها بنى صرمة ابن مرة • وقد هدمها خالد بن الوليد وقتل سادنها •

---

(٣٤) الاصنام : ص ١٨-٢٧ • الازرقى : ج ١ ص ٧٤ ، ٧٨ ، ٢٣١ وسيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٧ ، ٨٩ •

اللات :

لقد كانت اللات من الآلهة البابلية ، وهى تمثل فصل الصيف ، كما كانت عند النبطيين بشكل صخرة بيضاء مربعة وهى تمثل ربة البيت كما كانت تعبد فى تدمر وتسمى بها وهب اللات ابن أذينة .

وهى فى العربية مؤنثة كلمة الله ويقول ابن الكلبى انها أحدث من مناة . وكانت صخرة مربعة فى الطائف ، وكان لها على ما يروى السكرى بيت يستروه وواد يحرموه .

وكانت قريش وجميع العرب تعظمها الا أن ثقيف كانت تخص اللات كما كانت قريشا تخص العزى ، وكانت تلبية من نسك للات (لبيك اللهم لبيك لبيك كفى بيتنا بنية ، ليس بمهجور ولا بلية ، لكنه من تربة زكية ، أربابه من صالحى البرية) وقد أرسل الرسول خالد بن الوليد لهدمها[٣٥] .

مناة :

لقد كانت ماماتو من الآلهة البابلية وكانت مناتو عند النبطيين آلهة القدر والموت .

أما فى العربية فقد يكون اشتقاقها من القوة أو القطع أو من المنية أى الموت ، وقد اقسمت بها العرب . ويروى الازرقى عن ابن اسحاق « ان عمرو بن لحى نصب مناة على ساحل البحر مما يلى قديدا وهى التى كانت للأزد وغسان ؛ يحجونها ويعظمونها ، فاذا طافوا بالبيت وافاضوا من عرفات وفرغوا من منى لم يحلقوا الا عند مناة . وكانوا يهلون لها ، ومن اهل لها لم يطف بين الصفا والمروة لمكان الصنمين اللذين عليهما نهيك مجاود الريح ومطعم الطير ، فكان هذا الحى من الانصار يهلون بمناة وكانوا اذا أهلوا بحج أو عمرة لم يظل احد منهم سقف بيت حتى يفرغ من حجته أو عمرته » .

---

(٣٥) انظر عن اللات : الاصنام ص ١٦-١٧ . الازرقى : ج ١ ص ٧٥ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٤٨ ، ٩١ ، وكذلك مقالة بوهل عن اللات فى دائرة المعارف الاسلامية ، ونولدكه ، والاساطير العربية ص ١١٧-١١٩ .

ويؤيد ابن الكلبى ما أورده الازرقى اذ يقول ان مناة كانت منصوبة على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين مكة والمدينة ، وان القبائل الساكنة بين مكة والمدينة ، يعظمونها ويذبحون لها ، ولكن الأوس والخزرج كانت أشد اعظاما لها ، فكانوا اذا حجوا الى مكة يتمون طقوس الحجج كلها ، الا حلق الشعر ، حيث يحلقون عنده ، ولا يرون لحجتهم تماما الا بذلك . وكانت تلبية من نسك لها (لبيك اللهم لبيك لبيك ، لو لا ان بكرا دونك يبرك الناس ويهجرونك ما زال حج ثمج يأتونك ، انا على عدوانهم من دونك) .

يروى ابن الكلبى ان مناة كانت أقدم الآلهة وقد تسمى بها عدد من مختلف القبائل ، وكانت احدى قبائل تميم تسمى به (سعد مناة وزيد مناة) ولكن الغريب ان الأوس والخزرج لم ينتشر فيهم ولا فى قريش ولقد كان لمناة بيت وكان سدنته الغطاريف من الأزد وقد بعث الرسول لهدمه سعيد بن عبيد الأشهلى ، وفى رواية اخرى على بن أبى طالب[٣٦] .

لقد ذكرت هذه الآلهة الثلاثة فى القرآن « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى . الكم الذكر وله الانثى . تلك اذا قسمة ضيزى » (النجم ١٩-٢٣) ان هذه الآيات لا تنص بوضوح على انهن كن بنات الله ؛ ولكن سياق الاسلوب القرآنى المكى يحملنا على القول بأن الآية الثانية ذات صلة بالآيات الاولى ، وان اهل مكة كانوا يعتبروها بنات الله . ولقد بينا انهم كانوا يعتقدون ان الملائكة بنات الله وشفعاؤهم عنده . ولكن لا تشير الاخبار المتوفرة لدينا الى اعتقاد العرب بأن هذه الآلهة الثلاثة كن ملائكة ، كما لا يوجد فى القرآن ولا فى كتب التاريخ والادب واللغة ما يشير الى اختصاص هذه الآلهة أو الآلهة الاخرى أو العلاقات بينها ومن الصعب قبول ادعاء ان المسلمين تعمدوا طمس اخبارها لانها تناقض الأسلام ، فقد وردتنا بعض الاخبار عنها وألف ابن الكلبى فيها كتابا ، كما أورد

---

(٣٦) بالاضافة الى نولدكه ، ومقالة بوهل عنها فى دائرة المعارف الاسلامية والاساطير العربية ص ١٢٥-١٢٩ ، أنظر ايضا الاصنام : ص ١٣-١٦ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٩٠-٩١ . الازرقى : ج ١ ص ٧٨ . تفسير الطبرى : ج ٢ ص ٢٩-٣١ ، ج ٢٧ ص ٣٥ . المحبر : ص ٣١٦ .

ابن اسحق اخبارا عنها ، وقد روى من الشعر الجاهلى ما لا يطابق روح الاسلام ، فلماذا لا يذكر عن هذه الآلهة شيئا ولو بمعرض السخرية والرد ؟ وجدير بنا أن نؤكد ان هذه الآلهة لم تذكر فى القرآن الا مرة واحدة عرضية كما ذكرت أصنام اخرى بصورة عرضية ، وانها لم تكن الآلهة الوحيدة فى مكة أو فى الجزيرة بل ذكرت ايضا آلهة اخرى فيها .

الشعرى :

فاما الشعرى فهى التى تسمى العبور[٣٧] ، ويذكر مصعب الزبيرى ان وجز بن غالب وهو من خزاعة ، وهو اول من عبد الشعرى ، وكان وجز يقول ان الشعرى تقطع السماء عرضا فلا أرى فى السماء شيئا ، شمسا ولا قمرا ولا نجما ، يقطع السماء عرضا . ووجز هو ابو كبشة الذى كانت قريش تنسب رسول الله (ص) اليه ، والعرب تظن ان احدا لا يعمل شيئا الا بعرق ينزعه شبهه ، فلما خالف رسول الله (ص) دين قريش قالت قريش نزعه أبو كبشة ، لان أبا كبشة خالف الناس فى عبادة الشعرى . وكانوا ينسبون رسول الله (ص) اليه وكان أبو كبشة سيدا فى خزاعة[٣٨] . ويذكر محمد بن حبيب السكرى ان الحارث بن غبشان كان يعبد الشعرى ، كما يذكر صاعد الاندلس ان عبد قيس كانت تعبد الشعرى[٣٩] .

الشمس :

فأما الشمس فقد ذكر القرآن ان اهل سبأ كانوا يعبدونها « ووجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » (النحل ٢٤) . والواقع ان عبادة الشمس قديمة ، انتشرت عند معظم الامم القديمة ، وكان الاله شماش وشمس من أكبر الآلهة البابلية واليمانية ، كما يذكر سترابو ان اهل بطرا كانوا يعبدون الشمس . وقد انتشرت تسمية عبد شمس عند العرب ، وكانت عبادته فى بنى تميم ، وكان له بيت ، وكانت تعبده بنو آد كلها : ضبة وتميم وعدى وعكل وثور ، وكان

---

(٣٧) تفسير الطبرى : ج ٢٧ ص ٤٥ .
(٣٨) نسب قريش : ص ٢٦١ .
(٣٩) المحبر : ص ١٢٩ . طبقات الامم ص ٤٣ .

سدنته من بنى أوس بن مخاشن بن معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم ؛ وكانت تلبيه من نسك له « لبيك اللهم لبيك لبيك ، ما نهارنا نجره ، ادلاجه وحره وقره ، لا نتقى شيئا ولا نضره ، حجا لرب مستقيم بره » وقد هدمه هند بن ابى هالة وصفوان بن أسيد بن الحلاحل بن أوس بن مخاشن(٤٠) .

ولعل مما يتصل بالشمس الشارق(٤١) ، الذى تسمى به العرب وعبده بعضهم وان لم تكن لدينا معلومات عن عبادته .

بعل :

أما بعل الذى ذكره القرآن باعتباره الاها كان يعبده قوم الياس « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين » (الصافات ١٢٥(٤٢)) فهو من أشهر الآلهة القديمة ، فقد كان اله الارض عند البابليين ، ثم أصبح اله الخصب عند الاسرائيلين ، واله المياه الباطنية عند اليمانيين ، وتستعمل كتب الفقه الاسلامية عند تصنيف الاراضى الزراعية « ما سقى بالبعل » أى الارض التى تسقى بالآبار(٤٣) ، فكأن هذا التعبير من آثار ما قبل الاسلام ، أى ما سقاه الاله بعل .

لقد ذكرت ان القرآن ذكر « ودا وسواعا ، ويغوث ويعوق ونسرا باعتبارها من آلهة قوم نوح » .

ود :

أما ود فكان من أكبر الآلهة المعينية ، وقد ورد ذكره فى النقوش الثمودية ، فاما عند ظهور الاسلام فكان موضعه بدومة الجندل ، وكان تمثال رجل كأعظم

---

(٤٠) المحبر : ص ٣١٦ .

(٤١) الزبيدى : تاج العروس مادة شرق .

(٤٢) وقد وردت كلمة بعل بمعنى زوج فى موضعين بالقرآن (النساء ١٢٨ . هود ٧٢) .

(٤٣) ابن سلام : الاموال ص ٤٧٦ ، ٤٧٨ . وانظر عن بعل ما كتبه نولدكه ، وما كتبه الاستاذ طه باقر فى كتابه مقدمة فى حضارة وادى الرافدين ص ٢٤٨ .

ما يكون من الرجال ، قد ذبر عليه حلتـان ، متزر بحلة ، مرتد باخرى ، عليه سيف قد تقلده وقد تنكب قوسا ، وبين يديه حربة فيهـا لواء ووفضة (أى جعبة) فيها نبل[٤٤] ؛ وهذا الوصف يوحى بأنه كان اله الحرب ، ولكن لا تشير الكتب العربية الى اختصاصه ، كما ان تلبيته لا توحى بشىء فقـد كانت تلبيـة من نسك اليه « لبيك اللهم لبيك لبيك معذرة اليك » . وكان يقدم اليه اللبن .

كانت سدنة الاله ود من بنى عامر الاجدار ، وقد بعث اليه الرسول خالد بن الوليد لهدمه ، ولـكن بنو عبد ود وعامر الاجدار قاوموه فاشتبك معهم واتصر عليهم ثم هدمه .

سواع :

فأما سواع ، فتسميته غامضة ، وكان برهاط من ارض ينبع ، وكانت تعبده بنو كنانة وهذيل ومزينة وعمرو بن قيس بن عيلان ؛ ولـكن هذيل اختصت به أكثر ، فكانوا يقدمون اليه الذبائح ، وقد ذكر ابن سعد خبرا ذكر فيه ان بقرة قدمت لسواع ، وكانت تلبية من نسك اليه « لبيك اللهم لبيك لبيك ، ابنا اليك ، ان سواع طلبن اليك » .

لقد كانت سدنة سواع من بنى لحيان ، وكان سادنه عنـد ظهور الاسلام غاوى بن ظالم . وقد هدمه عمرو بن العاص[٤٥] .

يغوث :

أما يغوث فان اسمه مشتق من الغوث أو النجدة ، واسمه يشبه اسم الاله العبرى يعوش ، مما حمل روبرتسن سمث على اعتبارهما الاها واحدا .

وكان عند ظهور الاسـلام فى اليمن تعبده مذحج واهل جرش ، ويذكر

---

(٤٤) الاصنام : ص ١٠ . سيرة ابن هشـام : ج ١ ص ٨٣ . المحبر : ص ٣١٢ ، ٣١٦ وكذلك نولدكه ، وكتاب الاساطير العربية ص ١٢٩-١٣٢ .

(٤٥) الاصنام : ص ٩-١٠ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٣ . الازرقى : ج ١ ص ٧٨ ، وانظر عن سدنته : المحبر : ص ٣١٦ . ابن حجر : الاصابة فى تمييز الصحابة ج ١ ص ٤٨٢ .

محمد بن حبيب السكرى انه كان فى انعم وكان لمذحج كلها ، فقاتلتهم عليه غطيف من مراد ، حتى هربوا به نجران ، فاقروه عند بنى النار من الضباب من بنى الحارث بن كعب واجتمعوا عليه جميعا ، وكان سادنه عند ظهور الاسلام العوامل بن جهيل الهمدانى المسلمى . وكانت التلبية اليه « لبيك اللهم لبيك لبيك احبنا بما لديك ، فنحن عبادك ، قد صرنا اليك[٤٦] » .

يعوق :

أما يعوق فاسمه يدل على الاعاقة والمنع ، ولعل المقصود منع الشر ، فهو الحارس من الشرور ، وكان فى قرية خيوان التى تبعد ليلتين شمال صنعاء ، ولم يسم به احد ، والتلبية اليه « لبيك اللهم لبيك لبيك بغض الينا الشر ، وحبب الينا الخير ، ولا تبطرنا فناشر ، ولا تفدحنا بعثار[٤٧] » .

نسر :

ونسر اله قديم ، فقد وجدت فى نقوش ممفيس ما يفهم منه ان نسرا اله عربى ، وقد عبده الكلدانيون وتسمى به أشهر ملوكهم نبوخذنصر ، كما عبده الآراميون فى سوريا ، وكان اله الحضر الاكبر .

أما عند الاسلام فكان فى غمدان ، تعبده حمير وتعظمه وتدين له وتلبى له ، ولكن لم يتسم احد به ولم يذكر فى الشعر[٤٨] .

يتبين مما تقدم ان الآلهة التى ذكرت فى القرآن باعتبارها آلهة قوم نوح ، كانت عند ظهور الاسلام يعبد أكثرها فى اليمن ، والواقع ان المصادر الادبية لم تقدم عنها معلومات وافية ؛ كما ان القرآن لم يشر الى عبادات أو معبودات اهل اليمن ، ولم يذكر كثيرا من الاصنام التى يرد ذكرها فى الكتب وهى غير قليلة .

---

(٤٦) الاصنام : ص ١٠ ، ٥٧ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٣ .
المحبر : ص ٣١٦ وعن سدنته ابن حجر ج ٣ ص ٤١ .
(٤٧) الاصنام : ص ١٠ ، ٥٧ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٣ .
المحبر : ص ٣١٦ .
(٤٨) انظر فى ذلك نولدكه .

بعضها اجرام سماوية ، فيذكر صاعد الاندلسى ان تميما عبدت الدبران ، وعبدت لخم وجذام المشترى ، وعبدت طى سهيل ، وعبدت أسد عطارد .

وهناك معبودات باسماء الاماكن كذو شرى وذو خلصة .

ذو شرى :

فأما ذو شرى فيبدو أن اسمه مشتق من جبل السراة ، وقد عبده الأنباط وسموا كثيرا من أولادهم به كعبد ذو شرى ، وكان عندهم صخرة مربعة ارتفاعها أربعة أقدام وطولها قدمان ، ويسفح عليها أو امامها دم الضحايا ، ويقول ابيفانوس انه كان يقام لها عيد فى ٢٥ كانون الاول أى يوم الانقلاب الشتوى ، فاذا صح هذا فمعناه ، انه كان لها علاقة بالشمس وكان عند ظهور الاسلام يعبده بنو الحارث بن يشكر الأزديين على ما يقول ابن الكلبى (٤٩) .

الخلصة :

أما ذو الخلصة فكان صخرة بيضاء عليها كهيئة التاج وله بيت ، وكان بتبالة بين مكة واليمن ، وكانت خثعم وبجيلة وأزد السراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن يعظمونها ويهدون اليها ويلبسونها القلائد ويهدون اليها الشعير والحنطة ويصبون عليها اللبن ويذبحون لها كما كانوا يستقسمون عنده بالازلام ، وقد استقسم عنده امرىء القيس . وكانت سدنته بنو امامة من باهلة بن اعصر ، وقد هدمه جرير البجلى بعد أن اشتبك مع سدنته وعباده بمعركة عنيفة ، وانشىء مكانه مسجد تبالة (٥٠) .

الفلس :

وهناك آلهة باسماء أعضاء الجسم أو بشكل انسان مثل ذى الفلس الذى كان نتوءا بارزا فى جبل اجا يشبه تمثال انسان ، وكانت طى تعبده وتهدى اليه وتعتر عنده العتائر ، ولا يأتيه خائف الا أمن عنده ، ولا يطرد احد طريدة فيلجأ

---

(٤٩) الاصنام : ص ٣٨ وانظر ايضا نولدكه .

(٥٠) الاصنام : ص ٣٥ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٩١ . الازرقى : ج ١ ص ٧٣ وقد الحق ناشر الكتاب ملحقا طويلا عنها فى نهاية الجزء الاول ، وانظر ايضا الاساطير العربية ص ١٠٤ .

بها اليه الا تركت له ولم تخفر حويته • وكان سدنته بنو بولان • وقد هدمه علي بن أبي طالب بعد أن وجد عنده سيفين اهداهما اليه الحارث بن ابي شمر الغساني •

آلهة اخرى :

وقد ذكر ابن الكلبي عدة آلهة اخرى منها ذو الكفين وكان لبني منهب بن دوس ، ورضا وكان بيتا لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة وسعد وكان صخرة طويلة بساحل جدة توقف عليه الابل ويهراق عليه الدماء وكان لمالك وملكان ابني كنانة • والأقيصر وهو لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان وكانوا يحجون له ويحلقون رؤوسهم عنده ، ويخلطون شعرهم بالدقيق • ونهم وكان لمزينة وبه كانت تسمى هذه القبيلة عبد نهم وكانت تذبح عنده العتائر ، وله سادن من بني عداء المزينيين اسمه خزاعي •

وعائم وهو لأزد السراة وقد ذكره زيد الخيل •

وسعير لعنزة •

وعميانس وكان لخولان ، وفيه نزلت وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله ، وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون (الانعام ١٣٦) •

وقد ذكر محمد بن حبيب السكري[٥١] آلهة اخرى منها جهار وكان لهوازن ومحارب بعكاظ في سفح جبل اطحل وكان سدنتها آل عوف النصريون •

والسعيدة وكانت بأحد تعبدها الأزد وسعد هذيم وقضاعة الا بني وبرة وسدنتها بني العجلان •

وذو اللبا بالمشقر ، في البحرين ، وتعبده عبد القيس وسدنته بنو عامر •

والمحرق بسلمان لبكر بن وائل ، وله أولاد موزعون على قبائلها ففي عنزة

---

(٥١) المحبر : ص ٣١١-٣١٩ •

بلج بن المحرق ، وفى عميرة وغفيلة عمرو بن المحرق ، وسدنته آل الاسود العجليون .

وذريح بالنجير ، فى جنوب اليمن ، لكندة .

ومرحب بحضرموت .

والمنطبق ، وكان صنما من نحاس ، وهو للسلف وعك والأشعريون .

ويذكر البكرى عن ابن اسحق صنما اسمه ضمار كان لبنى سليم يعبدونه وقد ورد فى شعر عباس بن مرداس[٥٢] .

وأغلب ما يستعمل من الكتب العربية لوصف ما ذكرنا صبغة الضمير ، فيقولون (اتخذوا) أو (وكان لهم) دون أن يذكروا ماهيتها ، غير ان بعض مؤلفات المتدينين نصفها بأنها أصنام أو أوثان ، أما القرآن فيصفها بأنها آلهتهم أو أربابهم (المزيفة طبعا) ولا ريب ان عدم استعمال الكتب العربية لكلمة آلهة هو خشية مؤلفيها من أن يلتبس هذا التعبير بالاله الحقيقى وهو الله تعالى .

الأصنام :

يعرف ابن الكلبى الصنم بأنه (اذا كان معمولا من الخشب أو الذهب أو فضة صورة انسان فهو صنم ، واذا كان من حجارة فهو وثن[٥٣]) . ويقول ابن الأثير ان الفرق بين الصنم والوثن هو ان الوثن كلما له جثة معمولة من جواهر الارض أو من الخشب والحجارة كصورة الآدمى تعمل وتنصب فتعبد والصنم الصورة بلا جثة ، ومنهم من لم يفرق بينهما وأطلقها على المعنيين قال وقد يطلق الوثن على غير الصورة ، ويقول شمران ان الاوثان عند العرب كل تمثال من خشب أو حجارة أو فضة أو نحاس أو نحوها وكانت العرب تنصبها وتعبدها[٥٤] ، وقد لاحظنا ان هذه الآلهة بعضها بشكل انسان كهبل ، وان بعضها كان مجرد صخرة مربعة أو مستطيلة وان بعضها من الحجارة وبعضها من العقيق .

---

(٥٢) البكرى : معجم ما استعجم ص ٨٨١ .
(٥٣) الاصنام : ص ٥٣ .
(٥٤) ابن منظور : لسان العرب ج ١٤ ص ٤٣٣ ج ١٥ ص ٢٤١ .

والراجح ان هذه الاصنام لم تكن هى الآلهة بل كانت سكنا لهم ولارواحهم فهى تمثل استقرار القوى الروحية فى الاشياء المادية ، وهى ليست من الضرورى أن تكون بصورة الآلهة ، ولكنها عندما تسف العقليات ، تحاط ذاتها بالتعظيم كأنها الآلهة .

وقد ورد ذكر الاصنام فى القرآن (فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم) (الاعراف الآية ١٣٨) (ربى اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام) (سورة ابراهيم ٣٥) .

(واذ قال ابراهيم لابيه آزر أتتخذوا أصناما آلهة) (انعام ٢٧٤) (قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين) (الشعراء ٢٧١) (وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) (الانبياء ٢٥٧) وكل هذه الآيات تتعلق بالاقوام القديمة اذ لم ترد فى القرآن آية تصف العرب عند ظهور الاسلام بأنهم يعبدون الاصنام أو بأن لهم أصناما .

الأوثان :

أما الاوثان فقد ذكرت فى ثلاث آيات ، « وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . انما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون افكا ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له واليه ترجعون » (العنكبوت ١٦ ، ١٧) . وقال ابراهيم « انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين » (العنكبوت ٢٢٤) « ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه واحلت لكم الانعام الا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور » (الحج ٣٠) . ولا ريب ان الآيتين الاوليتين تتعلقان بقوم ابراهيم أما آية الحج فتنطبق على عرب الجاهلية وحجهم وتتطلب تنقيته وهو كما سنرى ، يتم فى منطقة فيها عدد كبير من الآلهة والاصنام والانصاب وغيرها .

وليس فى هذه الآية ما يشير الى أى نوع منها ، أما الآيتان الاوليتان فيجدر أن نلاحظ ان قوم ابراهيم وصفوا فى القرآن بأنهم عباد الاصنام ، فكأن الاوثان والاصنام فى القرآن مترادفة .

ويروى الازرقى انه « اول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى اسماعيل انه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم الا احتمل معه من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة وبالكعبة ، حيث ما حلوا وضعوه فطافوا به كالطواف بالكعبة حتى سلخ ذلك بهم الى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم من حجارة الحرم خاصة ، حتى خلفت الخلوف بعد الخلوف ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره فعبدوا الاوثان وصاروا الى ما كانت عليه الامم من الظلالات ، وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم يتمسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة وهدى البدن والاهلال بالحج والعمرة مع ادخالهم فيهم ما ليس منه[٥٥] » .

الأنصاب :

أما الانصاب فقد ذكرت فى القرآن فى ثلاث مواضع (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل لغير الله به ، والمنخنقة والموقودة والمتردية وما أكل السبع الا ما زكيتم وما ذبح على النصب) (المائدة ٣) (يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان) (المائدة ٩٠) (يوم يخرجون من الاجداث سراعا كأنهم الى نصب يوفضون) (المعارج ٤٣) وتتعلق كافة هذه الآيات بالعرب عند ظهور الاسلام .

يقول ابن الكلبى انه كانت للعرب حجارة غير منصوبة ، يطوفون بها ويعترون عندها ، يسمونها الانصاب ، ويسمون الطواف بها الدوار[٥٦] ، ويروى الطبرى عن ابن جريج ان النصب ليست بأصنام الصنم يصور وينقش ، وهذه حجارة تنصب . ثلاثمائة وستون حجر ، منهم من يقول ثلاثمائة منها بخزاعة ، فكانوا اذا ذبحوا نضحوا الدم على ما اقبل من البيت وشرحوا اللحم وجعلوه على الحجارة ، فقال المسلمون يا رسول الله كان اهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم ، فنحن أحق أن نعظمه فكان النبى (ص) لم يكره ذلك فأنزل الله لن ينال الله

---

(٥٥) الازرقى : ج ٢ ص ٦٢ ، انظر ايضا الاصنام : ص ٦ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٢ .

(٥٦) الاصنام : ص ٤٢ .

لحومها ولا دماؤها (الحج ٤٣) . ويروى عن قتادة ان النصب حجارة كان أهل الجاهلية يعبدونها ويذبحون لها فنهى الله عن ذلك ، ويروى عن مجاهد انهم كانوا يذبحون عليها ، وعن ابن عباس والضحاك بن مزاحم انها حجارة كانوا يهلون لها ويذبحون عليها[٥٧] .

وقد ورد ذكر النصب فى الشعر الجاهلى فقال عمرو بن جابر الحارثى :

حلفت غطيف لا تنهنه سربها ... وحلفت بالانصاب أن يرعدوا

وقال المثقب العبدى :

يطيف بنصبهن حجن صغار ... فقد كادت حواجبهم تشيب

وقال الفزارى :

اسوق بدلى محقبا انصابى ... هل لى من قومى من أرباب

وقال المتلمس :

اطردتنى حذر الهجاء ولا ... واللات والانصاب لا تئل

وقال عامر بن وائلة :

فانك لا تدرين ان رب غارة ... كورد القطا ريعانها متتابع

نصبت لها وجهى ووردا كأنه ... لها نصب قد خرجته النقائع

وقال زهير :

حلفت بأنصاب الأقيصر جاهدا ... وما سحقت فيه المقاديم والقمل

وقال رشيد بن رميض :

حلفت بمائرات حول عوض ... وانصاب تركن لدى السعير

وقال طرفة :

فأقسمت عند النصب انى لهالك ... بمتلفة ليست بغبط ولا خفض

وقال ايضا :

انى وجدك ما هجوتك والـ ... انصاب يسفح بينهن دم[٥٨]

---

(٥٧) تفسير الطبرى : ج ٦ ص ٤٨-٤٩ ، وانظر ايضا لسان العرب : ج ٢ ص ٢٥٦ .

(٥٨) الاصنام : ص ٤٢-٤٤ ، وانظر ايضا الحوفى : الحياة العربية من الشعر الجاهى ص ٣١٣ فما بعد . أما عن الانصاب المكتشفة فى الجزيرة فانظر جمعة : ص ١٥٧ فما بعد .

يتضح مما ذكر اعلاه ان الانصاب هى احجار ، وليس من الضرورى أن تكون مصقولة أو بشكل تماثيل تشبه الآلهة ، ولكنها ذات علاقة وثيقة بالآلهة ومنها يتقبل الاله الهدايا المقدمة له[٥٩] ، كما قد تقام حول الحرم ، والواقع ان الانصاب التى كانت حول حرم مكة ظلت فى زمن الاسلام ، فأمر الرسول ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان بتجديدها[٦٠] .

ولكن الغالب أن تقام النصب حول الاصنام ، وقد يطوف الناس حولها ، وكثيرا ما تقدم عليها الهدايا ، أو تذبح عليها الضحايا للآلهة ، ويسيل دم الضحايا عادة فى كهف أو حفرة خاصة تدعى الغبغب[٦١] ولعل الناس كانت تعتقد ان الغبغب مكان مقدس له علاقة بالآلهة ، وان الدم الذى يسيل فيه أو يسفك على النصب يمسه الاله ، وان اللحم الذى يضحى على النصب يكون للاله منه نصيب ، وبذلك تصبح بين مقدم الضحية علاقة دموية تستلزم من الاله أن يحمى المهدى وقد نفى القرآن الكريم ذلك عن الله تعالى فى ضحايا المسلمين فقال « لن ينال الله لحومها ولا دمائها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرناها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين » (الحج ٣٧) وكثيرا ما كان العرب يقسمون عندها .

والانصاب كثيرة فى الجزيرة وهى لا تبقى ثابتة بل تتغير وتتبدل ويروى انه كان فى الكعبة يوم الفتح ٣٦٠ صنما ولا ريب ان الكعبة لا تتسع لمثل هذا العدد من الاصنام ، كما لم يذكر العرب اسم أى صنم بالكعبة أو قربها غير هبل وأساف ونائلة والراجح ان المقصود بذلك الانصاب وانها لم تكن فى داخل الكعبة بل حولها وفى مكة نفسها .

ليس فى المصادر العربية ما يوضح العلاقة بين الاصنام والانصاب والاله ذاته .

Ahmad Muhammad

الاشجار المقدسة :

لقد كانت بعض الاشجار مقدسة ومنها ذات انواط ، وكانت لكفار قريش

---

(٥٩) سمث : ص ٢٠٧ .
(٦٠) الازرقى : ج ٢ ص ١٠٣-١٠٤ .
(٦١) الاصنام : ص ٢٠ . انظر ايضا لسان العرب : ج ٢ ص ١٢٨ .

ومن سواهم من العرب وهى شجرة عظيمة خضراء يأتونها كل سنة فيعلقون عليها أسلحتهم ويذبحون عندها ويعكفون عندها يوما وكان من حج منهم وضع زاده عندها ويدخل بغير زاد تعظيما لها(٦٢) .

وكان فى بيت العزى ثلاث شجرات كانت تعلق عليها الهدايا ، كما كان اهل نجران قبل دخول المسيحية بلادهم يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم لها عيد فى كل سنة واذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحلى النساء ثم خرجوا اليها فعلقوا عندها يوما(٦٣) .

و يلاحظ ان الشجرات المقدسة لم تعبد الا فى الاماكن المنعزلة أما فى الحرم أو الارض الخصبة فقد منع قطع شجرها . ولم يرو أنها عبدت والواقع ان الرسول خرق هذا التقليد فقطع نخل بنى النضير فأثار كلام الناس حتى نزلت الآية التى تحل لهم ذلك (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على اصولها فباذن الله وليخزى الفاسقين) (الحشر ٥) .

وقد قطع عمر بن الخطاب الشجرة التى عاهد تحتها المسلمون النبى على القتال فى الحديبية والتى أشار اليها القرآن بقوله (لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة) (الفتح ١٨) وكان سبب قيامه بهذا العمل هو خشية من تقديس الناس لها .

ويلاحظ ان الاشجار تنبت عند الينابيع والاماكن الخصبة حيث توجد الآلهة وهى تعتمد فى حياتها على نفس سر الحياة الذى ينبعث من الينابيع فالشجرة ليست مقدسة لذاتها ، ولكن بسبب انها المنتوج الطبيعى فى الاماكن التى تعبد الاله ويرسل مجاريه التى تحى الارض بعد موتها وليس هناك نوع خاص يقدس .

الحرم :

لما كان الاله مقدسا فقدسيته تسرى عادة على الامكنة والاشياء التى حوله ،

---

(٦٢) الازرقى : ج ١ ص ٧٧-٧٨ .

(٦٣) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٢ ، وانظر ايضا الاساطير العربية ص ٥١-٥٢ .

وتعتبر تلك الاماكن حرما والغالب أن يكون الحرم عاما لكل القبائل وأحيانا يكون مقصورا على القبيلة أو الاسرة التى ترعى الحرم .

وللحرم عادة حدود طبيعية واضحة تحددها ، كالوديان والتلول أو الجبال وهى فى الغالب تشمل البلاد التى يسكنها عابدوا الآلهة أو ما يسرى عليه تأثير الاله كمدى امتداد المناطق الزراعية(٦٤) .

وللحرم مصالح عامة ، ففيها مجلس عام وخزينة عامة ومحل اجتماع عام والواقع ان بعض الفقهاء فى الاسلام حرموا كراء بيوت مكة . فكأنهم كانوا يعتبرون كل مكة ملكية عامة . ولكن نظرتهم لم تطبق فقد ظلت فيها ملكية خاصة ، والواقع انه منذ العصر الجاهلى كانت فيها ملكيات خاصة بل حتى دار الندوة كانت ملكية خاصة(٦٥) .

وفى الحرم يعطى الاشخاص أو الاشياء الموجودة فيه نوعا من الحماية القانونية وهى حماية محدودة فى المكان ، ولكنها دائمية وهى فى الغالب مطلقة وغير مقيدة وتكون هذه الحماية مصطبغة بصبغة دينية اذ أن الفرد يكون تحت حماية الاله . فمن دخل الحرم كان آمنا(٦٦) ، ومن احدث حدثا فى بلد غيره ثم لجأ اليه فهو آمن اذا دخله .

وتسرى هذه الحماية على النبات والشجر فلا يجوز قطع شجرة وكذلك على الحيوان فلا يجوز الصيد فيه .

وتمتد هذه الحماية الى حرية الكلام ، ولعل اوضح مثل على ذلك حالة الدعوة الاسلامية حيث قام الرسول يسفه آلهتهم ويعيبها ولكن لم تجر محاكمة رسمية له ولم يصدر قرار بمنعه أو بمعاقبته . غير ان هذه الحماية تقتصر على الامتناع عن القتل والاعتداء البدنى فكان من سنتهم ان الرجل يحدث الحدث

---

(٦٤) راجع عن الحرم سمث ص ١١٥ فما بعد . أما عن حرم مكة فراجع الازرقى : ج ٢ ص ٩٦ فما بعد .

(٦٥) انظر ص ٩٢-٩٣ .

(٦٦) انظر تفسير الطبرى : ج ٤ ص ١٠ .

بقتل الرجل أو يلطمه أو يضربه فيربط لحا من لحا الحرم قلادة فى رقبته ويقول انا صرورة ، فيقال دعوا الصرورة نجهله وان رمى بحضرة فى رجله فلا يعرض له احد . فقال النبى (ص) لا صرورة فى الاسلام وان من احدث حدثا أخذ بحدثه[٦٧] .

لقد ذكرت ان الحرم تنشأ حول المياه عادة ويبدو انه كان حول كل بئر حيثما كان حرم صغير ، وقد أقر الاسلام حريم البئر بخمسين ذراعا[٦٨] ولا ريب ان هذه سنة جاهلية أقرها الاسلام وكان الدافع لحدوثها على الارجح منع حدوث اشتباكات ومنازعات حول الآبار .

وبما ان أغلب المناطق المقدسة تكون حول الآبار ، لذا تنشأ حولها حياة مستقرة مدنية ، وتكون لها نظما تختلف عن نظم أهل الوبر .

لقد ورد فى الاخبار ذكر لعدد من الحرم كحرم الفلس[٦٩] وجلسد فى حضرموت[٧٠] والعزى فى وج[٧١] ولكن أشهر حرم هو حرم مكة الذى لدينا عنه تفصيلات أوفى والذى مستمد منه ما ذكرناه من معلومات عن الحرم .

وقد أوجد الاسلام للمدينة حرما[٧٢] . كما أقر حرم مكة ، وحرم وج[٧٣] . ولكن آثارها زالت ما عدا حرم مكة .

---

(٦٧) الازرقى : ج١ ص١٢٥ . انظر ايضا لسان العرب : ج٦ ص١٢٣ .

(٦٨) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ١٠٠-١٠٢ ، وهو يذكر حديثا عن الرسول بأن حريم البئر اربعون ذراعا ، وحريم الناضح ستون ذراعا وحريم العين خمسمائة ذراع . انظر ايضا ابن حنبل : المسند ج ٢ ص ٤٩٤ .

(٦٩) ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٩١٢ .

(٧٠) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ١٠٠ .

(٧١) الاصنام : ص ١٩ .

(٧٢) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ١٢٢ ، وأما عما ورد عنها فى كتب الحديث فانظر فنسنك الفهرس المفصل لالفاظ الحديث النبوى مادة حرم .

(٧٣) سنن ابى داود : كتاب المناسك ٩٣ . محمد حميد الله : الوثائق السياسية فى عصر النبى ص ١٢٣ .

البيوت المقدسة :

لما بنى الناس البيوت فى الحرم اقاموا بيوتا للآلهة ، فالبيوت المقدسة اذا هى أحدث من الحرم ، وهى تختلف عن النصب من حيث انها ثابتة ، لا يمكن أن تتحرك ، وكثيرا ما تكون فيها الانصاب والاصنام ، وهى ليست من الضرورى أن تكون مسقفة أو مسورة ، اذ قد يكتفى بتحديدها . وتحاط البيوت عادة باحترام كبير ، كما نستدل عليه من تسمية بعض الناس باسم عبد الدار وعبد البيت .

وقد روت الاخبار عددا من البيوت المقدسة ، كبيت العزى ، وبيت اللات ، وكعبة سنداد ، وبيت رئام ، وذو الكعبات الذى كانت تحجه ربيعة فى الجاهلية[٧٤] .

غير ان أشهر بيت وردتنا عنه معلومات وافية هو الكعبة وهى بيت الله ، وقد ورد ذكره فى القرآن باسم الكعبة (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وانتم حرم ، ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة) (المائدة ٩٥) (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا ان الله يعلم ما فى السماوات وما فى الارض وان الله بكل شىء عليم) (المائدة ٩٦) . كما سميت بالبيت العتيق (ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق) (الحج ٢٩) (لكم فيها منافع الى اجل مسمى ثم محلها الى البيت العتيق) (الحج ٧٣) . كما سميت البيت الحرام (ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا) (المائدة ٢) (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس) (المائدة ٩٧) . ولكنها ذكرت فى عدد من الآيات باسم البيت (واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا) (البقرة ١٢٥) (واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل) (البقرة ١٢٧) (فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) (البقرة ١٥٨) (ان اول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا) (آل عمران ٩٦) (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا) (آل عمران ٩٧) (وما كانت صلاتهم عند البيت الا مكاءا وتصدية) (الانفال ٣٥) (واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا) (الحج ٢٦) (فليعبدوا رب هذا البيت) (قريش ٣) .

---

(٧٤) انظر الاصنام : ص ٩٩ . سيرة ابن هشام ج ١ ص ٨٧-٩٤ .

ويتضح من الآية الاخيرة ان الكعبة هى بيت الله ، كما يتضح من الآية ١٢٧ من سورة البقرة ان بناءه يرجع الى زمن ابراهيم الخليل ، ولذلك صار البيت العتيق .

ليست لدينا معلومات وافية عن تاريخ الكعبة وتطوراتها قبل الاسلام ، واول المعلومات الواسعة عنها تأتى فى السنة الخامسة قبل البعثة النبوية وقد فصل أخبارها الازرقى وهى مجملة فى احدى الروايات التى أوردها فقال (جلس رجال من قريش فى المسجد الحرام فيهم حويطب بن عبد العزى ومخرمة بن نوفل فتذاكروا بنيان قريش الكعبة وما هاجهم على ذلك وذكروا كيف كان بناؤها قبل ذلك فقالوا : كانت الكعبة مبنية برضم يابس ليس بمدر[٧٥] ، وكان بابها بالارض ولم يكن لها سقف وانما تدلى الكسوة على الجدر من خارج وتربط من أعلى الجدر من بطنها . وكان فى بطن الكعبة عن يمين من دخلها جب يكون فيه ما يهدى الى الكعبة من مال وحلية كهيئة الخزانة[٧٦] وكان يكون على ذلك الجب حية .. فلم تزل كذلك حتى بنت قريش الكعبة . وكان قرنا الكبش الذى ذبحه ابراهيم خليل الرحمن معلقين فى بطنها بالجدر تلقاء من دخلها ، يخلقان ويطيبان اذا طيب البيت ، فكان فيها معاليق من حلية كانت تهدى الى الكعبة ، فكانت على ذلك من امرها . ثم ان امرأة ذهبت تجمر الكعبة فطارت من مجمرتها شرارة فاحترقت كسوتها[٧٧] وكانت الكسوة عليها ركاما بعضها فوق بعض . فلما احترقت الكعبة توهنت جدرانها من كل جانب وتصدعت . وكانت الخرف الاربعة عليهم مظلة والسيول متواترة ، ولمكة سيول عوارم ، فجاء سيل عظيم على تلك الحال فدخل الكعبة وصدع جدرانها وأخافهم ففزعت من ذلك قريش فزعا شديدا ، وهابوا هدمها وخشوا أن مسوها أن ينزل عليهم العذاب . قال فبيناهم على ذلك يتناظرون ويتشاورون اذا قبلت سفينة للروم ، حتى اذا كانت بالشعيبة

---

(٧٥) انظر ايضا الازرقى : ج ١ ص ٩٩ . الطبرى : ج ٢ ص ١٩٨ (عن ابن اسحق) .

(٧٦) انظر كذلك الازرقى : ج ١ ص ٢٥ ، ١٠٠ ، ١٢٨ .

(٧٧) انظر ايضا الازرقى : ج ١ ص ٢٨ .

وهى يومئذ ساحل مكة قبل جدة ، انكسرت فسمعت بها قريش ، فركبوا اليها ، فاشتروا خشبها ، واذنوا لاهلها أن يدخلوا مكة فيبيعون ما معهم من متاعهم على أن لا يعشروهم • قال وكانوا يعشرون من دخلها من تجار الروم كما كانت الروم تعشر من دخل منهم بلادها • فكان فى السفينة رومى نجار بناء يسمى باقوم •

فلما قدموا بالخشب مكة قالوا : لو بنينا بيت ربنا ، فاجمعوا لذلك وتعاونوا عليه وترافدوا فى النفقة وربعوا قبائل قريش ارباعا ، ثم اقترعوا عند هبل فى بطن الكعبة على جوانبها ، فطار قدح بنى عبد مناف وبنى زهرة على الوجه الذى فيه الباب وهو الشرقى • وقدح بنى عبد الدار وبنى أسد بن عبد العزى وبنى عدى بن كعب على الشق الذى يلى الحجر وهو الشق الشامى • وطار قدح بنى سهم وبنى جمح وبنى عامر بن لؤى على ظهر الكعبة وهو الشق الغربى • وطار قدح بنى تيم وبنى مخزوم وقبائل من قريش ضموا معهم على الشق اليمانى الذى يلى الصفا واجياد ؛ فنقلوا الحجارة ، ورسول الله يومئذ غلام لم ينزل عليه الوحى •• فلما اجتمع لهم ما يريدون من الحجر[٧٨] والخشب وما يحتاجون اليه عدوا على هدمها •• فهابت قريش هدمه وقالوا من يبدأ فيهدمه ؟ فقال الوليد بن المغيرة أنا ابدؤكم فى هدمه •• فهدمت قريش معه حتى بلغوا الاساس •• فلما جمعوا ما اخرجوا من النفقة قلت النفقة عن ان تبلغ لهم عمارة البيت كله ، فتشاوروا فى ذلك ، فاجمع رأيهم على أن يقصروا عن القواعد ويحجروا ما يقدرون عليه من بناء البيت ويتركوا بقيته فى الحجر عليه جدار مدار يطوف الناس من ورائه ففعلوا ذلك ، وبنوا فى بطن الكعبة أساسا يبنون عليه من شق الحجر • وتركوا من ورائه من فناء البيت فى الحجر ستة أذرع وشبرا ، فبنوا على ذلك ، فلما وضعوا ايديهم فى بناءها قالوا : ارفعوا بابها من الارض واكسوها حتى لا تدخلها السيول ولا ترقا الا بسلم ولا يدخلها الا من اردتم ، ان كرهتم احدا دفعتموه

---

(٧٨) لقد جاؤوا بالحجارة من حراء وثبير والمقطع والخندق وجبل حلحلة ومقلع الكعبة (الازرقى ج ١ ص ١٤٥-٦) أى من معظم الجبال المحيطة بالكعبة •

ففعلوا ذلك • وبنوه بساف من حجارة وساف من خشب بين الحجارة حتى انتهوا الى موضع الركن فاختلفوا فى وضعه وكثر الكلام فيه •• فبنوا حتى رفعوا اربعة أذرع وشبرا ، ثم كبسوها ووضعوا بابها مرتفعا على هذا الذرع ، ورفعوها بمدماك خشب ومدماك حجر حتى بلغوا السقف ، فقال لهم باقوم أتحبون أن تجعلوا سقفها مكبسا أو مسطحا ؟ فقالوا بل بيت ربنا مسطحا ، فبنوه مسطحا وجعلوا فيه ست دعايم فى صفين فى كل صف ثلاث دعايم من الشق الشامى الذى يلى الحجر الى الشق اليمانى ، وجعلوا ارتفاعها من خارجها من الارض الى اعلاها ثمانية عشر ذراعا ، وكانت قبل ذلك تسعة أذرع ، فزادت قريش فى ارتفاعها فى السماء تسعة أذرع أخر وبنوها من اعلاها الى اسفلها بمدماك من حجارة ومدماك من خشب ، وكان الخشب خمسة عشر مدماكا والحجارة ستة عشر مدماكا ، وجعلوا ميزابها يسكب فى الحجر ، وجعلوا درجة من خشب فى فى بطنها فى الركن الشامى يصعد منها الى ظهرها ، وزوقوا سقفها وجدرانها من بطنها ودعايمها ، وجعلوا فى دعايمها صور الانبياء وصور الشجر وصور الملائكة ؛ فكان فيها صورة ابراهيم خليل الرحمن شيخ يستقسم بالازلام ، وصورة عيسى بن مريم وامه ، وصورة الملائكة عليهم السلام اجمعين[٧٩] • فلما كان يوم فتح مكة دخل رسول الله (ص) البيت فارسل الفضل بن العباس بن عبدالمطلب فجاء بماء زمزم ، ثم أمر بثوب فبل بالماء ، وأمر بطمس تلك الصور فطمست • قال ووضع كفيه على صورة عيسى بن مريم وامه عليهما السلام وقال : امحوا جميع الصور الا ما تحت يدى ، فرفع يديه عن عيسى بن مريم وامه[٨٠] ، ونظر الى صورة ابراهيم فقال قاتلهم الله جعلوه يستقسم بالازلام : ما لابراهيم وللازلام وجعلو لها

---

(٧٩) لقد ورد ذكر الصور فى الكعبة فى بعض كتب الحديث : انظر مثلا البخارى : كتاب الحج الباب ٥٤ ، كتاب الانبياء : الباب ٦٠ ، كتاب المغازى : الباب ٤٨ • انظر ايضا ابن حنبل ج ١ ص ٢٧٧ ، ٣٣٤ ، ٣٦٥ ج ٣ ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٨٣ • انظر ايضا المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٨ •

(٨٠) يروى الازرقى أقوالا عن عطاء وعمرو بن دينار وداود بن عبدالرحمن والزهرى وابن اسحق ان فى الكعبة صورا ، وان الرسول لم يمح صورة عيسى (الازرقى ج ١ ص ١٠٦-١٠٧) ولكنه يروى فى مكان آخر انه ازالها كلها (ج ١ ص ١٤٥) •

بابا واحدا فكان يغلق ويفتح ، وكانوا قد اخرجوا ما كان فى البيت من حلية ومال وقرنى الكبش وجعلوه عند ابى طلحة عبدالله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى ، واخرجوا هبل وكان على الجب الذى فيه نصبه عمرو بن لحى هناك ، ونصب عند المقام حتى فرغوا من بناء البيت فردوا ذلك المال فى اجلب ، وعلقوا فيه الحلية وقرنى الكبش ، وردوا الجب فى مكانه فيما يلى الشق الشامى ، ونصبوا هبل على الجب كما كان قبل ذلك وجعلوا له سلما يصعد عليه الى بطنها وكسوها حين فرغوا من بنائها حبرات يمانية(٨١) .

وعندما بنت قريش الكعبة وضعت فيه الحجر الاسود ، وهو حجر نارى متوسط الحجم وكان على جبل ابى قبيس فى الاصل فكان يضىء لاهل مكة فى ليالى الظلم كما يضىء القمر ، فلما كان قبل الاسلام باربع سنين ، وقد كان الحيض والجنب يصعدون اليه يمسحونه ، فاسود ، فانزلته قريش من ابى قبيس(٨٢) ، وقد وضع فى الجانب الشمالى .

وفى داخل الكعبة بئر يسمى الاخسف عمقه ثلاثة أذرع ، ينسب حفره الى ابراهيم الخليل وابنه اسماعيل . وكان خزانة للبيت يلقى فيها الحلى والمتاع الذى يهدى للكعبة ، وقد نصب عند هذا البئر هبل الصنم الذى كانت قريش تعبده وتستقسم عنده بالازلام(٨٣) .

ويقع بالقرب من الكعبة بئر زمزم(٨٤) .

لقد كانت الكعبة غير منتظمة الاضلاع ، فقد كان الاساس الذى وضعه

---

(٨١) الازرقى : ج ١ ص ٩٩-١٠٦ . وقد تردد فى كتب الحديث ان قريشا قصروا فى بناء الكعبة عن قواعد ابراهيم وان الرسول قال عند دخوله الكعبة فى حجة الوداع ان لو لا قريشا حديث عهدهم لنقض بناء الكعبة واعادها الى قواعد ابراهيم . انظر مثلا البخارى كتاب العلم الباب ٤٨ . كتاب الحج الباب ٤٢ . كتاب التمنى الباب ٩ . انظر ايضا ابن حنبل ج ٦ ص ٥٧ .

(٨٢) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٢ ، وكذلك ص ١٦ .

(٨٣) الازرقى : ج ١ ص ٢٧ ، ٤٤ ، ٦٧ ، ١٦١-٣ .

(٨٤) الازرقى : ج ٢ ص ٣٠ فما بعد .

ابراهيم له « جعل طوله فى السماء تسعة أذرع ، وعرضه فى الارض اثنين وثلاثين ذراعا من الركن الاسود الى الركن الشامى الذى عند الحجر من وجهه ، وجعل عرض ما بين الركن الشامى الى الركن الغربى الذى فيه الحجر اثنين وعشرين ذراعا ، وجعل طول ظهرها من الركن الغربى الى الركن اليمانى احد وثلاثين ذراعا ، وجعل عرض شقها اليمانى من الركن الاسود الى الركن اليمانى عشرين ذراعا[٨٥] » ، أى انها كانت شبه منحرف غير منتظم ، ولما بنتها قريش قبيل البعثة جعلت حجمها اصغر ، فقصرت من كل ضلع حوالى سبعة أذرع ، ولكن ابن الزبير عندما أعاد بناءها أرجعها الى حجمها الاصلى[٨٦] .

ويبدو انها كانت تحيطها ساحة مكشوفة غير مسورة « ليس عليها جدران محاطة ، انما كانت الدور محدقة به ، وكل جانب غير ان بين الدور أبوابا يدخل منها الناس من كل نواحيه[٨٧] » . ولما انتشر الاسلام وازداد عدد معتنقيه ، ضاق المسجد الحرام بالمصلين ، فوسع بضع مرات فى زمن عمر وعثمان وابن الزبير والوليد والمنصور والمهدى[٨٨] ، حتى أصبح بعد كل هذه التوسيعات بشكل شبه منحرف طول اضلاعه على التوالى ٤٠٤ ، ٣٠٤ ، ٢٧٨ ، ٢٧٨ ذراعا[٨٩] أى ان حجمها قبل ذلك كان اصغر من هذا بكثير .

لم تكن الكعبة تفتح يوميا ، بل كانوا فى الجاهلية « يفتحونها يوم الاثنين والخميس ، وكان حجابه يجلسون عند بابه فيرتقى الرجل اذ كانوا لا يريدون دخوله فيدفع ويطرح وربما عطب . وكانوا لا يدخلون الكعبة بحذاء ، يعظمون ذلك ويضعون نعالهم تحت الدرجة .

اخبرنى محمد بن يحى عن الواقدى عن اشياخه قالوا : لما فرغت قريش من

---

(٨٥) الازرقى : ج ١ ص ٢٧ .
(٨٦) الازرقى : ج ١ ص ١٣٤ . وانظر فى وصف الكعبة الحديث كتاب الرحلة الحجازية للبيب البتنونى .
(٨٧) الازرقى : ج ٢ ص ٥٤ .
(٨٨) الازرقى : ج ٢ ص ٥٤ فما بعد .
(٨٩) الازرقى : ج ٢ ص ٦٥ .

بناء الكعبة كان اول من خلع الخف والنعل فلم يدخل بهما الوليد بن المغيرة اعظاما لها فجرى ذلك سنة .

حدثني محمد بن يحي بن عبدالعزيز بن عمران عن عبدالله بن ابى سليمان عن ابيه : ان فاختة ابنة زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العزى وهى ام حكيم بن حزام دخلت الكعبة وهى حامل فأدركها المخاض فيها فولدت حكيما فى الكعبة ، فحملت في نطع وأخذ ما تحت مشبرها فغسل عند حوض زمزم واخذت ثيابها التى ولدت فيها فجعلت لقا ، أي هدية للكعبة(٩٠) » .

---

(٩٠) الازرقى : ج ١ ص ١١١ أما عن اللقا فانظر لسان العرب ج ٢ ص ١٢٢ .

الفصل الرابع عشر

الدين الجاهلى (٢)

الطقوس والعبادات ورجال الدين

الحج :

لما كانت الآلهة تستقر فى أماكن هى بيوتها التى تقيم فيها دائميا أو موقتا فمن الواجب على عابديها أن يزوروها فى تلك البيوت • وقد تكون هذه الزيارات غير منظمة فى مواعيدها وأشكالها • أو تكون منظمة حسب مراسيم وطقوس معينة وفى اوقات محددة وتسمى الحج •

ويبدو ان هناك عددا من الآلهة كان يحج اليها • فالازد (كانوا يحجون فى مكة ويقفون مع الناس المواقف كلها ولكنهم لا يحلقون رؤوسهم فاذا انتهوا من ذلك اتوا مناة فحلقوا رؤوسهم عنده واقاموا عنده لا يرون لحجهم تماما الا بذلك[١]) • وكانت قريش تزور « العزى » وتهدى لها وتتقرب عندها بالذبائح[٢] • كما كانت قضاعة ولخم وجذام واهل الشام يحجون الى الاقيصر ويحلقون رؤوسهم عنده[٣] • وكانت « مذحج » تحج الى يغوث[٤] ، كما كانت طى تعبد الفلس وتهدى اليه[٥] • وقد ذكر محمد بن حبيب السكرى نص تلبيات العرب لاساف والعزى واللات وجهار وسواع وشمس ومحرق واللبا ومرحب وذريح وذا الكفين وهبل[٦] مما قد يحمل على الاعتقاد بأنه كان يحج اليها كلها •

---

(١) الاصنام : ص ١٤ تفسير الطبرى ج ٢ ص ٢٩ •
(٢) الاصنام : ص ١٨ ، ٢٧ •
(٣) الاصنام : ص ٤٨ •
(٤) الاصنام : ص ٥٧ •
(٥) الاصنام : ص ٥٩ •
(٦) المحبر : ص ٣١٠ـ٣١٤ •

الا انه لا تتوفر المعلومات الا عن الحج الى مكة نظرا لصلته الوثيقة بالاسلام ولذكر القرآن لبعض مناسكه فى معرض الاقرار أو التعديل أو الابطال ، ونظرا لان الحج فى الاسلام كانت مناسكه تشبه الحج الجاهلى فى كثير من النواحى .

موعده :

لقد كان الحج الى مكة يتم فى أشهر معينة وقد أشار القرآن الى ذلك بقوله تعالى « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج » (البقرة ١٩٧) .

ويروى الطبرى عن ابن عباس والنخعى والشعبى والسدى ونجيح وابن عمر فى تفسير هذه الآية ان الاشهر المعلومات التى أشار اليها القرآن هى شوال وذو القعدة وعشر ذى الحجة[٧] وهى من الاشهر الحرم الاربعة التى تشمل ايضا رجب . غير ان الحج يستلزم تثبيته فى وقت معين معلوم يعرفه الناس مقدما ليشتركوا فيه ، وكان ذلك الموعد فى الايام العشرة الاولى من ذى الحجة ، أما الاشهر الاخرى الباقية فلا نعلم بالضبط ما اذا كانت تتم فيها العمرة فقط أم تجرى فيها عبادات لم تصلنا عن انباءها معلومات وافية .

وللحج فى الاصل علاقة بالمواسم والحياة الاقتصادية ، ويمكن أن نلمح ذلك من الآية الكريمة « واذن فى الناس يوم الحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا فيها منافع لهم ويذكروا اسم الله عليه فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » (الحج ٢٧) . ونرجح انه كان ثابتا

---

(٧) تفسير الطبرى : ج ٢ ص ١٥٠-١٥٣ وقد أشار القرآن الى الاشهر الحرم فى آيات اخرى (سورة البقرة ١٩٤ ، ٢١٧ المائدة ٢ ، ٩٧ التوبة ٥) . انظر عن الاشهر الحرم ايضا سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٥ لسان العرب ج ٦ ص ٢٨٢ ج ١٥ ص ١٠ مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠٥ البخارى : كتاب الحج الباب ٣٣ ، ٣٤ كتاب العمرة الباب ٩ كتاب مناقب الانصار الباب ٣٦ ابن حنبل ج ٢ ص ٩٥ .

معينا فى احد مواسم السنة ، اى انه يتبع السنة الشمسية ، ولما كانت العرب تتبع النظام القمرى فقد وجد النسىء للتوفيق بين السنة الشمسية والقمرية وذلك باضافة شهر كل ثلاث سنوات[٨] .

ولا نعرف بالضبط من اى فصل من السنة كان يحدث ذى الحجة ، ولكننا يمكن أن نستنتج موعد حدوث الاشهر العربية من تسمياتها : فالربيعان يدل اسمهما على حدوثهما فى الربيع بين شباط ونيسان ، ورمضان الحار فى شدة الصيف أى فى آب وعلى هذا ترتب الاشهر :-

ربيع الاول : شباط آذار	رمضان : اغسطوس - ايلول
ربيع الثانى : آذار - نيسان	شوال : ايلول - تشرين الاول
جمادى الاول : نيسان - أيار	ذى القعدة : تشرين الاول - تشرين الثانى
جمادى الثانى : أيار - حزيران	ذى الحجة : تشرين الثانى - كانون الاول
رجب : حزيران - تموز	المحرم : كانون الاول - كانون الثانى
شعبان : تموز - اغسطس	صفر : كانون الثانى - شباط[٩] .

فاذا صح هذا الترتيب كان الحج الاكبر يقع فى الخريف ، وهو فصل معتدل المناخ نسبيا ، والحياة الاقتصادية نشطة نظرا لحاجة الناس للتزود من الحاجيات الشتوية . كما ان الحج الاصغر يحدث فى حزيران وهو بداية فصل الصيف . ويتم الحج الحقيقى فى أيام التشريق .

الحلة والحمس :

لم تكن طقوس الحج الى مكة واحدة لكافة القبائل ، بل كانوا يختلفون : ويصنفهم المؤرخون الى صنفين عامين هم الحلة والحمس ، ويضيف السكرى صنفا ثالثا فرعيا هم الطلس[١٠] .

---

(٨) انظر ص ٩٥-٩٦ .

(٩) انظر راثجن : رحلة الحج الى مكة ص ٦٠ (بالالمانية) .

(١٠) راجع عن الحلة والحمس الازرقى : ج ١ ص ١١٣ فما بعد . المحبر ص ١٧٨-١٧٩ تفسير الطبرى ج ٢ ص ١٧٠ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١٦ =

أما الحمس فهم فيما يروى ابن سعد عن الواقدى ، والازرقى عن ابن اسحق عن الكلبى عن ابن عباس فهم قريش وكنانة وخزاعة ومن ولدته قريش من سائر العرب • ويضيف ابن اسحق فى روايته الاوس والخزرج وجشم وربيعة وجذام وذكوان وثقيف وعمر واللات والغوث وغطفان وعدوان وعلاف وقضاعة • أما السكرى فيذكر ان قبائل الحمس هى قريش كلها وخزاعة لنزولها مكة ومجاورتها قريشا وكل من نزل مكة من قبائل العرب فمن ولدت قريش كلاب وكعب وعامر وكلب بنو ربيعة بن عامر بن صعصعة والحارث بن عبد مضاة بن كنانة ومدلج بن مرة بن عبد مناة بن كنانة بنزولهم حول مكة وعامر بن مناة بن كنانة ومالك وملكان بن كنانة وثقيف وعدوان ويربوع بن حنظلة ومازن بن مالك بن عمرو بن غيم وعلاف (من قضاعة) وجناب بن هبل •

أما الحلة فالمفروض انهم بقية القبائل الا أن السكرى يميزهم عن صنف ثالث هم الطلس فيذكر ان الحلة هم تميم ما عدا يربوع ومازن وضبة وحميس وظاعنة والغوث بن مرة وقيس عيلان بأسرها ما عدا ثقيف وعدوان وعامر بن صعصعة وربيعة بن نزار كلها وقضاعة كلها ما خلا علاف وجناب والانصار وخثعم وبجيلة وبكر بن عبد مناة بن كنانة وهذيل بن مدركة وأسد وطى وبارق •

أما الطلس فهم سائر اهل اليمن واهل حضرموت وعك وتجيب وأياد •

الحمس :

يروى الازرقى عن ابن اسحق عن الكلبى عن ابن عباس بأن « الحمس لم يكونوا يمخضون اللبن ولا يأكلون الزبد ولا يلبسون الوبر ولا الشعر ولا يستظلون به ما داموا حرما ولا يغزلون الوبر ولا الشعر ولا ينسجونه وانما يستظلون بالادم ولا يأكلون شيئا من نبات الحرم وكانوا يعظمون الاشهر الحرم ولا يخفرون فيها الذمة ولا يظلمون فيها ويطوفون فى البيت وعليهم ثيابهم • وكانوا اذا أحرم الرجل منهم فى الجاهلية واول الاسلام فان كان من اهل

= ابن سعد ج١ قسم ١ ص ٤١ لسان العرب ج٨ ص ٣٥٨ البخارى : كتاب الحج : الباب ٩١ كتاب التفسير : الباب ٣٥ مسلم كتاب الحج ١٥١-١٥٣ ابن حنبل ج ٤ ص ٨٠ •

المدر - يعنى اهل البيت والقرى - نقب نقبا فى ظهر بيته فمنه يدخل ومنه يخرج ولا يدخل من بابه • وكانت الحمس تقول لا تعظموا شيئا من الحل ولا تجاوزوا الحرم فى الحج فلا يهاب الناس حرمكم ويرون ما تعظمون من الحل كالحرم ، فقصروا عن مناسك الحج والموقف من عرفة وهو من الحل ، فلم يكونوا يقفون به ولا يفيضون منه ، وجعلوا موقفهم فى طرف الحرم من نمرة بين المازمين يقفون به عشية عرفة ويظلون به يوم عرفة من الاراك من عرفة ويفيضون منه الى المزدلفة فاذا عممت الشمس رؤوس الجبال دفعوا • وكانوا يقولون نحن اهل الحرم لا نخرج من الحرم ونحن الحمس ، فتحمست قريش ومن ولدت[١١] وكانت الحمس من دينهم اذا أحرموا أن لا يدخلوا بيتا من البيوت ولا يستظلوا تحت سقف بيت ينقب احدهم نقبا فى ظهر بيته فمنه يخرج ولا يدخل من بابه ولا يجوز تحت أسقفة باب ولا عارضة فاذا أرادوا بعض أطعمتهم ومتاعهم تسوروا من ظهر بيوتهم وأدبارها حتى يظهروا على السطوح ثم ينزلون من حجرتهم ثم يمروا تحت عتبة الباب[١٢] » فانزل عز وجل « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى واتوا البيوت من ابوابها » (البقرة ١٨٩) •

الحلة :

أما الحلة فكانوا فى قول السكرى يحرمون الصيد فى النسك ولا يحرمونه فى غير الحرم ويتواصلون فى النسك ويمنح الغنى ماله أو أكثره فى نسكه فيسلأ فقرائهم السمنة ويجتزون من الاصواف والاوبار والاشعار ما يكتفون به ولا يلبسون فى نسكهم الجدد ولا يدخلون من باب دار ولا من باب بيت ولا يأويهم ظل ما داموا محرمين وكانوا يدهنون ويأكلون اللحم وأخصب ما يكونون أيام نسكهم ، فاذا دخلوا مكة بعد فراغهم تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم ثم اشتركوا فى ثياب الحمس تنزيها للكعبة أن يطوفوا حولها الا فى ثياب جدد ، ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء ، يباشرونها بأقدامهم ، فان لم يجدوا ثيابا

---

(١١) الازرقى : ج ٢ ص ١٥٨ •

(١٢) الازرقى : ج ١ ص ١١٦-١١٧ انظر ايضا تفسير الطبرى ج ٢ ص ١٦٨-١٧٠ الواحدى : أسباب النزول ص ٣٦ •

طافوا عراة • وكان لكل رجل من الحلة حرص من الحمس يأخذ ثيابه فمن لم يجد ثوبا طاف عريانا وانما كانت الحلة تستكرى الثياب للطواف فى رجوعهم الى البيت ، لانهم كانوا اذا خرجوا حجاجا لم يستحل أن يشتروا شيئا ولا يبيعوه حتى يأتوا منازلهم ، الا اللحم • وكان رسول الله (ص) حرص عياض بن حمار المجاشعى اذا قدم مكة طاف فى ثياب رسول الله[١٣] (ص) •

يتبين مما تقدم ان الحلة لم تكن تتقيد بما تتقيد به الحمس ، ولعل هذا هو السبب الذى اغفل فيه كافة المؤرخين والرواة الذين لم يذكروا صنف الطلس صفاتهم ودمجوهم باهل الحلة • ويلاحظ من هذه الاوصاف ايضا ان الحمس لم يكونوا يقومون بأعمال البدو والرعاة من اقط الاقط وسل السمن والزبد أو غزل الشعر والوبر مما يختص به البدو • ولا ريب ان اهل مكة وهم جوهر الحمس وأساسه ولم يكونوا رعاة على ان الخلافين الرئيسين بين الحلة والحمس : اولهما الوقوف فى عرفة عند بداية الحج وهو ما لم تكن تفعله الحمس ، لان عرفة تقع خارج حرم مكة • والثانى هو لباس الاحرام •

وفى لباس الاحرام تختلف الروايات اختلافا كبيرا فيروى ابن عباس انه كانت الحلة تطوف بالبيت اول ما يطوف الرجل والمرأة فى اول حجة يحجها عراة وكانت بنو عامر بن صعصعة وعك ممن يفعل ذلك فكانوا اذا طافت المرأة منهم عريانة تضع احدى يديها على قبلها والاخرى على دبرها ثم تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدى منه فلا احله

فكانت قبائل من العرب من بنى عامر وغيرهم يطوفون فى البيت عراة الرجال بالنهار والنساء فى الليل ، فاذا بلغ احدهم باب المسجد قال للحمسى من يعير مصونا ؟ من يعير معوزا ؟ فان اعاره احمسى ثوبه طاف به والا القى ثيابه بباب المسجد ثم دخل للطواف فطاف بالبيت سبعة ، فكانوا يقولون لا تطوفوا فى الثياب التى فارقنا فيها الذنوب ، ثم يرجع الى ثيابه فيجدها لم تحرك • وكان بعض نسائهم تتخذ سيورا متعلقة فى حقوتها وتستر بها حقوتها ، الا ان يتكرم منهم متكرم فيطوف فى ثيابه فان طاف فيها لم يحل له أن يلبسها ابدا ولا ينتفع بها ويطرحها

---

(١٣) المحبر : ص ١٨٠-١٨١ .

لقا ، واللقا هى الثياب التى يطوفون فيها يرمون بها بباب المسجد فلا يمسها احد من خلق الله حتى تبليها الشمس والامطار والرياح ووطء الاقدام وفيه يقول ورقة بن نوفل الاسدى :

كفى حزنا كرى عليـــه كأنه لقى بين ايدى الطائفين حريم(١٤)

أما مجاهـد فيروى انه كان مما سـنوا به انه اذا حج الصرورة من غـير الحمسـى ، رجـلا كان أو امرأة ، لا يطوف بالبيت الا عريانا ، الصرورة أول ما يطوف فى ثوب احمسى ، اما عارية او اجارة يقف احدهم بباب المسجد فيقول من يعير مصونا ؟ من يعير ثوبا ؟ فان اعاره احمسى ثوبا أو اكراه طاف به وان لم يعيره القى ثيابه بباب المسجد من خارج ثم دخل الطواف وهو عريان يبدأ باساف فيستلمه ثم يستلم الركن الاسود ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبـة عن يمينه فاذا ختم طوافه سبعا استلم الركن ثم استلم نائلة فيختم بها طوافه ، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس فيأخذها فيلبسها ولا يعود الى الطواف بعد ذلك عريانا • ولم يكن يطوف بالبيت عريانا الا الصرورة من غير الحمس • فأما الحمس فكانت تطوف فى ثيابه فان تكرم متكرم من رجل أو امرأة من غير الحمس ولم يجد ثياب احمسى يطوف فيها ومعه فضل ثياب يلبسها غير ثيابه التى عليه فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحلة فاذا فرغ من طوافه نزع ثيابه ثم جعلها لقا يطرحها بين اساف ونائلة فلا يمسـها احد ولا ينتفع بهـا احد حتى تبلى من وطء الاقدام والشمس والرياح والمطر(١٥) وقد انزل القرآن لتحريم ذلك آية • « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين • قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبـات من الرزق • قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة » (الاعراف ٣١-٣٢) •

الطلس :

أما الطلس فيقول السكرى انهم بين الحلة والحمس يصنعون فى احرامهم

---

(١٤) الازرقى : ج ١ ص ١١٧-١١٨ • أما عن الطواف عراة فراجع تفسير الطبرى : ج ٢ ص ١٧٠ ج ٨ ص ١٢٠ ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ٤١ لسان العرب ج ١٥ ص ٩ البخارى : كتاب الحج : الباب ٩١ •

(١٥) الازرقى : ج١ ص١١٤ وراجع عن الصرورة لسان العرب ج٦ ص١٢٣

ما يصنع الحلة • ويصنعون فى ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنع الحمس • وكانوا لا يتعرون حول الكعبة ولا يستعيرون ثيابا ويدخلون البيوت من أبوابها وكانوا لا يئدون بناتهم وكانوا يقفون مع الحلة ويصنعون ما يصنعون[١٦] • ومن هذا يتبين ان الطلس هم كالحلة سوى انهم لا يتقيدون بالالبسة أو فى الدخول بالبيوت •

مراسيم الحج :

لدينا معلومات مفصلة نسبيا عن الحج فى مكة ، وقد اجمل الازرقى وصفه فى كتابه (اخبار مكة) فقال : (فاذا كان الحج من الشهر الذى يسمونه ذا الحجة خرج الناس الى مواسمهم ، فيصبحون بعكاظ يوم هلال ذى القعدة فيصبحون به عشرين ليلة تقوم فيها اسواقهم بعكاظ • والناس على مداعيهم ورياتهم منحازين من المنازل ، تضبط كل قبيلة اشرافها وقادتها ، ويدخل بعضهم فى بعض للبيع والشراء ، ويجتمعون فى بطن السوق • فاذا مضت العشرون انصرفوا الى ذى المجنة فأقاموا بها عشرا اسواقهم قائمة ، فاذا رأوا هلال ذى الحجة انصرفوا الى ذى المجاز فأقاموا به ثمان ليال اسواقهم قائمة ، ثم يخرجون يوم الترويه من ذى المجاز الى عرفة فيتروون ذلك اليوم من الماء بذى المجاز وانما سمى يوم الترويه[١٧] ، لترويهم من الماء بذى المجاز ، ينادى بعضهم بعضا تروا من الماء لانه لا ماء بعرفة ولا بالمزدلفة يومئذ • وكان يوم التروية آخر اسواقهم • وانما يحضر هذه المواسم بعكاظ ومجنة وذى المجاز التجار ـ من كان يريد التجارة • ومن لم يكن له تجارة ولا بيع فانه يخرج من اهله متى أراد • ومن كان من اهل مكة ممن لا يريد التجارة خرج من مكة يوم الترويه • فتنزل الحمس أطراف الحرم من نمرة يوم عرفة وتنزل الحلة عرفة • فاذا جاؤا عرفة اقاموا بها يوم عرفة ، فتقف الحلة على الموقف من عرفة[١٨] عشية عرفة ، وتقف الحمس على أنصاب الحرم من نمرة ، فاذا دفع الناس من عرفة وأفاضوا أفاضت الحمس من

---

(١٦) المحبر : ص ١٨١ •

(١٧) عندما قرن الرسول بين العمرة والحج ؛ أتم العمرة ثم أهل للحج يوم التروية (البخارى كتاب الحج الباب ٢٧ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٨٢) •

(١٨) يلاحظ ان عرفة ليست من الحرم •

انصاب الحرم وأفاضت الحلة من عرفة حتى يلتقوا بمزدلفة جميعا • وكانوا يدفعون من عرفة اذا طفلت الشمس للغروب وكانت على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال فى وجوههم • فاذا كان هذا الوقت دفعت الحلة من عرفة ودفعت معها الحمس من أنصاب الحرم حتى يأتوا جميعا مزدلفة فيبيتون بها حتى اذا كانت فى الغلس وقفت الحلة والحمس على قزح ، فلا يزالون عليه حتى اذا طلعت الشمس وصارت على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال فى وجوههم دفعوا من مزدلفة[١٩] ، وكانوا يقولون أشرق ثبير كيما[٢٠] نغير ، أى أشرق بالشمس حتى ندفع من المزدلفة ، فانزل الله فى الحمس « ثم افيضوا من حيث أفاض الناس » (البقرة ١٩٩) - يعنى من عرفة[٢١] - والناس الذين كانوا يدفعون منها اهل اليمن وربيعة وتميم[٢٢]) •

ان هذا النص يقف عند هذا الحد • على انه يمكن اكمال وصف الحج الجاهلى من دراسة مناسك الحج الإسلامى فالمعروف ان ابراهيم الخليل هو الذى سن مناسك الحج[٢٣] ويقول ابن الكلبى فى المشركين (وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم واسماعيل يتنسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة واهداء البدن والاهلال بالحج والعمرة مع ادخالهم فيه ما ليس منه[٢٤]) وهذا يدل على ان طقوس الحج الاسلامى ما سبقتها مع تنقيتها من الشوائب وجعلها لله تعالى •

وقد أشار القرآن الكريم الى الحج الاسلامى فى سورة البقرة فقال تعالى

---

(١٩) كان يجيزهم صوفه انظر ص ٩٤-٩٥ •

(٢٠) يقول الشافعى انه فى الاسلام (قدم الله المزدلفة قبل أن تطلع الشمس وأخر عرفة الى أن تغيب الشمس) (الام ج ٢ ص ١٨٠) •

(٢١) انظر ايضا الازرقى : ج ٢ ص ٢٢٦ البخارى : كتاب الحج : الباب ١٠٠ الترمذى كتاب الحج : الباب ٦٠ • ابن حنبل ج ١ ص ٣٩ ، ٤٢ ، ٥٠ ، ٥٢

(٢٢) الازرقى : ج ١ ص ١٢١-١٢٣ •

(٢٣) الازرقى : ج ١ ص ٢٨ فما بعد •

(٢٤) الاصنام : ص ٦ •

« ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فاذا افضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وان كنتم من قبله لمن الضالين ثم افيضوا من حيث افاض النـاس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم • فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو اشد ذكرا واذكروا الله فى ايام معدودات فمن تعجل فى يومين فلا اثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليه لمن اتقى » (البقرة ١٩٨-٢٠٠) •

ويروى الطبرى فى تفسير الجملة الاولى انهم لم يكونوا يتبايعون فأباح تعالى ذلك فى الاسلام كما انه نقل عن قتادة انه « كان هذا الحى من العرب لا يرجون على كسـير ولا ضالة لليلة النفر وكانوا يسـمونها ليلة الصدر ولا يطلبون تجارة ولا بيعا فأحل الله عز وجل ذلك كله[٢٥] » •

والمشعر الحرام هو ما بين جبلى المزدلفة[٢٦] أى وادى محسر • وكانت تسمى جمع[٢٧] ، وفيه قزح الذى كان يتجمع فيه الناس ، وكانت عليه اسطوانة من حجارة مدورة يبلغ محيطها اربع وعشرون ذراعا وعلوها اثنى عشر ذراعا ، وهى على أكمة عالية[٢٨] ، وكانت توقد عليه النيران منذ زمن قصى[٢٩] •

أما الافاضة فقـد بينـا من قبل ان الحمس كانت لا تقف فى عرفة قبـل الاسلام[٣٠] ، وقد أمرهم تعالى أن يقفوا فى عرفة ، وهـذا يشير الى ان الناس كانت تتجمع وتفيض حسب القبائل ، أى تقف كل قبيلة على حدة وتفيض متكتلة ، اذ ان ذلك أكثر ملائمة لروح التنظيم الاجتماعى الجـاهلى القائم على الاسس

---

(٢٥) تفسير الطبرى : ج ٢ ص ١٦٥ •

(٢٦) معجم البلدان : ج ٤ ص ٥٤٠ •

(٢٧) الازرقى : ج ١ ص ٥٨ معجم البـلدان ج ٢ ص ١١٨ البـكرى : معجم ما استعجم ص ٣٩٢-٣ •

(٢٨) انظر الازرقى : ج ١ ص ٣٢ ، ١٢٣ ج ٢ ص ١٥١ ، ١٥٤ معجم البلدان : ج ٤ ص ٥٢ ، ٨٥ •

(٢٩) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤١ ج ٤ قسم ٢ ص ٦٩ وانظر ايضا الازرقى : ج ٢ ص ١٥١ معجم البلدان ج ٤ ص ٨٥ •

(٣٠) انظر ص ١٨٦ •

القبلية ، ومما يؤيد هذا ان الانصار لم تكن تسعى بين الصفا والمروة[٣١] .

يتضح من هذه الآية انه بعد الافاضة الى المشعر الحرام تقضى المناسك أى تذبح الذبائح[٣٢] . وهى تذبح فى منى قرب المشعر الحرام[٣٣] .

لقد أمر تعالى المسلمين بعد أن يقضوا المناسك أن يذكروا الله كذكرهم لآباءهم ، ويذكر الطبرى فى سبب نزولها ان اهل الجاهلية كانوا اذا قضوا مناسكهم وقفوا عند الجمرة وذكروا أيامهم فى الجاهلية وفعال آباءهم[٣٤] وفى سورة البقرة آية اخرى توحى بأنه كان يجرى على أثر الحج جدال « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج » (البقرة ١٩٧) ويذكر الازرقى ان فى مكة شعب يسمى صفى السباب[٣٥] . وكل هذا يلقى ضوءا على ما كان يتم فى أواخر الحج من جدل ونقاش وتفاخر .

ان الايام المعدودات التى أشارت اليها الآية الكريمة السابقة هى ايام التشريق وهى تسمية غير واضح اصلها فيقول ابن منظور (... كانت الشمس تسمى الشارق ... وشرقت اشرقت اللحم شبرقته طولا وشررته فى الشمس ليجف لان لحوم الاضاحى كانت تشرق فيها بمنى .... وتشريق اللحم تقطيعه وتقديده وبسطه ومنه سميت أيام التشريق . وأيام التشريق ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، لان لحم الاضاحى يشرق فيه للشمس أى يشرر ، وقيل سميت بذلك لانهم كانوا يقولون فى الجاهلية أشرق ثبير كيما نغير ، الاغارة الدفع ، أى ندفع للنفر . حكاه يعقوب . وقال ابن الاعرابى سميت بذلك لان الهدى والضحايا

---

(٣١) انظر ص ١٥٩ .

(٣٢) انظر عن معنى النسك : تفسير الطبرى ج ٢ ص ١٣٧ لسان العرب ج ٢٢ ص ٣٨٩ .

(٣٣) لقد روى عن الرسول انه قال كل منى منحر : انظر كتاب الحج فى : البخارى الباب ١١٦ مسلم الباب ١٤٩ انظر ايضا ابن حنبل ج ١ ص ٧٦ ، ٨١ ، ٩٨ ، ١٥٦ ج ٣ ص ٣٢٠ ج ٤ ص ٨٢ .

(٣٤) تفسير الطبرى : ج ٢ ص ١٧٢-١٧٤ .

(٣٥) الازرقى : ج ٢ ص ٢٢١ .

لا تنحر حتى تشرق الشمس اى تطلع وقيل بل سميت بذلك لانها كلها ايام تشريق لصلاة يوم النحر قال وهذا أعجب القولين لى . وكان أبو حنيفة يذهب بالتشريق الى التكبير ولم يذهب اليه غيره ... وكانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس فخالفهم رسول الله ... وفى حديث مسروق انطلق بنا الى مشرقكم يعنى المصلى وسأل اعرابى اين منزل المشرق يعنى الذى يصلى فيه والمشرق العيد سمى بذلك لان الصلاة فيه بعد الشرقة أى الشمس وقيل المشرق مصلى العيد بمكة وقيل مصلى العيد ولم يقيد بمكة[٣٦] ...) .

يتبين من هذا الشرح المجمل مدى عدم وضوح اصل تسمية التشريق ، وان كان جذرها اللغوى يحمل على الاعتقاد بصلتها بشروق الشمس ، كما توضح ذلك بعض التفاسير التى اوردها ابن منظور .

لقد ورد فى القرآن الكريم « ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » (البقرة ١٥٨) ويروى الطبرى ان سبب نزولها هو ان الانصار لم تكن تطوف بهما[٣٧] . والواقع ان صيغة الآية توحى بأن الطواف لم يكن فرضا .

ان الآية الكريمة التى ذكرناها من قبل عن طقوس الحج لا تذكر زيارة الكعبة وقد حمل ذلك بعض الباحثين ومنهم ولها وزن الى القول بأن زيارة الكعبة لم تكن قبل الاسلام ضمن طقوس الحج[٣٨] . وهو رأى غير مضبوط لان القرآن أشار الى حج البيت فى آيتين « فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف

---

(٣٦) لسان العرب : ج ١٢ ص ٤٠-٤٣ انظر ايضا مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٠ أما عن ذكر ايام التشريق فى الاحاديث النبوية فانظر عن مواضعها فى فنسنك الفهرس المفصل لالفاظ الحديث النبوى مادة شرق .

(٣٧) تفسير الطبرى : ج ٢ ص ٢٩ . ويذكر الطبرى فيها روايات بأن المسلمين أرادوا ترك السعى بين الصفا والمروة لما كان عليهما فى الجاهلية من اصنام فأمرهم تعالى بالطواف لانها من شعائر الله .

(٣٨) انظر رأيه فى المقال الذى كتبه باريت فى دائرة المعارف الاسلامية عن العمرة .

بهما » (بالصفا والمروة) (البقرة ١٥٨) « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » (آل عمران ٩٧) ويتجلى من الآية الاولى ان حج البيت يختلف عن العمرة كما ان الآيتين تبينان ان الحج للبيت[٣٩] . وقد رأينا فيما سبق القيود التى كانت تفرضها قريش على ألبسة الطائفين بالبيت . غير اننا لا نعلم متى كانت تتم زيارة البيت . وان كان وصف الازرقى للحج الجاهلى يوحى بأن زيارة البيت كانت تتم بعد ايام التشريق .

العمرة :

يروى ابن الكلبى ان العرب قد ظل فيهم من دين ابراهيم بقايا منها العمرة[٤٠] ، الامر الذى يدل على قدمها . وقد وردت العمرة فى القرآن فى سورة البقرة « واتموا الحج والعمرة لله فان احصرتم فيما استيسر من الهدى ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله فمن كان منكم مريضا أو به اذى فى رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فاذا آمنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة ايام فى الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن اهله حاضرى المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا ان الله شديد العقاب » (البقرة ١٩٦) كما ورد فى القرآن ايضا « ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فان الله شاكر عليم » (البقرة ١٥٨) .

ان هاتين الآيتين تذكران العمرة باعتبارها مؤسسة متميزة عن الحج ومختلفة عنه . كما ان الآية الاخيرة توضح ان السعى بين الصفا والمروة لم يكن جزءا من الحج والعمرة قبل أن يأمر بها الاسلام . غير انهما لا توضحان طريقة العمرة أو موعدها .

وتلقى كتب الحديث ضوءا كبيرا على العمرة كما كانت فى عهد الرسول كما تشير الى التغييرات التى ادخلها على العمرة . ومن هذه الإشارات يمكن أن نستنبط ما كانت عليه العمرة الجاهلية . والواقع ان الرسول اعتمر ثلاث مرات

---

(٣٩) انظر ص ١٧٥ .
(٤٠) الاصنام : ص ٤ .

وقرن الحج بالعمرة فى حجة الوداع[٤١] وأشار على المعتمرين من اصحابه أن يحلوا بعد الطواف اذا لم يكن معهم هدى[٤٢] ، الامر الذى يحمل على الاعتقاد بأن العمرة لم يكن من شروطها الاساسية الهدى والاضاحى .

لقد طاف الرسول فى العمرة بالبيت سبع مرات ثم طاف بين الصفا والمروة سبع مرات ثم أحل وبذلك انتهت العمرة . فالعمرة اذا كانت الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة . وجدير بنا أن نشير الى أن السعى بين الصفا والمروة لم يكن عاما فى القبائل فلم تكن الانصار تقوم به وقد أدخله القرآن كجزء من الحج والعمرة فى آية البقرة (١٥٨) التى ذكرناها آنفا ولابد من ملاحظة ان الآية التى تذكر الصفا والمروة تشير الى انه « لا جناح عليه أن يطوف بهما » أى لا مانع وهو تعبير قد يوحى بالاباحة لا بالزام . والواقع ان البخارى يشير الى ان بعض الناس فهموا ذلك وسألوا عائشة عنه فأجابت بأن هذه الاباحة تقتضى الالزام[٤٣] . وان تساؤلهم قد يحملنا على الاعتقاد بأن السعى والطواف بين الصفا والمروة لم يكن فى الجاهلية ملزما أو جزءا من العمرة ، وان العمرة كانت متصلة بزيارة الكعبة فحسب .

لقد وصفت كتب الحديث كيفية طواف النبى فيقولون انه رحل ثلاثا (أى خب أو هرول) ومشى أربعا[٤٤] كما يروون انه قبل الحجر الاسود[٤٥] وانه

---

(٤١) روى البعض ان الرسول اعتمر ثلاثا ، ويروى آخرون انه اعتمر اربع مرات ، ويروى فريق ثالث انه اعتمر مرتين . ويروى كذلك انه اعتمر فى رجب ، وينفى آخرون انه اعتمر فى رجب . انظر الى هذه الاحاديث ومواضعها من كتب الصحاح الستة : مفتاح كنوز السنة مادة عمرة .

(٤٢) ابن حنبل : ج ١ص ٢٣٦ ، ٢٥٣ ، ٣٤١ ج ٢ ص ٤ ، ١٢ ، ٤١ ، ٦٥ ، ١٥١ ج ٣ ص ٧١ ، ٧٥ .

(٤٣) تفسير الطبرى : ج ٢ ص ٢٩ . ويقول مالك « من افاض فقد قضى الله حجه » (موطأ ج ١ ص ٢٢٦) .

(٤٤) البخارى : كتاب الحج : الباب ٥٥ . كتاب المغازى الباب ٤٣ ابن حنبل ج ٢ ص ٤٠ ، ٥٩ ، ٧١ ، ١٠٠ ، ١١٤ ، ١٢٣ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ج ٥ ص ٤٥٥ ، ٤٥٦ .

(٤٥) البخارى : كتاب الحج : الباب ٥٠ ، ٥٧ ، ٦٠ ابن حنبل ج ١ ص ١٦ ، ٢١ ، ٣٤ ، ٣٩ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٤ .

استلم الركن اليمانى[٤٦] . ويذكر البخارى أحاديث تشير الى أن الرمل كان مظاهرة امام كفار قريش لاظهار قوة المسلمين البدنية بعد أن شاع ان الحمى قد أنهكتهم[٤٧] ، الامر الذى يدل على ان الرمل لم يكن أساسيا قبل ذلك .

لقد قام الرسول بعمراته فى ذى القعدة وشوال وفى ذى الحجة ويروى البخارى انه « قدم النبى واصحابه صبيحة رابعة (من ذى الحجة) مهلين بالحج فأمرهم أن يجعلوها عمرة فتعاظم ذلك عندهم » فقالوا يا رسول الله أى الحل قال حل كله[٤٨] ، ويروى ابن عباس انه ما اعمر رسول الله عائشة ليلة الحصبة الا قطعا لامر اهل الشرك كما يروى انهم (اى المشركين) (كانوا يرون العمرة فى اشهر الحج من افجر الفجور فى الارض ويجعلون المحرم صفر ويقولون اذا برد الدبر وعفا الاثر ودخل صفر فقد حلت العمرة لمن اعتمر[٤٩]) .

واضح من هذه النصوص ان جعل النبى العمرة فى ذى الحجة كان ضد التقاليد الجاهلية وانها كانت بعد شهر المحرم أى فى صفر .

لم يكن يباح للحائض القيام بالعمرة ولكن كان يباح لها الحج[٥٠] .

الهدايا :

ذكر القرآن ان المشركين كانوا يقدمون بعض مدخولاتهم للآلهة « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان

---

(٤٦) يروى ان النبى لم يستلم الركنين الغربيين من الكعبة : انظر ابن حنبل ج ١ ص ٣٧ ، ٤٥ ، ٧٠ ، ٢١٧ ، ٢٤٦ ، ٣٣٢ ، ٣٧٢ ج ٢ ص ٣ ، ١٧ ، ٨٩ ، ١١٠ ج ٤ ص ٩٧ ، ٩٨ ويروى انه استلم الركن بالمحجن البخارى : كتاب الحج : الباب ٥٨ ابن حنبل ج ١ ص ٢١٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤٨ ج ٥ ص ٤٥٤ .

(٤٧) البخارى : كتاب المغازى : الباب ٤٣ .

(٤٨) البخارى : كتاب الحج : الباب ٣٤ .

(٤٩) ابن حنبل : ج ١ ص ٢٥٢ ، ٢٦٢ .

(٥٠) موطأ : ج ١ ص ٢٤٩ ، ٢٦٦ ، ٢٨٦ البخارى : كتاب الحج : الباب ٣١ ، ٣٤ ، ٧٧ ، ٨١ . وانظر مقال باريت عن العمرة فى دائرة المعارف الاسلامية .

لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون » (الانعام ١٤٦) ويتبين من هذه الآية انه كانت هناك حصة معينة ثابتة يجب على العباد دفعها سواء كانوا زراعا او اصحاب مواشى • وكانت هذه الاموال المخصصة للآلهة توزع بين الاله الاكبر والآلهة الصغرى • فهم فيه شركاء ومع انه القرآن لا يشير الى كيفية توزيع هذه الاموال أو ما يخصص لكل من الاله الاكبر وللآلهة الصغرى الا ان الراجح ان حصة الاله الاكبر هى اكبر من حصة الالهة الصغرى •

وتشير هذه الآية الى سوء التصرف بهذه الاموال المخصصة فان حصة الاله الاكبر كانت تعود بدورها فتصرف للآلهة الصغرى وهم شركاؤها ، وبذلك لايقدم للاله الاكبر شيء • ولكن واضح من هذه الآية ان هذه الاموال هى اجبارية او شبه اجبارية ، وانها تصرف للآلهة ، اذ ان كلمة الشركاء فى هذه الآية يقصد بها الصغرى التى كانوا يدينون بها • ويزعم ابن الكلبى ان هذه الآية نزلت فى حق الصنم عميانس الذى كان لخولان(٥١) • غير ان نص الآية لا يدل على هذا التخصيص مطلقا ثم انه لم يثبت لدينا ان خولان كانت تدين بعبادة الله وتشرك به فالراجح ان تعليله غير صحيح •

لقد فرض قصى ضريبة الرفادة على اهل مكة لتصرف على الآلهة كما كانت تقدم للآلهة ايضا هدايا • والراجح ان القرآن فى هذه الآية يشير الى هذه الضريبة والهدايا التى كانت تقدم لله ولمن اشركوهم به ولكنها تصرف عمليا على بقية الآلهة• والواقع اننا لا نسمع باهتمام مشركى قريش والعرب بعبادته تعالى بل كانوا يكفرون به وينكرون ما انعم عليهم ويهتمون بالآلهة الاخرى فبما انه تعالى كان الاله الاكبر بعقائد المشركين من اهل مكة وبما انهم كانوا يكفرون به فالراجح ان هذه الآية كانت تنطبق على اعمالهم وهى تتفق مع المقصود بكلمة الكفر بمعناها القرآنى •

أنواع الهدايا :

لقد كانت الهدايا التى تقدم للآلهة منوعة ، وهى تتوقف على وسيلة التبادل الاقتصادى ففى المجتمع الذى يقوم التبادل فيه على النقود تكون الهدايا من النقود

---

(٥١) الاصنام : ص ٤٣-٤٤ •

او المعادن الثمينة ؛ وفى المجتمع الزراعى تكون الهدايا من المحاصيل النباتية وفى المجتمع الرعوى تكون الهدايا من المواشى ٠

ففى مكة كان فى الكعبة بئر ترمى فيه الهدايا[٥٢] ، مما يدل على انها كانت تقدم من النقود او الالبسة او المعادن الثمينة ، كما ان الضريبة التى فرضها قصى على الرفادة كانت بعضها يجبى بالنقود[٥٣] وهذا طبيعى فى ذلك المجتمع التجارى الذى اساس ثروته النقود ٠ اما هدايا الالبسة فتتجلى فيما كان يرميه اهل الحلة كما تحدثنا[٥٤] ٠

وهناك مناطق تقدم لآلهتها هدايا من المحاصيل النباتية وقد ذكرنا من قبل آية سورة الانعام التى يقول فيها تعالى « وجعلوا لله مما ذرا من الحرث والانعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا » (الانعام ١٣٦) وهو ذكر صريح الى ان بعض التقدمات تكون من المحاصيل النباتية ٠ وقد ذكرنا ايضا ان ذا الخلصة كانوا يهدون اليهـا الشعير والحنطة[٥٥] ، وهى من المحاصيل الوافرة فى وادى بيشة حيث يقع بقربه هذا الصنم ٠

ويروى انه كان لبنى حنيفة صنم من تمر فأصابتهم مجاعـة فأكلوه فقـال الشاعر يعيرهم فى ذلك :ـ

أكلت حنيفة ربهـا يوم التمحل والمجاعة

ولا ريب انه لا يعقل صنع صنم من تمر نظرا لان هذا الثمر لا يمكن أن يدوم طويلا ٠ والارجح ان التمر المأكول هو الهدايا التى قدمت للآلهة ٠ ومن المعقول أن تقدم بنو حنيفة التمر لتوفر النخيل فى بلادهم ٠

ولما كانت اغلب بلاد الجزيرة صحارى ومراعى تقوم الحياة الاقتصادية فيها على الرعى والمواشى وخاصة من الابل والغنم فمن المحتم أن تكون اغلب الهدايا

---

(٥٢) انظر ص ١٧٩ ٠
(٥٣) انظر ص ٩٨ ٠
(٥٤) انظر ص ٧٩ـ٨٠ ٠
(٥٥) انظر ص ١٦٥ ٠

هذه الحيوانات وخاصة الحيوانات الداجنة .

لقد ذكر القرآن انواعا من الهدايا الجاهلية فى معرض الانكار لها « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب واكثرهم لا يعقلون » (المائدة ١٠٣) .

البحيرة :

وقد اختلف الرواة فى شرح مفاهيم هذه الامور : فاما عن البحيرة فان قتادة والسدى والضحاك وابن عباس يقولون بأن البحيرة هى الناقة اذا انتجت خمس ابطن نحروا الخامس ان كان ذكرا ، أما اذا كان انثى فانهم يشقون اذنها ويستحبونها فلا يشربوا لبنها ولا يجزوا وبرها ولا يركبوا ظهورها ، فاذا ولدت ولدا ميتا أو ماتت تشترك فى اكل اللحم النساء والرجال أما الولد الخامس فلا يأكل لحمه الا الرجال . ويقول ابن المسيب ان البحيرة من الابل هى التى يمنع درها للطواغيت أما ابن الاحوص فيقول ان البحيرة هى التى ولدت خمسة ابطن ثم تركت .

السائبة :

أما السائبة فيعرفها الزهرى وقتادة وابن عباس وابى الاحوص والسدى والضحاك بأنها ما يسيبه الرجل من الانعام فلا يعرض لها احد حيثما حلت . أما مجاهد فيقول ان السائبة هى ما ولدت من ولد بينها وبينه ستة اولاد كان على هيئتها فاذا ولدت فى السابع ولدا ذكرا أو انثى أو ذكرين ذبحوهم فأكله رجالهم دون نساءهم .

الحامى :

أما الحامى فهو الفحل من الابل الذى يلقح عشرة فينتج له عشرة اولاد فى رواية قتادة وابن عباس والسدى أو اذا ركب اولاد اولاده على ما يروى الشعبى والضحاك وهو بذلك يترك فلا يركب ظهره ولا يجز وبره .

الوصيلة :

أما الوصيلة فالخلاف على تعريفها واسع فيقول الزهرى انها التى تأتى بولدين متتابعين انثى فتذبح للطواغيت أو تجدع ، وفى رواية اخرى انها اذا

اتامت بطنا بذكر وانثى قيل وصلت الانثى اخاها بدفعها عنه الذبح ، ويروى الشعبى انها اذا ولدت اربعة ابطن ثم ولدت الخامس ذكرا أو انثى وصلت اخاها .

ويقول الضحاك وقتادة ان الوصيلة هى الشاة اذا ولدت سبعة ابطن ذبحوا السابع اذا كان جديا ، وان كان عناقا (انثى) فاستحيوه ، وان كان جديا وعناقا استحيوهما كليهما ، وقالوا ان الجدى وصلته اخته فحرمته علينا . ويزيد قتادة ان الجدى السابع يأكله الرجال دون النساء وانه اذا كان البطن السابع ميتا اشترك فى أكله النساء والرجال . أما السدى فيقول ان الوصيلة من الغنم هى الشاة اذا ولدت ثلاثة ابطن أو خمسة فكان آخر ذلك جديا ذبحوه واهدوه لبيت الآلهة وان كانت عناقا استحيوها وان كانت جديا وعناقا استحيوا الجدى من اجل العناق فانها وصيلة وصلت اخاها[٥٦] .

رأى ابن اسحاق :

ولابن اسحاق فى هذه الاشياء تعريفات تختلف عما ذكرنا فهو يقول « ان السائبة الناقة اذا تابعت بين عشر اناث ليس بينهن ذكر سيبت فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها الا ضيف . أما البحيرة فهى بنت السائبة فما نتجت السائبة بعد البطن العاشر من انثى شقت اذنها ثم خلى سبيلها مع امها ، فلم يركب ظهرها ، ولم يجز وبرها ، ولم يشرب لبنها الا ضيف . أما الوصيلة فهى الشاة اذا تأمت عشر اناث متتابعات فى خمسة ابطن ليس بينهن ذكر جعلت وصيلة ، قالوا قد وصلت ، فكأن ما ولدت بعد ذلك للذكور منهم دون اناثهم الا أن يموت منها شىء فيشتركوا فى أكله ذكورهم واناثهم . أما الحامى فهو الفحل اذا انتج له عشر اناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمى ظهره فلم يركب ظهره ولم يجز وبره وخلى فى ابله يضرب فيها ولا ينتفع منه بغير ذلك » . غير ان ابن هشام لا يرى ابن اسحق ويقول معلقا (وهذا كله عند العرب على غير هذا الا الحامى فانه عندهم على ما قال ابن اسحق[٥٧]) .

---

(٥٦) تفسير الطبرى : ج٧ ص٥٧-٦٠ انظر ايضا المحبر ص ٣٣٠-٣٣٢ .
(٥٧) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٥١ .

وقد أشار القرآن الى الهدايا الجاهلية فى عدة آيات منها الآية (١٠٣) من سورة المائدة التى ذكرناها قبلا وكذلك قوله تعالى « وقالوا ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم » (الانعام ١٣٩) « قل أرأيتم ما انزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل الله اذن لكم ام على الله تفترون » (يونس ٥٩) « من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل الذكر حرم ام الانثيين ام ما اشتملت عليه ارحام الانثيين انبؤنى بعلم ان كنتم صادقين • ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين قل الذكر حرم ام الانثيين ام ما اشتملت عليه ارحام الانثيين ام كنتم شهداء ان وصاكم الله بهذا فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ان الله لا يهدى القوم الظالمين » (الانعام ١٤٣ - ١٤٤) •

الاضاحى :

لقد ذكرنا فى بحث التنظيمات الاجتماعية ان العرب قبيل ظهور الاسلام كانوا يعتقدون ان الاشتراك فى الطعام يولد أو يقوى العلاقات بين الكائنات ، ويخلق أو يثبت الالتزامات الاجتماعية المتبادلة • فالاشتراك فى اكل الخبز والملح كان يؤدى الى خلق نوع من الحلف المعنوى ، وهى فكرة لا يزال يدين بها الكثير من الناس حيث يستهجنون خيانة من يأكل الزاد عندك وعدم تأييده لك • ومن الوصمات الشنيعة عند كثير من الناس حتى اليوم أن يتهم شخص بأنه خان الملح والعيش (الخبز أو الاكل) ويروى الاصفهانى ان زيد الخيل ابى أن يقتل لصا لان هذا اللص شرب من قربة ابيه قبل السرقة[٥٨] •

فاذا كان الطعام المشترك يولد بين الناس مثل هذا الحلف والتعاون المتبادل بينهم فاحرى به أن يخلق مثل ذلك بين الناس والآلهة ، اى اذا اشتركوا فى طعام واحد فيصبحوا متحالفين ، وعلى كل فريق منهم أن يعين الآخر ويساعده فى الشدائد والملمات •

ولقد ذكرنا انه كان للدم اهمية كبرى فى العلاقات الاجتماعية ، فالدم

---

(٥٨) الاغانى : ج ١٦ ص ٥١ •

المشترك يستلزم التعاون والنصرة المشتركة • وليس من الضرورى أن تكون علاقة الدم طبيعية بالوراثة ، بل يمكن خلقها بأن يلعق الفرد من دم الآخر أو يشتركان بلعق دم من اناء واحد ، كما حدث ذلك فى حلف لعقة الدم الذى حدث فى مكة عندما تأزم الوضع بين هاشم وبنى عبدالدار • فاذا اشترك الاله مع القبيلة فى الاكل أو فى شرب الدم فانه تتكون بينهما علاقة دم تستلزم كل فريق ان يدافع عن الآخر وينصره ويؤيده •

ولنلاحظ ان العشيرة كلها كانت تشترك فى الاصل او فى العبادة ، فاذا اشتركوا فى الاكل كان ذلك توثيقا للعلاقة بينهم وتقويه لتكتلهم ولتماسكهم • واذا قدمت الضحية للاله فانه تعقد الصلة بينه وبين مقدم الضحية •

ويمكن تقديم الضحية فى مكان بعيد عن الاله ونصبه ، على أن يقدم على ما له صلة بالاله ؛ فقد روى ابن الكلبى انه ••• (كان الرجل اذا سافر فنزل منزلا اخذ اربعة احجار فنظر الى احسنها فاتخذه ربا ، وجعل ثلاث اثافى لقدره ، واذا ارتحل تركه فاذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك • فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون اليها ، وهم على ذلك عارفون بفضل الكعبة عليها يحجونها ويعتمرون اليها) •

الا ان خير مكان لتقديم الاضاحى هو حيثما تكون ، أو ينتظر ان تكون ، الآلهة وهو عادة عند الصنم أو النصب وقد أشار القرآن الكريم الى ما كان يذبح على النصب وحرم على المسلمين أكله (انظر سورة المادة الآية ٣) كما ذكر ابن الكلبى ان سعد صنم بن مالك وملكان الكنانيين كانت تهراق عليه الدماء[٥٩] ، وروى فى مكان آخر بعض الابيات التى تشير الى الذبائح التى تذبح على النصب[٦٠] وكثيرا ما يكون عند المذبح كهف أو حفرة يسيل فيها دم الضحية ويسمى الغبغب[٦١] ولعلهم كانوا يفهمون من ذلك ان الدم الذى يسيل فى

---

(٥٩) الاصنام : ص ٣٣ •

(٦٠) الاصنام : ص ٣٦ •

(٦١) الاصنام : ص ٢٠-٢١ •

الغبغب كان يذهب للاله فتنعقد الصلة بينه وبين مقدم الضحية

والضحايا عادة من ذوات الروح • ولا شك ان أروع الضحايا وأشدها وقعا هى التى تكون من البشر فقد قدم ابراهيم الخليل ابنه ضحية قربانا لله تعالى ، كما قدم عبدالمطلب ابنه عبدالله ضحية وقدم للمنذر بن ماء السماء اربعمائة ضحايا للعزى •

ولكن يجوز ابدال الضحايا البشرية بضحايا من الحيوان فان الله تعالى فدى ابن ابراهيم « بذبح عظيم » (الصافات ١٠٧) كما ان عبدالمطلب فدى ابنه بمائة من الابل(٦٢) •

فمن الطبيعى أن تكون أغلب الضحايا من الحيوانات الداجنة وهى تكون عادة من الاغنام أو البقر أو الجمال تبعا لتوفرها •

تقدم الاضاحى عادة فى مواسم العبادات كالحج وتسمى ضحايا الاغنام (العتائر(٦٣)) وكانت تقدم عادة فى رجب وتسمى الرجبية(٦٤) • ومع ان شهر رجب من الاشهر المقدسة وهو يقع فى اواخر الربيع الا ان المصادر التى بين ايدينا لا تتحدث عن سبب قدسيته أو ذبح العتائر فيه •

الهدى :

أما اضاحى الحج الى مكة فكانت تدعى الهدى وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم « واتموا الحج والعمرة لله فان احصرتم فما استيسر من الهدى ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله فمن كان منكم مريضا أو به اذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فاذا آمنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة ايام فى الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن اهله حاضرى المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا ان الله شديد العقاب » (البقرة ١٩٦) « يا ايها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الهدى ولا

---

(٦٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٦٧ •
(٦٣) الاصنام : ص ٣٤ •
(٦٤) ابن حنبل : ج٢ ص١٨٣ ، ج ٥ ص ٧٦ لسان العرب ج٦ ص٢١٠ •

القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم » (المادئدة ٢) « يا ايها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وانتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين • جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد » (المائدة ٩٥-٩٧) « هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا ان يبلغ محله » (الفتح ٢٥) •

ومع ان الهدى يمكن أن يكون من الشاة والبقر ، الا ان الغالب أن يكون من البدن أى الابل[٦٥] • وقد ورد ذكر البدن فى القرآن الكريم « والبدن جعلناها لكم من شعائر الله حكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون • لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » (الحج ٣٦) •

الاشعار والتقليد :

والبدن التى تهدى تشعر وتقلد ، فاما الاشعار فهو ان (يشق جلدها ويطعنها فى اسنمتها فى احد الجانبين بمبضع أو نحوه حتى يظهر منها الدم ويعرف انها هدى[٦٦]) • وقد وردت عدة احاديث ان الرسول اشعر البدن فى السنام الايمن[٦٧] • واما التقليد فهو (أن يجعل فى عنقها عروة مزادة أو خلق نعل فيعلم انها هدى وكانوا ايضا يقلدون بلحاء شجر الحرم يعتصمون بذلك من اعدائهم ، وكان المشركون يفعلون ذلك فأمر المسلمون بأ لا يحلوا هذه الاشياء التى يتقرب بها المشركون الى الله ثم نسخ ذلك[٦٨]) وقد رويت عدة احاديث عن

---

(٦٥) انظر لسان العرب : ج ٢٢ ص ٢٣٤ اما عن هدايا الشاة والبقر فى زمن الرسول فانظر عن مواضعها فى كتب الصحاح : فنسنك : الفهرس المفصل لالفاظ الحديث النبوى : مادة شاة ، بقر •

(٦٦) لسان العرب : ج ٦ ص ٨١-٨٢ •

(٦٧) ابن حنبل : ج ١ ص ٢١٦ ، ٢٥٤ ، ٢٨٠ ، ٣٣٩ ، ٣٣٤ ، ٣٤٧ ، ٣٧٢ انظر ايضا عن الاحاديث النبوية التى ورد فيها الاشعار : فنسنك : الفهرس المفصل لالفاظ الحديث النبوى مادة اشعر •

(٦٨) لسان العرب : ج ٤ ص ٣٦٩ •

تقليد بدن رسول الله التى اهداها للبيت وروى عن عائشة انها قالت (فتلت قلائد بدن رسول الله ثم قلدها واشعرها ثم وجهها الى البيت[٦٩]) • ومن المحتمل ان جلال البدن كانت تهدى للكعبة ؛ والواقع ان عبدالله بن عمر كان يجلل بدنه القباطى والانماط والحلل ثم يبعث بها الى الكعبة فيكسوها اياها ، فلما كسيت الكعبة صار يتصدق بها[٧٠] • ومن المحتمل ان الناس أو بعضهم ، كانوا يفعلون ذلك قبل الاسلام ايضا ويظهر انه لم يكن يباح ركوب الهدى من البدن فأمر النبى بركوبها حتى تصل الى المنحر •

ولقد كان تقليد البدن واشعارها يتم عند الاهلال اى عند بداية القيام بالسفر لاجل الحج ، وقد قلد الرسول بدنه واهل بها من الجعرانة وكانوا يسيرون بها الى الحج ، وبعد انجاز طقوسه ينحرونها فى منى ، وتنحر فيما يظهر قائمة • والاغلب ان المضحى يقوم بذلك بنفسه • ولا ينبغى للحاج ان يحل الا بعد النحر[٧١] •

والبدنة الواحدة قد تجزى عن عدد من الاشخاص • ففى حجة الوداع نحر الرسول مائة بدنة عن الصحابة وعددهم سبعمائة ، أى ان كل بدنة اجزت عن سبع ، وفى بعض الروايات انها اجزت عن عشر[٧٢] •

حلق الشعر :

من اهم مظاهر انجاز الحج والاحلال منه هو قص الشعر الذى يتم بعد

---

(٦٩) الموطأ : ج ١ ص ٢٤٩ ابن حنبل ج ٦ ص ٣٥ ، ٧٨ ، ٨٢ • وانظر ايضا عن التقليد : الموطأ ج ١ ص ٢٥١ ، ٢٧١ أما الاحاديث فقد ذكرت مواضعها من كتب الصحاح الستة : فنسنك : مفتاح كنوز السنة مادة اضاحى •

(٧٠) الموطأ : ج ١ ص ٢٧١ •

(٧١) انظر عن الاحاديث المتعلقة بها : فنسنك : الفهرس المفصل لالفاظ الحديث النبوى مادة بدن •

(٧٢) عن الاحاديث الكثيرة المروية فى هذا الموضوع راجع : فنسنك . مفتاح كنوز السنة مادة اضاحى • حج • والفهرس المفصل مادة حج • بدن • شعائر • حل • حرم • أما عن الاضاحى عند الامم السامية عامة فاوسع بحث هو الذى كتبه روبرتسن سمث فى كتابه محاضرات عن دين الساميين •

النحر مباشرة ولا يجوز أن يتم قبله والا فسد الحج[٧٣] . ولا يقتصر ذلك على الحج الى مكة بل يمتد الى بقية الآلهة ، فكان الاوس يعظمون مناة وكانوا (يحجون فيقفون مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم فاذا نفروا اتوه فحلقوا رؤوسهم عنده واقاموا لا يرون لحجهم تماما الا بذلك[٧٤]) . وكانت قضاعة ولخم وجذام يحجون للاقيصر ويحلقون رؤوسهم عنده ، فكان كلما حلق رجل منهم رأسه القى مع كل شعره قرة من دقيق[٧٥] .

ويبدو ان للشعر اهمية دينية خاصة عند كافة الساميين لان قصه كان يتم بمراسيم دينية[٧٦] ، فالطفل عندما يقص شعره تقدم للآلهة بعض الهدايا وتحاط بمراسيم دينية . ولعل سبب ذلك هو ان نمو الشعر دليل على نمو الطفل بنعمة الآلهة التى حرسته ، وان حلق شعر الطفل دليل على نضجه ونموه وتحمله ، أو قرب تحمله ، المسؤولية الدينية ، ومن هنا كان يحاط ببعض الطقوس الدينية ، وتقدم الهدايا للآلهة التى أنمته ورعته . ويطلق اسم العقيقة على الهدايا والتقدمات المقدسة عند حلق شعر الطفل[٧٧] .

رجال الدين :

تتطلب طقوس العبادات اناسا يتدربون عليها ويتفهمون اهدافها وفلسفاتها ومجرياتها ويوجهون الناس اليها ويرشدوهم . وقد ذكرت فى مكة اعمال دينية كالاجازة والافاضة والحجابة وقد تحدثنا عنها عند البحث عن مكة لانها لم تذكر فى مكان آخر من الجزيرة كما ذكر السدنة ايضا . ومع ان وظائف كل هؤلاء متصلة بالدين الا انها لا تستلزم من القائم بها أن يكون عالما بشؤون الدين أو

---

(٧٣) راجع عما ورد فى الحلق من احاديث : فنسنك : مفتاح كنوز السنة ، والفهرس المفصل مادة حيق .

(٧٤) الاصنام : ص ١٦٠ .

(٧٥) الاصنام : ص ١٤ .

(٧٦) انظر سمث : ص ٣٢٣ فما بعد .

(٧٧) عن الاحاديث النبوية عن العقيقة راجع فنسنك : مفتاح كنوز السنة مادة عقيقة .

متبحرا فيه . ومن الغريب اننا فى اخبار مكة أو اخبار الدعوة الاسلامية فيها لا نسمع ذكرا لرجال الدين مطلقا . وليس هناك دليل على ان مقاومى النبى كانوا من رجال الدين .

والسادن كما يعرفه ابن منظور « هو خادم الكعبة وبيت الاصنام ويروى عن ابى عبيد ان سدانة الكعبة خدمتها وتولى أمرها وفتح بابها واغلاقه والسادن هو الخادم ويروى عن ابن برى ان الفرق بين السادن والحاجب ان الحاجب يحجب واذنه لغيره والسادن يحجب واذنه لنفسه اى ان السادن فوق الحاجب[٧٨] » .

وقد ذكر سدنة عدد من الآلهة الجاهلية ، فكان سدنة اللات من بنى معتب الثقفيين ومنهم مسعود سادن اللات الذى قاد ثقيف فى حرب الفجار ، وبنو شيبان (من سليم) سدنة العزى ، وبنى لحيان سدنة سواع ، وبنو امامة سدنة الخلصة ، وبنو عامر الاجدار سدنة ود ، وخزاعة بن عبد نهم المزنى سادن نهم ، والعوام بين جهيل سادن يغوث[٧٩] .

أما سدانة الكعبة فكانت لبنى عبدالدار .

وكثيرًا ما يكون السدنة من عشائر غير التى تسكن فى الحرم ، فاذا كانت كذلك فتكون أقدم العشائر الاخرى فى الغالب . والغالب ان السدانة تكون وراثية ومحصورة بأسرة معينة ، على انها قد تنتزع منها بالقوة أو التهديد كما فعل قصى عندما انتزع سدانة الكعبة وسيادة مكة من خزاعة .

الكهان والعرافون :

أما الكهان فهم اشخاص وقعوا تحت تأثير الآلهة وبمقدورهم التنبؤ

---

(٧٨) لسان العرب : ج ١٧ ص ٦٩ .

(٧٩) لقد ذكرت سدنة الآلهة السالفة الذكر فى كتاب الاصنام ص ٢٢ ، ١٠ ، ٣٥ ، ٥٥ ، ٣٩ على التوالى . كما ورد ذكر سدنة اللات فى سيرة ابن هشام ج ١ ص ٨٧ ، وذكر ابن حجر فى كتابه : الاصابة فى تمييز الصحابة سادن نهم (ج ١ ص ٤٢٩) وسادن يغوث (ج ٣ ص ٤١) .

بالحوادث أو القيام بالاعمال الخارقة وقد اتهم النبى بأنه كاهن فرد القرآن على ذلك بعدة آيات ، وقد يكون بعض الكهان من السدنة • ويروى السكرى انه لا يكون كاهنا حتى يكون له شيطان تابع له ليوحى اليه(٨٠) • وكانت العرب تستشيرهم وخاصة قبيل الحملات وتتنافر عندهم وتتحاكم اليهم(٨١) • وتنسب الى الكهان حكم وتنبوآت مكتوبة بجمل قصيرة مسجوعة •

ومما يتصل بالكهان العرافون وهم الذين يعرفون الاشياء الخفية(٨٢) • والراقون والسحرة والشعراء •

---

(٨٠) المحبر : ص ٣٩٠ •

(٨١) راجع ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٥٢ الطبرى ج ٢ ص ١٧٥ ، ١٨٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ راجع ايضا مروج الذهب ج ١ ص ١٦٨ ، ١٧٥ فما بعد •

(٨٢) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٩٨ •

القسم الثالث

حياة الرسول
والدعوة الاسلامية في مكة

الفصل الخامس عشر

مصادر دراسة حياة الرسول

ان حياة الرسول واعماله وتطور نشأة الاسلام يمكن بحثها من ثلاث مصادر رئيسية هي القرآن وكتب الحديث والسنة وروايات المؤرخين ومؤلفاتهم •

القرآن :

أما القرآن فهو كتاب الله المنزل باللفظ والمعنى على الرسول ، واختلاف القراءات فيه قليلة نسبيا ومقتصرة على بعض الكلمات ، فنصه عموما مضبوط يقر الجميع بصحته • ولو تجرأ شخص على التلاعب فيه أو تغييره لحل عليه غضب الناس والله جميعا لان الله تعالى يقول (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) (الحجر ٩) •

لم ينزل القرآن جملة واحدة ، بل نزل منجما فى بحر عشرين سنة • وقد ذكر فى آياته بعض الحوادث التى واجهها الرسول والاسلام وفصل فى بعضها ، كما انه عرض الافكار الاسلامية وقدم البراهين والحجج والادلة عليها ، وكذلك رد على معارضى الاسلام والكفار والمشركين وفند كلا من آراءهم وحججهم وأفكارهم المتباينة والمتنوعة والمختلفة باختلاف الاحوال والظروف والاشخاص • لذا فان القرآن يلقى ضوءا كبيرا على المشاكل التى واجهها الرسول والعقبات التى اعترضته والصعوبات التى واجهته كما يتبين منه وجهات نظر المعارضين •

وقد عبر القرآن عن كثير من الازمات التى كان يلاقيها الرسول والمسلمون واقترح الاجابات والحلول لها وهى أزمات منوعة متبدلة بعضها قوى طويل الامد وبعضها مؤقت قصير الاجل • ويمكن القول عموما ان تكرر الموضوع الواحد فى القرآن دليل على انه لاقى كثيرا من المقاومة والنقاش •

فالقرآن هو المصدر الاول لدراسة نشأة الاسلام وعقائده نظرا لاصالته ولما فيه من اشارات واخبار عن عصر الرسول وما لاقته الدعوة •

غير ان الاستفادة من القرآن فى دراسة تاريخ الرسول والدعوة الاسلامية ليست سهلة ، نظرا لانه لم يشمل بالذكر كافة الحوادث التى مر بها الاسلام ، أو كل الاعمال التى قام بها الرسول ، أو كافة من اتصل بهم واحتك فيهم من الاشخاص • والواقع انه لم يرد فيه الا اسم شخصين فقط احدهما مشرك هو أبو لهب عم النبى والثانى مسلم هو زيد بن حارثة ربيب الرسول • ثم ان كثيرا من الاوضاع والمؤسسات والنظم الجاهلية التى أشار اليها القرآن زالت بعد مجىء الاسلام واندرست ولم يبق لها أثر مما أدى الى اختلاف الشراح والمفسرين فى توضيحها حتى انه يصعب علينا اليوم الجزم فى صحة واحد من هذه التفاسير أو تفضيله على غيره •

ولعل أكبر صعوبة تصادفنا عند محاولة الاستفادة من القرآن فى الدراسة التاريخية لحياة الرسول والاسلام وخاصة فى الدور المكى هو معرفة زمن نزول الآيات • ذلك ان العلماء المسلمين الذين بحثوا اسباب النزول اكتفوا بذكر سبب نزول آيات معينة محدودة تشير فى الغالب الى احكام أو حوادث أو اشخاص معينين • كما ان الباحثين فى الناسخ والمنسوخ درسوا فى الغالب تعاقب نزول الآيات الناسخة والمنسوخة خاصة فى الاحكام القضائية وهى آيات محدودة العدد نسبيا فى القرآن ، أما بقية الآيات فلم يتطرقوا لها رغم أهميتها الكبرى فى دراسة تطور الدعوة الاسلامية وما لاقته •

لقد بحث العلماء المسلمون ايضا فى تعاقب نزول السور ورووا ترتيبها حسب نزولها وقد اختلفوا فى ابحاثهم اختلافات كبيرة[1] ؛ ومع ذلك فان دراستهم غير كافية لان السورة الواحدة لم تنزل مرة واحدة بل كثيرا ما تكون فى السورة الواحدة آيات مكية واخرى مدنية ، أو تكون السورة الواحدة مكية خالصة ولكن

---

(١) انظر رواية ابن عباس فى ترتيب نزول السور فى السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن ج ١ ص ١١ مقدمتان فى تاريخ القرآن ص ٨ ، ورواية على بن ابى طالب فى مقدمتان ص ١٤ ، ورواية الواقدى فى : ابن النديم • الفهرست ص ١٨ • أما ترتيب نولدكه وكرمة وكايتانى فانظرها فى : بيل : مقدمة للقرآن ص ١١٠-١١٤ (بالانكليزية) •

آياتها نزلت فى فترات متباعدة ثم جمعت فى سورة واحدة[٢] . فالاعتماد على هذه الروايات غير كاف .

وقد حاول بعض المستشرقين دراسة زمن النزول ؛ ولعل ابرزهم ثيودور نولدكه فى كتابه تاريخ القرآن وقد اتخذ الاسلوب معيارا لمعرفة زمن نزول السور ، واعتبر السور الاولى آياتها قصيرة مسجوعة ، أما السور المتأخرة فآياتها طويلة غير مسجوعة فى الغالب . ولكن دراسته ناقصة شأن دراسة العلماء المسلمين من حيث آيات السورة الواحدة قد تكون نزلت فى اوقات متباعدة .

وقد قام المستشرق الانكليزى ريتشارد بل بدراسة اخرى حيث ترجم القرآن ودرس كل آية وحاول تحديد زمن نزولها من معانيها ومواضيعها واسلوبها . ولا شك ان بحثه طريف وبعض استنتاجاته عن زمن نزول الآيات يثير التفكير . ولكن احكامه ليست نهائية .

ربما كانت هذه الصعوبات من اهم الاسباب التى أدت بمؤرخى السيرة النبوية الا يستفيدوا من دراسة القرآن الاستفادة الكافية رغم أهميته الكبرى وبذلك خسر الفكر خسارة كبرى . وقد حاول بعض المحدثين وخاصة من المستشرقين أمثال شبرنجر وموير وكايتانى وبوهل معالجة ذلك والاستفادة من القرآن فى دراسة حياة الرسول أما العرب فلا اعلم من حاول ذلك بصورة شاملة الا محمد عزة دروزة فى كتابيه عصر الرسول وبيئته ، وسيرة الرسول .

لقد حاولت فى بحثى عن الدعوة الاسلامية أن اجمع الآيات التى تدور حول الموضوع الواحد محاولا تعيين زمن التأكيد على ذلك الموضوع مستعينا بما رواه المؤرخون عن خطوات الدعوة وما يقتضيه منطق الحوادث فى استنتاج سير تطورها ، حيث يبدو ان الدعوة بدأت بالتأكيد على بثها بين قومه بلسان عربى والدعوة الى عبادة الله الواحد الأحد والنظر فى آياته واعماله ، ثم التأكيد على يوم القيامة والبعث والحساب وقصص الانبياء للعبرة والتوضيح ، ثم عيب آلهة الشرك وعبادها ثم المقاطعة ثم التثبيت . وقد اجلت دراسة الآيات المتعلقة بالطقوس والمواضيع الاخرى

---

(٢) انظر فى ذلك : السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن ج١ ص ١٢-١٨ .

الى الجزء الثانى • ومع اعترافى بأن هذه المحاولة اولية الا انى ارجو أن تكون دليلا مثيرا لدراسة خطوات الدعوة من الآيات القرآنية •

الاحاديث والسنة :

أما سنة الرسول فهى كل ما قاله أو عمله أو أقره أو رآه فلم ينكره • ويختلف الحديث عن القرآن من حيث كون القرآن منزل من الله لفظا ومعنا وان الحديث من الرسول وهى لم تدون فى زمن الرسول وهناك روايات بأن الرسول وعمر بن الخطاب نهيا عن محاولة تسجيل سنة الرسول واحاديثه • وأقدم محاولة ذكر القيام بها لتسجيل احاديث الرسول كانت فى زمن عمر بن عبدالعزيز ، أى فى نهاية القرن الاول الهجرى(٣) •

وأقدم الاحاديث المدونة الباقية هى موطأ مالك وقد وصلنا عن عدة روايات أهمها رواية سحنون وفيها ١٧٢٠ حديثا ورواية محمد بن الحسن الشيبانى وفيها ١١٧٩ حديثا غير ان اقوال الرسول واحاديثه منها لا تزيد عن ٨٢٢ فى رواية سحنون و٤٢٩ فى رواية الشيبانى والباقى اقوال للصحابة والتابعين وآراء لمالك نفسه •

وقد أورد كل من ابى حنيفة وابو يوسف ومحمد بن الحسن الشيبانى والشافعى عدد من الاحاديث فيما ألفوه وقد جمعت احاديث كل منهم فى مجاميع أو مساند وأكثرها مطبوع ولكن هذه الاحاديث هى قليلة نسبيا ولا تشمل كل أقوال الرسول وأعماله •

وجدير بالملاحظة ان هؤلاء المؤلفين هم فقهاء تناولت أبحاثهم المشاكل الفقهية بالدرجة الاولى ، كما ان كثيرا منهم لم تشمل أبحاثهم تفاصيل مختلف القضايا الفقهية • لذا يمكن القول بأن الاحاديث المروية عنهم تؤكد على ما يتصل الفقه وانها أوردت لتخدم هذا العلم فهى ليست خالصة لأحاديث الرسول ولا يرد فيها كافة ما يعرف عن حياة الرسول •

---

(٣) انظر عن نشأة وتطور علم الحديث : احمد امين : فجر الاسلام ، ضحى الاسلام ج ٢ ولجولدزيهر بحث قيم نشره فى كتابه « دراسات اسلامية » (بالالمانية) ثم ترجم حديثا الى الفرنسية •

ان مركز الرسول العظيم كقدوة للمسلمين فى حياتهم كما قال تعالى « قد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة » (الاحزاب ٢١) وتزايد أهمية السنة فى التشريع دفعت الناس من غير الفقهاء الى الاهتمام باحاديث الرسول ودراستها كما أدت الى اختلاق كثير من الاحاديث ونسبتها الى الرسول • وقد أدى كل هذا الى انفصال الحديث تدريجيا عن الفقه والى اهتمام العلماء ، وخاصة منذ القرن الثانى الهجرى فى تدقيق الاحاديث وغربلتها وتنقيتها من العناصر الغريبة والمختلقات والاكاذيب • ومع ان هؤلاء العلماء بذلوا جهدا عظيما رائعا ، الا ان اهتمامهم كان منصبا بالدرجة الأولى على النقد الظاهرى دون الباطنى أى على الرواة ورجال السند دون نصوص الحديث • ومع ان هذه المحاولات أدت الى غربلة كثير من الاحاديث الا انها لم تؤد الى تنقيته التامة فظلت كثير من الاحاديث مثار نقاش حول مدى صحتها ودقتها •

ومن أهم نتائج توسع الاحاديث وانفصالها عن الفقه وغربلتها ، ان ظهرت مجموعات من كتب الحديث الصرفة وأهمها عند السنة ستة هى صحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن الترمذى وسنن ابن ماجة وسنن ابى داود (يضاف اليها موطأ مالك) • ولصحيح البخارى وصحيح مسلم مكانة خاصة نظرا لشدة تدقيق صاحبيهما وقلة الشوائب فيهما بالنسبة للباقية •

تبحث هذه الكتب عن سيرة الرسول واعماله وما أقره من أحكام فى مختلف نواحى الحياة السياسية والمالية والادارية فضلا عن أحكام الدين والطقوس والعبادات • ومروياتهم عن حياة الرسول وأعماله السياسية والادارية ذات أهمية الا انها قليلة نسبيا ، رغم انها جوهر التاريخ ثم ان الاحاديث المتعلقة بحياة الرسول لا تختلف كثيرا عما أورده المؤرخون الاولون • ومن الملاحظ ان اصحاب كتب الصحاح لم يتحرروا تماما من تأثير الفقهاء الذى يتجلى فى زيادة اهتمامهم بالمشاكل الفقهية وترتيب كتبهم على نمطها •

ثم ان كتب الحديث تورد نص الحديث وسنده ولا تفسره أو تحلله ، فهى مجموعة نصوص فحسب ولابد من تحليلها وايجاد الصلة بينها وتفسيرها • وقد قام كثير من العلماء القدامى فى شرح الاحاديث وتفسيرها الا انه لم تقم محاولة جدية لايجاد الصلة الزمنية بينها أو ربطها وتفسيرها واستخدامها لاعطاء صورة للاوضاع التاريخية • اذ ان محاولات الاقدمين فى دراسة هذه الاحاديث اقتصرت على شرح

كل حديث دون محاولة تحليله أو ربطه مع غيره وبذلك كانت محاولاتهم مفككة لا تكون وحدها تاريخا متصلا .

ويلاحظ ايضا ان هذه الاحاديث غير مرتبة ترتيبا زمنيا وقلما يشار الى زمن نزولها مما يخلق صعوبة كبرى لدارس التاريخ الذى يقوم بحثه على أساس ترتيب الحوادث ترتيبا زمنيا .

ان هذه المصاعب من اهم العوامل التى جعلت كثيرا من دارسى حياة الرسول يتحاشون قراءتها ولا يستفيدون منها بمهارة أو كفاية ، رغم أهمية ما فيها من معلومات . وبذلك كانت محاولاتهم واضحة النقص .

المؤرخون(٤) :

أما المؤلفات التاريخية عن حياة الرسول ، وتسمى عادة كتب السيرة ، وهى مشتقة من السير فى الحياة ؛ فقد بدأ الاهتمام بتدوينها بعد منتصف القرن الاول الهجرى أى بعد وفاة الرسول بخمسين سنة وأكثر ، وساهم فى تدوينها العرب والموالى ، وكانت فى البداية بسيطة تتناول بعض نواحى حياة الرسول واعماله ، وهى متأثرة بالفقه والادارة اذ تهتم بقوائم اسماء المسلمين الاول ، أو المشتركين بالغزوات الاولى ، كما تتطرق الى أحكام الرسول وقضاياه ؛ أما اسلوبها فبسيط واضح اقرب الى الاسلوب القصصى وتروى خلال سردها الحوادث بعض القصائد والاشعار ، وهى بصورة عامة مفككة غير مترابطة ولا تعير الاسناد اهمية كبرى .

ابان بن عثمان :

واول من رويت عنه اخبار السيرة هو ابان بن الخليفة عثمان بن عفان ، وقد ولد حوالى سنة ٢٠ هـ وعين فى زمن عبدالملك بن مروان واليا على المدينة حيث

---

(٤) هذا البحث عن مؤلفى السيرة هو ملخص لمقال ديللافيدا عن السيرة فى دائرة المعارف الاسلامية ، ولمقال يوسف هورفتز عن (مؤرخى السيرة الاول) الذى نشره بالانكليزية فى مجلة الثقافة الاسلامية سنة ١٩٢٦ ولخصه احمد امين فى الجزء الثانى من ضحى الاسلام ، كما ترجمه حسين نصار الى العربية بعنوان المغازى الاولى ومؤرخوها ، ثم ضمنها فى كتابه (نشأة الكتابة الفنية فى الاسلام) بعد أن اضاف اليها بعض المعلومات .

ظل فى هذا المنصب سبع سنوات كان يتولى خلالها امارة الحج كل سنة تقريبا ، وكانت له صلات طيبة بكبار الصحابة والتابعين ، وتوفى فى خلافة الوليد على ما يروى البخارى أو فى زمن يزيد الثانى على ما يروى ابن سعد • وقد رويت عنه بعض الاحاديث مما يدل على مكانته الطيبة عند المحدثين • وكان يميل الى الدعابة والفكاهة وله تذوق للشعر • وقد روى عنه الطبرى فى تاريخه وتفسيره ، كما روى عنه مالك فى الموطأ ، وابن سعد فى الطبقات • ولكن ابن اسحق والواقدى لم يرويا عنه •

عروة بن الزبير :

ويتلو ابان فى الترتيب الزمنى عروة بن الزبير بن العوام الذى ولد حوالى سنة ٢٣ هـ وتوفى سنة ٩٤ وقضى حياته فى المدينة محبا للعلم ومهتما به وكان له اصحاب يجلسون فى حلقة بمسجد المدينة يتداولون الاخبار منهم عبدالملك بن مروان قبل تسنمه منصب الخلافة •

لم يندفع عروة فى شؤون السياسة أو يساهم فيها مساهمة فعالة كما فعل اخواه عبدالله ومصعب لذا احتفظ بمكانته الطيبة عند الامويين وقد قضى فى مصر سبع سنوات كما زار الشام فى عهد عبدالملك والوليد • وكان من فقهاء المدينة السبعة المشهورين ، وله شهرة بمعرفة الحديث •

لقد دون عروة معلوماته عن تاريخ الرسول بشكل أجوبة لاسئلة وجهها اليه عبدالملك وابن ابى هنيدة كاتب الوليد • وهذه الاجوبة تتعلق بالهجرة الى الحبشة وهجرة الرسول الى المدينة وبغزوة بدر وفتح مكة ووفاة خديجة وزواج الرسول باخت الاشعث بن قيس • وهو يحلى كتاباته بمقتطفات من الشعر ولا يهتم كثيرا بذكر رجال السند •

شرحبيل بن سعد ووهب بن منبه :

والاسم الثالث فى تاريخ سيرة الرسول هو شرحبيل بن سعد مولى بنى خطمة ، وقد ولد فى اواخر عهد عمر أو اوائل عهد عثمان وتوفى سنة ١٢٣ هـ بعد ناهز المائة • ويقول عنه سفيان بن عيينة انه لم يكن احد اعلم بالمغازى البدريين منه ، ولكنه كان متهما فى امانته لذا لم يرو عنه ابن اسحق والواقدى أما ابن سعد فقد روى عنه حديثا واحدا •

والاسم الرابع هو وهب بن منبة الذى اشتهر بكتاباته عن الشعوب والامم القديمة ولكنه كتب ايضا فى سيرة الرسول وقد حفظت من كتاباته قطع تتعلق باجتماع دار الندوة والهجرة وغزوة بنى خيثمة .

ابن حزم وعاصم :

ويتلو هؤلاء حسب الترتيب الزمنى عبدالله بن ابى بكر بن عمر بن حزم وكان جده واليا للرسول على نجران وابوه قاضيا فى المدينة ثم واليا عليها زمن سليمان بن عبدالملك وعمر بن عبدالعزيز . أما عبدالله فلم يتول منصبا رسميا بل اهتم بالحديث وبالمغازى وبشباب الرسول والاعوام الاولى من حياته وبوفود القبائل الى الرسول كما روى اخبارا عن ردة القبائل العربية وعن اواخر أيام عثمان وقد روى ايضا كتب الرسول الى ملوك حمير والى عمرو بن حزم .

لقد استمد ابن حزم كثيرا من معلوماته من خالته عمرة وهو لا يهتم بالسند وقلما يورده ولكنه يورد الشعر فى مغازيه .

أما عاصم بن عمر بن قتادة الظفرى الانصارى فهو لم يتول منصبا رسميا ولكنه زار بلاط الامويين بضع مرات يستمد منهم بعض المعونة المالية . وقد حدث اهل دمشق عن المغازى فى زمن عمر بن عبدالعزيز واهتم بتفاصيل اخبار شباب النبى والفترة المكية عامة . وهو أكثر اهتماما بالاسانيد وذكرا لها من عبدالله بن حزم ويروى فى اخباره الاشعار ويبدى احيانا آراءه الخاصة .

الزهرى وتلامذته :

ومن أبرز مؤرخى السيرة محمد بن مسلم الزهرى الذى ولد حوالى سنة ٥٠ هـ وهو قرشى من قبيلة زهرة كان جده قد جرح الرسول فى غزوة أحد أما أباه فكان ممالئا لابن الزبير ولكن صاحبنا كان ذا علاقة طيبة بالامويين فقد وفد على عبدالملك واستوطن دمشق فترة من الزمن واجرى عليه الامويون راتبا معينا ثم ساءت علاقته معهم فعاد الى الحجاز .

لقد كتب الزهرى عن مواضيع كثيرة فتناول اسنان الخلفاء أى اعمارهم ، كما تناول حياة الرسول كما يتجلى ذلك من اقتباس الطبرى وابن سعد منه . وهو يميل الى جمع اسماء رواة الخبر الواحد وتوحيدهم ثم رواية الخبر نفسه فهو

لا يدقق بالاسناد ويدخل الشعر فيما يروى .

لقد كان للزهرى عدة تلاميذ بارزين كلهم من الموالى ابرزهم موسى بن عقبة الذى ولد حوالى سنة ٥٠ هـ وكان مولى للزبيريين فلم يتول أى منصب لدى الامويين ولم يصلنا من كتاباته الا قطع وقد شمل المغازى والهجرة وروى خاصة عن الزهرى كما اقتبس منه كثيرا ابن سعد وخاصة فى المجلد الثالث والرابع من الطبقات ويظهر من هذه الاقتباسات ان كتابه كان يحوى على قوائم المهاجرين الى الحبشة والمشتركين فى بيعة العقبة والمقاتلين فى بدر وقد اهتم بتاريخ الراشدين والامويين وأعار السند أهمية كما استشهد بالشعر قليلا واعتمد عليه الواقدى والطبرى .

أما معمر بن راشد فهو مولى الحدان وقد ولد ونشأ فى البصرة حوالى سنة ٩٦ هـ ثم رحل الى اليمن واستقر فيها . وهو محدث . وقد ذكر له ابن النديم كتاب المغازى الذى لم تصلنا منه الا فقرات رواها الواقدى وابن سعد والبلاذرى والطبرى وأكثر رواياته عن الزهرى . وقد روى كثيرا عن تاريخ اهل الكتاب والرسل الاولين . وروى عنه ابن سعد اخبارا عن عهد عثمان ومعاوية .

ابن اسحق :

يحتل ابن اسحق مكانة خاصة بين مؤرخى السيرة نظرا لان معظم ما كتبه عنها وصلنا عن طريق ابن هشام والطبرى ، وهى تمثل اوسع ما كتب حتى ذلك الوقت . وكان تاريخ السيرة عنده يمثل جزءا من تاريخ العالم واستمرارا له ، كما انه اعتمد على اهل الكتاب ولم يقتصر على رجال السند بل اهتم بالشعر ايضا فكانت طريقته مزيجا بين طريقة المحدثين ورواة ايام العرب .

لقد كان ابن اسحق مولى تحدر من يسار الذى كان من أسرى عين التمر الذين جاء بهم خالد بن الوليد من العراق الى المدينة . وقد ولد محمد حفيده سنة ٨٥ هـ واهتم بالحديث فروى عن ابيه ثم اتصل بعدد من العلماء امثال عاصم بن عمر وعبدالله بن ابى بكر والزهرى . ثم ذهب سنة ١١٥ هـ الى الاسكندرية حيث سمع من يزيد بن ابى حبيب ثم زار المدينة وقابل سفيان بن عيينة . ولكن خاصمه هشام بن عروة ومالك بن أنس فرحل الى الكوفة والجزيرة والرى وبغداد . ولم يتصل بالامويين كما انه لم يتأثر بالعباسيين .

والواقع انه ذكر العباس بن عبدالمطلب ، وهو جد العباسيين من بين أسرى بدر .

الف ابن اسحق كتابه فى السيرة وهو يتكون من ثلاثة اقسام المبتدأ والمبعث والمغازى . لم يصلنا هذا الكتاب مباشرة بل وصلنا برواية ابن هشام ، وفى هذه الرواية بعض التحوير للكتاب حيث ترك تاريخ اهل الكتاب من آدم الى ابراهيم ، كما انه لم يذكر من سلالة اسماعيل غير اجداد النبى المباشرين ، كما حذف ما لا علاقة له بالرسول وأنكر بعض مما رواه ابن اسحق من الشعر أو ما يؤذى الناس ذكره ، كما اضاف اليه كثيرا من الاضافات فى الانساب واللغة وقد أشار الى اضافاته ومحذوفاته كما ان الطبرى حفظ كثيرا مما حذفه ابن هشام عن الانبياء ، وحفظ الازرقى كثيرا مما حذفه ابن هشام عن مكة .

يمكن تقسيم المبتدأ الى اربعة اقسام اولها يمتد من الخليقة الى المسيح ، وقد عنى فيه بروايات وهب بن منبة وابن عباس واخبار اليهود والنصارى ونصوص الكتاب المقدرس والعرب البائدة التى ورد ذكرها فى القرآن خاصة . والقسم الثانى من المبتدأ يشمل تاريخ اليمن وقصة اصحاب الاخدود واصحاب الفيل . والقسم الثالث القبائل العربية والاصنام التى تعبدها . أما القسم الرابع فيبحث عن اجداد النبى والديانة المكية . والاسناد فى المبتدأ نادر . والقسم الثانى من الكتاب هو حياة الرسول فى مكة والهجرة . ويهتم ابن اسحق فى هذا القسم برواية الاسناد وبذكر قوائم اسماء المسلمين الاولين والمهاجرين واول المؤمنين من الانصار والمشتركين ببيعتى العقبة والمؤاخاة وبوثيقة النبى فى المدينة .

والقسم الثالث هو المغازى ويهتم فيه بذكر الاسناد ويعتمد على الزهرى وعاصم بن عمر وعبدالله بن ابى بكر ويورد قوائم اسماء المشتركين فى بدر والقتلى والاسرى فيها وفى أحد والخندق وخيبر ومؤتة والطائف والمهاجرين من الحبشة .

لابن اسحق عدة تلامذة أشهرهم البكائى الذى روى عنه ابن هشام ، وسلمة بن الفضل الذى روى عنه الطبرى .

الواقدى :

الواقدى وابن اسحاق هما الوحيدان اللذان سلمت مؤلفاتهما من الضياع . والواقدى ، واسمه محمد بن عمر ، مولى للاسلميين . ولد فى المدينة سنة ١٣٠ هـ وسمع أشهر رجال الحديث فى المدينة وكان عالما بالآثار فصار مرشدا للرشيد

فى حجه وكان ذلك سبب اتصاله بالبرامكة وبالخليفة العباس • وقد ولاه الرشيد والمأمون القضاء • وقد الف كثيرا من الكتب فى الفقه والتاريخ الجاهلى لمكة والمدينة وطعم النبى وحياته وأزواجه ووفاته وعن الاوس والخزرج وابى بكر والجمل وصفين والحسن والحسين وفتوح الشام والعراق وضرب الدنانير ومراعى قريش وعن الطبقات وتاريخ الفقهاء •

معظم اساتذة الواقدى من اهل المدينة كالزهرى ومعمر وابو معشر وموسى بن عقبة • وقد اهتم بالغزوات وهو يتبع نمطا خاصا فى ذلك ، فيذكر سنة خروج الرسول ورجوعه ثم اخبار الغزوة ثم نائب الرسول فى المدينة ثم يروى بعض الاشعار • وهو يحدد التواريخ ويبدى احيانا آراءه الخاصة فى الحوادث • ويظهر تحيزه للعباسيين من حذفه اسم جدهم العباس من قائمة أسرى بدر •

ابن سعد :

ولد محمد بن سعد فى البصرة سنة ١٦٨ هـ وعاش من الزمن فى المدينة وكتب فى السيرة والطبقات كتابين رواهما تلامذته من بعده حتى استقرت نهائيا على يد الحسن بن فهم (٢١١-٢٨٩ هـ) •

لقد بحث ابن سعد فى الجزء الاول من كتابه عن الرسول ، فبدأ باجداد النبى وطفولته والدعوة حتى الهجرة كما بحث فى القسم الثانى عن العهد المدنى وعن أوامر النبى ووفود العرب •

وبحث فى الجزء الثانى عن عادات الرسول واخلاقه وسفاراته وعن علامات النبوة • ولا ريب ان له عن التاريخ نظرة أوفى نظرا لاهتمامه بالنواحى الادارية والاجتماعية والاقتصادية ، دون الاقتصار على النواحى السياسية والحروب •

يعتمد ابن سعد فى بحث اجداد الرسول على اهل الكتاب وعلى ابن الكلبى ، أما عن حياة الرسول فيعتمد على الواقدى بالدرجة الاولى ولكنه يضيف اليه معلومات عن ابن اسحق وابى معشر وموسى بن عقبة • وهو يهتم برجال السند ويروى بعض الشعر •

مؤلفون آخرون : رواية ابن النديم :

ذكر ابن النديم عددا من المؤلفين عن الرسول وأورد اسماء كتبهم ولعل

أهمهم على بن محمد المدائنى الذى الف عددا من الكتب فى امهات النبى وصفته واخبار المنافقين وتسمية المنافقين ومن نزل القرآن فيه منهم ومن غيرهم وفى الذين يؤذون النبى وتسمية المستهزئين الذين جعلوا القرآن عضين وفى رسائل النبى وكتب النبى الى الملوك واقطاع النبى وصلح النبى وآيات النبى وخطب النبى وعهود النبى والمغازى والسرايا والوفود ودعاء النبى وخبر الافك وأزواج النبى وعماله على الصدقات وما نهى عنه وامواله وكتابه ومن كان يفد عليه بالصدقة والخاتم والرسل وخطبه[٥] .

ويتبين من هذه القائمة مدى اهتمام المدائنى بالنواحى الاجتماعية والادارية غير انه من سوء الحظ لم تحفظ هذه الكتب ولم يشر اليها المؤلفون الذين تطرقوا الى هذه المواضيع ولم تدرس بعد اسباب ذلك .

وقد ذكر ابن النديم ايضا اسماء عدد من المؤلفات عن حياة الرسول منها : (١) كتاب المغازى لنجيح المدنى (٢) كتاب صفة النبى لأبى البخترى (٣) كتاب المغازى للوليد بن مسلم (٤) كتاب مغازى النبى وسراياه وذكر أزواجه لاحمد بن الحارث الخزاز (٥) كتاب المغازى لاسماعيل بن اسحق القاضى (٦) كتاب المغازى لعبدالملك بن عمرو بن حزم (٧) كتاب المغازى لابراهيم الحربى (٨) كتاب المغازى لعبدالرزاق الصنعانى (٩) كتاب الوفود للهيثم بن عدى (١٠) كتاب مزاح النبى للزبير بن بكار (١١) كتاب المبدأ والمبعث والمغازى والوفاة والسقيفة والردة لأبان بن عثمان بن يحى بن زكريا اللؤلؤى الاحمر البجلى[٦] .

رواية ياقوت :

وقد ذكر ياقوت الحموى كتبا اخرى عن حياة الرسول هى : (١) كتاب تفسير اسماء النبى وكتاب سيرة النبى لاحمد بن فارس اللغوى (٢) كتاب مغازى النبى وكتاب بنات النبى وأزواجه لاحمد بن عبدالله الرقى (٣) كتاب اخبار النبى ومغازيه

---

(٥) الفهرست ص ١٤٧-٨ .

(٦) لقد ذكرت هذه الكتب فى الفهرست فى الصفحات التالية بالتتابع (١) ص ١٣٦ (٢) ص ١٤٧ (٣) ص ١٥٩ ، ٣١٨ (٤) ص ١٥٣ (٥) ص ٢٨٢ (٦) ص ٣١٦ (٧) ص ٣٢٣ (٨) ص ٣١٨ (٩) ص ١٤٥ (١٠) ص ١٦١ .

وسراياه لاسماعيل بن مجمع الاخبارى (٤) كتاب المغازى لعلى بن ابراهيم القمى (٧) .

رواية السخاوى :

ويروى السخاوى ان ابن حيان وابن فارس وابن عبدالبر وابن حزم وابو احمد الدمياطى وعبدالغنى النابلسى والقطب الحلبى وابو عبدالله الذهبى وابو الفتح بن سيد الناس الذى الف عيون الاثر وكتب عليه البرهان الحلبى تعليقا فى مجلدين سماه نور النبراس وللعلاء على بن محمد بن ابراهيم البغدادى ايضا وكذلك للطهير على بن محمد بن محمود الكازرونى ثم البغدادى والمحب الطبرى والقاضى عزالدين بن جماعة والشمس البرماوى وكذلك للعلاء على بن عثمان التركمانى الحنفى وابى امامة بن النقاش والشمس بن ناصر الدين والمقريزى (وقد طبع الجزء الاول من كتابه الامتاع) وابن درباس المارانى وكتابه الفوائد المنيرة فى جوامع السيرة والابشيطى . كما وابن المرحل والجماعيلى الحنبلى . ط ١٦٠

وقد ذكر السخاوى ايضا اسماء عدد ممن نظموا السيرة أو ألفوا فى دلائل النبوة والشمائل النبوية والاخلاق النبوية والهدى (٨) .

رواية حاجى خليفة :

وقد روى حاجى خليفة اسماء عدد من الكتب المؤلفة فى شرح سيرة ابن هشام منها الروض الآنف للسهيلى (المتوفى سنة ٥٨١) وكشف اللثام فى شرح سيرة ابن هشام لبدرالدين محمود بن احمد العينى الحنفى (المتوفى سنة ٨٥٥) كما نظمها كل من ابو نصر الخضراوى القصرى (المتوفى سنة ٦٦٣) وعبدالعزيز الديرينى (المتوفى سنة ٦٩٧) وابو اسحق الانصارى التلمسانى وفتح الدين ابن الشهيد (المتوفى سنة ٧٩٣) وعلاءالدين الخلاطى الحنبلى (المتوفى سنة ٧٠٨) والدمياطى (المتوفى سنة ٧٠٥) والكازرونى (المتوفى سنة ٦٩٤) والشاهى الذى يقول عنه ان كتابه اوسع كتب السيرة ؛ كما ذكر من مؤلفى السيرة الحافظ

---

(٧) لقد ذكرت هذه الكتب فى معجم الادباء فى الصفحات التالية بالتتابع (١) ج ٤ ص ٨٤ (٢) ج ٤ ص ١٣٥ (٣) ج ٧ ص ٤٥ (٤) ج ١٢ ص ٢١٥ .

(٨) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٨٧-٩٢ .

مغلطاى ولخصها ابن قطلوبغا والحافظ عبدالمؤمن الدمياطى (المتوفى سنة ٧٠٥) والخلاطى وابن ابى طى (المتوفى سنة ٦٣٠) وابن جماعة الكنانى (المتوفى سنة ٧٦٦[٩]) .

ومنذ القرن الثالث بدأت تظهر المدونات التاريخية التى يشمل بحثها تاريخ العالم أو العالم الاسلامى ، وصارت سيرة الرسول تبحث فيها كجزء من التاريخ العام وان كانت تعطى بعض التفصيل ولعل اهم هذه المدونات الاولى هى تاريخ اليعقوبى ، ومروج الذهب للمسعودى ، وتاريخ الامم والملوك لمحمد بن جرير الطبرى الذى يحتل مكانة خاصة نظرا لانه اورد فى كتابه مقتطفات من معظم المؤلفين القدماء الذين أوردنا اسماءهم فى صدر هذا الفصل ، ووضعها بحسب ترتيبها الزمنى مع بعضها بحيث يمكن مقارنتها . وقد اعتمد على الطبرى معظم المؤلفين المتأخرين امثال ابن الاثير وابن كثير وابن خلدون والذهبى .

كتب البلدان :

وفى الكتب الجغرافية بعض المعلومات عن الاماكن التى لها علاقة بالسيرة وكثيرا ما تورد اخبارا هامة عن حياة الرسول واعماله واهم هذه الكتب هى كتاب مكة واخبارها وجبالها وأوديتها للازرقى ، ومكة واخبارها فى الجاهلية والاسلام للفاكهى ، وكلاهما مطبوعان ، وهناك كتب أشار اليها ابن النديم ولكنها مفقودة ألفها كل من ابى عبيدة والواقدى والمدائنى وابن شبه وابن مخراق والبلخى وابى اسحق العطار . كما الف عن المدينة عدد من الكتاب منهم الزبير بن بكار وابن شبه والمدائنى وابن زبالة وعبيدالله بن ابى سعيد الوراق[١٠] . ولكن لم يطبع الا كتاب وفاء الوفا فى أخبار دار المصطفى الذى أورد فيه مؤلفه السمهودى معلومات واسعة قيمة مستمدة من المؤلفين الاول عن المركز الثانى للرسول .

ان أغلب الكتب التاريخية التى أوردنا اسماءها مفقود أو غير مطبوع ، وهى

---

(٩) كشف الظنون ج ١ ص ١٠١٢-١٠١٣ .

(١٠) لقد ذكرت هذه الكتب فى الفهرست فى الصفحات التالية بالتتابع ٨٠ ، ١٤٤ ، ١٦٣ ، ١٥١ ، ١٦٥ ، ١٩٩ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٥١ ، ١٥٨ ، ١٦٨ .

تعتمد على كتاب سيرة ابن هشام ، وتاريخ الطبرى ، وطبقات ابن سعد التى شملت كتب المؤرخين الاول ؛ وهى ولا شك أقل تفصيلا من المؤلفات المتأخرة ، ولكن يمكن القول بأنها أدق نظرا لقدمها .

ابحاث المستشرقين :

وقد تناول المستشرقون الغربيون حياة الرسول فيما تناولوا من الابحاث عن التاريخ الاسلامى . ولا شك ان التعصب والتحامل كانا يطغيان على كتابات المستشرقين القدامى ، نظرا لتأثرهم بروح التعصب الدينى الذى كان مسيطرا ومتبلورا بتأثير الحروب الصليبية ، ونظرا لضعف معرفتهم باللغة العربية وقلة المصادر المتوفرة لديهم . غير انه لم يخل الغرب منذ اوائل العصور الحديثة من مفكرين معتدين ، امتدحوا الاسلام[١١] .

ولكن منذ القرن التاسع عشر بدأ الاهتمام لدراسة المخطوطات العربية وطبعها ؛ وأخذ المستشرقون يدرسون تاريخ الشرق لذاته ، متبعين الطريقة العلمية التى كانت قد قطعت شوطا كبيرا فى التقدم فى الغرب ، كما ان كثيرا منهم كانت نهم عن التاريخ نظرة جديدة ، فاهتموا بدراسة نواح من حياة الرسول لم يهتم لها المشارقة . ومع ان فريقا منهم لم يتقن كل ذلك ؛ الا ان عددا غير قليل كان يتميز بسعة الاطلاع وبعد النظر وعمق التفكير مما ساعدهم على انتاج مباحث تستثير التفكير والتقدير ، رغم انه لا يمكن القول بأن احكامهم نهائية . ولعل من أبرز هؤلاء الذين كتبوا عن حياة الرسول فى أواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين هم وليم موير ، وشبرنجر ، وجرمة وكايتانى الذى اتبع طريقة الحوليات فكان يورد كافة الروايات المعروفة عن كل حادثة ، ويتلوها بايراد آراء كافة من بحث فيها من المستشرقين ، ثم يحللها ويستخلص منها ما يراه . وبذلك كان كتابه من اوسع الكتب واشملها ، وان لم تكن تفاصيل ابحاثه نهائية أو متفق عليها .

وقد ظهرت بعد الحرب العالمية الاولى عدد من الابحاث عن الرسول وحياته تتميز بالاعتدال وبحسن التقدير للنواحى الروحية وبالاستفادة من القرآن ؛ ومن

---

(١١) انظر عنهم تور أندريه (محمد ص ٢٤٣-٢٤٧) .

أهمها أبحاث بوهل التى لخصها فى مقاله عن الرسول والقرآن فى دائرة المعارف الاسلامية ، وتور اندريه فى كتابه (محمد : الرجل وايمانه) والذى يعتبر من أرزن ما كتبه المستشرقون ، وكذلك بيل الذى تناول فى كتابه مقدمة للقرآن ، تطور كثير من الافكار الاسلامية كما تتجلى من القرآن • واخيرا مونتجومرى وات الذى لخص فى كتابه (محمد فى مكة) كثيرا من مباحث المستشرقين مع اضافات قيمة • وقد استفدنا من هذه الكتب الاخيرة فائدة كبرى •

الابحاث الحديثة :

أما فى الشرق ، فقد بدأ الاهتمام بدراسة السيرة النبوية واعمال الرسول كجزء من النهضة الفكرية الحديثة • ولعل أبرز هؤلاء الكتاب المحدثين هو محمد حسين هيكل الذى بدأ بترجمة كتاب (محمد) لدرمنجهيم باسلوب طلى جذاب ، ونشر هذه الترجمة بالتتابع فى الملحق الادبى لجريدة السياسة ؛ فلما رأى اقبال الناس عليها تصرف كثيرا فى الترجمة ، ثم طبعها بكتاب لاقى اقبالا هائلا لما فى اسلوبه من سلاسة ، ولما فى بعض ابحاثه من محاولة للتفكير • وقد أثار هذا النجاح الحماس فى عدد من المؤلفين ، امثال طه حسين والعقاد والغمراوى فى الكتابة عن حياة الرسول •

كما ان الحركات الانتعاشية فى العالم الاسلامى دفعت بعض الباحثين الى دراسة اعمال الرسول باعتبارها المثل الاعلى الذى نستمد منه القبس ، ومع تنوع مواضيعهم وطرافة عرضهم ، الا ان اغلب ابحاثهم هى من نوع الدفاع لا الوصف ، وهى قلما تشذ عما اورده القدامى • والمهم انها لم تستفد افادة كافية من دراسة القرآن الكريم ؛ ما عدا محمد عزة دروزة الذى اتخذ القرآن مصدرا أساسيا لدراسة عصر الرسول وحياته ، واستخدمه بمهارة كأساس تكمله الروايات ؛ فطلع بنتائج طريفة جديرة بالدراسة •

ان محاولتى هنا هى دارسة القرآن كمصدر أساسى ، ثم عرض بعض ما أراه من آراء المستشرقين والمحدثين ، واستخلاص صورة لتطور حياة الرسول والعقائد الاسلامية فى العهد المكى • أما العهد المدنى فسنبحثه فى الجزء الثانى •

الفصل السادس عشر

أجداد الرسول وحياته قبل البعثة

قصى :

ولد الرسول ونشأ فى مكة ، متحدرا من أعرق عشائرها نسبا ، وأوسطها مكانا ولقصى مكانة خاصة بين اجداد الرسول ، فهو الذى استطاع أن ينتزع ادارة مكة من خزاعة ويجعلها لقريش التى توحدت بعد أن كانت متفرقة فى كنانة . وتروى المصادر العربية انه نشأ وشب عند اخواله بنى قضاعة[1] ، ثم جاء مكة وتزوج من بنت حليل الخزاعى الذى كان سيد مكة ، وقد تمكن بذلك وبمساعدة قضاعة من انتزاع سيادة مكة من ايدى خزاعة[2] (فولى قصى البيت وامر مكة وجمع قومه من منازلهم الى مكة وقريش اذ ذاك حلول وصرم وبيوتات متفرقون فى قومهم من بنى كنانة ، الا انه قد اقر للعرب ما كانوا عليه وذلك انه كان يراه دينا فى نفسه لا ينبغى تغييره فأقر آل صفوان وعدوان والنساة ومرة بن عوف على ما كانوا عليه حتى جاء الاسلام فهدم الله به ذلك كله فكان قصى اول بنى كعب بن لؤى اصاب ملكا اطاع له به قومه فكانت اليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء فحاز شرف مكة كله ، وقطع مكة رباعا بين قومه فانزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التى اصبحوا عليها ، ويزعم الناس ان قريشا هابوا قطع شجر الحرم فى منازلهم فقطعها قصى بيده واعوانه ؛ فسمته قريش مجمعا لما جمع من امرها وتيمنت بأمره فما تنكح امرأة ولا يتزوج رجل من قريش ، وما يتشاورون

---

(١) الطبرى : ج ٢ ص ١٨١–١٨٢ الازرقى : ج ١ ص ٥٧–٥٨ ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٣٦–٧ .

(٢) الطبرى : ج ٢ ص ١٨٢ ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٣٧ مروج الذهب : ج ٢ ص ٥٨ ويقول ابن قتيبة ان البيز نطيين ساعدوه (المعارف ص ٣١٣) ولعله يقصد بذلك الغساسنة .

فى امر نزل بهم ، ولا يعقدون لواءا لحرب قوم من غيرهم الا فى داره ، يعقده لهم بعض ولده ، وما تدرع جارية اذا بلغت أن تدرع من قريش الا فى داره ، يشق عليها فيها درعها ثم تدرعه ثم ينطلق بها الى اهلها . فكان امره فى قومه من قريش فى حياته ومن بعد موته كالدين المتبع لا يعمل بغيره . واتخذ دار الندوة وجعل بابها الى مسجد الكعبة ففيها كانت قريش تقضى أمورها[٣]) .

ويتبين من هذا النص ان قصيا اهتم بالامور الادارية والاجتماعية فحاول اعادة تنظيمها بشكل أدى الى تركيز كافة السلطات بيده ، وكانت له من قوة الشخصية ما أذعن له الناس فيه ، أما الشؤون الدينية فقد تركها بيد من كان يتولاها قبله فلم يمس منها ، الا ما رواه الازرقى من انه نقل اسافا ونائلة من الصفا والمروة ووضعهما على بئر زمزم عند الكعبة[٤] .

وقد أحدث قصى ايضا وقود النار بالمزدلفة وقد ظلت تلك النار توقد تلك الليلة فى الجاهلية وفى الاسلام[٥] .

لقد اورث قصى ابنه عبدالدار سلطاته فاعطاه دار الندوة كما اعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة[٦] .

وقد اورث عبدالدار هذه الامور من بعده ابنه عبدمناف ثم صارت من بعد هذا الى عامر بن عبدمناف بن عبدالدار .

غير ان بنى عبدمناف بن قصى نافسوا عامرا على ما كانت له من سلطات وأرادوا انتزاعها منه ، وقد ناصرهم على ذلك بنو أسد بن عبدالعزى وبنو زهرة

---

(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٣٧ الطبرى : ج ٢ ص ١٨٤ (عن ابن اسحق) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٣٩ انظر ايضا مروج الذهب ج ٢ ص ٥٨ .

(٤) الازرقى : ج ٢ ص ٧٠ .

(٥) الطبرى : ج ٢ ص ١٨٨ ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤٠ المحبر : ص ٢٣٦ ، ٣١٩ .

(٦) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤١ الطبرى : ج ٢ ص ١٨٤ . ويدعى الازرقى ان قصيا قسم الوظائف بين ابنيه عبدالدار وعبد مناف (اخبار مكة ج ١ ص ٦٢ ج ٢ ص ٨٧) .

وبنو تيم بن مرة وبنو الحرث بن فهر ؛ أما بنو عبدالدار فلم يستسلموا لمنافسيهم ، ووجدوا لهم مؤيدين فى بنى مخزوم وبنى جمح وبنى سهم وبنى عدى • وهكذا انقسمت قريش الى كتلتين متخاصمتين ، وكونت عشائر كل كتلة حلفا بينها • ويدعى حلف بنى عبدمناف حلف المطيبين ، أما حلف بنى عبدالدار فيدعى حلف لعقة الدم • ومن سوء الحظ ان المصادر لا تقدم معلومات اخرى عن دوافع المنافسة وعوامل التكتل أو كيفية حدوثه ، بل تكتفى بالقول بأن الخلاف سوى بطريقة سلمية بأن تبقى الحجابة واللواء والندوة بيد بنى عبدالدار أما السقاية والرفادة فتصبح لبنى عبدمناف[٧] •

هاشم :

لقد كان هاشم بن عبدمناف زعيم المعارضة لعامر بن عبدمناف بن عبدالدار فأخذ بعد الصلح السقاية والرفادة • وتتضح من الاخبار قوة شخصيته ونفوذه ففضلا عن حفره عدة آبار كبئر سخلة[٨] وبئر بذر[٩] فانه اول من اطعم الثريد للحجاج فى مكة[١٠] • وهو اول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء والصيف[١١] وهو الذى أخذ الايلاف (فأخذ لهم هاشم حبلا من ملوك الشام والروم وغسان وأخذ لهم عبدشمس حبلا من النجاشى الاكبر فاختلفوا بذلك السبب الى ارض الحبشة وأخذ لهم نوفل حبلا من الاكاسرة فاختلفوا بذلك السبب الى العراق وارض فارس وأخذ لهم المطلب حبلا[١٢]) ، ويتضح من هذه

---

(٧) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٤٣-٤ ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤٤-٤٥ المحبر : ص ١٦٦ مروج الذهب : ج ٢ ص ٥٩ ابن حزم : جمهرة النسب ص ١٤٩ •

(٨) الازرقى : ج ١ ص ٦٥ •

(٩) الازرقى : ج ١ ص ٦٤ ج ٢ ص ١٧٥ البكرى : معجم ما استعجم ص ٢٣٥ •

(١٠) الطبرى : ج ٢ ص ١٧٩ الاشتقاق : ص ٩ •

(١١) الطبرى : ج ٢ ص ١٨٠ ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤٣ •

(١٢) سيرة ابن هشام : ج١ ص ٥٧ ، ١٤٧ الطبرى : ج٢ ص ١٨٠-١٨١ المحبر : ص ١٦٢-١٦٣ •

النصوص ان علاقة هاشم باخوته كانت طيبة ، وان تجارة مكة قد ازدهرت وامتدت الى مختلف الاطراف ولا ريب ان الظروف الدولية قد ساعدت على ذلك اذ كانت العلاقات متوترة بين الفرس والروم فاستغل ذلك سادة مكة وصمموا على الاستفادة من ذلك بالوقوف موقف الحياد وحسن المعاملة مع كافة الدول وكان للتوتر الدولى أثر فى ازدهار الطريق الغربى . وقد مات هاشم بغزة[١٣] .

عبدالمطلب :

تزوج هاشم من امرأة يثربية من بنى النجار فولدت له شيبة الذى ولد وترعرع فى المدينة عند امه ثم عاد الى مكة[١٤] ، وكان ابوه قد توفى وولى من بعده السقاية والرفادة المطلب[١٥] اخو هاشم وقد سمى شيبة عبدالمطلب بالنسبة لعمه ولما توفى المطلب هذا ولى السقاية والرفادة عبدالمطلب وقد قام بحفر بئر زمزم عند الكعبة .

يروى ابن هشام ان قريشا نازعت عبدالمطلب على قيامه وحده بحفر بئر زمزم حتى اضطروا ان يلجأوا الى كاهنة بنى سعد هذيم لفض النزاع[١٦] ولا ريب انه لا يوجد مبرر قوى لمخاصمة قريش على حفره هذه البئر ، خاصة وان لكل عشيرة فى مكة تقريبا بئر او اكثر[١٧] . ولكن هذا الخبر يشير الى ان زعامته فى بادىء الامر لم تكن خالية من المنافسات سواء من بعض العشائر او زعماء قريش . ويروى ايضا ان نوفل ابن عبدمناف نافس عبدالمطلب على سقاية فى الصفا فاستنجد عبدالمطلب باخواله من بنى النجار[١٨] .

---

(١٣) الطبرى : ج ٢ ص ١٨١ .
(١٤) الطبرى : ج ٢ ص ١٧٦-١٧٧ .
(١٥) يقول السكرى (فلما هلك حرب بن امية ، وكان حرب رئيسا بعد المطلب تفرقت الرياسة والشرف فى بنى عبد مناف) المحبر : ص ١٦٥ .
(١٦) الطبرى : ج ٢ ص ١٧٨-١٧٩ ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤٩ الازرقى : ج ٢ ص ٣٤ .
(١٧) انظر عن آبار مكة الازرقى : ج ٢ ص ١٧٢-١٨٣ .
(١٨) الطبرى : ج ٢ ص ١٧٨-٩ نسب قريش : ص ١٩٧ .

حملة الاحباش :

ولعل ابرز حادث فى عهد عبدالمطلب هى غزو الاحباش لمكة وتشتت شمل الحملة وتروى المصادر العربية ان سبب الحملة هو ان ابرهة بنى كنيسة فى اليمن سماها القليس (يبدو ان اسمه مشتق من Ecclesia او الكنيسة) واراد ان تحجه العرب ولكن احد المكيين استاء من ذلك فجاء الى القليس وتغوط فيه فاغتاض ابرهة وجهز جيشا لاحتلال مكة وتدمير الكعبة فيها[١٩] . غير ان هذه القصة هزيلة فان ابرهة اذا كان قد بنى كنيسة نصرانية فى اليمن ليأتيها النصارى ، ولكنه لا يستطيع اجبار المشركين على زيارة الكنيسة النصرانية ، واذا كان قد فعل ذلك فان نطاق امره ينحصر فى اليمن وهى البلاد التى يحكمها ولا يمتد الى غيرها من المناطق فمكة اذا لا تغتاض من انشاء كنيسة نصرانية لان مركزها الدينى لا علاقة للنصارى به كما انه ليس لابرهة سلطة عليها فضلا عن ان هناك عدة بيوت مقدسة[٢٠] لم يرد في التاريخ خبر استياء اهل مكة منها فلماذا تستاء من القليس .

والارجح ان سبب هذه الحملة هو ما رواه بروكوبيوس من ان البيزنطيين فى صراعهم مع الساسانيين استمدوا ملك الحبشة ليعينهم بقوة عسكرية[٢١] دون ان يذكر مصيرها . ولعل هذه هى الحملة التى اشار اليها بروكوبيوس اى ان ملك الحبشة اشار على ابرهة ان يقود الحملة فتقدم بها سالكا طريق القوافل البرى الى سوريا لينضم الى الجيوش البيزنطية ويتقدم معها للهجوم على الساسانيين . وتشير الكتب العربية الى ان اهل مكة انسحبوا وان عبدالمطلب خرج يفاوض ابرهة لكى لا يمس بعض اباعر يمتلكها . وقد عجب ابرهة كيف ان كبير مكة وسيدها يفاوض على انقاذ ابله دون ان يتطرق الى مكة والكعبة ، باعتبار ان للبيت ربا يحميه ، كما

---

(١٩) الطبرى ج ٢ ص ١١٠ الازرقى : ج ١ ص ٨٢ سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٤٣ .

(٢٠) انظر ص ١٧٥ .

(٢١) كتاب الحرب الفارسية I ٢٠ (نقلا عن مقال اسماعيل أدهم فى مجلة الرسالة العدد ٣٤٩ - ١١ مارس سنة ١٩٤٠ .

تضع الرواية على لسان عبدالمطلب[٢٢] . ولا ريب ان هـذه الرواية هزيلة اذ ان زعيما كعبد المطلب لا يعقل ان يفاوض هذا الغازى على انقاذ ابله ، بل لابد ان تكون المفاوضة على امر اكبر واهم من اموره الخاصة . والراجح انه كان يفـاوض على امور تؤيد مصالح اهل مكة وانه وقف موقفا مشرفا بحيث انه بعد ان فشلت الحملة زادت مكانة عبدالمطلب عند اهل مكة .

لقد كان يرافق هـذه الحملة فيل[٢٣] وربما فيلة . وكان لاستخدام الفيل اثر فى نفوس العرب ، حتى لقد سموا سنة حدوثها عام الفيل ، ولا ريب ان كثيرا من الدول القديمة استخدمت الفيلة فى القتال ، ولكن العرب لم يألفوا الفيلة ، لذا كان لاستخدامها وقع كبير فى نفوس العرب حتى لقد سموا سنة حدوثها عام الفيل .

لقد اشار القرآن الى هذه الحملة فى سورة الفيل فقال تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسـل عليهم طيرا ابابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول » .

ومن المحتمل ان الطيرُ الابابيل وحجارة السـجيل كنايات عن وباء جارف تتسحهم كالجدرى أو غيره ، ويقول ابن اسحق انه حـدث ان اول ما رؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام[٢٤] .

أما عن اهمية هذه الحملة فيروى ابن جريج انه (لما اهلك الله تعالى من اهلك من ابرهة الحبشى صاحب الفيل وسلط عليـه الطير الابابيل عظمت جميع العرب قريشـا واهـل مكـة وقالوا اهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم فازدادوا من تعظيم الحرم والمشـاعر الحرام والشهر الحرام ووقروهـا ورأوا ان دينهم خـير الاديان واحبها الى الله ثم اوجدوا الحمس[٢٥]) .

---

(٢٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٥٠ـ٥١ الطبرى : ج ٢ ص ١١٢ (عن ابن اسحق) ص ١١٤ (عن الواقدى) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٥٥ .

(٢٣) الطبرى : ج ٢ ص ١١٣ .

(٢٤) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٥٥ .

(٢٥) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٥٩ الازرقى : ج ١ ص ٥٠ ويروى عن ابن اسحق انه لا يدرى هل كان انشاء الحمس قبل الفيل ام بعده (سيرة ابن هشام) ج ١ ص ٢١٦ .

عبدالله والرسول :

لقد كان لعبدالمطلب عدة اولاد من اصغرهم سنا عبدالله الذى تزوج من آمنة بنت وهب وهى من عشيرة زهرة القرشية • وقد توفى عبدالله فى حياة والده وترك أرملته وطفلها الوحيد يتيما • وهناك خلاف فى تاريخ وفاته لخصه المسعودى بقوله (توفى على ما روى جعفر بن محمد الطبرى بعد شهرين من مولده وقال بعضهم انه توفى قبل أن يولد وهذا غير صحيح لان الاجماع على انه توفى بعد مولده وقال آخرون بعد سنة من مولده[٢٦] (ويؤيد ابن الكلبى والسكرى ان عبدالله توفى وعمر النبى ثمانية وعشرون شهرا[٢٧] •

لقد قدر لمحمد بن عبدالله أن يختاره الله للرسالة ويقوم بالدعوة لدين الوحدانية المطلقة ، واستطاع بعد نضال أكثر من عشرين سنة أن ينشره بين العرب فى معظم انحاء جزيرة العرب ثم امتد بعد وفاته فشمل بلاد الشرق من اواسط آسيا الى جبال البرانير وامتد ايضا الى الهند والصين والملايو وجزر الهند الشرقية واواسط وغربى افريقية ثم صار هذا الدين اساس حضارة وتفكير العالم المتمدن فى العصور الوسطى ولا يزال حتى اليوم يلعب دورا هاما فى التوجيه الحضارى والفكرى والروحى والسياسى لمعتنقيه الذين يناهزون الاربعمائة مليون •

لا يشير القرآن الى سنة ولادة الرسول او عمره عند البعثة أو الهجرة أو الوفاة والواقع ان المؤرخين المسلمين مختلفون فى تعيين تاريخ حياته ومن الثابت انه توفى سنة ٦٣٢ ميلادية ولو عرفنا عمره آنذاك لأمكن تقدير سنة ولادته • والواقع ان المؤرخين والرواة اختلفوا فى ذلك ، فيروى الطبرى ثلاث روايات متباينة احداها عن ابن عباس ، وحماد ، وابن المسيب ، وعروة بن الزبير يذكرون فيها ان الرسول توفى وعمره ثلاث وستون سنة ، ورواية ثانية عن ابن عباس ايضا وعن الحسن البصرى بأن عمره خمس وستون سنة ، وعن عروة بن الزبير ان

---

(٢٦) مروج الذهب : ج ٢ ص ٢٨٠ •

(٢٧) رواية ابن الكلبى فى : ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ٦٢ الطبرى : ج٢ ص ١٣٠ المحبر : ص ٩ •

عمره عند وفاته ستون سنة[٢٨] .

نشأته :

وقد أرضعته حليمة السعدية وهى من قبيلة سعد هذيم[٢٩] . ويرى البعض ان ارضاعه خارج مكة لان هواء البادية أصح[٣٠] وليتعلم الفصاحة ولما كان مناخ مكة جاف صحى لا يختلف كثيرا عن مناخ الصحراء فلا يمكن اعتبار العامل الاول صحيحا وربما كان التعليل الثانى هو الاصح اذ من المعروف ان مكة مركز تجارى اتصل اهله بالبلاد الاخرى وجاءه كثير من الاجانب فدخلت فى لغة سكانه كثير من الكلمات الاعجمية والواقع ان القرآن قد نزل على لغة سعد هذيم واعجاز هوازن[٣١] . وروى عن ابن سعد عن الرسول انه قال أنا اعربكم أنا من قريش ولسانى لسان بنى سعد بن بكر[٣٢] .

وعندما كان فى حوالى السابعة من عمره توفيت امه بالابواء فى طريق عودتها من المدينة[٣٣] وبذلك اصبح يتيم الابوين وقد أشار القرآن الى ذلك « الم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك عائلا فأغنى ، ووجدك ضالا فهدى » (الضحى ٧-٩) ولا ريب ان اليتيم كان له تأثير عظيم فى نفسه . وفى القرآن آيات كثيرة تحض على حسن معاملة اليتيم وتتوعد من يظلمه ويأكل ماله بأشد العقوبات .

---

(٢٨) الطبرى : ج ٣ ص ٢٠٦-٢٠٧ انظر ايضا مروج الذهب : ج ٢ ص ١٩٠ .

(٢٩) الطبرى : ج ٢ ص ١٢٦ سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٧٢ اليعقوبى : ج ٢ ص ٦-٧ وقد ارضعته فى الايام الاولى من ولادته ثويبة مولاة ابى لهب (ابن سعد) ج ١ قسم ١ ص ٦٧ .

(٣٠) الطبرى : ج ٢ ص ١٢٧ .

(٣١) تفسير الطبرى ج ١ ص ٢٣ . أما عن الكلمات الاعجمية فى القرآن فانظر تفسير الطبرى : ج ١ ص ٦-٩ السيوطى : كتاب الاتقان فى علوم القرآن ج ١ ص ١٣٦-١٤٢ .

(٣٢) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٧١ .

(٣٣) الطبرى : ج٢ ص ١٣١ . اليعقوبى : ج٢ ص ٧ . ويروى المسعودى ان عمره سبع سنوات (مروج الذهب : ج ٢ ص ٢٨) ويروى السكرى ان عمره ثمان سنوات (المحبر : ص ٩) .

وقد توفى جده عبدالمطلب فى السابعة أو الثامنة من عمره[٣٤] وقد كفله عمه ابو طالب رغم انه لم يكن غنيا[٣٥] وقد ظل ابو طالب يرعاه حتى مات وكان اكبر من يحميه ويذب عنه كما كانت قريش تفاوضه عندما يشتد الخلاف بينهم وبين الرسول فكانت لهذه العلاقة اهمية كبرى فى تاريخ الرسول والدعوى الاسلامية فى أدوارها الاولى . والواقع ان الاضطهاد اشتد عليه بعد موت أبى طالب كما سنرى فيما بعد .

ولما بلغ الثانية عشر رافق عمه ابا طالب الى الشام[٣٦] . وقد رأينا ان للشام علاقات تجارية وثيقة مع الحجاز وقد وصل حتى بصرى وكانت من أهم مراكز التجارة الحجازية فى الشام ثم عاد الى مكة . ولا ريب ان صغر سنه وقصر مدة بقائه لم تتح له دراسة احوال سوريا .

الفجار وحلف الفضول :

ولما بلغ الرسول حوالى الخامسة عشر اشترك فى حرب الفجار التى نشبت بين قريش ومن معها من كنانة وبين عامر بن صعصعة لان احد رجال القبيلة الاخيرة اجار لطيمة للنعمان فغضب من ذلك احد الكنانيين . واعتدى على اللطيمة فى الشهر الحرام مما ادى الى نشوب الحرب بينهما . وناصرت قريش كنانة[٣٧] . ولعل الدافع لذلك هو خشية قريش وحليفتها كنانة ان تخرج من يدها التجارة .

وعلى أثر الفجار حدث حلف الفضول ، وكان سببه الظاهرى ان العاص

---

(٣٤) الطبرى : ج ٢ ص ١٣١ ، ١٩٤ ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٧٥ اليعقوبى : ج ٢ ص ١٠ مروج الذهب : ج ٢ ص ٢٨١ .

(٣٥) الطبرى : ج ٢ ص ٢١٣ سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٦٤ ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٨٢ ، ١٠١ .

(٣٦) يروى الطبرى (ج٢ ص ١٩٥) واليعقوبى (ج٢ ص ١٠) والمسعودى (ج ٢ ص ٢٩٣) ان عمره كان تسع سنوات وهو قليل جدا .

(٣٧) اليعقوبى : ج ٢ ص ١١ . أما الطبرى (ج ٢ ص ٢٠١) وابن سعد (ج ١ قسم ١ ص ٨١) والمسعودى (مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٥) فيروون ان عمره كان عشرين سنة ، فاذا صح ذلك فلابد ان عمله لم يقتصر على جمع النبل الذى هو من عمل صغار السن .

بن وائل السهمى مطل ثمن بضاعة ابتاعها من رجل يمانى ، فسعى بعض القرشيين لتكوين هذا الحلف ، لنصرة المظلوم : وقد عقد الاجتماع العام له فى دار عبدالله بن جدعان واشترك فيه بنو هاشم وبنو المطلب وبنو زهرة وبنو يتم بن مرة وبنو الحارث بن فهر ، وكونوا الحلف لينصفوا المظلوم من الظالم ؛ وقد حضره الرسول وروى انه قال (لقد شهدت فى دار عبدالله بن جدعان حلفا ما احب ان لى به حمر النعم ولو ادعى به فى الاسلام لأجبت[٣٨]) ويلاحظ ان قبائل حلف الفضول هم نفس قبائل المطيبين ما عدا بنى امية .

زواجه بخديجة :

ولما بلغ الخامسة والعشرين عمل فى تجارة لخديجة وهى سيدة من بنى اسد بن عبدالعزى كانت قد تزوجت ابى هالة التميمى فولدت له هند ثم تزوجت عتيق بن عائد المخزومى فولدت له ابنة اسمها هند ايضا[٣٩] .

وكانت امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم اياه بشىء تجعله لهم . وفرضت على الرسول (ص) أن يخرج فى مال لها الى الشام تاجرا مع غلام لها يدعى ميسرة فذهب وعاد بربح كبير[٤٠] . ويلاحظ ان هذه هى السفرة الثانية الى الشام ، ولم يرد فى الاخبار اطلاقا ذكر لسفرة قام بها الرسول الى أى مكان آخر ، رغم سعة اطلاعه على احوال ولهجات القبائل العربية ، كما انه لم يرد ذكر لغير هاتين السفرتين ؛ ومع انه لا يجوز المبالغة فى أثر هذه الرحلة نظرا لقصر مدتها ولانشغاله فى التجارة ، الا انه لابد وانها تركت فى نفسه أثرا قويا . ويلاحظ ان موقف الرسول بعد البعثة تجاه المسيحية كان معتدلا كما انه بعد قضاءه على مقاومة مكة توجه نحو الشمال كما فعل من بعده الخليفة ابو بكر كما سنتحدث فى الجزء الثانى .

---

(٣٨) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٤٥ (وهو يضيف ابن اسد بن عبد العزى لهم) المحبر ص ١٦٧ نسب قرش ص ٢٩١ مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٦ .

(٣٩) المحبر : ص ٧٩ الطبرى : ج ٢ ص ١٧٥ .

(٤٠) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٠٣-٢٠٤ الطبرى : ج ٢ ص ١٩٧ .

لقد تأثرت خديجة بما سمعته عن أمانته وعمله فطلبته وتزوجها[٤١] وقد ولدت له ما عدا ابراهيم كافة اولاده وهم كلثوم ورقية وزينب وفاطمة والقاسم وعبدالله الذى يروى ابن سعد واليعقوبى انه هو الطيب والطاهر[٤٢] . ويروى انه عندما تزوجها النبى كان عمرها اربعون سنة .

ومع ان سن اليأس فى البلاد الحارة ، ومنها مكة منخفض ، الا انه ليس من المستحيل على سيدة فى الاربعين من عمرها أن تنجب ستة اولاد ؛ ولكن الارجح ان عمرها كان أقل من الاربعين ، كيما يمكن أن تنجب هؤلاء الاولاد بصورة اعتيادية وان كانت هى على اى حال أكبر من الرسول . ومن المألوف فى الشرق ان المرء اذا تزوج بسيدة أكبر منه سنا فان الناس تقول عنها انها عجوز أو بقدر امه ، مع انها قد لا تزيد عنه أكثر من سنة أو سنوات قليلة .

لقد كان لخديجة تأثير كبير فى حياة الرسول ، فان ثروتها وغناها أمنا له حاجاته المادية فلم يعد الحصول عليها ليشغل وقته كما أمنت له الطمأنينة والرعاية التى كان يحس بلزومها بسبب يتمه .

ولعل هذا يفسر سبب عدم تزوجه بزوجة اخرى طيلة حياتها ، بينما بعد أن توفت أخذ يقبل على الزواج من عدة نساء كانت كل منهن تتميز بميزة خاصة كما سنتحدث فى الجزء الثانى .

كان لخديجة ايضا تأثير كبير فى تشجيعه وتثبيته عندما جاءه الوحى اول مرة وظلت تشجعه وتعاونه طيلة حياتها والواقع ان حياتها تعطى مثلا لمكانة المرأة العربية وهى تقدم أروع نموذج لما يجب أن تكون عليه الزوجة الفاضلة .

بناء الكعبة :

ولما بلغ الرسول الخامسة والثلاثين أرادت قريش بناء الكعبة ولما أرادوا

---

(٤١) يزعم بعض الرواة انهم سقوا اباها خمرا فوافق على الزواج وهو سكران (ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ٨٥) المحبر ص ٧٩ وهى رواية هزيلة ينكرها الواقدى ويقول ان اباها مات فى حرب الفجار (الطبرى ج ٢ ص ١٩٧) .

(٤٢) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٨٥ ، ج ٣ ص ٢ اليعقوبى : ج ٢ ص ١٤ المحبر : ص ٧٩ ابن حزم : جمهرة النسب ص ١٤ .

وضع الحجر الاسود بمكانه منها اختلفوا فيمن يضعه وقد حكموا الرسول فى ذلك وحكم بأن يوضع بثوب يشارك فى رفعه رجال من كافة القبائل الى أن اوصلوه مكانه من الكعبة فرفعه الرسول ووضعه مكانه(٤٣) وقد كان لحكم الرسول المتزن أثر كبير فى نفوس الناس فزادوا من تقديرهم لمواهبه وعدالته •

ان ما ذكرناه من الحوادث هى فقط التى تتردد فى كتب السيرة والتاريخ الاولى ويتضح منهـا مدى قلة معلوماتنـا عن نشـأته وأعماله وأصدقائه وعلاقاته الاجتماعية والسياسية ونشاطه الفكرى واتصالاته والمشاكل التى واجهته أو اشغلت فكره مما هو ضرورى لمعرفة مقدمات الدعوة التى كان لها الاثر الاكبر فى اعادة توجيه الملايين من البشر المنتشرين فى بلاد واسعة منذ أن انتصرت الى ما شاء الله •

---

(٤٣) انظر ص ١٧٦-١٧٩ •

الفصل السابع عشر

الوحى

يتفق الرواة المسلمون ان الرسول (ص) كان يتحنث فى غار حراء . ويبقى فيه أمدا ، ولا شك ان الاعتزال للتعبد امر معروف منذ القديم عند الشعوب والامم ، وله أهمية كبرى اذ يعطى الانسان مجال الاغراق فى التأمل والتفكير بمعزل عن الشواغل الدنيوية .

وهناك روايتان عن الدوافع التى دفعت الرسول الى التحنث : اولهما رواية ابن شهاب الزهرى عن عروة بن الزبير عن عائشة انها قالت : كان اول ما بدىء به رسول الله الوحى الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح . قالت فمكث على ذلك ما شاء الله وحبب اليه الخلوة فلم يكن شىء احب اليه منها . وكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه الليالى ذوات العدد قبل أن يرجع الى اهله ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجأه الحق وهو فى غار حراء[٢] .

أما الرواية الثانية فهى رواية ابن اسحق عن وهب بن كيسان عن عبدالله بن الزبير عن عبيد بن عمير بن قتادة الليثى حيث يقول « كان رسول الله (ص) يجاور فى حراء من كل سنة شهرا وكان ذلك مما تحنث به قريش فى الجاهلية ، والتحنث التبرر ، وقال ابو طالب : وراق ليرقى فى حراء ونازل . فكان رسول الله (ص) يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاءه من المساكين فاذا قضى

---

(١) لقد استفدنا فى بحث الوحى وطبيعته من الفصل السادس الذى كتبه توراندريه فى كتابه (محمد) ، وما كتبه وات فى كتابه (محمد فى مكة) ص ٣٩ فما بعد ، ومقال بيل عن دعوة الرسول ، فى مجلة العالم الاسلامى العدد ٢٤ سنة ١٩٣٤ (بالانكليزية) .

(٢) البخارى الكتاب كيف بدىء الوحى الباب الاول . كتاب تفسير القرآن (سورة ٩٦) ، كتاب التعبير عن الرؤيا الباب ١ ابن حنبل ج ٦ ص ٢٣٢-٢٣٣ ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ١٢٩ الطبرى ج ٢ ص ٢٠٨ .

رسول الله (ص) جواره من شهره ذلك كان اول ما يبدأ به اذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته فيطوف بها سبعا أو ما شاء الله من ذلك ثم يرجع الى بيته حتى اذا كان الشهر الذى أراد الله عز وجل فيه ما أراد من كرامته من السنة التى بعثه فيها وذلك فى شهر رمضان خرج رسول الله (ص) الى حراء كما كان يخرج لجواره معه اهله حتى اذا كانت الليلة التى اكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها جاءه جبريل بأمر الله[٣] » .

وبين الروايتين اختلافات ظاهرة : فرواية الزهرى تبين ان دافع التحنث هو ذاتى شخصى ، بعد فترة من الرؤيا ؛ وانه كان يتحنث الليالى ذوات العدد والتى لا نعلم عنها شيئا . أما رواية ابن اسحق فتبين ان التعبد هو عادة قرشية قديمة ، وانها تجرى فى شهر رمضان وانه لم يقم وحده ، بل يرافقه اهله فى ذلك . ويمكن أن يحدس المرء بأنه كان يتحنث عدة سنوات .

لا يذكر القرآن سن الرسول فى بدء مجىء الوحى ، بل يذكر (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون) (يونس ١٦) ولا شك ان كلمة العمر غير واضحة الحدود ؛ وقد اختلف المؤرخون فى سن الرسول عند مجىء الوحى ، فقال ابن المسيب ان عمره ثلاث واربعون سنة ، وقال انس بن مالك وعروة بن الزبير وابن عباس ان عمره عند بدء مجىء الوحى كان اربعين سنة[٤] . وجدير بالملاحظة ان العرب تعتبر سن الاربعين هو سن اكتمال النضج وقد أشار القرآن الى ذلك (حتى اذا بلغ اشده وبلغ اربعين سنة قال رب اوزعنى أن اشكر نعمتك التى انعمت على وعلى والدى) (الاحقاف ١٥) .

وينص القرآن على انه نزل فى رمضان (شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) (البقرة ١٨٥) وهناك آية اخرى تنص على نزول آيات فى غزوة بدر التى حدثت فى رمضان (ان كنتم آمنتم بالله وما

---

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٥٤ . الطبرى ج ٢ ص ٢٠٦-٢٠٧ .

(٤) الطبرى ج ٢ ص ٢٠١-٢٠٥ ، ٢٠٩ انظر ايضا ابن الاثير ج ٢ ص ١٦ ابن خلدون ج ٣ ص ٦ ابن كثير : البداية والنهاية ج ٣ ص ١-٢ الذهبى : تاريخ الاسلام ج ١ ص ٦٩ .

أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) (الانفال ٤١) غير ان سياق الآية لا يستلزم بدء نزول القرآن فى اليوم الذى يشبه يوم بدر ، فقد تعنى الاشارة الى آيات نزلت يوم وقعة بدر .

يشير القرآن الى يوم نزوله ، فيصفها بانها ليلة القدر والليلة المباركة (انا انزلناه فى ليلة القدر . وما ادراك ما ليلة القدر . ليلة القدر خير من الف شهر . تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل امر . سلام هى حتى مطلع الفجر) (القدر ١-٥) (حم والكتاب المبين انا انزلناه فى ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل امر حكيم امرا من عندنا انا كنا مرسلين) (الدخان ١-٥) . ومن الواضح ان هذه الآيات لا تعين بالضبط تاريخ تلك الليلة . كما لا تذكر فيما اذا كان القرآن نزل فى هذه الليلة الى السماء الدنيا ام كان بدء نزوله على الرسول . والواقع ان الرواة اختلفوا فى تعيين هذه الليلة ، فمنهم من قال انها ١٧ أو ١٨ أو ٢٤ رمضان[٥] ، ومنهم من قال انها ربيع الاول[٦] ، ومنهم من قال انها ٢٧ رجب[٧] .

أشار القرآن الى كيفية نزول الوحى بآيات (والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحى يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالافق الاعلى . ثم دنى فتدلى . فكان قاب قوسين أو ادنى . فاوحى الى عبده ما اوحى . ما كذب الفؤاد ما روى) (النجم ١-١١) (انه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم امين . وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالافق المبين . وما هو على الغيب بضنين . وما هو بقول شيطان رجيم) (التكوير ١٩-٢٥) . والراجح ان الآيتين تشيران الى رؤية الرسول للملك .

---

(٥) انظر فى هذه الروايات الطبرى ج ٢ ص ٢٠١ ابن الاثير ج ٢ ص ١٦ ابن كثير ج ٣ ص ٦ .

(٦) انظر : اليعقوبى ج ٢ ص ١٥ ابن كثير ج ٣ ص ٦ (عن ابن عباس وجابر بن عبدالله) زينى دحلان : ج ١ ص ٩٢ .

(٧) زينى دحلان : ج ١ ص ٩٢ .

وتروى عدة روايات عن بدء نزول الوحى :-

(١) فيروى ابن سعد عن هشام بن عروة عن عروة ان رسول الله (ص) قال يا خديجة انى أرى ضوءا واسمع صوتا لقد خشيت أن اكون كاهنا فقالت ان الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبدالله انك تصدق الحديث وتؤدى الامانة وتصل الرحم .

(٢) ويروى عن ابن عباس ما يشبه الرواية الاولى ثم يضيف الى ان خديجة .. أتت ورقة بن نوفل فذكرت له ذلك فقال أن يك صادقا فهذا الناموس مثل ناموس موسى فان يبعث وأنا حى فسأعزره وانصره وأؤمن به .

(٣) ويروى عن ابن عباس ايضا انه قال (فبينما رسول الله (ص) على ذلك التعبد ؟) وهو باجياد اذ رأى ملكا واضعا احدى رجليه على الاخرى فى افق السماء يصيح يا محمد انا جبريل يا محمد انا جبريل فذعر رسول الله (ص) من ذلك وجعل يراه كلما رفع رأسه الى السماء فرجع سريعا الى خديجة فأخبرها خبره وقال يا خديجة والله ما ابغضت بغضى هذه الاصنام شيئا قط ولا الكهان وانى لأخشى أن اكون كاهنا . قالت كلا يا ابن عم لا تقل ذلك فان الله لا يفعل ذلك بك ابدا ، انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدى الامانة وان خلقك لكريم . ثم انطلقت الى ورقة بن نوفل وهى اول مرة أتته فأخبرته ما اخبرها به رسول الله ، فقال ورقة والله ان ابن عمك لصادق ، وان هذا البدء نبوة ، وانه ليأتيه الناموس الاكبر فمريه الا يجعل فى نفسه الا خيرا[٨] .

(٤) ويروى الطبرى روايتين متشابهتين عن يحى بن كثير عن ابى سلمة انه سأل جابر بن عبدالله عن اول ما نزل من القرآن فقال جابر (لا احدثك الا ما حدثنا النبى (ص) قال جاورت فى حراء فلما قضيت جوارى هبطت فاستبطنت انوادى فنوديت فنظرت عن يمينى وعن شمالى وخلفى وقدامى فلم أر شيئا فنظرت فوق رأسى فاذا هو جالس على عرش بين السماء والارض فخشيت منه .. فلقيت

---

(٨) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٢٩-١٣٠ .

خديجة فقلت دثرونى فدثرونى وصبوا على ماءا وانزل على يا ايها المدثر قم فانذر[٩]) .

(٥) ويروى الطبرى ايضا عن الزهرى انه قال (فتر الوحى عن رسول الله (ص) فترة فحزن حزنا شديدا جعل يغدو الى رؤوس شاهق الجبال ليتردى منها فكلما اوحى بذروة جبل تبدى له جبريل فيقول انك نبى الله فيسكن لذلك جأشه وترجع اليه نفسه فكان النبى (ص) يحدث عن ذلك . قال فبينما أنا امشى يوما اذ رأيت الملك الذى كان يأتينى بحراء على كرسى بين السماء والارض فجئثت منه رعبا فرجعت الى خديجة فقلت زملونى فزملناه أى دثرناه فانزل الله عز وجل يا ايها المدثر قم فانذر وربك فكبر وثيابك فطهر قال الزهرى فكان اول شيء انزل عليه اقرأ باسم ربك الذى خلق حتى بلغ ما لم يعلم[١٠]) .

(٦) ويروى ابن اسحق بعد ان ذكر التحنث (حتى اذا كانت الليلة التى اكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها جاءه جبريل بامر الله فقال رسول الله (ص) فجاءنى وانا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال اقرأ فقلت ما اقرأ فغثنى حتى ظننت انه الموت ، ثم ارسلنى فقال اقرأ ، فقلت ماذا اقرأ ، وما اقول ذلك الا افتداءا منه أن يعود الى بمثل ما صنع بى قال اقرأ باسم ربك الذى خلق الى قوله علم الانسان ما لم يعلم قال فقرأته قال ثم انتهى ثم انصرف عنى وهببت من نومى وكانما كتب فى قلبى كتابا . قال ولم يكن من خلق الله احد ابغض الى من شاعر أو مجنون ، كنت لا اطيق أن انظر اليهما . قال قلت ان الابعد يعنى نفسه لشاعر أو مجنون لا تحدث بها عنى قريش ابدا لأعمدن الى حالق من الجبل فلأطرحن نفسى منه فلأقتلنها فلأستريحن ؛ قال فخرجت اريد ذلك حتى اذا كنت فى وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول يا محمد انت رسول الله وانا جبريل قال فرفعت رأسى الى السماء فاذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى افق السماء يقول يا محمد انت رسول الله وانا جبريل ، قال فوقفت انظر اليه وشغلنى ذلك عما اردت فما اتقدم وما اتأخر ، وجعلت اصرف وجهى عنه فى آفاق السماء فلا انظر

---

(٩) الطبرى : ج ٢ ص ٢٠٨-٢٠٩ .

(١٠) الطبرى : ج ٢ ص ٢٠٩ البخارى : كتاب التفسير (الآية ٩٦) .

فى ناحية منها الا رأيته كذلك ؟ فما زلت واقفا ما اتقدم امامى ولا ارجع ورائى حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى حتى بلغوا مكة ورجعوا اليها وانا واقف فى مكانى ثم انصرف عنى وانصرفت راجعا الى اهلى حتى اتيت خديجة فجلست الى فخذها مضيفا فقالت يا ابا القاسم اين كنت فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغو مكة ورجعوا الى قال قلت لها ان الابعد لشاعر أو مجنون ، فقالت اعيذك بالله من ذلك يا ابا القاسم ما كان الله ليصنع ذلك بك مع ما اعلم منك من صدق حديثك وعظم امانتك وحسن خلقك وصلة رحمك وما ذاك يا ابن عم لعلك رأيت شيئا قال فقلت لها نعم ، ثم حدثتها بالذى رأيت ؛ فقالت ابشر يا ابن عم واثبت فوالذى نفس خديجة بيده انى لارجو أن تكون نبى هذه الامة • ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت الى ورقة بن نوفل[١١]) •

(٧) ويروى الزهرى عن عروة عن عائشة انها قالت كان اول ما ابتدىء به رسول الله من الوحى الرؤيا الصادقة كانت تجىء مثل فلق الصبح ثم حبب اليه الخلاء فكان بغار بحراء يتحنث فيه الليالى ذوات العدد قبل أن يرجع الى اهله ثم يرجع الى اهله فيتزود لمثلها حتى فاجأه الحق فأتاه فقال يا محمد انت رسول الله • قال رسول الله (ص) فجثوت لركبتى وانا قائم ثم زحفت ترجف بوادرى ثم دخلت على خديجة فقلت زملونى زملونى حتى ذهب عنى الروع ، ثم أتانى فقال يا محمد انت رسول الله قال فلقد هممت أن اطرح نفسى من حالق جبل فتبدى لى حين هممت بذلك فقال يا محمد انا جبريل وانت رسول الله ثم قال اقرأ قلت ما اقرأ قال فاخذنى فغتنى ثلاث مرات حتى بلغ منى الجهد ثم قال اقرأ باسم ربك الذى خلق ؛ فقرأت ؛ فأتيت خديجة فقلت لقد اشفقت على نفسى فاخبرتها خبرى •• (ثم كلام يشبه ما جاء فى آخر النص السابق[١٢]) •

(٨) ويروى البخارى هذا الحديث برواية مخالفة فى بعضها حيث يقول •• حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال اقرأ قال ما انا بقارىء قال فاخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم ارسلنى فقال اقرأ فقلت ما انا

---

(١١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٥٤ الطبرى : ج ٢ ص ٢٠٧ •
(١٢) الطبرى : ج ٢ ص ٢٠٥-٢٠٦ •

بقارىء ، فاخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم ارسلنى فقال اقرأ فقلت ما انا بقارىء ، فاخذنى فغطنى الثالثة ثم ارسلنى فقال اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم ، فرجع بها رسول الله (ص) يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد (رض) فقال زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة واخبرها الخبر لقد خشيت على نفسى فقالت خديجة كلا والله ما يخزيك الله ابدا انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل[١٣] ...

ان فى هذه الروايات بعض الاختلاف ؛ فرواية ابن اسحق (٦) تنفرد فى ان جبريل جاء الرسول وهو نائم ، وهى تناقض ما جاء فى القرآن فلا يصح قبولها . ورواية عروة وابن عباس (١ ، ٢) تذكران انه كان يرى رؤيا واصواتا غير واضحة ولعلها تمثل الدور الاول الذى بدأ تعالى يمهد ذهن الرسول للوحى ، أما روايتى ابن عباس وجابر (٣ ، ٤) فتبينان ان الرسول رأى الملك فارتاع له ودهش وعاد الى داره مضطربا ثم نزل عليه الوحى بسورة المدثر . ولكن هاتين الروايتين لا تبينان طول الفترة التى مضت بين رؤية الملك ونزول سورة المدثر . أما رواية ابن اسحق والبخارى عن عروة (٦ ، ٨) فتذكران ان سورة اقرأ نزلت عليه ثم رأى الملك الذى اخبره بأنه نبى . أما رواية عروة فى الطبرى (٧) فتبين ان الملك اخبر الرسول بأنه نبى ثم انزل عليه سورة اقرأ . ومن المرجح ان سورة اقرأ هى التى نزلت اولا ، فاضطرب لها ولم يتثبت من مرامى نزولها ، فشجعته خديجة ، وثبته ورقة بن نوفل ، ثم اخبره الملك بأنه نبى وأنزل عليه يا ايها المدثر قم فانذر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ، أى ان الوحى طلب منه أن يقوم بالدعوة الى رسالته . على ان رؤية الملك سبقت نزول آية اقرأ ، كما يتضح ذلك من سورة النجم .

لقد وردت كلمة الوحى فى عدة آيات من القرآن الكريم : (وكذلك جعلنا

---

(١٣) البخارى : كتاب كيف بدىء الوحى الباب ١ كتاب تعبير الرؤيا الباب ١ كتاب التفسير (سورة ٩٦) . ابن حنبل : ج ٦ ص ٢٣٢-٢٣٣ .

لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون) (الانعام ١١٢) (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق ليوحون الى اوليائكم ليجادلوكم وان اطعتموهم انكم لمشركون) (الانعام ١٢١) (فخرج على قومه من المحراب فاوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا) (مريم ١٠) (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء انه على حكيم) (الشورى ٥١) (ان هو الا وحى يوحى .. فاوحى الى عبده ما اوحى) (النجم ٤ ، ١٠) (واذ اوحيت الى الحواريين ان آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد باننا مسلمون) (المائدة ١١٤) (اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم فثبتوا الذين آمنوا سالقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) (الانفال ١٢) (واوحى ربك الى النحل ان اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون) (النحل ٦٨) (واذ اوحينا الى امك ما يوحى) (طه ٣٨) (واوحينا الى ام موسى ان ارضعيه فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى) (القصص ٧) (فقضاهن سبع سماوات فى يومين واوحى فى كل سماء امرها) (السجدة ١٢) (اذا زلزلت الارض زلزالها . واخرجت الارض اثقالها . وقال الانسان ما لها . يومئذ تحدث اخبارها . بأن ربك اوحى لها) (الزلزال ١-٥) .

ويتبين من هذه الآيات ان الشياطين والكفار قد توحى ؛ وان الله تعالى يوحى ايضا الى السماء ، والى الارض ، والى الملائكة ، والى النحل ، والى البشر ، فاوحى الى ام موسى ، والى الحواريين ، والى الانبياء .

ومجيء الوحى يفترض وجود اله حى قادر يريد ارسال الوحى ويفترض من جهة اخرى وجود انسان قادر على استلام الوحى ، والوحى هو الوسيلة الوحيدة لكلام الله للبشر (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل اليه رسولا) (الشورى ٥١) ؛ وهكذا اوحى الله تعالى الى نوح والنبيين من بعده (النساء ١٦٣ ، المؤمنون ٢٧ ، هود ٣٦) والى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط (النساء ١٦٣) والى موسى (الاعراف ١١٧ ، ١٦٠ يونس ٨٧ طه ١٣ ، ٧٧ الشعراء ٥٢ ، ٦٣) ؛ واوحى الى الرسول العربى والذين من قبله (انظر النساء ١٦٣ ، الشورى ٣ ، الزمر ٦٥) . وقد اوحى الله تعالى الى الرسول

القرآن (يوسف ٣ ، ١٠٩ الشورى ٧ الانعام ١٩ انظر ايضا الكهف ٢٧ العنكبوت ٤٥) ؛ والرسول لا يتبع الا ما يوحى من ربه (انظر الاعراف ٢٠٣ وكذلك الانعام ٥٠ يونس ١٥ ، ١٠٩ الاحزاب ٢ الاحقاف ٩ النجم ٤ الانبياء ٤٥) الا انه تعالى لا يأتى بالوحى بنفسه ، فهو لا يرى عند مجيء الوحى ، وبذلك كان الرسول يعلم عن طريق الوحى بعض علم الله تعالى .

ان الوسيط الذى يأتى بالوحى ذكر فى القرآن باسماء منها الروح الامين (انه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين) (الشعراء ١٩٣-١٩٥) ومنها الروح القدس[١٤] (قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا) (النحل ١٠٢) ، ومنها الروح[١٥] (يلقى الروح من امره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق) (غافر ١٥) (وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا) (الشورى ٥٢) ، ومنها جبريل (قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله) (البقرة ٩٧) .

وعند مجيء الوحى تتأثر طبيعة الرسول ، ويحدث له بعض الانفعال كما روى ذلك عدد من الرواة فقد روى ابن سعد (عن عفان بن مسلم عن حماد بن سلمة عن قتادة وحميد عن الحسن عن حطان بن عبدالله الرقاش فن عبادة الصامت : ان النبى (ص) كان اذا نزل عليه الوحى كرب له وتربد وجهه) .

وعن عبيدالله بن موسى العبسى عن اسرائيل عن جابر عن عكرمة انه قال : كان اذا اوحى الى رسول الله (ص) وقذ لذلك ساعة كهيئة السكران .

وعن محمد بن عمر الاسلمى عن ابى بكر بن عبدالله بن ابى سبرة عن صالح بن محمد ابى سلمة بن عبدالرحمن عن ابى اروى الدوسى انه قال : رأيت

---

(١٤) لقد ذكر الروح القدس فى ثلاث آيات اخرى حيث ارسله الله ليؤيد عيسى (البقرة ٨٧ ، ٢٥٣) (المائدة ١١٠) .

(١٥) لقد وردت الروح فى آيات اخرى فان عيسى كلمة الله القاها الى مريم وروح منه (النساء ١٧١) وانه بروح منه يؤيد الذين آمنوا (المجادلة ٢٢) ، ونا الروح من امر الله (الاسراء ٨٥) وان الروح والملائكة تنزل على من يشاء (النحل ٢) (المعارج ٤) .

الوحى ينزل على النبى وانه على راحلته فترغو وتفتل يديها حتى اظن ان ذراعها ينفصم فربما بركت وربما قامت موتدة يديها حتى يسرى عنه من ثقل الوحى وانه ليتحدر منه مثل الجمار .

وعن حجين بن المثنى عن عبدالعزيز بن عبدالله بن ابى سلمة عن عمه انه بلغه ان رسول الله (ص) كان يقول : كان الوحى يأتينى على نحوين : يأتينى به جبريل فيلقيه على كما يلقى الرجل على الرجل فذلك يتفلت منى ويأتينى فى شىء مثل صوت الجرس حتى يخالط قلبى فذلك الذى لا يتفلت منى .

وعن معن بن عيسى عن مالك بن انس عن هشام بن عروة عن ابية عن عائشة انها قالت ان الحارث بن هشام قال يا رسول الله كيف يأتيك الوحى فقال رسول الله (ص) احيانا يأتينى فى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت ما قال ، واحيانا يتمثل لى الملك فيكلمنى فأعى ما يقول . قالت عائشة ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا .

وعن عبيدة بن حميد اليتمى - عن موسى بن ابى عائشة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس انه قال : كان النبى (ص) اذا نزل عليه الوحى يعالج من ذلك شدة قال كان يتلقاه ويحرك شفتيه كى لا ينساه فانزل الله عليه لا تحرك به لسانك لتعجل به[١٦] .

وقد أشار القرآن الى ما ينتاب الرسول من انفعال فقال تعالى (لا تحرك به لسانك لتعجل به . انا علينا جمعه وقرآنه . فاذا قرأناه فاتبع قرآنه) (القيامة ١٦-١٩) (فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقل ربى زدنى علما) (طه ١١٤) .

ان هذا التأثر والانفعال هو مظهر من مظاهر الاغراق فى المشاعر ؛ والواقع ان كثيرا من الشعراء والمفكرين يصيبهم مثل هذا الانفعال عند الاغراق فى التفكير ومجىء الهام الشعر ، فكيف بالوحى اذا جاء ؟

---

(١٦) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٣١ البخارى : كتاب بدء الخلق الباب ٧ .

ويتبين من الروايات التى اوردناها عن ابن سعد من ان الرسول كان عند مجيء الوحى مثل صلصلة الجرس أو كان يلقى عليه القول ، ان الوحى هو سمعى لا بصرى ، ويؤيد هـذا الآيتان اللتان اوردناهما ، بل ان التنزيل يسمى القرآن من القـراءة ، كمـا وردت كلمـة الاقراء (اقرأ باسـم ربك الاكرم) (العلق ١) (سنقرؤك فلا تنسى الا ما شاء الله) (الاعلى ٦) .

لقد تحدى القرآن المنكرين لوحى القرآن ، بأن يأتوا بمثله (وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) (البقرة ٢٣) (ام يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) (يونس ٣٨) (ام يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) (هود ١٣) (ام يقولون تقوله بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين) (الطور ٣٣-٣٤) (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) (الاسراء ٨٨) .

لقد ادرك المشركون ان القرآن كلام غير عادى ، ولكنهم عزوه الى الشياطين أو الجن ؛ واتهموا الرسـول بالجنـون (انظـر الاعراف ١٨٤ ، المؤمنـون ٧٠ سـبأ ٨ ، ٤٦ الحجر ٦ الطور ٢٩ القلم ٢ ، ٥١ التكوير ٢٢) .

واتهموه ايضا بأنه كاهن (انظر الحاقة ٤٢ ، الطور ٢٩) كما اتهموه بأنه شاعر (بل قالوا اضغاث احلام بل افتراه بل هو شاعر) (الانبياء ٥) (ويقولون أانا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) (الصافات ٣٦) (ام يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) (الطور ٣٠ انظر ايضـا الشعراء ٢٢٤) وقد رد على هـذه التهمة (وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون) (الحاقة ٤١) (وما علمناه الشعر وما ينبغى له ان هو الا ذكر وقرآن مبين) (يس ٦٩) . وقد رد القرآن ايضا على التهم السابقة بقوة وشدة وأكد على انها آتية من مصدر علوى هو الله تعالى ، وان فيها حكمة وانقاذا للعالم .

على ان الملاحظ ان هؤلاء المشركين لم يتهموا الرسول بالتفلسف ، فكأنهم وهم كفار ، رأوا ان روح الوحى اقرب الى الشعر والكهانة منها الى الفلسفة ، فأتهموه بذلك . والواقع ان مصدر الشعر هو الالهام Intuition أمـا مصـدر الفلسفة فهو العقل .

والواقع ان الباحثين فى نظرية المعرفة ادركوا منذ الازمنة القديمة وجود طريقين للمعرفة المطلقة ، احدهما طريق المنطق والعقل ويتجلى فى اوج مظاهره عند الرياضيين ، وأكثر من يتبع هذه الطريقة هم العلماء والمناطقة والفلاسفة ، وأشد من يدافع عنها العقليون Rationalists والماديون Materialists الذين بلغ التطرف ببعضهم حدا كبيرا فتصوروها الطريقة الوحيدة للمعرفة الصحيحة ، فأنكروا غيرها من وسائل المعرفة .

غير ان هذا التطرف لا ينبغى ان يحملنا على انكار الاهمية الكبرى للطريقة الثانية من المعرفة ، وهى طريقة الالهام التى لا تأتى عن طريق التفكير المادى والتجارب ؛ ولكنها تقودنا الى المعرفة ايضا . فبطريقة الالهام يبدع الشاعر شعره والفنان صوره ، والموسيقار ألحانه ؛ وبالالهام يدرك هؤلاء من الصور والعلاقات بين الامور ما لا يدركه الطبيعيون مهما بلغ ذكاؤهم . ولعل كثيرا من الناس مرت به لحظة أو لحظات من التجلى ، يحس بها فى فكرة أو رأى خاطف يمر به كلمح البرق ، ويتجلى فيه حل مشكلة اعظلت عليه ، أو جواب مسألة اغلقت عليه ، أو فكرة رائعة انكشفت له ، ولم يكن ليراها رغم طول ما فكر فيها . هذه هى الطريقة الثانية للمعرفة : هى وسيلة الالهام بالبصيرة Intuition وهى التى بحثها كثير من المفكرين القدماء وكانت من أهم مواضيع الفلسفة الاسلامية ، وساهم المسلمون بقسط وافر فى ايضاحها وتبيان أهميتها فى كشف أسرار الكون ، وفى علاقتها مع طريقة المنطق والفلسفة[١٧] ، وهى التى بحثها الفلاسفة المحدثون ، وخاصة برجسون ومؤيدوه . والوحى ولا شك اسمى انواع الالهام لا يقتصر على مجرد منطق العقول الناقص ، بل يخاطب بصائر القلوب ، وبه يعلم الله تعالى الاسرار الكونية ، ويعطى نظرة شاملة لتفسيرها وتوضيحها مما لم تصل اليه العلوم الطبيعية .

---

(١٧) ان ايراد اسماء كافة الكتب والباحثين المسلمين فى هذا الموضوع قد يطول جدا ، نكتفى منه بذكر بحث الغزالى فى (احياء علوم الدين) و (المنقذ من الضلال والموصل الى ذى العزة والجلال) و (حى بن يقظان) لابن الطفيل و (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال) لابن رشد .

الفصل الثامن عشر

مبادىء الاسلام الاولى (١)

الاسلام :

ان الدين الذى دعى الرسول الناس الى اعتناقه يطلق عليه الاسلام (ان الدين عند الله الاسلام) (آل عمران ١٩) (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه) (آل عمران ٨٥) (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) (المائدة ٣) (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) (الانعام ١٢) (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه) (الزمر ٢٢ انظر ايضا الصف ٧ الحجرات ١٧ التوبة ٧٤) ٠

ويدعى معتنقوا هذا الدين المسلمون (قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأننا مسلمون) (آل عمران ٦٤) (يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون) (آل عمران ١٠٢) (قل انما يوحى الى انما الهكم اله واحد فهل انتم مسلمون) (الانبياء ١٠٨) (وما انت بهادى العمى عن ضلالاتهم أن تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) (النحل ٨١ انظر ايضا الروم ٥٣) (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) (النحل ٨٩) ٠

وان ابراهيم وبنيه ويعقوب ويوسف واسماعيل واسحق والحواريين ومن آمن بموسى ونوح واهل الكتاب كل هؤلاء ذكر القرآن الكريم بانهم مسلمون

---

(١) لن يتسع النطاق هنا لايراد كافة الابحاث عن الاسلام فى اللغة العربية ، لكثرتها ، أما فى اللغة الانكليزية فاعمق بحث هو كتاب محمد اقبال (اعادة تكوين الفكر الدينى الاسلامى) وكتاب امير على (روح الاسلام) ؛ وقد بحث بيل فى كتابه (مقدمة للقرآن) وسيل فى مقدمته لترجمة القرآن ، كثيرا من المؤسسات الاسلامية التى وردت فى الآيات القرآنية ٠

(واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم • ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم • ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين • اذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين • ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون • ام كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله آباءك ابراهيم واسماعيل واسحق الاها واحدا ونحن له مسلمون) (البقرة ١٢٧-١٣٣) •

(رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث فاطر السماوات والارض انت ولىى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما والحقنى بالصالحين) (يوسف ١٠١) (فلما احس عيسى منهم الكفر قال من انصارى الى الله قال الحواريون نحن انصار الله آمنا بالله واشهد بانا مسلمون) (آل عمران ٥٢) (واذ أوحيت الى الحواريين ان آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد باننا مسلمون) (المائدة ١١١) (وما تنقم منا (السحرة لفرعون) الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا افرغ علينا صبرنا وتوفنا مسلمين) (الاعراف ١٢٦) (وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين) (يونس ٨٤) (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى اذا ادركه الغرق قال آمنت بالله انه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين) (يونس ٩٠) (واتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه : فان توليتم فما اسألكم من أجر ان أجرى الا على الله وامرت ان اكون من المسلمين) (يونس ٧٢) (قالت (بلقيس) يا ايها الملأ انى القى الى كتاب كريم • انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم • الا تعلوا على واتونى مسلمين) (النحل ٢٩-٣١) (قال (سليمان) ••• يا ايها الملأ ايكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين) (النحل ٣٨) (فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) (النحل ٤٢) (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون • واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين) (القصص ٥٣) •

على ان كلمة الاسلام قد تحددت باتباع الدين الذى دعا اليه الرسول وبهذا

التحديد يستعمل هذا التعبير حتى اليوم • ولا ريب ان كلمة اسلم واسلام ومسلمون وردت فى الآيات المكيـة غير اننـا لا نستطيع أن نحدد بالضبط فى أى سنة من البعثة نزلت •

وكلمة الاسلام جذرها الثلاثى سلم بمعنى نجى أو خلص أو لم يصب بأذى أو كسر ومنها كلمة أسلم (وهو الفعل الذى مصدره الاسلام) ومعناها استسلم (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه) (البقرة ١١٢ أنظر ايضا النساء ١٢٥) (فان حاجوك فقل اسلمت وجهى لله ومن اتبعنى) (آل عمران ٢٠) (وامرت ان اسلم لرب العالمين) (غافر ٦٦ أنظر ايضا الانعام ٧١) • ولا ريب ان المقصود منها خضوع المرء لله تعالى وانقياده لاوامره وطاعته لاحكامه والاستسلام له وان لا حول ولا قوة الا بالله • غير ان هذا لا يعنى الانقياد الاعمى ، كلا بل هو استسلام عن تعقل وتفكـير (وان منا المسلمون ومنا القاسطون فمن اسلم فاولئك تحروا رشدا) (الجن ١٤) (ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها • قـد افلح من زكاها وقد خاب من دساها) (الشمس ٧ ـ ١٠) • والحق ان الاسـلام ينادى دائما باستعمال العقل والتبصر والنظر والتفكير والتدبير • وكلها تعابير تردد ورودها فى القرآن وخاصة فى الدور المكى• ولا ريب ان الاسلام يتطلب الايمان المنبعث من القلب والعقيدة حتى ان كلمـة المؤمنين كثيرا ما كانت مرادفة لكلمـة المسلمين •

الوحدانيـة :

واساس الاسلام هو الدعوة الى عبادة اله واحد مطلق هو الله تعالى •

لقد كانت عبادة الله معروفة قبل الاسـلام • فقد رأينا ان الآيات القرآنيـة توضح ان المشركين العرب كانوا يعبدون الله ويرون انه خالق كل شىء وانه يرزقهم من السماء والارض ويملك السمع والابصـار ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويدبر الامر وانه رب السمـاوات السبع ورب العرش العظيم • ولكنهم كانوا يشركون به الهة اخرى يعتقدون بانها بنات الله وشفعاؤهم عنـده ، وهم يكفرون ببعض نعمه فهو اذاً اعتقاد غير منزه وبعيد عن الوحدانية[٢] •

---

(٢) انظر ص ١٤٨ـ١٥٢ •

أما الاسلام فقد جاء بفكرة التوحيد المطلق ، وانكر الشرك وهاجم الآلهة التى يدينون بها من دون الله .

ولاشك ان فكرة التوحيد قديمة وهى موجودة عند بعض الامم القديمة . ولعل اشهر من نادى بها من الاقدمين هو اخناتون الذى دعا الى عبادة اله واحد وهو آتون وبذل جهدا لنشر ديانته ولكنه لقى مقاومة شديدة واخيرا مات من دون ان يستطيع تثبيت أقدام دعوته .

ثم بنى اسرائيل دعاهم النبى موسى الى التوحيد واستطاع ان يجعلهم يدينون به . غير ان بنى اسرائيل كانوا يشعرون بان الله ربهم وهو يفضلهم على العالمين ويحميهم وينصرهم وينتقم لهم من اعدائهم ، فكأن الله ربهم فقط من دون العالمين ؛ وهى نظرة ضيقة لا تساعد على نشر التوحيد بين الناس . والواقع ان اليهودية ظلت محصورة بالدرجة الاولى بين اليهود ولم يعتنقها من غيرهم الا القليل . ولعل ذلك راجع الى هذه النظرة الضيقة والتعصب والغرور الذى يضع بنى اسرائيل فوق العالمين مما يجعل غيرهم من الشعوب اذا دانوا باليهودية يصبحون اقل من اليهود مرتبة ؛ هذا فضلا عن القيود الشديدة التى كانت تفرضها الديانة اليهودية على اتباعها من صيام وصلوات واحترام السبت وما الى ذلك .

على ان اليهود قد مهدوا الافكار فى الجزيرة العربية الى فكرة الاله الواحد والبعث والحساب والملائكة وغير ذلك[٣] .

كما ان النصارى كانت تدين بها ولكن كثيرا من الفرق المسيحية لم تنزه الله فاعتبرت المسيح هو الله أو ابن الله أو انه انسان فى الارض واله فى السماء أى ذى طبيعتين .

والواقع ان القرآن الكريم أكد فى عدد من الآيات ان الدعوة الاسلامية هى تصديق لما جاء فى الكتب المقدسة وطلب من المشركين أن يسألوا اهل الذكر فى ذلك (ان هذا لفى الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى) (الاعلى ١٨-١٩) (انه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين .

---

(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٣١ . ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٠٦ .

بلسان عربى مبين • وانه لفى زبر الاولين • أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى اسرائيل) (الشعراء ١٩٢-١٩٧) (واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين • قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا انزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق الى طريق مستقيم) (الاحقاف ٢٩-٣٠) (ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة وهذا الكتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشر المحسنين) (الاحقاف ١٢) (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى اوحينا اليك وما اوحينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب) (الشورى ١٣) (قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا) (الاسراء ١٠٧-١٠٩) (قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ثم ان الله لا يهدى القوم الظالمين) (الاحقاف ١٠) (ويقول الذين كفرو لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب • والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين) (البقرة ١٤٧) (فان كنت فى شك مما انزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) (يونس ٩٤) •

الحنيفية :

وفى القرآن آيات متعددة تشير الى الدين الحنيف الذى هو ملة ابراهيم التى جاء الاسلام لتجديدها (وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) (البقرة ١٣٥) (قل اننى هدانى ربى الى صراط مستقيم • دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) (الانعام ١٦) (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفاً مسلما وما كان من المشركين • ان اولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين) (آل عمران ٦٥-٦٨) (ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) (النحل ١٢٢) (ان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفا ولم يكن من المشركين) (النحل ١٢٠) (ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله وهو محسن

وانبع ملة ابراهيم حنيفا) (النساء ١٢٥) (قل يا ايها الناس ان كنتم فى شك من دينى فلا اعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن اعبد الله الذى يتوفاكم وامرت ان اكون من المؤمنين • وان اقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين) (يونس ١٧٤-٥) (فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) (الحج ٣٠-٣١) (فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله • ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون) (الروم ٣٠-٣١) (انى وجهت وجهى للذين فطر السماوات والارض حنيفا) (الانعام ٧٩) (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) (البينة ٥) •

يتبين من هذه الآيات ان الحنيفية هى الدين الصحيح وانها ديانة ابراهيم الخليل وانها تتميز عن الديانات الموحدة الاخرى كاليهودية والنصرانية وهى تمثل الدين الاصلى الحقيقى النقى المقابل للوثنية أو لديانات اهل الكتاب المشوهة •

وقد وردت الحنيفية ايضا فى عدد من الاحاديث النبوية فقد روى ابن حنبل عن يحى بن سعيد عن هشام عن قتادة عن مطرف عن عياض بن حمار : ان النبى (ص) خطب ذات يوم فقال فى خطبته ان ربى عز وجل امرنى ان اعلمكم ما جهلتم مما علمنى فى يومى هذا : كل مال نحلته عبادى حلال وانى خلقت عبادى حنفاء كلهم وانهم اتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما احللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بى ••

وروى ايضا عن اسحق بن عيسى عن يحى بن سليمان عن عبدالله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن ابى راشد عن التنوخى انه جاء رسول الله •• (قال ممن انت ، فقلت انا احد تنوخ ، قال هل لك فى الاسلام الحنيفية ملة ابيك ابراهيم ••) • وروى ايضا عن سليمان بن ابى داود عن عبدالرحمن عن ابية (قال لى عروة ان عائشة قالت قال رسول الله (ص) يومئذ لتعلم يهود ان فى ديننا فسحة انى ارسلت بحنيفية سمحة) ؛ وعن ابى المغيرة عن معاذ بن رفاعة عن على بن يزيد عن القاسم عن ابى امامة •• (فقال النبى (ص) انى لم ابعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكنى بعثت بالحنيفية السمحة) • وعن يزيد عن محمد بن اسحق عن داود بن الحصين

عن عكرمة عن ابن عباس (قيل لرسول الله (ص) أى الاديان احب الى الله قال ، الحنيفية السمحة[٤]) .

وقد ورد ذكر الحنيف فى بعض الابيات الجاهلية والاسلامية الاولى فقال ذو الرمة يصف الحرباء :

يظل بها الحرباء للشمس مائلا على الجذل الا انه لا يكبر
اذا حول الظل العشى رأيته حنيفا وفى قرن الضحى يتنصر

ويقول ابن برى فى شرح ذلك انه اذا حول الظل العشى وذلك عند ميل الشمس الى جهة المغرب صار الحرباء متوجها للقبلة فهو حنيف ، فاذا كان فى اول النهار فهو متوجه للشرق لان الشمس تكون فى جهة المشرق فيصير متنصرا لان النصارى تتوجه فى صلاتها جهة المشرق[٥] .

وقال صخر الغى :

كان تواليه بالملا نصارى يساقون لاقوا حنيفا

ويقول السكرى فى شرح هذا البيت يسوق فيها صوت كصوت النصارى يقول يسوقون فى عيد لهم لاقوا حنيفا فاحتفلوا له فى هذا العيد ، والحنيف من غير دينهم فاحتفلوا له وكذلك من لقى من هو على غير دينه فاخلط . يقول لا يكاد يبرح مثل هؤلاء النصارى الذين عزفوا[٦] .

وقال ايمن بن خريم :

وصهباء جرجانية لم يطف بها حنيف ولم تنفر لها ساعة قدر[٧]

وقال جرير :

وحالفتهم للوم يا آل درهم حلاف النصارى دين من يتحنف[٨]

---

(٤) هذه الاحاديث مواضع من المسند بالتتابع ج ٤ ص ١٦٢ ، ج ٣ ص ٤٤٢ ، ج ٦ ص ١١٦-٢٣٣ ، ج ٥ ص ٢٦٦ ، ج ١ ص ٢٣٦ .
(٥) لسان العرب : ج ١٣ ص ٢٠٦ .
(٦) ديوان الهذليين : ج ٢ ص ٧١-٧٢ .
(٧) الاغانى : ج ١٦ ص ٤٤ معجم البلدان : ج ٢ ص ٥١ .
(٨) نقائض جرير والفرزدق ص ٥٩٥ .

وقد جمع ابن منظور آراء كثير من اللغويين فى تحديد معنى الحنيف فقال (الحنيف المائل من خير الى شر ومن شر الى خير ...) تحنف مال الحنيف المسلم الذى يتحنف عن الاديان اى يميل الى الحق وقيل هو الذى يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة ابراهيم (ص) وقيل هو المخلص وقيل هو من اسلم من امر الله فلم يتلو فى شىء ... وقال ابو عبيدة فى قوله عز وجل (بل ملة ابراهيم حنيفا) قال من كان على دين ابراهيم فهو حنيف عند العرب ، وكان عبدة الاوثان فى الجاهلية يقولون نحن حنفاء على دين ابراهيم ، فلما جاء الاسلام سموا المسلم حنيفا وقال الاخفش الحنيف المسلم ، وكان فى الجاهلية يقال لمن اختتن وحج البيت حنيف لان العرب لم تتمسك بشىء من دين ابراهيم غير الختان وحج البيت ، فكل من اختتن وحج قيل له حنيف فلما جاء الاسلام تمادت الحنيفية فالحنيف المسلم . وقال الزجاج ومعنى الحنيفية فى اللغة الميل ، والمعنى ان ابراهيم حنيف الى دين الله ودين الاسلام ... الفراء الحنيف من سنته الاختتان . وروى الازهرى عن الضحاك فى قوله عز وجل حنفاء لله غير مشركين به قال حجاجا ، وكذلك قال السدى ... وقد قيل ان الحنف الاستقامة ... ابو منصور الحنيفية فى الاسلام الميل اليه ... الجوهرى الحنيف المسلم وقد سمى المستقيم بذلك وتحنف الرجل أى عمل عمل الحنيفية ويقال له اختتن ويقال اعتزل الاصنام وتعبد .

قال جران العود :

لما رأين الصبح بادرن ضوءه ... رسيم قطا البطحاء أو هن اقطف
وادركن اعجازا من الليل بعدما ... اقام الصلاة العابد المتحنف

وقال ابو ذؤيب :

اقامت به كمقام الحنيف ... شهرى جمادى وشهرى صفر

الزجاج الحنيف فى الجاهلية (من كان يحج البيت ويغتسل من الجنابة ويختتن فلما جاء الاسلام كان الحنيف المسلم وقيل له حنيف لعدوله عن الشرك[٩]) ويتضح من كلام ابن برى ان الحنيف كان يتوجه الى القبلة فى صلاته

---

(٩) لسان العرب : ج ١٠ ص ٤٠٢-٤٠٤ .

ومن كلام صخر الغى وجرير انه يختلف عن النصارى ومما رواه ابن منظور ان الحنيف هو المنحرف أو المائل وانه يدين بدين ابراهيم ويستقبل القبلة ويختتن ويحج البيت ويعتزل الاصنام ويغتسل من الجنابة .

لقد روت الاخبار اسماء عدد من هؤلاء الحنفاء فيقول ابن اسحق (واجتمعت قريش يوما فى عيد لهم عند صنم من اصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويديرون به ، وكان ذلك عيدا لهم فى كل سنة يوما ، فخلص منهم اربعة نفر نجيا ثم قال بعضهم لبعض تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض ، قالو اجل وهم ورقة بن نوفل بن اسد بن عبدالعزى بن قصى .. وعبيدالله بن جحش بن اسد بن خزيمة ، وكانت امه اميمة بنت عبدالمطلب ، وعثمان بن الحويرث بن اسد بن عبدالعزى بن قصى ، وزيد بن عمرو بن نفيل بن عدى بن كعب بن لؤى . فقال بعضهم لبعض تعلموا والله ما قومكم على شيء . لقد اخطأوا دين ابيهم ابراهيم ما حجر نطيف به ولا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ، يا قوم التمسوا لانفسكم فانكم والله ما انتم على شيء فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين ابراهيم . فاما ورقة بن نوفل فاستحكم فى النصرانية واتبع الكتب من اهلها حتى علم علما من اهل الكتاب . واما عبيدالله بن جحش فاقام على ما هو عليه من الالتباس حتى اسلم ثم هاجر مع المسلمين الى الحبشة ومعه امرأته ام حبيبة بنت ابى سفيان مسلمة ، فلما قدمها تنصر وفارق الاسلام حتى هلك هنالك نصرانيا . واما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده ، واما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف ولم يدخل فى يهودية ولا نصرانية ، وفارق دين قومه فاعتزل الاوثان والميتة والدم والذبائح التى تذبح على الاوثان ونهى عن قتل الموؤدة وقال اعبد رب ابراهيم وبادى قومه بعيب ما هم فيه[١٠] . ويذكر ابن قتيبة فى فى الفصل الذى عنوانه (قصة من كان على دين قبل مبعث النبى (ص) هؤلاء ويضيف اليهم (امية بن ابى الصلت وكان امية قد قرأ الكتب ورغب عن عبادة

---

(١٠) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٤٢-٢٤٤ المحبر : ص ١٧١-١٧٢ .
وانظر عن زيد بن عمرو بن نفيل وعلاقته بالرسول الاشتقاق ص ٨٤
ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ٢٧٦ .

الاوثان وكان يخبر بأن نبيا يبعث قد اضل زمانه ، فلما سمع بخروج النبى (ص) كفر حسدا له ولما نشد رسول الله (ص) شعره آمن لسانه وكفر قلبه وقس بن ساعدة الايادى ، وهو حكيم العرب ، وذكر رسول الله (ص) انه رآه يخطب بعكاظ على جمل احمر واقتص ابو بكر قصته وانشد شعره • وابو قيس صرمة بن ابى انس وهو من بنى النجار ، وكان ترهب ولبس المسوح وفارق الاوثان وهم بالنصرانية ثم امسك عنها ودخل بيتا له فاتخذه مسجدا لا يدخله طامث ولا جنب وقال اعبد رب ابراهيم ، فلما قدم رسول الله (ص) المدينة اسلم وحسن اسلامه ، وهو القائل فى رسول الله ••• وخالد بن سنان بن غيث هو من بنى عبس بن بغيض وروى ان رسول الله (ص) قال ذلك نبى اضاعه قومه ••• واتت ابنته رسول الله (ص) فسمعته يقرأ قل هو الله احد فقالت كان ابى يقوم ذا[١١]) •

يتبين من هذه النصوص التى تتردد فى الكتب العربية ان هؤلاء الحنفاء كانوا فى الحجاز ومهدوا الافكار لدعوة الرسول • ويظهر ان عددهم كان ملحوظا وربما كان هناك آخرون لم يردنا عنهم شيئا ولم يقتصروا على الحجاز وحده بل كانوا فى اليمامة ايضا على الاقل حيث تقيم قبيلة « حنيفة » وحيث ادعى مسيلمة انه عبدالرحمن وادعى النبوة ودعى الى عبادة الرحمن[١٢] •

لا تعطينا المصادر معلومات وافية دقيقة واضحة عن دين وعبادات هؤلاء الحنفاء • وكلما يمكن استنتاجه من هذه المعلومات القليلة ان عقائدهم هى احتجاج على تعدد الآلهة والشرك وعبادة الاصنام • والطقوس الوثنية وانها تميل الى العزلة والتوحيد وان معتنقيها كانوا يقدرون الاديان السماوية ، ولكنهم لم يكونوا يهودا أو نصارى • وان هذه الديانة هى اقرب الى الاسلام ، وهى تؤكد على صلتها بدين

---

(١١) المعارف : ص ٢٧-٢٩ •

(١٢) يقول ابن سعد انه (بعث قريش النضر بن الحرث بن علقمة وعقبة بن ابى معيط وغيرهما الى يهود يثرب وقالوا لهم سلوهم عن محمد ، فقدموا المدينة فقالوا أتيناكم لامر حدث فينا غلام •• يقول قولا عظيما يزعم انه رسول الرحمن ولا نعرف رحمانا الا رحمان اليمامة) ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ١٠٨ انظر ايضا تفسير الطبرى ج ١٠ ص ٧٠ انظر عن دعوة مسيلمة للرحمن الطبرى ج ٣ ص ٢٤٥-٢٤٦ البلاذرى • فتوح البلدان ص ١١٣ •

ابراهيم اكثر من تأكيدها على عبادة الله ، وليس هناك اشارة الى اعتقادهم بالبعث ، ويظهر انهم كانوا يميلون الى العزلة والتحنث[١٣] .

والحق اننا لا نعلم كيف كان العرب فى الجاهلية يتصورون دين ابراهيم اللهم الا ما رواه ابن هشام وابن الكلبى من ان العرب بعد أن دانوا بالشرك بقى فيهم (على ذلك بقايا من عهد ابراهيم يتمسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة وهدى البدن والاهلال بالحج والعمرة مع ادخالهم فيه ما ليس منه[١٤]) .

الصابئة :

وهناك فرقة اخرى هى الصابئة ، ورد ذكرها فى القرآن عرضا فى ثلاث آيات (ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (البقرة ٦٢) (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (المائدة ٦٩) (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين اشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شىء شهيد) (الحج ١٧) .

ويتبين من هذه الآيات ان الصابئة فرقة دينية مستقلة عن غيرها وانها ممن آمن بالله واليوم الآخر . وانها تتميز عن اليهود والنصارى . ولا ريب انهم لا علاقة لهم بصابئة حران لان هؤلاء كانوا من عباد الاله سين ثم انتحلوا اسم الصابئة فى زمن المأمون تخلصا مما أراد أن يفرضه عليهم من عقوبة[١٥] . أما

---

(١٣) لقد بحث بعض المستشرقين فى الحنيفية : ومنهم بوهل فى مقال فى دائرة المعارف الاسلامية ، وبيل فى مجلة العالم الاسلامى العدد ٢٠ سنة ١٩٣٠ ، وفارس وكلدن فى مجلة الجمعية الشرقية الفلسطينية العدد ١٩ سنة ١٩٣٩ وكذلك وات فى الملحق الثانى من كتابه (محمد فى مكة) .

(١٤) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٨٢ . ابن الكلبى الاصنام ص ٦ .

(١٥) ابن النديم . الفهرست ص ٤٤٥ . ويقول المسعودى ان الصابئة هم الحنيفية (التنبيه والاشراف ص ٧٩ ، ١٣٧) .

صابئة العراق فهم المندائيين أو المغتسلة وعبادتهم مزيج من بقايا العبادة البابلية القديمة والمسيحية مع احترام خاص ليوحنا المعمذان[١٦] . ولا يوجد دليل على كونهم كانوا فى الحجاز .

وكلمة صبأ فى اللغة العربية تعنى مال ، وقد وردت فى القرآن بهذا المعنى (والا تصرف عنى كيدهن اصب اليهن واكن من الجاهلين) (يوسف ٣٣) ، وكانت العرب تطلق كلمة صابئى على من يفارق دين آبائه واجداده ويدخل دينا جديدا . وقد دعى المشركون الرسول والمسلمين فى البداية صابئة ، فيروى ابن هشام ان عمر بن الخطاب لما اسلم نادى جميل بن معمر بأعلى صوته « يا معشر قريش وهم فى انديتهم حول باب الكعبة الا ان عمر بن الخطاب قد صبا قال ويقول عمر من خلفه كذب ولكن قد اسلمت وشهدت ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله[١٧] » . ويروى ابن سعد ان الرسول عندما كان يدعو الناس الى الاسلام كان يسير (ابو لهب وراءه يقول لا تطيعوه فانه صابىء كذاب[١٨]) ولما أراد ابو لهب أن يحمى الرسول بعد وفاة ابى طالب قال ابن الغيطلة (يا معشر قريش صبا ابو عتبة[١٩]) (وروى البخارى فى التاريخ وابو زرعة الدمشقى والبغوى وابن ابى عاصم من طريق الوليد بن عبدالرحمن الجرشى عن الحارث بن الحارث الغامدى قال : قلت لابى ونحن بمنى ما هذه الجماعة ؟ قال هؤلاء اجتمعوا على صابىء لهم . قال فتشرفت فاذا برسول الله (ص) يدعو الناس الى توحيد الناس الى توحيد الله وهم يردون عليه[٢٠]) .

ومما تقدم نستنتج ان العرب كانت ترى ان الصابئة من الموحدين ، وانهم وصفوا المسلمين الاول بهذا الوصف لانهم لم يدركوا الفرق بين الصابئة وبين

---

(١٦) خير بحث عن صابئة العراق هو كتاب المسز دراور (المندائيون فى العراق) (بالانكليزية) وانظر ايضا كتاب عبدالرزاق الحسنى عن الصابئة .
(١٧) سيرة ابن هشام : ج ١ قسم ١ ص ٣٧ . الاشتقاق ص ٧٩ ، ٨١ .
(١٨) ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ١٤٥ .
(١٩) ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ١٤١ .
(٢٠) ابن حجر : الاصابة ج ١ ص ٢٧٥ .

الاسلام فى أدواره الاولى ومن قبل أن تتوضح معالمه • على اننا لا نعلم تفاصيل هذه النحلة التى كانت تعبد الله وتختلف عن اليهود والنصارى كما يتجلى ذلك من آيات القرآن الكريم • ولم تذكر الكتب اسم اى شخص صابىء •

يتضح من كل ما تقدم ان فكرة اله اكبر كانت موجودة عند القرشيين كما ان فكرة التوحيد كانت موجودة منذ القديم ، وانها كانت عند ظهور الاسلام موجودة عند اليهود والنصارى والاحناف والصابئة • ولا شك ان عقيدة اليهودية والمسيحية فى الله تختلف عن عقيدة الاسلام • فاليهودية ترى ان العزير ابن الله كما ترى ان نعمه وبركاته تقتصر على بنى اسرائيل الذين هم فى رأيهم شعب الله المختار • أما المسيحية فقد كانت فرقا متعددة بعضها يرى ان المسيح هو الله وبعضها يرى انه ابن الله وبعضها يراه ذى طبيعتين لاهوتية وناسوتية • وقد ناقش القرآن المزاعم ورد عليها فى الآيات التى نزلت فى المدينة وأنكر عليهم عدم التنزيه •

أما العرب فقد كانوا يشركون به آلهة اخرى هم بنات الله فى زعمهم •

التوحيد فى الاسلام :

أما العقيدة الاسلامية فاساسها ان لا اله الا الله وحده لا شريك له لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد ، وانه تعالى رب العالمين ورب كل شىء ورب السماوات والارض والمشرق والمغرب ، وهو خالق كل شىء وهو على كل شىء قدير ، وهو الذى يحى ويميت ويعلم خافية الاعين وما تخفى الصدور ، وسلطاته واسعة مطلقة يخضع له الكل وينبغى أن يستسلموا له • ولا شك ان الفكرة العامة فى الاسلام عن الله تعالى هى العظمة والعدل والخير فهو العادل الذى يحاسب الانسان بالقسطاس المستقيم ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ولكنه فى نفس الوقت رحيم بعباده • ولا ريب ان تكرر كلمة الرحمن الرحيم من شأنها أن تذكر المسلم دائما برحمة الله وتجعله لا يقنط من روحه وعدله كما يجب أن يكون شكورا ولا يكفر بنعمه •

والله تعالى موجود فى كل مكان فلا ينحصر فى مكان دون آخر ويدركه الانسان عن طريق الفطرة والبصيرة بالدرجة الاولى ، كما يمكن أن يدركه عن طريق التفكير فى آثاره واعماله والحق ان الاسلام يتطلب التأمل والتفكير والتبصر

والتدبر والنظر . وقد تردد الامر بذلك فى القرآن فى مواضع كثيرة جدا . فالاسلام لا يفرض العقيدة بالله فرضا تلقينيا دوكماتيكيا ولا يتطلب من البشر الانقياد الاعمى .

ان هذا التفكير مطلوب من كل شخص ويمكن أن يمارسه أى انسان كان وحيثما كان . فليس فى الاسلام طبقة من الكهنوت تكون واسطة بين الله والناس . ولكن يجدر التأكيد بأن ادراك الله واثبات وجوده لا يتم بالطريقة الرياضية أو المختبرية اذ ان الخبرة الدينية قائمة بالدرجة الاولى على البصيرة والشعور الذاتى الباطنى .

الملائكة :

ومن المعتقدات الاساسية فى الاسلام الملائكة (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة) (البقرة ١٧٧ انظر ايضا البقرة ٢٨٥) (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا) (النساء ١٣٦) .

لقد ورد ذكر الملائكة فى القرآن بصيغة المفرد فى اربعة عشر آية وبصيغة التثنية مرتان وبصيغة الجمع فى اربع وستين آية . وقد ذكرت اسماء بعضهم فورد اسم جبريل فى ثلاث آيات (البقرة ٩٧ و٩٨ التحريم ٤) وميكال مرة واحدة (البقرة ٩٨) وذكر مالك مرة واحدة (الزخرف ٧٠) وملك الموت مرة واحدة (السجدة ١١) أما الباقى فقد ذكرت فيها الملائكة كاسم جنس .

لقد كان المشركون يعتقدون بالملائكة ويرون انها اناثا وانها بنات الله[٢١] .

وقد انكر الاسلام كون الملائكة بنات الله أو عبادتهم لانها تناقض مبدأ الوحدانية الاساس ولكنهم عباد مكرمون وقد خلقوا من قبل أن يخلق آدم ثم انه تعالى علم آدم الاسماء كلها ثم عرضها عليهم (البقرة ٣٠-٣١) وقد امرهم أن يسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر ، كما سنتحدث عنه فيما بعد . والملائكة عباد الرحمن (النساء ١٧٢) يشهدون بأن لا اله الا هو (آل عمران ١٨)

---

(٢١) انظر ص ١٤٩-١٥٠ .

وهم يخافونه (الرعد ١٣) ويسجدون له بتواضع ولا يستكبرون (النحل ٤٩) وهم اولى اجنحة مثنى وثلاث ورباع (فاطر ١) ويوم القيامة يأتى الله والملك صفا صفا (الفجر ٢٢) وهم يحفون به (الزمر ٧٥) ويحمل عرش الله منهم ثمانية (الحاقة ١٧) وهم يستغفرون لمن فى الارض (الشورى ٥) وهم يصلون على النبى (الاحزاب ٥٦) .

ويصطفى تعالى من الملائكة رسلا الى البشر (الشورى ٥١ الزخرف ٨٠) وهم ينزلون بالروح (النحل ٢) وقد كلمت الملائكة زكريا ومريم (آل عمران ٣٩ مريم ٤٢ و٤٥) . وقد امد تعالى المسلمين فى بدر بثلاثة آلاف (آل عمران ١٢٤) وفى الخندق بخمسة آلاف (آل عمران ١٢٥) وهو يمد المسلمين بألف من الملائكة مسومين (الانفال ١٩) .

والملائكة تلعن الكفار (البقرة ١٦١ آل عمران ٨٧) وتبسط ايديها عليهم فى غمرات الموت (الانعام ٩٣) . وهم يوم القيامة يضربون وجوه الكفار وادبارهم (الانفال ٥٠ ، محمد ٢٧) .

ابليس :

ومن الملائكة فى الاصل ابليس وقد وردت قصته فى سبع سور ، كما ورد ذكره فى سورتين اخريين . وفى سورة الاعراف والحجر تفصيل لقصته « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين . قال ما منعك الا تسجد اذ أمرتك قال انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين . قال انظرنى الى يوم يبعثون . قال فانك من المنظرين . قال فبما اغويتنى لأقعدن لهم على صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمايلهم ولا تجد اكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذموما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم اجمعين » (الاعراف ١١-١٨) وفى آية اخرى يصف القرآن ابليس بأنه كان من الجن (الكهف ٥٠) .

وهناك آيتان تشيران صراحة الى ان بعض المشركين كانوا يعبدون ابليس (ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين) (سبأ ٢٠) واذ قلنا

للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن امر ربه افتتخذونه وذريته اولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا (الكهف ٥٠) وهناك آية اخرى تشير الى ان لابليس جنود (فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود ابليس اجمعون) (الشعراء ٩٥) .

ولا ريب ان ابليس اسم علم مفرد كان ملكا ولكن كبريائه الذى دفعه الى عدم السجود لآدم مما سبب طرده من الجنة وسمح له تعالى بأن يغوى آدم ويخرجه من الجنة ثم يغوى بنى آدم .

الشيطان :

لقد ذكر القرآن ايضا ان الذى اغوى آدم فاخرجه من الجنة هو الشيطان (البقرة ٣٦ ، الاعراف ٢٧ ، طه ١٢٠) مما قد يستنتج منه ان ابليس هو الشيطان . وقد ترددت كلمة الشيطان بصيغة المفرد فى سبعين آية مكية ومدنية وبصيغة الجمع بثمانية عشر آية مكية وكلها بأل التعريف الا فى ثلاث آيات (الحجر ١٧ ، التكوير ٢٥ ، الزخرف ٣٦) .

والشيطان كفور لربه (الاسراء ٢٧) وعصى للرحمن (مريم ٤٤) وهو الذى ازل آدم فاخرجه من الجنة (البقرة ٣٦ ، الاعراف ٢٧ ، طه ١٢٠) وسبب الخصومة البشرية الاولى بين هابيل وقابيل (الاعراف ٢٠) واثر فى الامم الضالة (النحل ٦٣ ، القصص ١٥) .

والشيطان للانسان عدو مبين (الاعراف ٢٢ ، يوسف ٥ ، الاسراء ٥٣ ، القصص ١٥ ، فاطر ٦ ، الزخرف ٦٢) خذول له (الفرقان ٢٩) يعد الناس الغرور (النساء ١٢٠ ، الاسراء ٦٤) ويريد أن يضلهم ضلالا بعيدا (النساء ٦٠) وهو يعد الناس الفقر ويأمرهم بالفحشاء (البقرة ٢٦٨ ، النور ٢١) ويستزلهم ببعض ما كسبوا (آل عمران ١٥٥) ومن اعماله الخمر والميسر والأنصاب والأزلام وبها يحاول أن يوقع بين الناس العداوة والبغضاء (المائدة ٩٠ و٩١) وهو اسوأ قرين (النساء ٣٨) .

والشياطين اولياء الذين لا يؤمنون (النساء ٧٦ ، الاعراف ٢٧) وهم الذين يوحون الى اوليائهم ليجادلون المسلمين (الانعام ١٢١) وينبغى أن يقاتل اولياؤه

(النساء ٧٦) الذين هم فى خسران مبين (النساء ١١٩) وقد ارسل تعالى الشياطين على الكافرين تؤزهم (مريم ٨٣) وقد زين تعالى السماء الدنيا بمصابيح وجعلها رجوما للشياطين (الملك ٥) .

والشيطان يقر بالله تعالى ويخافه (ابراهيم ٢٥٧) ولكنه يسخر من الناس ويحاول أن يضلهم (يوسف ٤٢ ، الحج ٥٢) وهو خصم للمسلمين (المجادلة ٩) .

ولا تقتصر محاولات الشيطان على البشر بل تمتد حتى الى الانبياء (وما ارسلنا قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى القى الشيطان فى امنيته فيفسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم) (الحج ٥١) وهو يحاول أن ينسى الرسول (واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره واما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) (الانعام ٦٨) .

والشياطين تنزل على كل افاك اثيم (الشعراء ٢٢) واما الوحى والقرآن فهو من الله وما هو بقول شيطان رجيم وللجن شياطين تغويهم .

ومما يتقدم يظهر جليا ان الشيطان هو الذى يلعب دوره فى افساد الناس وغوايتهم واخلالهم وانه مصدر الشرور فى العالم وان كان فى قرارة نفسه يخاف الله واذا كانت هناك آية « بل عبدوا الشيطان اكثرهم لا يعلمون » فتفسيرها انهم اخطأوا وعبدوا الشيطان من دون ان يعلموا بانهم يعبدون الشيطان يدلك على هذا ان القرآن لم يذكر فى غير هذه الآية ان الشيطان من معبوداتهم كما لم يرد عن العرب انهم عبدوا الاها هو الشيطان او انهم عبدوا اله الشر .

ان استعمال كلمة الشياطين بصيغة الجمع تدل على انها جنس وان كانت الآيات لا تبين اسماءها ولا عن علاقة الشيطان وهو ابليس ببقية الشياطين .

الجن :

لقد ورد ذكر الجن فى القرآن فى ثلاثين آية مكية وهى مخلوقة من نار (الحجر ٢٧ ، الرحمن ١٥) ومنهم ابليس الذى هو ملك ايضا (الكهف ٥٠) وان اصلهم النارى وكون ابليس منهم يظهر علاقتهم بالملائكة . غير انهم يختلفون عن الملائكة فى امور منها انهم منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وانهم كانوا طرائق

قددا (الجن ١١) فمنهم المسلمون الذين تحروا رشدا والقاسطون الذين هم لجهنم حطبا (الجن ١٤ و١٥) وكان سفهاؤهم يقولون على الله شططا (الجن ٤) وقد ظنوا ان لن يبعث الله احدا (الجن ٧) ولكن نفرا منهم سمع القرآن منه (الاحقاف ٢٩ ، الجن ١) مما يدل على معرفتهم باللغة العربية فآمنوا به ولن يشركوا بربهم احدا (الجن ٢) ولكن فريقا منهم لم يؤمن وسيحاسبهم الله يوم القيامة ويدخل كثيرا منهم فى جهنم ليعذبه فيها على سوء عمله (الاعراف ٣٨ و١٧٩ ، الرحمن ٣٩ ، السجدة ١٣) .

من هذا يتبين انهم وان اتفقوا مع الملائكة فى مادة خلقتهم وهى النار وفى بعض الخصائص والاحوال الا أن احوالهم أشد شبها بأحوال الانس . ويقترن ذكرهم بالانس فى عشر آيات ، فهم ليسوا جميعا بمهتدين وان الرسل تأتيهم (الانعام ١٣٠) وقد استمع بعضهم للنبى وصاروا مسلمين وكانت جيوش سليمان منهم ومن الانس (النحل ١٧) وقد أتاه احدهم بعرش بلقيس ويبدو وانهم لا يرون بالعين الانسانية اذ لم يشر القرآن الى ان الانس ترى الجن ولم يذكر انهم سخروا لغير سليمان . ولا يعتبر الايمان بهم جزءا اساسيا من العقيدة الاسلامية .

ولعلهم اذا مسوا انسانا صار شاذا أى به جنة (الاعراف ١٨٤ ، المؤمنون ٢٥ و٧٠ ، سبأ ٨ و٤٦) وقد اتهم المشركون الرسول بأن به جنة وهو اتهام باطل .

البعث والقيامة :

ومن المبادىء الاساسية فى الاسلام فكرة البعث والقيامة فان الله تعالى خالق كل شىء والقادر على كل شىء سوف يعيد الخلق كما انشأه اول مرة وينشر الناس من القبور ويبعثهم الى الحياة . وقد سمى هذا اليوم فى القرآن بعدة اسماء منها يوم الآخرة (وقد وردت فى مائة وعشر آيات) ويوم الآخر (فى ستة وعشرين آية كلها تقريبا مدنية) ويوم القيامة (فى سبعين آية) والحشر (فى ثلاثين آية) ويوم البعث (فى ثلاث آيات عدا مشتقات هذه الكلمة) ويوم الدين (فى سبع آيات) ويوم الفصل (فى ست آيات) ويوم الحساب (فى اربع آيات) ويوم الجمع ويوم التلاقى ويوم الحسرة ويوم الازفة والصاخة والقارعة والتغابن (وقد ذكرت كل منها فى آية) .

ويأتى يوم القيامة بغتة (الانعام ٣١ و٤٤ و٤٧ ، الاعراف ٩٥ و١٨٧ ، يوسف ١٠٧ ، الانبياء ٤٠ ، الحج ٥٥ ، الشعراء ٢٠٢ ، الزمر ٥٥ ، الزخرف ٦٦ ، محمد ١٨) . وهى تأتى بصيحة (يسن ٢٩ و٤٩ و٥٣ ص١٥ ق٤٢) أو بصيحتين (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون واشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون) (الزمر ٦٨-٦٩) وتتم هذه الصيحة بأن ينفخ فى الصور (الانعام ٧٣ ، الكهف ٩٩ ، طه ١٠٢ ، المؤمنون ١٠١ ، النحل ٨٧ ، يسن ٥١ ، الزمر ٦٨ ق ٢٠ ، الحاقة ١٣ ، سبأ ١٨) .

وعندما تقوم القيامة ترج الارض رجا (الواقعة ٥) أما الجبال فتسير سيرا (الطور ١٠ ، التكوير ٣ ، الكهف ٤٧) وتبس بسا (الواقعة ٥) وتنسف (المرسلات ١٠) وتدك دكة واحدة (الحاقة ١٤) وتصبح كالعهن (المعارج ٩ ، القارعة ٥) وتصير سرابا (النبأ ٢٠) أما البحار فتفجر (الانفطار ٣) وتسجر (التكوير ٦) . وأما السماء فتنفطر (الانفطار ١) وتكشط (التكوير ١١) وتفرج (المرسلات ٩) وتنشق (الحاقة ١٦ ، الانشقاق ١ ، الفرقان ٢٥) وتأتى بالغمام (الفرقان ٢٥) وتأتى بدخان مبين (الدخان ١٠) وتمور مورا (الطور ٩) وتطوى كطى السجل للكتب (الانبياء ١٠٤) . أما النجوم فتطمس (المرسلات ٨) وتنكدر (التكوير ٢) وتبعثر القبور (الانفطار ٤ ، العاديات ٩) ويخرج الناس من الاجداث سراعا (يسن ٥١ ، القمر ٧ ، المعارج ٤٣) .

ويأتى تعالى والملك صفا صفا (النبأ ٣٨ ، الفجر ٢٢) ويحمل عرشه تعالى يومئذ ثمانية (الحاقة ١٧) .

ويخرج لكل انسان (يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) (الاسراء ١٤) ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا وليتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها (الكهف ١٩ ، انظر ايضا سبأ ٣) . فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه انى ظننت انى ملاق حسابيه وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أوت

كتابيه ولم أدر ما حسابيه (الحاقة ١٩-٢٠ و٢٥-٢٦ انظر ايضا الاسراء ٧١ ، الانشقاق ٧-١١) .

جهنم :

ان الذين تزيد شرورهم على حسناتهم ينالون فى الآخرة جزاءهم وهم يذهبون الى النار (وقد ذكرت فى ١٣٠ آية) أو جهنم (وقد ذكرت فى ٧٩ آية) أو الجحيم (وقد ذكرت فى ٢٦ آية) أو السعير (وقد ذكرت فى ١٩ آية) أو سقر (وقد ذكرت فى ٣ آيات) وجهنم لها سبعة ابواب لكل باب منهم جزء مقسوم (الحجر ٤٤) عليها تسعة عشر من الملائكة (انظر المدثر ٣٠-٣١) وهم غلاظ شداد لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون (التحريم ٦) وجهنم وقودها الناس والحجارة (البقرة ٢٤ ، التحريم ٦) والذين يدخلونها يقاسون من سموم وحميم . وظل من يحموم . لا بارد ولا كريم (الواقعة ٤٢-٤٤) ولهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل (الزمر ١٦) . وهم يؤخذون بالنواصى والاقدام (الرحمن ٤١) واذ الاغلال فى اعناقهم والسلاسل يسحبون . فى الحميم ثم فى النار يسجرون (غافر ٧١-٧٢ انظر ايضا ابراهيم ٤٩ ، الانسان ٤) وهذه السلسلة ذرعها سبعون ذراعا (الحاقة ٣٢) . فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب فوق رؤوسهم الحميم . يصهر به ما فى بطونهم والجلود . ولهم مقامع من حديد . كلما ارادوا أن يخرجوا منها من غم اعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق (الحج ١٩-٢٢) وكلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها (النساء ٥٦) . وهم لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا . الا حميما وغساقا (النبأ ٢٤-٢٥) ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن وراءه عذاب غليظ (ابراهيم ١٦-١٧) ولهم شراب من حميم وعذاب أليم (الانعام ٧٠ ، يونس ٤ انظر ايضا ص ٥٧ الدخان ٤٦ ، الواقعة ٤٢ و٥٤ ، محمد ١٥) . ان الضالون المكذبون فى جهنم لآكلون من شجرة الزقوم . فمالئون منها البطون . فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم (الواقعة ٥٢-٥٥) وان شجرة الزقوم . طعام الاثيم . كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم (الدخان ٤٣-٤٦) . أما شجرة الزقوم فانها شجرة تخرج فى اصل الجحيم . طلعها كأنه رؤوس الشياطين فانهم لآكلون منها

فمالئون منها البطون . ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم (الصافات ٦٥-٦٨) . فالذين يذهبون الى جهنم ليس لهم طعام الا من ضريع . لا يسمن ولا يغنى من جوع (الغاشية ٦-٧) .

الجنة :

أما من ثقلت موازينهم وأوتوا كتابهم بيمينهم لان اعمال الخير عندهم تفوق اعمال الشر فانهم يذهبون الى الجنة (وقد وردت بصيغة المفرد فى ٦٩ آية وبصيغة الجمع فى ٦٩ آية ايضا منها ١١ مضافة الى عدن ووردت باسم النعيم ٦ مرات و٨ مرات جنات النعيم و٣ مرات جنة النعيم ومرتين باسم الفردوس ومرة باسم الكوثر) .

ان الجنة تجرى من تحتها الانهار (وقد ذكر ذلك فى ٣٧ آية) وفيها انهار من ماء غير آسن وانهار من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة للشاربين وانهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم (محمد ١٥) وفى الجنة للذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الانهار (الزمر ٢٠ ، انظر ايضا العنكبوت ٥٨ ، سبأ ٣٧ ، الفرقان ٧٥) وفيها ايضا فاكهة كثيرة (ص ٥١ الزخرف ٧٣ ، انظر ايضا المرسلات ٤٢ ، يسن ٥٧ ، الدخان ٥٥ ، الطور ٢٢ ، الرحمن ٥٢ ، عبس ٣١ ، الواقعة ٢٠) وفيها نخل ورمان (الرحمن ٦٨) . وفيها لحم مما يشتهون (الطور ٢٢) ولحم طير (الواقعة ٢١) .

وفيها ايضا سرر مصفوفة (الطور ٢٠) وموضونة (الواقعة ١٥) ومرفوعة (الغاشية ١٣) يجلس الناس عليها متقابلين (الحجر ٤٧ ، الصافات ٤٤) كما ان فيها أرائك يتكئون عليها (الكهف ٣١ ، يسن ٥٦ ، الانسان ١٣ ، المطففين ٢٣ ، الفجر ٣) وفيها نمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة (الغاشية ١٥) ومتكئون ايضا على رفرف خضر وعبقرى حسان (الرحم ٧٦) وعلى فرش بطائنها من استبرق (الرحمن ٥٤) واهل الجنة يلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق (الكهف ٣١ ، انظر ايضا الدخان ٥٣ ، الانسان ٢١) . وهم يحلون فيها من اساور من ذهب ولؤلؤ ولباسهم فيها حرير (فاطر ٣٣ ، الحج ٢٣) . وهم يشربون بكأس

(النبأ ٣٤ ، الطور ٢٣) من معين (الصافات ٤٥ ، الواقعة ١٨) مزاجها كافورا (الانسان ٥) وزنجبيلا (الانسان ١٧) .

ويطاف عليهم بصحاف من ذهب (الزخرف ٧١) وآنية من فضة (الانسان ١٥) وباكواب من قوارير (الانسان ١٥) وأباريق (الواقعة ١٨ ، انظر ايضا عن الاكواب الزخرف ٧١ ، الغاشية ١٤ ، الواقعة ١٨) .

ويطوف عليهم ولدان مخلدون (الواقعة ١٧ ، الانسان ١٩) وغلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون (الطور ٢٤) .

وفى الجنة قاصرات الطرف عين (الصافات ٤٨) واتراب (ص ٥٢) لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان (الرحمن ٥٦) وحور عين (الدخان ٥٤) كأمثال اللؤلؤ المكنون (الواقعة ٢٢) .

ويدخل المتقون الجنة مع زوجاتهم (الزخرف ٧٠ ، انظر ايضا يسن ٥٦) ويتزوجون بحور عين (الدخان ٥٤ ، الطور ٢٠) (ولابد ان الزواج بالحور العين يخص العزاب) .

ان الذين يدخلون الجنة لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين (الحجر ٤٨) وهم لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى (الدخان ٥٦) وهم فيها خالدون ، كما ان اهل النار يبقون فيها خالدين (وقد ذكر خلود اهل الجنة واهل النار فى تسعة وستين آية) .

وبين الجنة وجهنم يوجد حجاب واعراف عليه رجال ونادى (اصحاب الجنة اصحاب النار) ان قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم فاذن مؤذن بينهم ان لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون . وبينهما حجاب وعلى الاعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا اصحاب الجنة ان سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون . واذا صرفت ابصارهم تلقاء اصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . ونادى اصحاب الاعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون (الاعراف ٤٤-٤٨) ولا ريب ان ظاهر معنى الآية يدل على ان اصحاب الاعراف هم الذين عند الحجاب الذى يحجز بين الجنة وجهنم

وليسنوا من تتعادل حسناتهم وسيئاتهم كما يرى بعض المفسرين فان اهل التعادل لم يشر عنهم القرآن بشيء واضح •

اهمية فكرة البعث :

ولا ريب ان لفكرة البعث اهمية كبرى فى النظام الاخلاقى والاجتماعى للاسلام ، وذلك لان البعث يتبعه يوم الحساب الذى يتقرر فيه مصير الانسان حيث اما أن يحصل على السعادة والراحة الابدية ويخلد فى الجنة أو يذهب الى حيث العذاب الابدى • وحصوله على احد هاتين النتيجتين يتوقف على اعماله فى الدنيا • ففى يوم الحساب يؤتى كل امرىء كتابه بيمينه ولا يذر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها فاما من ثقلت موازينه بعمل الخير والصلاح فى الدنيا ينال الجنة واما من فاقت اعماله الشريرة الخير فانه يذهب الى جهنم • ولما كان المسلمون يدخلون الجنة فان هذا سيكون دافعا لهم على عمل الخير فى الدنيا وتجنب عمل الشر •

وفكرة الآخرة فوق ذلك تعطى الناس أملا فى الحياة ، اذ ان حياة الآخرة طويلة جدا والحياة الدنيا قصيرة وهى دار لهو فلا يكون قصر العمر مصدرا لليأس •

ثم ان فى الحياة الدنيا كثيرا من المصاعب والآلام والاحزان ولولا أمل الآخرة لاستولى اليأس على النفوس • ففكرة الآخرة اذا تبعث على الامل وتحى التفاؤل وتحمل الناس على عمل الخير والصلاح وتجنب عمل الشر •

المقاييس الاخلاقية :

ومن الميزات الرئيسية للاسلام تأكيده على الاخلاق واعتبارها المقياس الأوحد للتفاضل بين الناس (يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير) (الحجرات ١٣) والتقوى هنا هى الاخلاق • وامام هذا المقياس يستوى الناس بصرف النظر عن اصلهم وجنسهم وسنهم ولونهم ومثل هذا الفارق الاخلاقى لا يقوم على اساس الوراثة ولا هى وقف على فرد دون آخر كلا بل هى مكتسبة بمقدور كل انسان أن يعملها وهى واقعية وليست خيالية كما انها اساس المجتمع وأساس نوال الجنة والسعادة الابدية • ومن هنا جاءت مسؤولية الانسان •

والمسؤولية الاخلاقية فى الاسلام فردية فالانسان يجزى بما كسبت يده فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرأ يره (الزلزلة ٧ ، ٨) ولا تزر وزارة وزر اخرى (الانعام ١٦٤ ، الاسراء ١٥ ، فاطر ١٨ ، الزمر ٧ ، النجم ٣٨) ويوم القيامة لا يسأل والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا بل يكون كل انسان مسؤول عن اعماله . والاسلام فى هذه النقطة تختلف مثله اساسيا عن البداوة التى تؤكد على المسؤولية الاجماعية والتى تأخذ الفرد بجريرة غيره وخاصة فى الثأر والدية ، كما تختلف مثله عن كثير من المجتمعات التى ترى مقياس التفاضل بالنسب والوراثة ، أو بالثروة والمركز والنفوذ المادى .

على ان الاخلاق الاسلامية ذات رسالة اجتماعية . فالاسلام جاء بكثير من المبادىء التى من شأنها تنظيم العلاقات بين الناس كالصدق فى القول والمعاملة والعطف والبر والاحسان ومساعدة الفقراء والمساكين واعطاء الصدقات للمحتاجين والتعاون والتآزر والبر بالوالدين وغير ذلك من الصفات الاخلاقية الحميدة التى من شأنها أن تؤدى الى تنظيم المجتمع وسعادته واستقراره . (قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون . ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى احسن حتى يبلغ اشده . واوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفسا الا وسعها واذا حكمتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله اوفوا ذلك وصاكم به لعلكم تذكرون) (الانعام ١٥١-١٥٢ انظر ايضا الاسراء ٢٣-٣٧) ولا شك ان هذه الآيات التى اجملت المبادىء الاجتماعية الاسلامية هى بعض الآيات الكثيرة التى تدعو الى ذلك .

والاخلاق الاسلامية لا تقتصر على مجرد الاعمال الخارجية بل تؤكد على الاعمال الباطنية وتعير النيات اهتماما كبيرا (يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم) (الشعراء ٨٩) (ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب) (الحج ٣٢) وقد جاء فى الحديث « انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى »

ولا ريب ان الله بكل شيء عليم وهو يعلم ما تخفى الصدور ويعلم ما توسوس به نفس الانسان وهو اقرب اليه من حبل الوريد (انظر ق ٦) وهو لا تخفى عليه خافية ويحاسب الناس يوم القيامة على اعمالهم ومقاصدهم ويجزى كل نفس بما كسبت ويوم القيامة يؤتى كل امرىء كتابه بيمينه ولا يذر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها • كل هذا يجعل من يدين بالاسلام عليه أن يخلص نيته ويطهر قلبه ويصفى سريرته ويهجر النفاق والفساد •

الفصل التاسع عشر

الأدلة القرآنية على تطور الدعوة

آيات الله :

ان القرآن هو الوثيقة الكبرى التى نعرف منها تطورات الدعوة الاسلامية • ومع اننا لا نستطيع أن نعين بضبط ودقة ترتيب نزول كافة الآيات ، كما ان كتب السيرة والحديث لا تقدم معلومات مغنية عن هـذا الدور المبكر الا اننا يمكن أن نقول بصورة تخمينية غير جازمة ان الآيات الاولى كانت تؤكد على عظمة الله وقدرته وآثار خلقـه واعمـاله • وتدعو النـاس الى أن (ينظرون ويبصرون ويعقلون ويتفكرون) فى آثاره فى الكون • كمـا انه بين وفصل آياته فى الكون ليريهم عظمته واعماله • ومن هذه الآيات انه (هو الذى انزل من السماء ماءاً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون • ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون • وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسـخرات بأمره ان فى ذلك لآيات لقـوم يذكرون) (النحل ١١-١٤) (والله انزل من السماء ماءاً فأحيا به الارض بعد موتها ان فى ذلك لآية لقوم يسمعون • وان لكم فى الانعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشـاربين • ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ان فى ذلك لآية لقوم يعقلون • واوحى ربك الى النحل ان اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون • ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) (النحل ٦٥-٦٩) • (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون • ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون • ومن آياته خلق السماوات والارض واختـلاف ألسنتكم ان فى ذلك لآيات للعالمين • ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون • ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماءاً فيحيى به الارض بعد موتها

ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون • ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا انتم تخرجون) (الروم ٢٠-٢٥) (وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون • وجعلنا فيها جنات من نخيل واعناب وفجرنا فيها من العيون • ليأكلوا من ثمره وما عملته ايديهم افلا يشكرون • سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون • وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون • والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم • والقمر قد قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم • لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون وآية لهم انا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون • وخلقنا لهم من مثله ما يركبون • وان نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون • الا رحمة منا ومتاعا الى حين) (يس ٣٣-٤٤) (ان فى السماوات والارض لآيات للمؤمنين • وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يؤمنون • واختلاف الليل والنهار وما انزل الله من السماء من رزق فأحيا به الارض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم لعقلون) (الجاثية ٣-٥) (وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وانهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون • وفى الارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) (الرعد ٣-٤) (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا) (الاسراء ١٢) (خلق السماوات والارض بالحق ان فى ذلك لآية للمؤمنين) (العنكبوت ٤٤ ، الشورى ٢٩ ، الجاثية ١٣) (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر) (فصلت ٣٧ كذلك آل عمران ١٩٠ والنحل ٨٦) (ومن آياته الجوار فى البحر كالاعلام ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) (الشورى ٣٣ انظر ايضا الجاثية ١٢ ، لقمان ٣١) (الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى اجل مسمى) (الزمر ٤٢) (الذى جعل لكم الارض مهادا وسلك فيها سبلا وانزل من السماء ماءاً فاخرجنا به ازواجا من نبات شتى • كلوا وارعوا انعامكم) (طه ٥٣-٥٤) (ان الله يبسط الرزق لمن يشاء

ويقدر) (الزمن ٥٢) (أو لم يروا الى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن الا الله ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) (النحل ٧٩) .

ولا تقتصر آيات الله على مظاهر خلقه فى الكون فحسب بل تشمل ايضا احداث التاريخ وما اصاب الامم الغابرة (أو لم يهدهم كم اهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ان فى ذلك لآيات افلا يسمعون) (السجدة ٢٦) . وهكذا كان لسبأ فى مساكنهم آية (سبأ ١٥) ولزكريا وعيسى آية (آل عمران ٤١ ، مريم ١٠ ، الانبياء ٩١ ، المؤمنون ٥٠) وفى يوسف واخوته آية للسائلين (يوسف ٧) وفى اغواء ابليس للناس (الشعراء ١٧٤) وقصة نوح (الشعراء ١٢١ ، المؤمنون ٣٠ ، العنكبوت ١٥) وثمود (الشعراء ١٥٨ ، الاعراف ٦٤ و١٠١) ولوط (الشعراء ١٧٤ ، النحل ٥٢ ، العنكبوت ٣٥ ، الحجر ٧٥) وابراهيم (العنكبوت ٢٤) .

الرسول بشر :

وقد أكد القرآن الكريم ان الرسول بشر اوحى اليه كما اوحى الى الذين من قبله من الرسل ، وانه لا يستطيع أن يتجاوز فى دعوته ما يأمره تعالى به وما يوحى اليه (قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد) (الكهف ١١٠ ، فصلت ٦) (قل سبحان ربى هل كنت الا بشر رسولا) (الاسراء ٩٣) (قل ما كنت بدعا من الرسل وما ادرى ما يفعل بى ولا بكم ان اتبع الا ما يوحى الى وما انا الا نذير) (الاحقاف ٩) (وما ارسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) (الانبياء ٧ ، يوسف ١٠٩ ، النحل ٤٣) (رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من امره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق) (غافر ١٥) (قل لا اقول لكم عندى خزائن الله ولا اعلم الغيب ولا اقول لكم انى ملك ان اتبع الا ما يوحى الى قل هل يستوى الاعمى والبصير افلا تتفكرون) (الانعام ٥٠) (وقالوا لولا انزل عليه آية من ربه قل انما الآيات عند الله وانما انا نذير مبين) (العنكبوت ٥٠) (واذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قالوا انما انت مفتر بل اكثرهم لا يعلمون . قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) (النحل ١٠١-١٠٢) (انه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن

قليلا ما تذكرون • تنزيل من رب العالمين • ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين • ثم لقطعنا منه الوتين • فما منكم من احد عنه حاجزين) (الحاقة ٤٠ - ٤٧) (ويقولون لو انزل عليه آية من ربه فقل انما الغيب لله فانتظروا انى معكم من المنتظرين) (يونس ٢٠) (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا او بدله قل ما يكون لى ان ابدله من تلقاء نفسى ان اتبع الا ما يوحى الى انى اخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم • قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله افلا تعقلون) (يونس ١٥ - ١٦) (ام يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين • فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما انزل بعلم الله وان لا اله الا الله فهل انتم مسلمون) (هود ١٤) (ام يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) (يونس ٣٨) (واذا لم تأتهم باية قالوا لولا اجتبيتها قل انما اتبع ما يوحى الى من ربى هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) (الاعراف ٢٠٣) (ويقول الذين كفروا لولا انزل عليه آية من ربه انما انت منذر ولكل قوم هاد) (الرعد ٧) •

رسول الله :

ان الله تعالى يرسل رسالاته الى من يصطفيهم من الناس ويجعلهم رسلا وانبياء ليبلغوها الى الناس ، وان محمدا خاتم النبيين وقد اصطفاه الله ليبلغ رسالته للناس (هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) (التوبة ٣٣ ، الفتح ٢٢ ، الصف ٩) (وقد تكرر ورود « ارسلناك » فى ثلاثة عشر موضعا من القرآن ، « وارسلنا الرسل » اثنين واربعين مرة « وارسال الرسول » أكثر من مائتى مرة) •

وعلى الرسول أن يبلغ هذه الرسالة (يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك) (المائدة ٦٧) (وما على الرسول الا البلاغ المبين) (النور ٥٤ ، العنكبوت ١٨ ، التغابن ١٢ ، انظر ايضا آل عمران ٢٠ ، المائدة ٩٢ و٩٩ ، الرعد ٤٠ ، النحل ٨٢ ، يسين ١٧ ، الشورى ٤٨) •

وهذه الرسالة هى تذكرة (كلا انها تذكرة فمن شاء ذكره) (المدثر ٥٥ ،

عبس ١٢) وعلى الرسول أن يذكر (انظر الغاشية ٢١ ، الاعلى ٩ ، الطور ٢٩ ، الذاريات ٥٥ ق ٤٥) فهو مذكر (فذكر فانما انت مذكر) (الغاشية ٢١) وقد ارسل ايضا بشيرا بالجنة ونذيرا بالنار (وما ارسلناك الا مبشرا ونذيرا) (الاسراء ١٠٥ ، الفرقان ٥٦) (انا ارسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) (البقرة ١١٩ ، انظر ايضا المائدة ١٩ ، الاعراف ١٨٨ ، سبأ ٢٨ ، فصلت ٤) (كما ارسل شاهدا عليهم) (الاحزاب ٤٥ ، الفتح ٨) (وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين) (البقرة ٢١٣ ، النساء ١٦٥ ، الانعام ٤٨ ، الكهف ٤٦) .

تذكير بالامم الاخرى :

وقد ذكرهم بما احاق بالامم الاخرى (أو لم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم اشد منهم قوة واثارا فى الارض فاخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق) (غافر ٢١ و٢٧ ، انظر ايضا يوسف ١٠٩) . وفى ذكر قصص الامم الاخرى ايضا تشجيع للرسول وتقديم الموعظة والذكرى (وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) (هود ١٢٠) (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) (الاعراف ١٧٦) (وتلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ن العاقبة للمتقين) (هود ٤٩) .

ان هذه القصص هى احسن القصص (يوسف ٣) فيها نبأهم بالحق (الكهف ١٣) وفى قصصهم عبرة لاولى الالباب (يوسف ١١) ولا ريب ان الانبياء لم يذكروا جميعا (منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص) (غافر ٧٨ انظر ايضا النساء ١٦٤) .

تتكرر قصة كل نبى فى بضع اماكن من القرآن وتؤكد بأن الانبياء بشر اختارهم الله لتبليغ رسالاته ، وانهم لاقوا العنت ، فقد كذبهم قومهم وسخروا منهم وقالوا لهم ما يقوله المشركون للرسول (ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك ان ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم) (فصلت ٤٢) ولكن الحق ينتصر اخيرا ويتدمر الكافرون المكابرون فى هذه الدنيا وينتصر الانبياء ويعلو الحق رغم ما يلاقيه من مصاعب .

ولقد تكرر فى القرآن ذكر قصة نوح وابراهيم وموسى وعيسى وعاد وثمود ولوط وسليمان وداود ويونس وايوب وزكريا كما ذكر اسحق ويعقوب واسماعيل وذو الكفل والياس واليسع وشعيب ؛ وقصصهم تتكرر بصورة خاصة فى سورة الأعراف وهود وابراهيم والشعراء والانبياء والحج والفرقان والنحل والعنكبوت والصافات وص وغافر وفصلت وق والذرايات والحاقة حيث يرد فى كل من هذه السور قصة عدد من الانبياء[1] .

عيب آلهة المشركين :

ثم نزلت آيات تعيب آلهتهم التى يعبدونها من دون الله وتنعتها بشتى النعوت (ايشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون . ولا يستطيعون لهم نصرا ولا انفسهم ينصرون وان تدعوهم الى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم ادعوتموهم ام انتم صامتون . ان الذين تدعون من دون الله عباد امثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين . ألهم ارجل يمشون بها ام لهم ايد يبطشون بها ام لهم اعين يبصرون بها ام لهم اذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . ان وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا انفسهم ينصرون) (الاعراف ١٩١-١٩٧) (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . اموات غير احياء وما يشعرون ايان يبعثون) (النحل ٢٠-٢١) (قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الارض ام لهم شرك فى السماوات ام آتيناهم كتابا فهم على بينة منه بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضا الا غرورا) (فاطر ٤٠ انظر ايضا الاحقاف ٤-٥) (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا) (الفرقان ٣) (هذا خلق الله فارونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين) (لقمان ١١) (يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب

---

(١) للدكتور خلف الله رسالة (الفن القصص فى القرآن) وفيها بحث وتحليل لما ورد فى القرآن من قصص .

والمطلوب) (الحج ٧٣) (واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون • لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون) (يسين ٧٤-٧٥) (قل من رب السماوات والارض قل الله قل افاتخذتم من دونه اولياء لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوى الاعمى والبصير ام هل يستوى الظلمات والنور ام جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار) (الرعد ١٦) (قل اندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على اعقابنا بعد اذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الارض حيران له اصحاب يدعونه الى الهدى أئتنا قل ان هدى الله هو الهدى وامرنا لنسلم لرب العالمين) (الانعام ٧١) (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين الا فى ضلال) (الرعد ١٤) (قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ان ارادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو ارادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون) (الزمر ٢٨) (قل ادعو الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا) (الاسراء ٥٦) (ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا) (الفرقان ٥٥) (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) (يونس ١٨) (ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والارض شيئا ولا يستطيعون) (النحل ٧٢) (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير • ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير) (فاطر ١٣-١٤) (قل ادعو الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الارض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير) (سبأ ٢٢) (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة الا من شهد بالحق وهم يعلمون) (الزخرف ٨٦) (ام اتخذوا من دون الله شفعاء قل اولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون) (الزمر ٤٣) (والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء ان الله هو السميع البصير) (غافر ٢٠) •

(وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون) (يونس ٦٦) (ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير) (الحج ٧١) (مثل الذين اتخذوا من دون

الله اولياء كمثل العنكبوت اتخذ بيتا وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) (العنكبوت ٤١) (وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) (القصص ٦٤) (ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء ام هم ضلوا السبيل • قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من اولياء ولكن متعتهم واباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا) (الفرقان ١٨) (ان هى الا اسماء سميتوها انتم واباؤكم ما انزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) (النجم ٢٣) •

مهاجمة المشركين :

ولم تقتصر الآيات على تسفيه آلهتهم بل وصفتهم باوصاف شديدة (انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون) (الانبياء ٩٨) (فما لهم عن التذكرة معرضين • كانهم حمر مستنفرة • فرت من قسورة) (المدثر ٤٩-٥١) (ام تحسب ان اكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلا) (الفرقان ٤٤) (انا جعلنا فى اعناقهم اغلالا فهى الى الاذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين ايديهم سدا ومن خلفهم سدا فاغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم فهم لا يؤمنون) (يسن ٨-١٠) (ومن يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجد لهم اولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا) (الاسراء ٩٧) (ومنهم من يستمعون اليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون • ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون (يونس ٤٢-٤٣) (انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين • وما انت بها دى العمى عن ضلالاتهم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) (النحل ٨٠-٨١) (من يضلل الله فلا هادى له ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) (الاعراف ١٨٦) (من كفر بالله بعد ايمانه الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) (النحل ١٠٦) (ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم اكنة أن يفقهوه وفى اذانهم وقر وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى اذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا اساطير الاولين) (الانعام ٢٥) لقد اطلق عليهم المشركون والكافرون والكفار والظالون والمجرمون والفاسقون

والآثمون وغير ذلك من اوصاف الذم ووصف مصيرهم فى النار وعذابهم فيها باوصاف مريعة .

مكانة المشركين :

ويشير القرآن الى المؤامرات والمكائد التى كانوا يقومون بها (ام ابرموا امرا فانا مبرمون . ام يحسبون انا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون) (الزخرف ٧٩-٨٠) (انهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين امهلهم رويدا) (الطارق ١٥-١٨) (ام يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون) (الطور ٤٢) (يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون) (الطور ٤٦) (لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا الا بشر مثلكم) (الانبياء ٣) (نحن اعلم بما يستمعون اليك اذ يستمعون اليك واذ هم نجوى اذ يقول الظالمون أن تتبعون الا رجلا مسحورا) (الاسراء ٤٣) غير انه ليست لدينا تفاصيل عن هذه المؤامرات .

تهديد الرسول :

ويظهر ان المشركين بذلوا محاولات فى تهديده واقناعه للعدول عن الدعوة الى الوحدانية فامره تعالى بأن يثبت لها (ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد) (الزمر ٣٦) (قل أغير الله اتخذ وليا فاطر السماوات والارض وهو يطعم ولا يطعم قل انى امرت ان اكون اول من اسلم ولا تكونن من المشركين . قل انى اخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك هو الفوز المبين وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ان يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير) (الانعام ١٤-١٧) (قل افغير الله تأمرونى اعبد ايها الجاهلون . ولقد اوحى اليك والى الذين من قبلك لن اشركت ليحبط عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) (الزمر ٦٤-٦٦) (ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ولا تتبع اهواء الذين لا يعلمون . انهم لن يغنو عنك من الله شيئا وان الظالمين بعضهم اولياء بعض والله ولى المتقين) (الجاثية ١٨-١٩) (فلذلك فادع واستقم كما امرت ولا تتبع اهواءهم وقل آمنت بما انزل الله من كتاب وامرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا اعمالنا ولكم اعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير) (الشورى ١٥) (ولا تركنوا

الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من اولياء ثم لا تنصرون) (هود ١١٣) (قل انى نهيت ان اعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى وامرت ان اسلم لرب العالمين) (غافر ٦٦) (ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد قل ربى اعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين • وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين • ولا يصدنك عن آيات الله بعد اذ انزلت اليك وادع الى ربك ولا تكونن من المشركين ولا تدع مع الله الاها آخر لا اله الا هو كل شىء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون) (القصص ٨٥-٨٧) (فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا) (الانسان ٢٤) (لا تجعل مع الله الاها آخر فتقعد مذموما مدحورا) (الاسراء ٢٢) (فلا تك فى مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون الا كما يعبد اباؤهم من قبل وانا لموفوهم نصيبهم غير منقوص) (هود ١٠٩) (قل انى امرت أن اعبد الله مخلصا له الدين • وامرت لان اكون اول المسلمين • قل انى اخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم • قل الله اعبد مخلصا له دينى فاعبدوا ما شئتم من دونه • قل ان الخاسرين الذين خسروا انفسهم واهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين) (الزمر ١١-١٥) (قل انما ادعو ربى ولا اشرك به احدا • قل انى لا املك لكم ضرا ولا رشدا • قل انى لن يجيرنى من الله احد ولن اجد من دونه ملتحدا • الا بلاغا من الله ورسالاته ومن يعصى الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها ابدا • قل ان ادرى اقريب ما توعدون ام يجعل له ربى امدا) (الجن ٢٠-٢٥) •

(وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها واذاً لا يلبثون خلافك الا قليلا • سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا) (الاسراء ٧٦-٧٧) •

(وما ارسلنا قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى امنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم • ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان الظالمين لفى شقاق بعيد) (الحج ٥٢-٥٣) (واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم) (فصلت ٢٦) (وان كادوا ليفتنونك عن الذى اوحينا اليك لتفترى

علينا غيره واذاً لاتخذوك خليلا • ولو لا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا • اذا لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا • وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها واذا لا يلبثون خلافك الا قليلا سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا) (الاسراء ٧٤-٧٧) •

ويروى ابن اسحق[٢] والواقدى[٣] ان آية (وان كادوا ليفتنونك) نزلت بعد قصة الغرانيق التى تتلخص بأنه لما نزلت آية (افرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى) (النجم ١٠-٢١) اضاف الرسول من عنده (تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى) ففرح القرشيون وسالموا الرسول وسمع المهاجرون المسلمين فى الحبشة فعادوا ولكن نزلت هذه الآية وآية (وما ارسلنا قبلك من رسول •••) التى ذكرناها فمحت هذه الجملة التى هى من اغواء الشيطان ، وظل الرسول متمسكا بالمبدأ الاساسى للدعوة وهو الوحدانية • وجدير بالملاحظة ان هذه المعبودات لم تكن فى مكة ، وان اللات ومناة لم تكن آلهة قريش المقربة كما ان الجملة المقول اضافتها لا تتسق فى المعنى مع الآية التى بعدها (ألكم الذكر وله الانثى) ولا يمكن أن تكون بمجموعها مما يرضى المشركين •

الصبر :

وقد امر تعالى الرسول بالصبر والثبات (فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك) (طه ١٣٠ ق ٣٩) (فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار • بلاغ • فهل يهلك الا القوم الفاسقون) (الاحقاف ٣٥) (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الايد انه اواب) (ص ١٧) (فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا) (الانسان ٢٤) (واصبر لحكم ربك فانك باعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم) (الطور ٤٨) •

المقاطعة :

كما امره تعالى بمقاطعتهم نظرا لعنفهم وعدم جدوى المحاولات معهم (قل

---

(٢) الطبرى : ج ٢ ص ٢٢٦ •
(٣) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٣٧ •

يا ايها الكافرون • لا اعبد ما تعبدون • ولا انتم عابدون ما اعبد • ولا انا عابد ما عبدتم • ولا انتم عابدون ما اعبد • لكم دينكم ولى دين) (الكافرون ١-٦) (قل الله اعبد مخلصا له دينى فاعبدوا ما شئتم من دونه) (الزمر ١٤) (فلذلك فادع واستقم كما امرت ولا تتبع اهواءهم وقل آمنت بما انزل الله من كتاب وامرت لاعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا اعمالنا ولكم اعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير) (الشورى ١٥) (واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره واما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) (الانعام ٦٨) (الذين يتخذون الكافرين اولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا • وقد نزل عليكم فى الكتاب ان اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره انكم اذاً مثلهم) (النساء ١٣٩-١٤٠) (اتبع ما اوحى اليك من ربك لا اله الا هو واعرض عن المشركين • ولو شاء الله ما اشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا وما انت عليهم بوكيل) (الانعام ١٠٦-١٠٧) (فتول عنهم فما انت بملوم • وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) (الذاريات ٥٤-٥٥) (وان كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم انتم بريئون مما اعمل وانا برىء مما تعملون) (يونس ٤١) (انا انزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما انت عليهم بوكيل (الزمر ٤٢) (فان اعرضوا فما ارسلناك عليهم حفيظا ان عليك الا البلاغ) (الشورى ٤٨) (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل امة عملهم ثم الى ربهم مرجعهم فينبؤهم بما كانوا يعملون) (الانعام ١٠٨) (فتول عنهم حتى حين • وابصرهم فسوف يبصرون) (الصافات ١٧٤-١٧٥) ويظهر ان الاضطهاد على المسلمين كان شديدا (قل يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله • ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم) (الزمر ٥٣) •

الفصل العشرون

السابقون الاولون فى الاسلام

دعوة اهل مكة :

بعد مجيء الوحى والامر بتبليغ الرسالة ونزول الآيات الاولى ، آمن بالرسول عدد من اهل بيته والمقربين اليه ، ثم امره تعالى أن ينذر الناس ويبدأ بعشيرته والمقربين اليه (واندر عشيرتك الاقربين) (الشعراء ٢١٤) (قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة فى القربى) (الشورى ٢٣) ؛ كما امره أن ينذر قومه (وانه لذكر لك ولقومك) (الزخرف ٤٤) وأن ينذر اهل مكة (لتنذر ام القرى ومن حولها) (الانعام ٩٢ ، الشورى ٧) . وعلى هذا نزل القرآن باللغة العربية وهى لغة اهل مكة والحجاز والجزيرة (وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم) (ابراهيم ٤) (فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا) (مريم ٩٧) (لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين) (الشعراء ١٩٥) .

ومن الطبيعى أن يبدأ الرسول دعوته بانذار عشيرته الاقربين ، اذ أن مكة بلد توغلت فيه الروح القبلية ، فبدء الدعوة بالعشيرة قد يعين على نصرته وتأييده وحمايته . كما ان القيام بالدعوة فى مكة لابد أن يكون له أثر خاص ، لما لهذا البلد من مركز دينى خطير ؛ فجلبها الى حضيرة الاسلام لابد وأن يكون له وقع كبير على بقية القبائل . ولا يخفى ان نزول القرآن باللغة العربية يساعد على تفهم الناس له .

على ان هذا لا يعنى ان رسالة الاسلام كانت فى ادوارها الاولى محدودة بقريش ؛ لان الاسلام كما يتجلى من القرآن اتخذ الدعوة فى قريش كخطوة اولى لتحقيق رسالته العالمية . والواقع ان كثيرا من الآيات المكية كانت تنص على ان القرآن (ما هو الا ذكر للعالمين) (هود ١١٤ ، الانعام ٩٠ ، التكوير ٢٧ ، القلم ٥٢) ، الامر الذى يدل على ان فكرة الدعوة العالمية كانت قائمة منذ هذا الوقت المبكر .

علاقاته مع العشائر :

ومما يجدر ذكره ان نظام الزواج فى مكة لم يكن مقتصرا على داخل العشيرة بل كان الزواج خارج العشيرة شائعا ايضا ، مما ساعد على ربط الرسول بصلة القرابة مع كافة العشائر • وفى تفسير آية (قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة فى القربى) يروى الطبرى عن ابن عباس انه لم يكن بطن من بطون قريش الا وبين رسول الله وبينهم قرابة[١] •

والواقع اننا اذا اعتبرنا عشيرته هم من تحدر من عبدالمطلب جده ووهب جد امه ، واقتصرنا على ذلك ، وجدنا ان لعشيرته علاقات زواج بكافة عشائر مكة وبكثير من العشائر القاطنة خارجها •

فقد كانت ابنتاه رقية وكلثوم عند عتبة وعتيبة ابنا عمه ابى لهب قبل أن يفرق بينهما الاسلام[٢] ؛ وكانت ابنته فاطمة عند على ابن عمه ابى طالب كما ان معتب ابن عمه ابى لهب تزوج من فاختة ابنة عمه المقوم ، بعد أن طلقها زوجها الاول مسعود الثقفى ؛ ثم تزوجت ابو سفيان ابن عمه الحارث بعد انفصالها عن معتب • وتزوج ربيعة ابن عمه الحارث من ام الحكم بنت عمه الزبير ؛ وتزوجت اميمة بنت عمه العباس من العباس بن عتبة ابن عمه ابى لهب •

أما علاقته مع بنى عبد شمس فلم تكن قليلة ، فقد كانت زينب بنت الرسول زوجة ابن خالتها ابو العاص بن الربيع بن وائل ؛ ورقية زوجة عثمان بن عفان بعد انفصالها من عتبة ؛ وكلثوم تزوجها عثمان ايضا بعد انفصالها عن عتيبة ووفاة اختها رقية ؛ وعمته ام حكيم بنت عبدالمطلب عند كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد

---

(١) تفسير الطبرى : ج ٢٥ ص ١٥ • البخارى : كتاب المناقب ١ • ابن حنبل ج ١ ص ٢٢٩ ، ٢٨٦ •

(٢) عن زواج بنات الرسول بولدى ابى لهب وابى العاص انظر سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٢٩٦-٢٩٧ ، ٣٠٢ نسب قريش ص ٢٢-٢٣ الطبرى : ج ٢ ص ٢٩٠ ج ١٣ ص ٦٥ المحبر : ص ٥٣ المعارف : ص ٦٢ وعن زواج زينب انظر ايضا ابن حزم جمهرة الانساب ص ١٤ أما عن علاقات الرسول النسبية فانظر عنها نسب قريش وخاصة ص ١٧-٢١ المحبر ص ٦٢-٦٥ المعارف ص ٥١-٦٢ •

شمس ؛ واروى ابنة عمته ام حكيم زوجة عفان بن ابى العاص ، ثم زوجة عقبة بن ابى معيط • كما ان زينب بنت فاطمة بنت عمته اروى تزوجت الحارث بن كريز بن حبيب بن عبد شمس ؛ وتزوجت ابنتها كبشة من عبدالله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بعد مسيلمة الكذاب • وتزوجت ام جميل بنت حرب بن امية بن عبد شمس من عمه ابى لهب • وتزوجت هند بنت ابى سفيان من الحارث بن نوفل بن عمه الحارث بن عبدالمطلب •

فأما علاقته مع بنى عبدالدار فوثيقة ايضا فان جدته لامه هى برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبدالدار بن قصى ؛ وعمته اروى خلف عليها بعد عمير ، كلدة بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار ، كما ان فاطمة ابنة عمته اروى تزوجت ارطأة بن عبد شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار ؛ وحمنة ابنة عمته اروى تزوجها مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار •

واما بنى عبد بن قصى فقد كانت عمته اروى (وفى رواية السكرى صفية) عند عمير بن وهب بن عبد بن قصى ، كما ان ام جدته هى تخمر بنت عبد بن قصى •

أما مع بنى مخزوم فقد كانت ام ابيه فاطمة بنت عمرة بن عائذ بن عمران بن مخزوم ؛ وعمته عاتكة عند ابى اميمة بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم ؛ وعمته برة عند عبد الاسد بن هلال بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم ؛ وام حبيب بنت عمه العباس كانت عند الاسود بن سفيان بن عبد الاسد بن هلال بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم ؛ وام هانىء بنت عمه ابى طالب كانت عند هبيرة بن ابى وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ؛ وامامة بنت عمه الحمزة عند سلمة بن ابى سلمة المخزومى •

وجدير بالذكر ان عتيق بن عائذ بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم هو احد ازواج خديجة ، وهو ابو هند التى هى اخت اولاده ؛ كما ان زينب بنت مصعب ،

وامها ابنة عمة الرسول ، كانت عند عبدالله بن عبدالله بن ابى امية بن المغيرة بن عبدالله بن عمير بن مخزوم .

اما علاقته ببنى زهرة فتتجلى فى ان امه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ؛ وان هالة بنت اهيب بن عبد مناف بن زهرة هى زوجة جده عبدالمطلب وام عدد من اعمامه ؛ وان عبدالرحمن بن الاسود بن عبد يغوث الزهرى تزوج ضباعة ، بنت عمه الزبير ، بعد المقداد ، وعبدالرحمن بن عوف تزوج حبيبة بنت عمته اميمة .

اما مع بنى عبدالعزى ، فان منها زوجته خديجة بنت خويلد بن اسد بن عبدالعزى وعمته صفية تزوجها العوام بن خويلد بن اسد بن عبدالعزى ، وعمته الثانية ام حبيب تزوجت خالد بن حزام .

اما مع بنى تيم بن مرة فان حمنة بنت عمته اروى ، تزوجها طلحة بن عبيدالله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم .

كما ان اروى بنت عمه الحارث تزوجت ابو وداعة بن هبيرة بن سعيد بن سعد بن سهم .

والعلاقة مع اسد بن خزيمة تظهر فى ان عمته اميمة التى تزوجب جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم بن دودان بن اسد بن خزيمة .

ومع حسل جاءت من عمته برة التى تزوجت ، بعد عبدالاسد ، من ابى رهم بن عبدالعزى بن ابى قيس بن عبدود بن نصر بن مالك بن حسل .

اما علاقته مع بنى عبد بن حسل فقد جاءت من خديجة التى كانت امها فاطمة بنت زائدة بن هدم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص ؛ وام فاطمة هى هالة بنت عبد مناف بن الحارث بن منقذ بن عمرو بن معيص .

اما مع خزاعة فقد كانت صلته عن طريق زوجة عبدالمطلب وام بعض اعمام

الرسول لبنى بنت هاجر بن عبد مناف بن خاطر بن حبشية بن سلول الخزاعى .

وهو يتصل بهذيل عن طريق اميمة بنت مالك بن غنم بن حنش وهى جدة جدة امه ، وعن طريق احد نساء عمه العباس .

اما مع بنى هلال بن عامر فصلته عن طريق احدى زوجات عمه العباس وهى لبابة بنت الحارث .

اما ثقيف : فقد كانت ام عمرو ابنة عمه المقوم عند مسعود بن معتب الثقفى ، وخالدة ابنة عمه ابى لهب عند عثمان بن ابى العاص .

واما هوازن : فقد كانت اروى بنت عمه المقوم عند ابى مسروح الحارث بن يعمر ؛ وصفية بنت عمه العباس عند عبدالله بن ابى مسروح كما ان احدى زوجات جده هى صفية بنت جندب بن حجير بن رئاب بن سواءة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن .

ومع سليم عن طريق عزة ابنة عمه ابى لهب التى كانت عند اوفى بن حكيم بن امية السلمى .

ومع بنى تميم عن طريق نباش بن زرارة من بنى اسيد بن عمرو بن تميم وهو زوج خديجة وابو هالة اخت اولاده .

ومع بهراء عن طريق المقداد بن عمرو البهرانى زوج ضباعة بنت عمه الزبير .

ومع كلب عن طريق دحية بن خليفة الذى تزوج عمته درة .

ومع النمر بن قاسط عن طريق نتيلة بنت جناب التى كانت زوجة عبدالمطلب وام بعض اعمامه .

اما مع الازد ؛ فقد كانت هند بنت عمه المقوم عند ابو عمرة بن عمرو من بنى النجار .

ان هذه العلاقات النسبية مع مختلف العشائر القرشية ، ومع القبائل التى

كانت تقيم فى اطراف مكة ضمنت للرسول الحماية من الاعتداءات ، فى ذلك المجتمع القبلى الذى يستلزم نصرة العشيرة لافرادها وحمايتهم من الاعتداء • والواقع انه رغم خطر دعوته على الكفار الا انه لم يجرأ احد على الاعتداء على حياته ، لان ابا طالب كان يحميه ، كما ان من أهم أسباب اعتناق عمه الحمزة للاسلام هو ما رآه من تطاول ابى جهل على الرسول[٣] •

ولم تقتصر هذه الحماية على الرسول فقط ، بل عمت كل من تبعه ودان بدعوته ، والواقع ان الاعتداءات كانت فى الغالب تقع على المستضعفين من العبيد أو ممن لا عشائر لهم •

حرم مكة :

ثم ان الدعوة الاسلامية قامت فى مكة وهى حرم آمن يحمى من فيه من الاعتداء ، ولا ينزل فيمن يبث الدعوة أى عقاب رسمى ، ولا توجد فيها هيئة دينية تبت فى الدعوة الى اى دين جديد ، كما انه لا توجد محكمة تحاكم من يبث الدعوة ، ولا سلطة تنفيذية تطبق احكام العقوبات[٤] • لذلك فبالرغم من الموقف العدائى الذى وقفه المشركون عامة ، والمتنفذون خاصة ؛ فاننا لا نسمع فى الاخبار بذكر لأية محكمة رسمية ألفت لمحاكمته ، أو بقرار انزال عقوبة فيه أو فى المسلمين • فالمعارضة التى قامت ضده وضد الاسلام هى معارضة فردية أو شعبية لا معارضة رسمية ، ان جاز لنا استعمال هذه التعابير الحديثة •

ان هذه الحرية والحماية التى كان يتمتع بها الرسول والمسلمون من اوضح مظاهرها انهم كانوا يصلون عند الكعبة علنا[٥] •

---

(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣١٢ •

(٤) انظر ص ١٠١ •

(٥) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٣٧ ، ٣٦٥ الطبرى ج ٢ ص ٢١٢ ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ١٩٣ •

السرية :

ثم ان الرسول كان يبث دعوته فى السنوات الثلاث الاولى بصورة سرية ، ولما اعلن الدعوة ، كان يعقد الاجتماعات فى دار الارقم بن ابى الارقم[٦] على الصفا بصورة خاصة وشبه سرية ، وقد ساعدهم ذلك على التداول والتحدث ومناقشة احوال المشركين وعباداتهم ونظمهم بحرية تامة وفى مأمن من الأذى والاعتراض .

خلق الرسول :

وينبغى الا يغرب عن بالنا أثر شخصية الرسول ، وقوة عقيدته وصبره وثباته وسمو نفسه ومتانة خلقه مما كان ضامنا لاستمرار الدعوة رغم مختلف وسائل الوعد والوعيد التى اتخذت ضده . وقد وصف القرآن الكريم اخلاق الرسول بعدة آيات (وانك لعلى خلق عظيم) (القلم ٤) (فبما رحمة من ربك لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) (آل عمران ١٥) (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون) (الشعراء ٢١٥-٢١٦) (ادفع بالتى هى احسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) (فصلت ٣٤) (ادفع بالتى هى احسن السيئة نحن اعلم بما يصفون وقل رب اعوذ من همزات الشياطين) (المؤمنون ٩٧) (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) (النحل ١٢٥) .

السابقون الاولون :

تجمع الروايات الاسلامية على ان خديجة بنت خويلد زوجة الرسول هى اول من آمن به ، ولكنها تختلف اختلافا كبيرا فيمن تلاها فى اعتناق الاسلام من الرجال ويكاد يدور خلافهم حول ثلاثة اشخاص هم على بن ابى طالب ، ابن عم

---

(٦) انظر عن دار الارقم ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ١٧٤ الازرقى ج ٢ ص ٢١٠ .

الرسول وزيد بن حارثة ربيبه ، وابو بكر الصديق رفيقه[٧] ؛ ومن الصعب البت فى ترتيب اسلام هؤلاء الثلاثة الذين كانوا السابقين الاولين ، وكلهم من اهل بيته وأشد المقربين اليه ٠

وقد تلا هؤلاء عدد ممن آمن بالرسول خلال الفترة التى كانت فيها الدعوة سرية ، وقد ذكر ابن اسحق اسماءهم وهم جعفر بن ابى طالب (بنى هاشم) عبيدة بن الحرث (المطلب) عثمان بن عفان وابو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وخالد بن سعيد بن العاص (عبدشمس) عبدالله بن جحش وابو احمد بن جحش (حلفاء بنى عبدشمس) الزبير بن العوام (اسد بن عبدالعزى) ، عبدالرحمن بن عوف وسعد بن ابى وقاص وعمير بن ابى وقاص والمطلب بن ازهر (زهرة) وخباب بن الارت وعبدالله بن مسعود (حلفاء زهرة) وابو سلمة والارقم بن ابى الارقم وعياش بن ابى ربيعة (مخزوم) وعمار بن ياسر (حليف بنى مخزوم) ، سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ونعيم بن عبدالله النحام (عدى) وواقد بن عبدالله ، وخالد وعامر وعاقل واياس بنى البكير (حلفاء عدى) وطلحة بن عبيدالله (تيم) وعامر بن فهيرة وصهيب بن سنان (حلفاء تيم) وعثمان بن مضعون وابناؤه قدامة وعبدالله والسائب ، وحاطب بن الحرث واخوه حطاب بن الحرث (جمح) وخنيس بن حذافة (سهم) وابو عبيدة بن الجراح (الحارث بن فهر) ومسعود القارى (القارة) وسليط بن عمرو وحاطب بن عمرو (عامر) ٠

يضاف الى هؤلاء عدد من النساء هن فاطمة بنت الخطاب زوجة سعيد بن زيد بن عمرو واسماء وعائشة بنتا ابى بكر ، واسماء زوجة عياش بن ابى ربيعة ، واسماء زوجة جعفر بن ابى طالب ، وفاطمة زوجة حاطب بن الحرث ، وفكيهة زوجة حطاب بن الحرث ، ورملة زوجة المطلب بن ازهر ، وامينة زوجة خالد بن سعيد بن العاص[٨] ٠

---

(٧) الطبرى : ج ٢ ص ٢١١-٢١٥ ٠

(٨) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٦٩-٢٧٤ ٠

يتبين من هذه القائمة ان المسلمين الاول اكثرهم من قريش ، ولكنهم لم يقتصروا على عشيرة واحدة ، بل كانوا موزعين على كافة العشائر تقريبا ، وهناك افراد منفردون من بعض العشائر ، واحيانا يسلم الرجل مع زوجته ، والراجح ان النساء اسلمن مع ازواجهن ، وان كان هناك رجال اسلموا وبقيت اسرهم أو زوجاتهم مشركات[٩] .

وقلما تسلم اسرة بكاملها . والواقع ان هذا ينطبق حتى على الدور المكى المتأخر فيروى ابن سعد انه (كان ممن خرج فى الهجرة الى المدينة فاوعبوا رجالهم ونساءهم وغلقوا دورهم فلم يبق منهم احد الا خرج مهاجرا دار بنى دودان ودار بنى ابى البكير ودار بنى مضعون[١٠]) .

والغالب ان اسلام معظمهم كان فرديا ، وان كان بعضهم قد اسلم للنبى بشكل جماعة ، فيروى ابن اسحق ان ابا بكر اسلم على يده عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن ابى وقاص وطلحة بن عبيدالله[١١] ، ويروى ابن سعد انه (انطلق عثمان بن مضعون وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعبدالرحمن بن عوف وابو سلمة بن عبدالاسد وابو عبيدة بن الجراح حتى أتوا رسول الله (ص) فعرض عليهم الاسلام وأنبأهم بشرائعه فأسلموا جميعا فى ساعة واحدة وذلك قبل دخول رسول الله (ص) دار الارقم[١٢]) .

ومع انه ليست لدينا معلومات وافية عن احوال واوضاع كل من هؤلاء السابقين قبل اسلامهم ، الا انهم ولاشك كانوا من اوسط قريش، فخالد بن سعيد بن العاص كان ابوه من أغنى اهل مكة واقواهم نفوذا[١٣] ، كما ان ابا بكر وسعد بن

---

(٩) المحبر : ص ٤٠٦ ، ٤٣٢ .
(١٠) ابن سعد : ج ٣ قسم ١ ص ٦٣ ، ص ٢٨٨ .
(١١) ابن هشام ج ١ ص ٢٦٨ . الجاحظ : كتاب العثمانية ص ٣١ .
(١٢) ابن سعد : ج ٣ قسم ١ ص ٢٨٦ .
(١٣) المحبر : ص ١٦٥ نسب قريش ص ١٧٣-١٧٤ .

ابى وقاص وطلحة وعبدالرحمن بن عوف كلهم تجار أو صناع من رجال الطبقة الوسطى (١٤) .

ومن بين السابقين فى الاسلام عدد من الحلفاء ، وربما المعتقين ولعلهم هم المستضعفين الذين أشار اليهم الزهرى بقوله (فاستجاب لله من شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به) .

وقد عرف الواقدى المستضعفين بأنهم قوم لا عشائر لهم بمكة وليست لهم منعة ولا قوة ، فكانت قريش تعذبهم بالرمضاء بانصاف النهار ليرجعوا عن دينهم (١٥) . ويروى الطبرى عن ابن مسعود فى تفسير آية (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شى وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين) (الانعام ٥٢) . ان بعض كفار قريش جاؤوا الى ابى طالب فقالوا : يا ابا طالب لو ان ابن اخيك يطرد عنه موالينا وحلفاءنا فانما هم عبيدنا وعسفاؤنا كان اعظم فى صدورنا واطوع له عندنا وادنى لاتباعنا اياه وتصديقنا له .. قال : وكانوا بلال وعمار بن ياسر وسالما مولى ابى حذيفة وصبيحا مولى اسيد ومن الحلفاء ابن مسعود والمقداد بن عمرو ومسعود القارى وواقد بن عبدالله الحنظلى وعمرو بن عبد عمرو ذو الشمالين ومرثد بن ابى مرثد وابو مرثد من غنى حليف حمزة بن عبدالمطلب واشباههم من الحلفاء . ونزلت فى أئمة الكفر من قريش والموالى والحلفاء (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) (الانعام ٥٣ (١٦)) .

---

(١٤) المعارف : ص ٢٤٩ .

(١٥) ابن سعد : ج ٣ قسم ١ ص ١٧٧ .

(١٦) تفسير الطبرى : ج ٧ ص ١٢٧ وانظر ايضا سيرة بن هشام ج ١ ص ٤٢٠ .

دوافع اعتناق الاسلام :

ويحق لنا بعد أن عرضنا اسماء ومراكز المسلمين الاول فى المجتمع المكى أن نسأل عن سبب اعتناقهم الاسلام فى هذه الفترة المبكرة التى لم يكن مستقبل الاسلام المادى ونجاحه واضحا • لا ريب انه لا يمكن قبول نظرية جرمه Germet التى تقول نأبه استجاب له المستضعفون ، رغبة فى التحرر ، والفقراء رغبة فى الكسب ، نظرا لما فيه من ميل اشتراكى ، فان هذا الرأى ينقضه دراسة المسلمين الاول الذين كان اكثرهم من التجار ورجال الطبقة الوسطى وممن كانت لهم عشائر تحميهم وتدفع عنهم • بل حتى وجود الحلفاء والمستضعفين فى الاسلام لا ينهض دليلا على صحة هذا الرأى ، اذ ان هؤلاء نالوا كثيرا من الاضطهاد بسبب عقائدهم ، ومنوا بكثير من الآمال اذا تركوها ، فرفضوا وأصروا على التمسك بالدين الجديد ، مما يدل على ان دافع العقيدة كان يدفعهم الى اعتناق الاسلام • والواقع ان الروايات اشارت بصراحة الى دوافع بعضهم فعثمان بن مضعون كان منذ قبل الاسلام من الباحثين عن الدين ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل هو ابن الرجل الذى كان حنيفيا يبحث عن دين ابراهيم(١٧) ؛ وخالد بن سعيد بن العاص اعتنق الاسلام لانه رأى نفسه فى المنام على حافة هاوية من النار يدفعه اليها ابوه ويدفعه عنها رجل آخر لينقذه منها(١٨) ، ويمكن تفسير ذلك بانشغال عقله الباطن فى الامور الدينية واعتناقه الاسلام لاعتقاده بأن فيه المنجى والمخلص ؛ أما عمر بن الخطاب الذى اسلم بعيد هذه الفترة ، فقد اسلم لتأثره من سماعه آيات القرآن ومن رؤيته اخته تتأذى(١٩) ، واما الحمزة عم الرسول ، وقد اسلم بعيد هذه الفترة ايضا ، فقد اعتنقه لما رأى من تطاول على ابن اخيه(٢٠) •

---

(١٧) انظر ص ٢٥٨ـ٢٥٩ •
(١٨) ابن سعد : ج ٤ قسم ١ ص ٦٤ •
(١٩) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٦٤ ، ٣٦٨ •
(٢٠) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣١٢ •

ومن كل هذا نرى ان الدافع لاعتناق الاسلام دينى بالدرجة الاولى .

يقول ابن اسحق « ثم دخل الناس فى الاسلام ارسالا من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الاسلام بمكة وتحدث به . ثم ان الله عز وجل أمر رسوله (ص) أن يصدع بما جاءه منه وان يبادى الناس بأمره وأن يدعو اليه ، وكان بين ما اخفى رسول الله (ص) امره واستتر به الى أن أمره الله تعالى باظهار دينه ثلاث سنوات فيما بلغنى من مبعثه ثم قال الله له (فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين) (الحجر ٩٤) (واندر عشيرتك الاقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون) (الشعراء ٢١٦) .. فلما بادى رسول الله (ص) قومه بالاسلام وصدع به كما أمره الله ، لم يبعد منه قومه ، ولم يردوا عليه فيما بلغنى ، حتى ذكر آلهتهم وعابها ، فلما فعل ذلك اعظموه وناكروه واجمعوا خلافه وعداوته ، الا من عصم الله تعالى منهم بالاسلام ، وهم قليل مستخفون وحدب على رسول الله (ص) عمه ابو طالب ومنعه وقام دونه ، ومضى رسول الله (ص) على أمر الله مظهرا لامره ، لا يرده عنه شىء[٢١] .

ويؤيد ابن سعد ايضا ان الرسول كان يدعو اول ما نزلت عليه النبوة ثلاث سنين مستخفيا الى أن أمر بظهور الدعاء ، ثم يروى عن الزهرى « فاستجاب لله من شاء من احداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به ، وكفار قريش غير منكرين لما يقول ، فكان اذا مر عليهم فى مجالسهم يشيرون اليه ان غلام بنى عبدالمطلب ليكلم من السماء ، فكان ذلك حتى عاب الله آلهتهم التى يعبدونها دونه ، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر ، فشنفوا لرسول الله (ص) عند ذلك وعادوه[٢٢] » .

---

(٢١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٧٤-٢٧٦ .

(٢٢) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٣٣ أما عن عيب آلهتهم فى القرآن فانظر ص ٢٨٠-٢٨١ .

مقاومة المشركين للدعوة الاسلامية

دوافع المقاومة :

يتبين مما ذكرناه فيما سبق ان الدعوة الاسلامية فى الادوار الاولى لم تلق معارضة شديدة ، نظرا لسريتها وعدم التعرض لآلهة الشرك ، وان الآيات الاولى كانت تؤكد على عظمة الله وقدرته ووجوب تقواه وعبادته ، فهى لا تثير المشركين الذين كانوا يعبدون الله • غير انه بتقدم الايام وازدياد وضوح معالم الدين الجديد وتتابع نزول الآيات التى تصيب آلهتهم ، بدأ المشركون يمتعضون ويناصبون الدعوة الاسلامية والرسول العداء ، وأخذوا يؤذونه بمختلف الوسائل ؛ ولمختلف الدوافع •

الدافع الدينى :

لقد رأينا ان الاسلام جاء يؤكد بالدرجة الاولى على عبادة اله واحد منزه ، ولا يقر بأى مظهر من مظاهر الشرك والوثنية ، ولا يمكن التوفيق بين ما جاء به وما كان يدين به القرشيون • فانتصار الاسلام كان يستلزم حتما ازالة المعتقدات والعبادات التى كان الناس قد ألفوها واعتادوا عليها • ان ديانة الشرك لم تكن لها فلسفة قوية تدافع عنها ، كما يظهر من محاجة القرآن لهم ، حيث لا يظهر من هذه المحاجة وجود فكرة حية واضحة عندهم ، كما لم تذكر آراء واضحة عن ديانتهم أو عن وجود رجال دين يتحمسون فى الدفاع عن هذه الديانة • والواقع ان القرآن يذكر تردى ذلك الدين فى قلوب الناس (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا) (الانعام ٧٠) (الذين اتخذوا دينهم لهوا لعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون) (الاعراف ٥١) • والواقع ان المشركين اقاموا تحاملهم على مبدأين

اساسيين احدهما التهجم على فكرة الوحدانية الخالصة والبعث وعلى شخصية الرسول ، والثانى هو ان دينهم قد ورثوه عن آبائهم .

ان مقاومة المشركين للاسلام ، رغم الجمود الظاهر لديانتهم يمكن تعليله بأن دينهم وان لم يكن يلعب دورا كبيرا ظاهرا فى حياتهم اليومية ، الا انه كان متغلغلا فى نفوسهم ومتعمقا فى اللاشعور فيهم فهم يعيشون فيه دون أن يفهموه أو يدركوه . كما انه نظرا لطول أمد استقراره ، لم تكن هناك حاجة للتحدث به أو الدفاع عنه . ولكن الاسلام بنقده لدينهم كان تحديه موجها لا الى عقائدهم فحسب بل الى ذاتيتهم وكيانهم الروحى فاندفعوا يدافعون عنه بقوة . ومما زاد فى قوة هذه المقاومة روح المحافظة التى تتجلى عند البدو بصورة خاصة . وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تبين أثر روح المحافظة فى المقاومة غير المفكرة التى واجهوا الاسلام بها . (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم) (سبأ ٤٣) (بل قالوا انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما ارسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون . قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباؤكم قالوا انا بما ارسلتم به كافرون) (الزخرف ٢٢-٢٤) (واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) (لقمان ٢١) (واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) (البقرة ١٧٠ انظر ايضا المائدة ١٠٤) (انهم الفوا آباءهم ضالين . فهم على آثارهم يهزعون . ولقد ضل قبلكم أكثر الاولين) (الصافات ٦٩-٧١) .

روح المحافظة :

ومما زاد فى عنف مقاومتهم ان دعوة الرسول للوحدانية كانت جديدة عليهم فلم يكن قد اتاهم من قبله رسول (لتنذر قوما ما انذر آباؤهم فهم غافلون) (يسن ٦) (ام يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك

لعلهم يهتدون) (السجدة ٣) (وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما ارسلنا اليهم قبلك من نذير) (سبأ ٤٤) .

وبجانب هذا العامل النفسى فهناك عدة عوامل دفعت القرشيين لمقاومة الاسلام منها ان الاسلام جاء يدعو لعبادة اله واحد مطلق يمكن عبادته فى أى مكان . فانتشاره سيؤدى حتما الى تهديد مصالح كثيرين ممن كانت لهم علاقة ومصلحة بالدين القديم . واذا دانت مكة واهلها بالدين الجديد فستزول مكانتهم عند المشركين من العرب وتقل حرمتهم ولا تبقى لهم المكانة السابقة (وقالوا أن نتبع الهدى معك نتخطف من ارضنا أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ولكن اكثرهم لا يعلمون . وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين) (القصص ٥٧-٦٠) .

الدوافع الاجتماعية :

ثم ان الاسلام يهدد تكوين وتنظيم المجتمع القديم . اذ رغم ان الاسلام جاء فى البداية يهدف دعوة دينية خالصة الا انه كان لابد أن يؤدى انتشاره الى نتائج اجتماعية وسياسية مهمة . فاتباع الدين الجديد لابد أن ينفصلوا عن الدين القديم واتباعه ، ويكونوا فيما بينهم كتلة قائمة بذاتها ، تقوم على اسس جديدة وتتطلب من هؤلاء الاتباع أن يتعاونوا ويتناصروا فيما بينهم ، بصرف النظر عن القبيلة التى ينتمون اليها ؛ وان يتحدوا لصد من يهددهم ممن لا يدين بدينهم أى أن يقفوا ضد مشركى مكة وكفارها . وهكذا تنشطر مكة الى شطرين : الاول جامد والثانى قابل للتوسع بل ان الانقسام سيمتد الى اعضاء الاسرة الواحدة . وقد أشار القرآن الى أزمات حدثت فى بعض الاسر التى اسلم ابناؤها وظل بعض كبارها غير مسلمين أو بالعكس (الذى قال لوالديه اف لكما اتعداننى ان اخرج وقد خلت القرون من قبلى وهما يستغيثان الله ويلك ان وعد الله حق فيقول ما هذا الا اساطير الاولين) (الاحقاف ١٧) (ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما الى مرجعكم فانبؤكم بما كنتم تعلمون)

(العنكبوت ٨ أنظر ايضا لقمان ١٥) كما روى ابن اسحق ان المشركين كلموا النبى وقالوا له « انك قد اتيت قومك بامر عظيم فرّقت به جماعتهم وسفهت به احلامهم وعبت به آلهتهم » وكذلك قالوا لعمه ابى طالب عندما طلبوا منه أن يتدخل ويطلب من الرسول الكف عن الدعوة[1] .

ويجدر بنا ان نلاحظ ان الاسلام يدعو الى تنظيم اجتماعى يختلف اختلافا اساسيا عن التنظيم الذى كان قائما فى الجزيرة ، وخاصة فى مكة . فهو يدعو الى الانسانية والرحمة والشفقة والعطف على الضعيف والصدق والاستقامة . ويضع للتفاضل الاجتماعى مقاييس جديدة ، تقوم على اساس الاخلاق الفاضلة الصالحة بصرف النظر عن الثروة والجاه أو النسب . فهى تناقض تماما ما كان سائدا فى مكة من تفاخر بالانساب والآباء ومن تقدير للثروة والغنى والمظاهر الدنيوية فانتشار الاسلام كان من شأنه أن يؤثر فى مركز المتنفذين والاغنياء فيخفض من مركزهم اذا لم تكن لهم صفات اخلاقية حميدة ويحل محلهم فى المكانة العليا اناس ربما كانوا من الفقراء أو من ليسوا من العشائر المكينة .

ولن يقتصر هذا التغير عليهم وحدهم فى هذه الدنيا بل يمتد الى اجدادهم ايضا فقد لاحظنا فى فصل سابق ان فكرة البعث واليوم الآخرة اساسية فى الاسلام ، وان الناس سيحاسبون فيها على ما كسبت يداهم فى هذه الدنيا وسيجزون بما كانوا يعملون فمن عمل مثقال ذرة خيرا يره ومن عمل مثقال ذرة شرا يره ومن ثقلت موازينهم وكثرت اعمال الخير والبر عندهم فسيذهبون الى الجنة . اما من زادت اعمال الشر عندهم فسيذهبون الى جهنم وان حساب يوم الآخرة لا يقتصر على الظواهر بل على الاعمال الحقيقية وانه سوف ينال الجميع حتى من كان قبل الاسلام . ولما كان آباء المشركين واجدادهم كفارا فسيكون مصيرهم

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٧٩ ، ٣١٣ ، ٣١٥ الطبرى ج ٢ ص ٢٢٣ ، ٢٣٠ تفسير الطبرى ج ٧ ص ٢٠٧ ج ١٥ ص ١١٠ .

النار • وقد تكرر فى القرآن ورود انكار المشركين للبعث كما تكرر التأكيد عليه كثيرا بشكل يوحى بأنها من أهم الافكار الاسلامية التى عارضوها (انظر الانعام ٢٩ ، الرعد ٥ ، النحل ٢٨ ، الاسراء ٤٩ و٩٨ ، المؤمنون ٨٢-٨٣ ، الفرقان ١١ ، النمل ٦٧-٦٨ ، سبأ ٣ و٧ ، يسن ١٦-١٧ ، الجاثية ٢٤ ق ١-٣ ، التغابن ٧ ، النازعات ١٠-١٢ ، القيامة ٣-٤ و٣٦-٤٠ ، انظر ايضا فصلت ٥٤ ، الذاريات ١٠-١٢) •

الدوافع السياسية :

ثم ان المجتمع الجديد لا يدين بالطاعة الى الرؤساء القدماء ، بل يرتبط بالرسول الذى تأتى بواسطته احكام الاسلام • والقرآن يأمر باطاعة الرسول (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) (الاحزاب ٧١) (قل اطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين) (آل عمران ٣٢) (واطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون) (آل عمران ١٣٢) (تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخلة جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم) (النساء ١٣) (ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء الصالحين وحسن اولئك رفيقا) (النساء ٦٩) (من يطع الرسول فقد اطاع الله ومن تولى فما ارسلناك عليهم حفيظا) (النساء ٨٠) (وما ارسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله) (النساء ٦٤) (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله اولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم) (التوبة ٧١) • ومع ان اغلب هذه الآيات مدنية ، الا انها توضح ما ستؤديه دعوة الاسلام من منح الرسول مركزا اساسيا قويا يطغى على الباقين • ومع ان الرسول كانت من مظاهر اخلاقه الدماثة والتواضع والرقة والتسامح والعطف ، ومع ان القرآن أكد انه مذكر ومنذر وبشير لا يبغى اية منفعة مادية من دعوته (قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة فى القربى) (الشورى ٢٣) (قل ما اسألكم عليه من اجر وما انا من المتكلفين) (ص ٨٦) (قل ما سألتكم من اجر فهو لكم ان اجرى

الأعلى الله وهو على شيء شهيد) (سبأ ٤٧) (وما تسألهم عليه من أجر ان هو الا ذكرى للعالمين) (يوسف ١٠٤) (ام تسألهم اجرا فهم من مغرم مثقلون) (القلم ٤٦ ، الطور ٤٠) .

غير ان القرشيين ارتاعوا من هذه الدعوة فكرهوا أن ينزل الوحى على رجل منهم (وعجبوا ان جاءهم منذر منهم) (ص ٤ ق ٢) (أكان للناس عجبا ان اوحينا الى رجل منهم ان أنذر الناس) (يونس) (أو نزل عليه الذكر من بيننا بل هم فى شك من ذكرى) (ص ٨) (اوعجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم) (الاعراف ٦٣ و٦٩) (ابعث الله بشرا رسولا) (الاسراء ٩٤) (واذا رأوك ان يتخذوا منك الا هزوءا أهذا الذى بعث الله رسولا) (الفرقان ٤١) (وقالوا لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) (الزخرف ٣١) .

وينبغى الا يفسر موقفهم بأنه انتقاص من مركز النبى فانه من أعلى الاسر الارستقراطية القرشية وفى القرآن شواهد على مركزه (أفلم يدبروا القول ام جاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين ام لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) (المؤمنون ٦٩) (وجاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم) (التوبة ١٢٨) . كل هذا يدل على حسن مركزه بين قريش . ولكنهم لم يقروا له لانه لم يكن من الزعماء السياسيين فى مكة ، ولانه لم يأت معه بصفات خارقة والواقع ان اشد المقاومة جاءته من الارستقراطية والزعماء السياسيين كما سنبين .

الدعوة ليست اشتراكية :

وقد ادعى بعض المستشرقين وخاصة كريمه[٢] ان دعوة الرسول الاولى كانت احتجاجا على سوء توزيع الثروة ، وانها استهدفت اغاثة المنكوبين والضعفاء والفقراء ، وانها لذلك كان لها مظهر الاشتراكية . ومما اتخذوه من الادلة لتعزيز

---

(٢) تجد بحث كريمة فى كتابه محمد (بالالمانية) وتجد اشارة ونقدا له فى المقال القيم الذى كتبه بوهل عن الرسول فى دائرة المعارف الاسلامية ، وفى كتاب وات (محمد فى مكة) ص ٩٨-٩٩ .

دعوته ان الصدقات ومساعدة الضعيف والفقير والحض على اطعام المسكين وتحرير العبيد وفك رقابهم كان مؤكد عليها منذ اوائل ادوار الدعوة الاسلامية • وكذلك التأكيد على حسن معاملة اليتامى والتشديد على من يظلمهم • وقد هدد الاغنياء الذين ينفقون ولا يعطون الفقراء ويكنزون الذهب والفضة ؛ يضاف الى ذلك ان الاغنياء كانوا من اشد المقاومين للاسلام ، وقد أشار القرآن الى عدد غير قليل من هؤلاء القرآن الذين قاموا الاسلام واوعدهم بالعقاب الشديد •

لقد كان كريمه متأثرا من النظريات الاشتراكية التى سادت القرن التاسع عشر وأراد أن ينظر بهذا المنظار الى تاريخ الرسول ، وفى رأيه تطرف فمساعدة الضعيف والرقيق واجب انسانى ضرورى ولم يتطرف الاسلام فيه ليجعله قريبا من الاشتراكية الحديثة ، كلا فان الصدقات وسنفصل الكلام عنها فى الجزء الثانى كانت أقل من أن تطفىء الرأسمالية أو تخلق الاشتراكية ، هذا الى ان الاسلام أقر جمع الثروة ولم يهاجمها اذا كانت آتية من طريق مشروع[٣] كما ان كثيرا من المسلمين الاول كانوا انفسهم من الاغنياء والتجار[٤] • ويلاحظ ان الاشتراكية مذهب اقتصادى أما الدين الاسلامى فهدفه بالدرجة الاولى روحى دينى وأما المسائل الاقتصادية فكانت ثانوية بالنسبة لامور العقائد وخاصة فى الادوار الاولى من الدعوة • كما ان أشد فكرة قاومها المشركون هى فكرة الآخرة • (اذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون) (الزمر ٤٦) (واذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على ادبارهم نفورا) (الاسراء ٤٦) •

وفى القرآن آيات تدل على ان المسلمين الاول اغنياء (بل توثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وابقى) (الاعلى ٦-١٧) (كلا بل لا تكرمون اليتيم • ولا تحضون

---

(٣) انظر كتابى عن (التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة) الفصل التاسع •

(٤) المعارف ص ٢٤٩ •

على طعام المسكين • وتأكلون التراب أكلا لما • وتحبون المال حبا جما) (الفجر ١٧-٢٠) (فلا اقتحم العقبه • وما ادراك ما العقبه • فك رقبه • او اطعام فى يوم ذى مسغبه • يتيما ذا مقربه • أو مسكينا ذا متربه) (البلد ١١-١٧) •

اساليب المقاومة :

لقد اتخذ المشركون اساليب وطرق متعددة لمقاومة الرسول والدعوة • وقد اشار القرآن الى بعضها :

فقد اتهموه بأن ما جاء به لم يكن جديدا عليهم بل هو من اساطير الاولين (الانعام ٢٥ ، النحل ٢٤ ، المؤمنون ٨٣ ، النمل ٦٨ ، الاحقاف ١٧ ، القلم ١٥ ، المطففين ١٣) •

واتهموه بأن اعجميا يلقنه اياها (وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه واعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا • وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة واصيلا) (الفرقان ٤-٥) (ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه اعجمى وهذا لسان عربى مبين) (النحل ١٠٣) وانتقدوا الناسخ والمنسوخ (واذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قالوا انما انت مفتر بل اكثرهم لا يعلمون) (النحل ١٠١) •

ثم انهم سخروا من الرسول وهزؤا به وبدعوته (الصافات ١٢ و١٤ ، التوبة ٦٥ ، الانعام ٥ و١٠ ، هود ٨ ، النحل ٣٤ ، الشعراء ٦ ، الروم ١٠ ، يسين ٣٠ ، الزمر ٤٨ ، الزخرف ٧ الاحقاف ٢٦ ، الرعد ٣٢ ، الانبياء ٤١ ، الحجر ٩٥ ، الكهف ٥٦ و١٠٦ ، الفرقان ٤١ ، الجاثية ٩ و٣٥) •

واتهموه بأنه ساحر وان ما جاء به سحر (الانعام ٧ ، يونس ٧٦ ، هود ٧ ، النمل ١٣ ، سبأ ٤٣ ، الصافات ١٥ ، الزخرف ٣٠ ، الاحقاف ٧ ، الطور ١٥ ، القمر ٢ ، الصف ٦ ، المدثر ٢٤ ص ٤ ، الذاريات ٥٢ ، الاسراء ٤٧ ، الفرقان ٨) •

كما اتهموه بأنه مجنون (الحجر ٦ ، الصافات ٣٦ ، القلم ٥١ ، المؤمنون

٢٥ و ٧٠) وقد رد على هذه التهمة (الاعراف ١٨٤ ، سبأ ٤٦ ، الطور ٢٩ ، القلم ٢ ، التكوير ٢٢ ،) .

واتهموه ايضا بأنه كذاب (ص ٤ ، القمر ٢٥ ، فاطر ٢٥ ، الحج ٤٢) وانه مفتر (الفرقان ٤ ، سبأ ٤٣ ، الاحقاف ٨ و١١ ، السجدة ٣ ، يونس ٣٨ ، هود ١٣ و٣٥ ، الانبياء ٥) .

ونسبوا اليه انه شاعر (الصافات ٣٦ ، الحاقة ٤٠ ، الانبياء ٥ ، الطور ٣٠) وكاهن (الطور ٢٩ ، الحاقة ٤٢) .

كما اخذوا على الرسول انه بشر مثلهم فلم يصدقوا بأن الرسول يمكن أن يكون بشرا (الانبياء ٣ المؤمنون ٢٤ و٣٣ ، الاسراء ٩٤ ، القمر ٢٤) كما طلبوا منه آية (الانعام ١٠٩ و٢٧٩ ، يونس ٢٠ ، الرعد ٧ و٢٧ ، الانبياء ٥ الشعراء ١٥) .

وطلبوا منه أن يأتى بالمعجزات (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من من الارض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه . قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا) (الاسراء ٩٠-٩٤) (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيرا . أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا) (الفرقان ٧-٨) (فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك أو ضائق به صدرك أن يقولوا لولا انزل عليه كنز أو جاء معه ملك انما انت نذير والله على كل شىء وكيل) (هود ١٢) .

كما قالوا له (أيت بقرآن غير هذا) (يونس ١٥) أو (لو نزل عليه القرآن جملة واحدة) (الفرقان ٣٢) وعندما ذكر القرآن آيات الله قالوا (لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) (الانعام ١٢٤) كما انهم عندما كانت تتلى عليهم آيات الله يقولون (قد سمعنا لو شئنا لقلنا مثل هذا) (الانفال ٣١) . وادعوا بأنهم

ما سمعوا بهذا فى الملة الآخرة وان آباءهم لم يعرفوا ما جاء به النبى • وكانوا لا يسمعون ما يقول ويصدفون عنها (الاسراء ٤٦ ، فصلت ٤ و٢٦ ، الاعراف ١٩٨ ، فاطر ١٤ ، النمل ٨٠ ، الروم ٥٢ ، المدثر ٤٩ ، الجاثية ٨ لقمان ٧) •

وكانوا يشكون فيما جاء به (هود ٦٢ و١١٠ ، ابراهيم ٩ ، الشورى ١٤ ، فصلت ٢٥ و٤٥) ويجحدون آيات الله وينكرونها ويكفرون بها ومن ثم اطلق عليهم اسم الكافرين التى تتردد كثيرا فى العصر المكى •

ويظهر انهم استغربوا من كلمة الرحمن التى هى مرادف لاسم الله تعالى (واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن انسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا) (الفرقان ٦٠) (واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتهم وهم بذكر الرحمن كافرون) (الانبياء ٢٦) (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعون فله الاسماء الحسنى) (الاسراء ١١٠) (كذلك ارسلناك فى امة قد خلت من قبلها امم لتتلوا عليهم الذى اوحينا اليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب) (الرعد ٣٠) •

ثم انهم كانوا يسخرون من المسلمين (ان الذين اجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون • واذا مروا بهم يتغامزون • واذا انقلبوا الى اهلهم انقلبوا فكهين • واذا راوهم قالوا ان هؤلاء لضالون) (المطففين ٢٩-٣٢) (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا) (الحج ٧٢) •

المقاومون

اشارات القرآن :

لم يرد فى القرآن من اسماء مقاومى النبى الا اسم عمه ابى لهب وزوجته حمالة الحطب ، وقد ذكرا فى سورة قصيرة • ولكن وردت فى عدة آيات قرآنية اشارات الى اشخاص يدل ما نزل فيهم على انهم كانوا يقاومون الرسول ودعوته • ومع ان القرآن لم يذكر اسمهم بصراحة ، الا ان كتب التاريخ والتفسير تذكر اسماءهم • فمن هذه الآيات (ذرنى ومن خلقت وحيدا • وجعلت له مالا ممدودا •

وبنين شهودا • ومهدت له تمهيدا • ثم يطمع ان ازيدا • كلا انه كان لآياتنا عنيدا • سأرهقه صعودا • انه فكر وقدر • فقتل كيف قدر • ثم قتل كيف قدر • ثم نظر • ثم عبس وبسر ثم ادبر واستكبر • فقال ان هذا الا سحر يؤثر • ان هذا الا قول البشر) (المدثر ١١-٢٥) (أفرأيت الذى تولى واعطى قليلا واكدى اعنده علم الغيب فهو يرى • أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وابراهيم الذى وفى • الا تزر وازرة وزر اخرى • وان ليس للانسان الا ما سعى) (النجم ٢٣-٢٩) وقد نزلت هاتان الآيتان فى الوليد بن المغيرة المخزومى[٥] الذى اشار اليه القرشيون بقولهم (وقالوا لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) (الزخرف ٣١[٦]) •

(ويل لكل همزة لمزة • الذى جمع مالا وعدده • أيحسب ان ماله اخلده كلا لينبذن فى الحطمة) (الهمزة ١-٤) وقد نزلت فى امية بن خلف[٧] •

(وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحى العظام وهى رميم • قل يحييها الذى انشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم) (يسين ٧٨-٧٩) (يوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا • يا ويلتى يا ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا • لقد أضلنى عن الذكر بعد اذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولا) (الفرقان ٧-٢٩) • وقد نزلت هاتان الآيتان فى ابى بن خلف[٨] •

(أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا • اطلع الغيب ام اتخذ عند الرحمن عهدا • كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا • ونرثه ما يقول

---

(٥) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٨٤ تفسير الطبرى ج ٢٥ ص ٤٠ ج ٢٩ ص ٩٦ الاشتقاق ص ٩٤ •

(٦) تفسير الطبرى ج ٢٥ ص ٤٠ •

(٧) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٧٩ ، ٤٢٣ •

(٨) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٨٥-٣٨٦ تفسير الطبرى ج ١٧ ص ٦ ج ٢٣ ص ٢٠ الاشتقاق ص ٨٠ •

ويأتينا فردا) (مريم ٧٧-٨٠) (ويل لكل افاك أثيم • يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى اذنيه وقر فبشره بعذاب أليم • واذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا اولئك لهم عذاب مهين) (الجاثية ٩) (أرأيت الذى يكذب بالدين • فذلك الذى يدع اليتيم • ولا يحض على طعام المسكين) (الماعون ١-٣) • وقد نزلت هذه الآيات فى العاص بن وائل[٩] •

(ولا تطع كل حلاف مهين • هماز مشاء بنميم • مناع للخير معتد أثيم • عتل بعد ذلك زنيم • ان كان ذا مال وبنين اذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين سنسمه على الخرطوم) (القلم ١٠-١٦) وقد نزلت فى الاخنس بن شريق[١٠] •

(فلا صدق ولا صلى • ولكن كذب وتولى • ثم ذهب الى اهله يتمطى اولى لك فاولى • ثم اولى لك فاولى) (القيامة ٣١-٣٥) (فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا) (الانسان ٢٤) (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) (الانعام ٢٢) • وقد نزلت هذه الآيات فى ابى جهل[١١] •

(ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير • ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق) (الحج ٨-٩) (وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه واعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤوا ظلما وزورا • وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة واصيلا) (النور ٤-٥) وقد نزلت هاتان الآيتان فى النضر بن الحارث بن كلدة

---

(٩) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٨٠ ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ١١٦ تفسير الطبرى ج ١٦ ص ٩١ الاشتقاق ص ٧٩ •

(١٠) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٨٤ تفسير الطبرى ج ٢٩ ص ١٤-١٥ •

(١١) تفسير الطبرى ج ٢٩ ص ١٢٤ ، ١٣٨ ج ٨ ص ١٧ ج ٢٥ ص ٨٠ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٣٣ •

بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدارين قصى[١٢] . ويروى عن ابن عباس انه قال نزل فيه ثمان آيات من القرآن ، وكل ما ذكر فيه من الاساطير من القرآن نزل فيه . ويقول ابن اسحق انه « كان النضر بن الحارث من شياطين قريش وممن كان يؤذى رسول الله وينصب له العداوة وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها احاديث ملوك الفرس واحاديث رستم واسفنديار ، فكان اذا جلس رسول الله (ص) مجلسا فذكر فيه بالله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الامم من نقمة الله ، خلفه فى مجلسه ، اذا قام ثم قال انا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه فهلم الى فأنا احدثكم احسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار ثم يقول بماذا محمد أحسن حديثا منى[١٣] » .

وقد أشار القرآن الكريم الى المستهزئين (انا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله الاها آخر فسوف يعلمون) (النحل ٩٥-٩٦) كما أشار الى المقتسمين (كما انزلنا على المقتسمين . الذين جعلوا القرآن عضين) (النحل ٩٠-٩١) والمستهزون هم فيما يروى ابن اسحق عن عروة بن الزبير خمسة نفر كانوا ذوى اسنان وشرف فى قومهم من بنى اسد بن عبدالعزى بن قصى الاسود بن المطلب ابو زمعة .. ومن بنى زهرة الاسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة ، ومن بنى مخزوم الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن مخزوم ، ومن بنى سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى ، العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سعد بن سهم ، ومن خزاعة الحرث بن الطلاطلة بن عمرو بن الحرث بن عمرو بن ملكان[١٤] .

أما المقتسمون فيقول السكرى (انهم سبعة عشر رجلا من قريش اقتسموا

---

(١٢) تفسير الطبرى ج ٧ ص ١٨٤ ج ٩ ص ١٥١ ج ١٧ ص ٩٢ ج ١٨ ص ١٣٦ .

(١٣) سيرة ابن هشام ج١ ص٣٢٠ ، ٣٨٢ تفسير الطبرى ج١٨ ص١٣٩ .

(١٤) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٥ تفسير الطبرى ج ١٤ ص ٤٨-٥١ .

عقاب مكة ، فكانوا اذا حضروا الموسم يصدون عن رسول الله (ص) وهم على ما ذكر ابن الكلبى عن ابن عباس من بنى عبد شمس ثلاثة نفر حنظلة بن ابى سفيان وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس ، ومن بنى مخزوم سبعة نفر أبو جهل ، والعاص ، وابو قيس بن الوليد ، وقيس بن الفاكة ، وزهير بن ابى امية ، والاسود بن عبدالاسد ، وصيفى بن السائب • ومن بنى عبدالدار واحد هو النضر بن الحارث بن كلدة ، ومن بنى اسد بن عبدالعزى اثنان ابو البخترى بن هاشم وزمعة بن الاسود • ومن بنى سهم اثنان منبه ونبيه ابنا الحجاج • ومن بنى جمح اثنان امية بن خلف ، وأوس بن مسير اخو ابى محذورة وهما من أنفس بنى جمح[١٥]) •

وفى تفسير آية (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم) (الانعام ١٠٨) يروى الطبرى عن السدى انه (لما حضر ابا طالب الموت قالت قريش انطلقوا بنا فلندخل على هذا الرجل فلنأمره أن ينهى عنا ابن اخيه ، فانا نستحى أن نقتله بعد موته فتقول العرب كان يمنعه ، فلما مات قتلوه ، فانطلق ابو سفيان وابو جهل والنضر بن الحرث وامية ابن خلف وعقبة بن ابى معيط وعمرو بن العاص والاسود بن البخترى وبعثوا رجلا منهم يقال له المطلب قالوا استأذن على ابى طالب • فأتى ابا طالب فقال هؤلاء مشيخة قومك يريدون الدخول عليك فأذن لهم فدخلوا عليه فقالوا يا ابا طالب انت كبيرنا وسيدنا وان محمدا قد آذانا وآذى آلهتنا فتحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولندعه والهه[١٦] ...) •

ويروى ابن سحق عن ابن عباس فى تفسير آية (وقالوا لن نؤمن ..) ان ان عتبة وشيبة ابنى ربيعة ، وابا سفيان بن حرب ، ورجلا من بنى عبدالدار ، وابا البخترى اخا بنى اسد ، والاسود بن المطلب ، وزمعة بن الاسود ، والوليد بن

---

(١٥) المحبر ص ١٦٠-١٦١ •

(١٦) الطبرى ج ٢ ص ٢١٩ تفسير الطبرى ج ٧ ص ٢٧ •

المغيرة ، وابا جهل بن هشام ، وعبدالله بن ابى امية ، واميـة بن خلف ، والعاص بن وائل ، ونبيها ومنبها ابنى الحجاج السهميين ، اجتمعوا ومن اجتمع منهم بعد غروب الشمس عنـد ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض ابعثوا الى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيـه فبعثوا اليـه ان اشـراف قومك قد اجتمعوا اليك ليكلموك[١٧] ...

رواية ابن سعد :

وقد روى ابن سـعد انه (كان اهل العداوة والمباداة لرسـول الله (ص) واصحابه الذين يطلبون الخصومة والجدل ابو جهل بن هشـام ، وابو لهب بن عبدالمطلب ، والاسود بن عبد يغوث ، والحارث بن قيس بن عدى وهو ابن الغيطلة والغيطلة امه ، والوليد بن المغيرة ، وامية وأبى ابنا خلف ، وابو قيس بن الفاكه بن المغيرة بن وائل ، والنضر بن الحارث ، ومنبه بن الحجاج ، وزهير بن ابى امية ، والسائب بن صيفى بن عائذ ، والاسود بن عبدالاسد ، والعاصى بن سعيد بن العاص ، والعاص بن هاشم ، وعقبة بن ابى معيط ، وابى الاصدى الهذلى ، والحكم بن ابى العاص ، وعدى بن الحمراء ، والذى كان تنتهى عداوة رسول الله اليهم ابو جهل وابو لهب وعقبة بن ابى معيط . وكان عتبة وشيبة ابنا ربيعة وابو سفيان بن حرب اهل عداوة ولكنهم لم يشخصوا بالنبى (ص) كانوا كنحو قريش . قال ابن سعد ولم يسلم منهم احد الا ابو سفيان والحكم[١٨]) .

من هم اهل العداوة :

يتضمن ما اوردته آنفا كل ما استطعت الحصول عليـه من اسماء خصوم النبى واهل العداوة له . ويلاحظ ان القرآن ، وقد اشار فى عدد من الآيات الى من قاوم الرسول ، لم يصرح باسماءهم الا اسم ابى لهب وزوجته ، وهذه الآيات

---

(١٧) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٧٦-٢٧٧ الطبرى ج ٢ ص ٢١٨ تفسير الطبرى ج ١٥ ص ١٠٧-١١٠ .

(١٨) ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ١٣٣ .

المتعلقة بهم قد تكتفى بالتلميح الى واحد فقط من مواقفهم أو حججهم ، أو قد لا تلمح شيئا بل تكتفى بالشدة عليهم • وقد اقتصر الرواة والمفسرون فى شرح موقف واحد هو الذى أشار اليه القرآن فحسب ، من دون أن يوردوا أية معلومات اضافية ، بل حتى الايذاء والاستهزاء قلما يورد عنه الرواة اخبارا وافية • ولا ريب ان اشارة القرآن الى حادث واحد لكل منهم لا يستلزم حتما أن يكون هذا الحادث هو وحده مظهر ايذاءهم أو هزؤهم • فقد تكون هنالك اعمال اخرى لم يشر اليها القرآن • ثم ان اشارة القرآن اليهم لا تعنى انهم وحدهم المؤذون والمستهزؤن ، فقد يكون هناك غيرهم ممن قام بمثل تلك المقاومة دون أن يشير اليه القرآن •

لقد بينا ان الرواة ذكروا اسماء من تعرضت لهم هذه الآيات ، فاذا افترضنا صحة ما أوردوه فاننا نلاحظ من المعلومات القليلة الواردة عنهم فى الكتب ، انهم كانوا من عشائر متعددة ، وان اغلبهم كانوا ذوى سن وشرف وساهموا فى اجتماعات دار الندوة[١٩] ، وان كثيرا منهم كانوا من الاسخياء ، فالاسود بن المطلب والعاص بن وائل هم من ازواد الركب أى انهم كانوا اذا سافروا لم يختبز معهم احد ولم يطبخ[٢٠] ؛ وفيهم عدد من المطعمين فى بدر كابى جهل ونبيه ومنبه ابنى الحجاج والنضر بن الحارث وامية بن خلف[٢١] •

ان هؤلاء المؤذين والمستهزئين كان بعضهم يمت الى الرسول بصلة القرابة والنسب ، فابو لهب عم النبى وحمو بناته[٢٢] ، والاسود بن عبد يغوث ابن خاله[٢٣] ، وزهير وعبدالله ابنا ابى امية هما اولاد عاتكة عمة النبى[٢٤] ، وكانت

---

(١٩) انظر ص ٩٣ •
(٢٠) المحبر ص ١٣٧ المنمق ص ٢٩٤ (نبذة بهامش المحبر) •
(٢١) المحبر ص ١٦١-١٦٢ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١١ وانظر عن سخاء ابى جهل ايضا المحبر ص ١٤٠ •
(٢٢) انظر ص ٢٨٨ •
(٢٣) مصعب الزبيرى : نسب قريش ص ٢٦٢ •
(٢٤) الطبرى ج ١٣ ص ٤٤ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٩٩ ، ٣١٧ ، ٣٩٧ ج ٤ ص ١٨ ، ٣١ المحبر ص ٢٧٤ •

لبعضهم مواقف طيبة مع الرسول أو المسلمين فان ابا البخترى وزهير بن ابى امية وزمعة بن الاسود ساهموا فى تمزيق صحيفة مقاطعة المسلمين والرسول[٢٥] ؛ كما ان العاص بن هاشم عندما اظهر عمر الاسلام منعه وحماه فيما يقال[٢٦] ، وقد كان بعضهم صديقا لبعض المسلمين الاول فامية بن خلف كان صديق عبدالرحمن بن عوف[٢٧] . ولا شك ان كثيرا منهم كان لهم بين المسلمين أقارب .

ان اغلب من ذكرنا قتلوا فى بدر . وفيهم اثنان امر الرسول بقتلهم بعد أن اسروا فى الموقعة ، وهما النضر بن الحارث وعقبة بن ابى معيط[٢٨] . كما ان ابى بن خلف قتله الرسول بيده فى غزوة احد[٢٩] .

غير اننا لا نعلم عن مناصبهم ووظائفهم ، والراجح انهم ، أو اكثرهم من التجار ، ولا يوجد ما يدل على انهم رجال دين مع انهم قد يكونوا من المتحمسين فى الدفاع عن الدين . والراجح انهم لم يقوموا وحدهم بالمقاومة بل ان آخرين كانوا معهم ولكن المصادر سكتت عن ذكرهم لاسباب .

مكانة المتهجمين والمقاومين :

وفى القرآن عدد من الآيات يستدل منها على ان المقاومين كانوا من المترفين الاغنياء والارستقراطية المستكبرين الطغاة (بل قالوا انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما ارسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون) (الزخرف ٢٢-٢٣) (فلو لا كان من القرون من قبلكم اولوا بقية ينهون عن الفساد فى الارض الا قليلا ممن انجينا

---

(٢٥) الطبرى ج ٣ ص ٢٢٥-٢٢٩ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٩٧ مصعب الزبيرى ص ٣١٢ ، ٤٣١ .

(٢٦) مصعب الزبيرى ص ٤٠٨ .

(٢٧) تفسير الطبرى ج ١٦ ص ١٠٠ .

(٢٨) الطبرى ج ٢ ص ٢٨٦ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٨٦ المحبر ص ١٧٤ ، ٤٧٨ .

(٢٩) الطبرى ج ٣ ص ١٩ المحبر ص ١٤٠ مصعب الزبيرى ص ٣٨٧ .

منهم واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين) (هود ١١٦) (واصحاب الشمال ما اصحاب الشمال • فى سموم وحميم • وظل من يحموم • لا بارد ولا كريم • انهم كانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أانا لمبعوثون • أو آباؤنا الاولون) (الواقعة ٤١-٤٨) (وذرنى والمكذبين اولى النعمة ومهلهم قليلا • انا لدينا انكالا وجحيما) (المزمل ١٠-١١) (واما من اوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم اوت كتابيه • ولم ادر ما حسابيه • يا ليتها كانت القاضيه • ما اغنى عنى ماليه • هلك عنى سلطانيه) (الحاقة ٢٥-٢٩) (ويل لكل همزة لمزة • الذى جمع مالا وعدده • أيحسب ان ماله اخلده • كلا لينبذن فى الحطمة) (الهمزة ١-٤) (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) (الاسراء ١٦) • (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لو لا انتم لكنا مؤمنين • قال الذين استكبروا للذين استضعفوا انحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين • وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له اندادا واسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الاغلال فى اعناق الذين كفروا هل يجزون الا ما كانوا يعملون • وما ارسلنا فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما ارسلتم به كافرون • وقالوا نحن اكثر اموالا واولادا وما نحن بمعذبين • قل ان ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن اكثر الناس لا يعلمون • وما اموالكم ولا اولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى الا من آمن وعمل صالحا فاولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون) (سبأ ٣١-٣٨) (واذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل انتم مغنون عنا نصيبا من النار • قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد) (غافر ٤٧-٤٨) (وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل انتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء • قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا اجزعنا ام صبرنا ما لنا من محيص) (ابراهيم ٢١) • (يوم تقلب وجوههم فى النار

يقولون يا ليتنا اطعنا الله واطعنا الرسولا وقالوا ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا) (الاحزاب ٦٦-٦٧) (ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم ابواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط وكذلك نجزى المجرمين) (الاعراف ٤٠ ، انظر ايضا الاعراف ٣٦ ، الفرقان ٢١) (وكذلك جعلنا فى كل قرية اكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بانفسهم وما يشعرون) (الانعام ١٢٣) (ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون) (الاحقاف ٢٠) (واما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين) (الجاثية ٣١) (حتى اذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من اضعف ناصرا واقل عددا) (الجن ٢٤) (فاما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى) (النازعات ٢٨-٢٩) (ان جهنم كانت مرصادا ٠ للطاغين مآبا) (النبأ ٢١-٢٢) ٠

الفصل الثانى والعشرون

الكفاح ضد المشركين

اضطهاد المشركين :

ان المقاومة التى أبداها المشركون للدعوة الاسلامية لم يكن لها أثر فى ايقاف الرسول عن الاستمرار فى دعوته ، فقد استمر على نشر الدعوة رغم ما بذلوه له من وعد ووعيد . والواقع ان الرسول ناله كثير من الاذى والسخرية التى كان يقوم بها بعض الاشخاص ضده ، كتسميته ابى كبشة[١] ، ومذمم[٢] ، أو رمى الاوساخ فى طريقه[٣] ، أو رمى جيرانه الحجارة عليه[٤] ، بل بلغ الامر حدا ان حاول ابو جهل مرة رميه بالحجارة[٥] ، كما حاول مرة اخرى خنقه ، وكان ذلك (أشد ما رأيت قريشا بلغت منه قط[٦]) .

على ان الرسول لم يعدم حماية ونصيرا ، وخاصة من عشيرته ؛ اذ ان النظام القبلى السائد آنذاك كان يقضى بهذا التأييد ، فلو تخلت عن الرسول عشيرته لربما استهانت بها بقية العشائر وتجرأت عليها فى ذلك المجتمع الذى يفتقد السلطة المركزية العليا الملزمة .

والواقع ان عمه ابا طالب لم يرض بالتخلى عن حماية الرسول عندما حاول المشركون اقناعه بذلك[٧] ، و(حين رأى قريشا تصنع ما تصنع فى بنى هاشم وبنى

---

(١) تفسير الطبرى ج ١٥ ص ٧٥ المحبر ص ١٢٩ الجاحظ : العثمانية ص ٧١ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٧٩ .
(٣) الطبرى ج ٢ ص ٢٢٩ .
(٤) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٥ .
(٥) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣١٨ .
(٦) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣١١ . الطبرى ج ٢ ص ٢٢٣ .
(٧) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٧٦ـ٢٨٠ ، ٢٨٦ ج ٢ ص ٢٦ الطبرى ج ٢ ص ٢١٨ـ٢٢١ تفسير الطبرى ج ٧ ص ٢٠٧ .

المطلب ، فدعاهم الى ما هم عليه من منع رسول الله (ص) والقيام دونه ، فاجتمعوا اليه وقاموا معه ، واجابوا الى ما دعاهم اليه من الدفع عن رسول الله (ص) الا ما كان من ابى لهب • فلما رأى ابو طالب من قومه ما سره من جدهم معه ، وحد بهم عليه جعل يمدحهم ويذكر فضل رسول الله فيهم ومكانه منهم ليشد لهم رأيهم[٨]) • ثم أن الحمزة عم النبى عندما سمع بتطاول ابى جهل على الرسول ، جاء يريد الانتقام لابن اخيه ثم اسلم[٩] •

لم تقتصر هذه المقاومة على الرسول وحده ، بل شملت بقية المسلمين ايضا ، حيث قام المشركون بعدة محاولات لايذائهم وفتنتهم ، وقد اشار القرآن الى ذلك ، كما ذكرت الكتب بعض الاخبار عنها فكان (ابو جهل الفاسق الذى يغرى بهم فى رجال من قريش ، اذا سمع بالرجل قد اسلم له شرف ومنعة أنبه وخزاه وقال : تركت دين ابيك وهو خير منك : لنسفهن حلمك ولنفيلن رأيك ، ولنضعن شرفك ، وان كان تاجرا قال والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك ، وان كان ضعيفا ضربه واغرى به[١٠]) • وهذا النص يشير الى الوسائل التى كانت تتخذ ، أو يراد اتخاذها من ضغط اجتماعى واقتصادى ، ومن ايذاء للضعفاء •

ومع وجود اشارات فى الكتب الى الاذى الجسمانى الذى وقع على بعض القرشيين ، كالتطاول على ابى بكر واقرانه بطلحة بن عبيدالله مرة ، الا ان الراجح ان هذا كان قليلا نسبيا ، وانه اذا حدث ضغط على مسلم فانه يحدث من قبل العشيرة ، لان العشيرة هى السلطة الوحيدة التى يمكن أن تفرض العقوبات على الفرد • وجدير بالملاحظة انه لم تذكر أية محاولة لنفيهم ، كما ان ما روى من ايذاء كان قليل نسبيا على الصليبة •

---

(٨) الطبرى ج ٢ ص ٢٢٠ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٨١ •
(٩) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣١٢-٣١٣ الطبرى ج ٢ ص ٢٢٤ •
(١٠) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٤٢ • اما عن عدم دفع العاص بن وائل حق خباب بن الارت فانظر ص

غير انه رويت اخبار عن كثير من الاذى وقع على المستضعفين وهم على ما يقول الواقدى (قوم لا عشائر لهم بمكة وليست لهم منعة ولا قوة فكانت قريش تعذبهم فى الرمضاء بانصاف النهار ليرجعوا عن دينهم[١١]) وقد رويت اخبار كثيرة عن تعذيب بعض هؤلاء امثال عمار بن ياسر ، وصهيب الرومى وابو فكيهة وبلال الحبشى[١٢] .

ويلاحظ ان هؤلاء من العبيد الذين لاسيادهم الحق فى عقابهم ، وانهم ابدوا تمسكا فى دينهم ، وقد قام كثير من المسلمين يعملون على تحريرهم لتخليصهم مما ينالوه من أذى ، فاعتق ابو بكر بلالا وعامر بن فهيرة وام عبيس وزنيرة والنهدية[١٣] وابنتها . ويبدو ان الاعتاق كان يخلص العبد من الاذى .

ويظهر ان محاولاتهم قد ظفرت ببعض النجاح خصوصا فيمن لم يكن قلبه متمكن فى قلبه الايمان . وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك (ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا اوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا معكم أوليس الله باعلم مما فى صدور العالمين) (العنكبوت ١٠) .

الهجرة الى الحبشة :

لقد كان لهذه الازمة أثر على الجماعة الاسلامية ، وكان لابد للرسول من معالجتها . وقد اورد الطبرى فى تاريخه نص كتاب لعروة بن الزبير الى عبدالملك بن مروان قال فيه (اما بعد فانه ، يعنى رسول الله (ص) ، لما دعا قومه لما بعثه الله من الهدى والنور الذى انزل عليه لم يبعدوا منه اول ما دعاهم وكادوا يسمعون له حتى ذكر طواغيتهم ، وقدم ناس من الطائف من قريش لهم اموال ، وانكروا

---

(١١) ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ١٧٧ .

(١٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٣٩-٣٤٣ تفسير الطبرى ج ١٤ ص ١٠٥ . الجاحظ : العثمانية ص ٢٩ .

(١٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٣٩-٣٤٠ . الجاحظ : العثمانية ص ٣٣ ، ١٠٣ .

ذلك عليه واشتدوا عليه وكرهوا ما قال واغروا به من اطاعهم ، فانصفق عنه عامة الناس فتركوه الا من حفظه الله منهم وهم قليل فمكث بذلك ما قدر الله أن يمكث . ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من تبعه عن دين الله من ابنائهم واخوانهم وقبائلهم ، فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله (ص) من اهل الاسلام ، فافتتن من افتتن وعصم الله منهم من شاء . فلما فعل ذلك بالمسلمين امرهم رسول الله (ص) أن يخرجوا الى ارض الحبشة : وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشى لا يظلم احد بأرضه وكان يثنى عليه مع ذلك صلاح ، وكانت ارض الحبشة متجرا لقريش يتجرون فيها ، يجدون فيها رفاغا من الرزق وأمنا ومتجرا حسنا فأمرهم بها رسول الله (ص) فذهب اليها عامتهم لما قهروا بمكة وخاف عليهم الفتن ، ومكث هو فلم يبرح ، فمكث بذلك سنوات يشتدون على من اسلم منهم . ثم انه فشا الاسلام فيها ودخل فيها رجال من اشرافهم[١٤]) .

ويقول ابن اسحق (فلما رأى رسول الله (ص) ما يصيب اصحابه من البلاء ، وما هو فى العافية ، لمكانة من الله ومن عمه عبدالمطلب وانه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم : لو خرجتم الى ارض الحبشة ، فان بها ملكا لا يظلم عنده احد وهى ارض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما انتم فيه ، فخرج عند ذلك المسلمون من اصحاب رسول الله مخافة الفتنة وفرارا الى الله بدينهم ، فكانت اول هجرة كانت فى الاسلام[١٥]) .

المهاجرون :

يروى ابن سعد ان الهجرة الى الحبشة كانت على دفعتين احداهما مكونة من احدى عشر رجلا ، وقد بقوا فيها امدا حتى سمعوا بعقد الصلح بين الكفار والرسول على أثر قصة الغرانيق ، فعادوا وتبين لهم عدم صحة ما سمعوا ، ثم

---

(١٤) الطبرى ج ٢ ص ٢٢١ .
(١٥) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٤٣ .

حدثت الهجرة الثانية ، بعد ذلك وكانت تشمل ثلاثة وثمانين شخصا[١٦] .

اما ابن اسحق فيروى اسماء عشرة من المسلمين ، ويقول (فكان هؤلاء العشرة اول من خرج من المسلمين الى ارض الحبشة فيما بلغنى . قال ابن هشام : وكان عليهم عثمان بن مضعون فيما ذكر لى بعض اهل العلم . قال ابن اسحق ثم خرج جعفر بن ابى طالب (رض) وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة فكانوا بها ، منهم من خرج باهله ومنهم من خرج بنفسه لا اهل له معه[١٧]) .

ومما يؤيد رواية ابن اسحق عن ان الهجرة حدثت تدريجيا ما رواه ابن سعد عن بنت خالد بن سعيد بن العاص (وكانت وابيها من مهاجرى الحبشة) اذ قالت (قدم علينا عمى عمرو بن سعيد ارض الحبشة بعد مقدم ابى بسنتين فلم يزل هناك حتى حمل فى السفينتين مع اصحاب رسول الله (ص) فقدموا على النبى وهو بخيبر[١٨]) .

ان هؤلاء المهاجرين من مختلف القبائل : فمن بنى هاشم واحد ، ومن عبد بن قصى واحد ، ومن نوفل واحد (حليف) ، ومن عبدشمس اثنان (منهم واحد حليف) ، ومن تيم اثنان ، ومن اسد بن عبدالعزى اربعة ، ومن عدى خمسة (منهم واحد حليف) ، ومن امية سبعة (منهم اربعة حلفاء) ، ومن زهرة سبعة (منهم ثلاثة حلفاء) ، ومن عبدالدار سبعة ، ومن مخزوم ثمانية (منهم واحد حليف) ، ومن عامر سبعة (منهم واحد حليف) ، ومن الحارث بن فهر ثمانية ، ومن جمح اثنا عشر ، ومن سهم اربعة عشر (منهم واحد حليف[١٩]) .

ويلاحظ ان عدد من هاجر من القبائل التى اشتركت فى تكوين حلف

---

(١٦) ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ١٣٦ ، ١٣٨ .

(١٧) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٤٥ .

(١٨) ابن سعد ج ٤ قسم ١ ص ٧٣ .

(١٩) انظر قائمة اسماءهم فى آخر هذا الفصل .

الفضول قليل نسبيا ، وان عدد من كان من قبائل حلف لعقة الدم (وهم مؤيدوا بنى عبدالدار فى خصومتهم ضد هاشم) كبير .

دوافع الهجرة :

لقد ناقش مونتجومرى وات خمسة افتراضات عن سبب الهجرة الى الحبشة وملخصها[٢٠] :-

(١) السبب الاول هو تجنب الاضطهادات والضغط الذى قام به المشركون على المسلمين فى مكة . وهذا السبب هو الذى ارتآه كل من عروة بن الزبير وابن اسحق فى كتابيهما اللذين ذكرناهما آنفا . ومما يؤيد هذا السبب هو ان المسلمين الذين لم يهاجروا اكثرهم من بنى هاشم والمطلب وزهرة وتيم وعدى الذين كانوا قد كونوا حلف الفضول ، اما الذين هاجروا فكان منهم كافة مسلمى بنى مخزوم وعبدشمس (الا اثنين هما الارقم المخزومى الذى كان قويا متنفذا ، وابو أحمد بن جحش حليف عبدشمس الذى كان أعمى) .

ولكن يرد على هذا بالتساؤل عن سبب بقاء بعض المهاجرين فى الحبشة الى السنة السابعة للهجرة[٢١] ، وعدم عودتهم الى المدينة بعد هجرة الرسول اليها حيث لقيى ترحيبا وتأييدا ؛ مع العلم انه لم يرو عن الرسول انه اوعز اليهم بالبقاء حتى ذلك الزمن المتأخر .

(٢) والسبب الثانى الذى يمكن أن تفسر به الهجرة الى الحبشة ، هو لتجنب احتمال فتنتهم نتيجة الاضطهاد . ولكن مما يضعف قيمة هذا السبب هو ان المهاجرين الى الحبشة هم من اول المسلمين ، وقد عرفوا بقوة ايمانهم ، الذى لا يقل قوة عن ايمان من لم يهاجر ، فلا يعقل أن يخشى الرسول عليهم دون غيرهم من الفتنة أو يحرص على تخليصهم من الاضطهاد الذى لو وقع عليهم وهم

---

(٢٠) كتاب (محمد فى مكة) ص ١١٣-١١٧ .
(٢١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٤١٧ ، الطبرى ج ٢ ص ٢٢٩ .

اقوياء الايمان ، لزاد من تمسكهم بعقيدتهم ولصاروا مثلا أعلى يستثيرهم الباقين وتقديرهم • ثم ما هى نتيجة الهجرة الى الحبشة ؟ وكيف تخلصهم وهم سيعودوا ان عاجلا أو آجلا الى مكة •

(٣) والسبب الثالث الذى يمكن افتراضه هو انهم ذهبوا الى الحبشة للقيام بالتجارة بعد ان سدت ابوابها امامهم فى مكة • وقد يؤيد هذا الرأى ما رواه ابن اسحق من ان ابا جهل كان يهدد من يعتنق الاسلام باكساد تجارته واهلاك ماله(٢٢) كما يؤيده ما جاء فى رسالة عروة بن الزبير ان انه (كانت ارض الحبشة متجرا لقريش يتجرون فيها ، يجدون فيها رفاغا من الرزق وأمنا ومتجرا حسنا) • غير انه لا شك ان الرسول كان يحرص على العقيدة اكثر من حرصه على اوضاعهم التجارية ، فلابد أن تكون هجرتهم لأمر متعلق بالدعوة •

(٤) والافتراض الرابع الذى يمكن به تفسير الهجرة الى الحبشة هو ان اهل مكة كانوا رغم حيادهم ، يتاجرون مع الساسانيين الذين كانوا آنذاك قد استولوا على سوريا وفلسطين ومصر ، مما جعل موقفهم ضارا بالروم ومؤيديهم من الاحباش ، لذلك أراد الرسول أن يقوى علاقته مع الاحباش الذين ربما لم يرضهم موقف القرشيين من الساسانيين • ولعل الرسول أراد أن يحول عن مكة بعض تجارتها ، ويعزلها فى عالم التجارة الدولية ، فيجعل التجارة بيد المسلمين الذين يصبح مركزهم الحبشة مما تتضرر به مكة • وقد يؤيد هذا ان الآية الاولى من سورة الروم تظهر عطف المسلمين على الروم ذوى الصلة بالاحباش فى صراعهم مع الفرس (الم • غلبت الروم • فى ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون • فى بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون • بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم • وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن اكثر الناس لا يعلمون) (الروم ١-٦) • ويروى الطبرى فى تفسيره عدة روايات تبين ان المشركين كانوا يميلون الى الفرس ويتمنون انتصارهم وان المسلمين كانوا يريدون

---

(٢٢) انظر ص ٣١٩ •

انتصار الروم[٢٣] ، ولعل ارسال المشركين لوفد منهم يطلب من النجاشى[٢٤] رد المسلمين كان يدفعه خوفهم من احتمال تأثير المسلمين فى سياسة الاحباش تجاه مكة مما يضر بموقف مكة . غير ان هذا الافتراض لا يفسر لماذا بقى بعض المسلمين فى الحبشة الى السنة السادسة من الهجرة .

(٥) والافتراض الخامس الذى يرجحه وات هو ان الهجرة حدثت بسبب احتمال حدوث انقسام بين جماعة المسلمين فى مكة ، ويعتمد فى رأيه على اساس ان عثمان بن مضعون هو الذى قاد الجماعة الاولى من المهاجرين الى الحبشة ، وانه كان قد حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية ، ثم جاء الى الرسول على رأس جماعة ليعلن اسلامه ، وان لم تكن له مكانة كبيرة فى المجتمع الاسلامى فيما بعد ، وقد روى عن عمر انه عابه على موته فى فراشه[٢٥] . كما ان خالد بن سعيد بن العاص وهو من ابرز اوائل المسلمين وابن ابى احيحة الذى كان من اغنى اهل مكة لم يعد من الحبشة الا فى سنة ٦ هـ[٢٦] ، وان نعيم بن عبدالله النحام العدوى الذى كان من اوائل المسلمين البارزين لم يهاجر الى المدينة الا فى السنة السادسة[٢٧] . ثم ان عبيدالله بن جحش وهو احد مهاجرى الحبشة تنصر هناك[٢٨] . والحق ان فى القرآن آية توضح ان بعض المسلمين لم يهاجروا الى المدينة (ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى انفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الارض قالوا الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فاولئك

---

(٢٣) تفسير الطبرى ج ٢١ ص ١١-١٦ انظر ايضا ج ٨ ص ١٢ .
(٢٤) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٥٦ فما بعد .
(٢٥) انظر ترجمته فى ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ٢٨٦-٢٩١ انظر كذلك تفسير الطبرى ج ٧ ص ٦ .
(٢٦) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٤١٧ ابن سعد ج ٤ قسم ١ ص ١٤٤ .
(٢٧) ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ١١٢ .
(٢٨) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٤١٧ .

عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا) (النساء ٩٧-٩٩) .

يستنتج وات من هذه الاخبار القليلة التى ساقها حدوث خلاف فى الرأى بين المسلمين ، وخاصة مع ابى بكر الذى كانت له مكانة قوية عند الرسول ، ويرى ان الرسول اوعز لمخالفى ابى بكر بالهجرة الى الحبشة تحاشيا للاخطار التى قد تنجم من هذا الخلاف .

غير ان الادلة التى يسوقها وات ليست قوية ، فان بعض من هاجر الى الحبشة كعثمان وطلحة كانوا من اصحاب ابى بكر ، وتروى بعض الروايات ان ابا بكر هو الذى جاء بهم الى الرسول ليسلموا كما ان اختفاء اسماء بعض المسلمين الاول المهاجرين وعدم لعبهم دورا رئيسيا فى السياسة فيما بعد وخاصة فى عهد ابى بكر لا يمكن أن يعزى الى خلافهم معه فقط ، بل قد يرجع الى انشغالهم بامور اخرى فى الحياة . والواقع ان ابا بكر استعان بكثير ممن اسلم عند فتح مكة أو بعدها ، وباولاد كثير ممن قاوم الاسلام ، فجيوش الاسلام الكبرى فى زمن ابى بكر كان يقودها عكرمة بن ابى جهل الذى اسلم بعد فتح مكة وكان ابوه على رأس المقاومين للرسول ، ويزيد وهو بن ابى سفيان رئيس مكة وقائد جيوشها فى احد والخندق ، وعمرو بن العاص الذى ارسله القرشيون الى النجاشى ليفاوضه على اخراج مهاجرى المسلمين ، وخالد بن الوليد الذى كان قائد خيالة المشركين فى غزوة احد ، وهذان الاخيران اسلما فى السنة السادسة للهجرة . فلو اهمل ابو بكر رجلا لماضيه ، لكان الاجدر به أن يهمل هؤلاء ولا يسلمهم قيادة الجيوش الاسلامية التى احسنوا قيادتها .

والواقع ان الآيات القرآنية توحى بأن دافع الهجرة هو الاضطهاد الشديد الذى وقع على المسلمين والمحاولات التى بذلها المشركون لفتنتهم ، وانها هى التى دفعت الرسول الى الايعاز اليهم بالهجرة (الم . احسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) (العنكبوت ١-٣) (ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم

يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق) (البروج ١٠) (ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا اوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ، ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم اوليس الله باعلم بما فى صدور العالمين) (العنكبوت ١٠) (وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من ارضنا او لم نمكن لهم حرما امنا يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن اكثرهم لا يعلمون) (القصص ٥٧) (قل يا عبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين احسنوا فى هذه الدنيا حسنة وارض الله واسعة انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب) (الزمر ١٠) (والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبؤنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون) (النحل ٤١) (ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم) (النحل ١١٠) .

اننا وان كنا لا نستطيع التأكد من ان هذه الآيات نزلت فى الهجرة الى الحبشة الا ان المؤرخين يجمعون على ان الاضطهاد الشديد والفتنة وقعت على المسلمين قبيل الهجرة ، مما يحملنا على الاعتقاد بأن معظم هذه الآيات تتعلق بالهجرة الى الحبشة ، وتحملنا على ترجيح الاضطهاد وخوف الفتنة كسبب رئيسى للهجرة الى الحبشة .

حياة المهاجرين فى الحبشة :

ليست لدينا معلومات وافية عن حياة المهاجرين فى الحبشة . وتتفق الروايات على ان النجاشى وفر لهم ملجأ سياسيا ولم يضطهدهم ، ولكن ليس هناك دليل على انه قدم لهم منحا أو هبات . ولما كان هؤلاء المهاجرون من اهل مكة التى عرف اهلها بالنشاط التجارى ، فمن المرجح انهم ، أو بعضهم ساهم بالتجارة واعمال البيع والشراء ، واستطاع أن يكسب قوته منها . ولعل من اهم اسباب تأخر البعض عن العودة الى المدينة هو اشتغالهم بالتجارة .

العودة من الحبشة :

يروى ابن اسحق انه بلغ اصحاب رسول الله (ص) الذين خرجوا الى ارض

الحبشة اسلام اهل مكة ، فاقبلوا لما بلغهم من ذلك ، حتى اذا دنوا من مكة بلغهم ان ما كانوا تحدثوا به من اسلام اهل مكة كان باطلا ، فلم يدخل منهم احد الا بجوار أو مستخفيا فكان ممن قدم عليه مكة منهم فاقام بها حتى هاجر الى المدينة فشهد معه بدرا ومن حبس عنه حتى فاته بدر وغيره ومن مات بمكة (ثم يذكر اسماءهم) .. فجميع من قدم عليه مكة من اصحابه من ارض الحبشة ثلاثة وثلاثون رجلا[٢٩] . ويؤيد الطبرى فى رواية عن ابن اسحق ذلك ويضيف انها جاؤوا لما بلغهم من اسلام اهل مكة حين سجدوا مع رسول الله (ص) على أثر قصة الغرانيق[٣٠] .

وفى السنة السادسة للهجرة بعث رسول الله (ص) الى النجاشى عمرو بن امية الضمرى فحمل من بقى من المسلمين فى سفينتين وقدم بهم الرسول (ص) وهو بخيبر بعد الحديبية ، وكان عددهم ستة عشر رجلا ، عدا النساء[٣١] .

ويذكر ابن اسحق اسماء من توفى فى الحبشة وعددهم سبعة[٣٢] .

فمجموع عدد من جاء قبل الهجرة ، وعند خيبر ، ومن توفى يبلغ ست وخمسون رجلا ، أما الباقون وهم جميع من تخلف عن بدر ولم يقدم على رسول الله (ص) مكة ومن قدم بعد ذلك ولم يحمل النجاشى فى السفينتين اربعة وثلاثون رجلا ، واذا طرحنا من هذا الرقم من توفى وهم ٧ بقى ٢٧ لا تذكر هذه الروايات متى عادوا . سوى اربعة منهم اشتركوا فى معركة احد مما يدل على انهم عادوا الى المدينة فى زمن لم تعينه المصادر وهم قيس بن عبدالله ، وابو الروم بن عمير ، وابو قيس بن الحارث ، وسليط بن عامر .

---

(٢٩) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٨٨-٣٨٩ ، ٣٩١ .
(٣٠) الطبرى ج ٢ ص ٢٢٧ .
(٣١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٤١٤-٣١٧ الطبرى ج ٢ ص ٢٢٩ ابن سعد ج ٤ قسم ١ ص ١٧٩ .
(٣٢) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٤٢٢ .

المقاطعة :

لم تؤد الهجرة الى الحبشة الى حل الازمة القائمة بين المسلمين والمشركين ، اد بقى الرسول والمسلمون الاول فى مكة وهم ثابتون على ايمانهم ومتمسكون بمبدئهم لا يحيدون عنه • كما ان المشركين لم يوقفوا اعمالهم العدائية تجاه الرسول والمسلمين • والواقع ان الاذى والاضطهاد من شأنه أن يصهر من يقع عليهم فيزيد من تماسكهم وتكتلهم ويثير عطف الناس عليهم ، والواقع ان الحمزة وعمر بن الخطاب أسلما فى هذه الفترة فكان اسلامهما نصرا للمسلمين ، نظرا لما لهما من نفوذ وقوة وقدرة على معاونة المسلمين ، لذا يمكن القول بأن تلك المحاولات لم تحقق ما استهدفته من نجاح •

يقول ابن اسحق (فلما رأت قريش ان اصحاب رسول الله قد نزلوا بلدا اصابوا به أمنا وقرارا (فى الحبشة) وان النجاشى قد منع من لجأ اليه منهم ، وان عمر قد أسلم فكان هو وحمزة بن عبدالمطلب مع رسول الله (ص) واصحابه وجعل الاسلام يفشو فى القبائل ؛ اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب ، على أن لا ينكحوا اليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوا فى صحيفة ، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدا على انفسهم • وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبدمناف بن عبدالدار بن قصى (ويروى ابن هشام انه يقال النضر بن الحارث) فدعا عليه رسول الله (ص) فشل بعض اصابعه • فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب الى ابى طالب فدخلوا معه فى شعبه فاجتمعوا اليه • وخرج من بنى هاشم ابو لهب عبدالعزى بن عبدالمطلب الى قريش فظاهرهم[٣٣]) •

---

(٣٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٧١-٣٧٢ الطبرى ج ٢ ص ٢٢٥ انظر ايضا ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ١٢٥ ، ١٣٥ •

دوافعها :

ويلاحظ ان هذا النص الذى لا نعرف نصا غيره عن المقاطعة ، يبين ان المقاطعة لم تكن موجهة للمسلمين ، بل الى بنى هاشم ثم بنى المطلب • ولا ريب ان المسلمين لم يكونوا مقصورين على هاتين العشيرتين وحدهما ، بل كانوا من كافة العشائر ، كما ان بنى هاشم وبنى المطلب لم يكونوا كلهم من المسلمين • فلو كانت المقاطعة موجهة للمسلمين وحدهم ، لكان من الواجب أن تشمل كافتهم من مختلف القبائل ، وأن يخرج منها المشركون من بنى هاشم وبنى المطلب ، واذا كانت حماية بنى هاشم للاسلام هى الدافع الرئيسى للمقاطعة فلماذا ادخل فيها بنو المطلب ؟ ان هذه الاسئلة تحملنا على الاعتقاد بأن هناك اسبابا اخرى للمقاطعة غير مجرد حماية بنى هاشم للرسول •

ويمكننا أن نستنتج الدوافع الاخرى من دراسة نقض الصحيفة ، فيروى ابن اسحق (ثم انه قام فى نقض تلك الصحيفة التى تكاتبت فيها قريش على بنى هاشم وبنى المطلب نفر من قريش ، ولم يبل فيها احد احسن من بلاء هشام بن عمرو بن ربيعة •• بن عامر بن لؤى ، وذلك انه كان ابن اخى نضلة بن هاشم بن عبدمناف لامه ، وكان هشام لبنى هاشم واصلا وكان ذا شرف فى قومه ، ثم انه مشى الى زهير بن ابى امية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم ، وكانت امه عاتكة بنت عبدالمطلب ، فقال ، يا زهير أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء واخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح اليهم ، اما انى احلف بالله ان لو كانوا اخوال ابى الحكم بن هشام ثم دعوته الى مثل ما دعاك اليه منهم ما اجابك اليه ابدا ، قال ويحك يا هشام فماذا اصنع ؟ انما انا رجل واحد والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقضها حتى انقضها ، قال قد وجدت رجلا ، قال من هو ، قال انا ، قال له زهير ابغنا ثالثا ، فذهب الى المطعم بن عدى بن نوفل بن عبدمناف ، فقال له يا مطعم أقد رضيت ان يهلك بطنان من بنى عبدمناف وانت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه اما والله لئن

امكنتموهم من هذه لتجدنهم اليها منكم سريعا ، قال ويحك فماذا اصنع انما انا رجل واحد ، قال قد وجدت ثانيا ، قال من هو ، قال انا ، قال ابغنا ثالثا ، قال قد فعلت ، قال من هو قال زهير بن ابى امية ، قال ابغنا رابعا ، فذهب الى ابى البخترى بن هشام ، فقال له نحوا مما قال للمطعم بن عدى ، فقال وهل من احد يعين على هذا ، قال نعم ، قال من هو ؟ قال زهير بن ابى امية والمطعم بن عدى وانا معك قال ابغنا خامسا ، فذهب الى زمعة بن الاسود بن المطلب بن اسد ، فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم ، فقال له وهل على هذا الامر الذى تدعونى اليه من احد ، قال نعم ثم سمى له القوم ، فاتعدوا له خطم الحجون التى بأعلى مكة فاجتمعوا هنالك واجمعوا أمرهم وتعاهدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقضوها ، وقال زهير انا ابدأكم فاكون اولكم يتكلم . فلما اصبحوا غدوا الى انديتهم وغدا زهير بن ابى امية عليه حلة فطاف بالبيت سبعا ثم اقبل على الناس فقال يا اهل مكة انا نأكل الطعام ونشرب الشراب ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يبايعون ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ، قال ابو جهل وكان فى ناحية المسجد كذبت والله لا تشق ، قال زمعة بن الاسود انت والله أكذب ما رضينا كتابتها حين كتبت ، قال ابو البخترى صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به ، قال المطعم بن عدى صدقتما وكذب من قال غير ذلك نبرأ الى الله منها ومما كتب فيها ، قال هشام بن عمرو نحوا من ذلك ، قال ابو جهل هذا امر قضى بليل وتشوور فيه بغير هذا المكان وابو طالب جالس فى ناحية المسجد وقام المطعم بن عدى الى الصحيفة ليشقها فوجد الارضة قد أكلتها الا ما كان من باسمك اللهم وهى فاتحة ما كانت تكتب قريش تفتتح بها كتابها اذا كتبت[٣٤]) .

ومن هذا النص يتبين ان الذين قاموا بالدور الرئيسى فى نقض الصحيفة هم هشام بن عمرو بن ربيعة (عامر بن لؤى) وزهير بن ابى امية (مخزوم) والمطعم

---

(٣٤) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٩٧-٣٩٩ انظر ايضا الطبرى ج ٢ ص ٢٢٨-٢٢٩ ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ١٤١ .

بن عدى (نوفل بن عبدمناف) وابو البخترى بن هشام (عبدالعزى) وزمعة بن الاسود (عبدالعزى) ، وان هؤلاء استطاعوا أن يقنعوا الناس بوجوب ابطال المقاطعة ، ولعل اشارة ابى جهل الى أن هذا امر قضى بليل وتشوور فيه بغير هذا المكان ، يدل على انه شعر بأنهم قد مهدوا له مع قبائلهم فى ذلك ، كما ان قولهم بأنهم ما رضوا كتابها حين كتبت يوحى بأنهم لم يكونوا متحمسين قلبيا لها ، لانها كانت تمس بالضرر بنى هاشم وبنى المطلب كلهم ، مع ان هؤلاء الذين مزقوا الصحيفة هم ممن ذكر اسمهم فى عدة مناسبات كمعارضين للرسول ، مما يدل على ان الصحيفة لا يقتصر دافع كتابتها على المسلمين فحسب ، بل ان هناك دوافع اخرى لها ، وان مسألة الاسلام هى حجة لتنفيذ سياسة ذات اهداف اخرى تصيب بنى هاشم والمطلب ، ويلاحظ ان اشد المدافعين عنها هو ابو جهل (من مخزوم) ، ولعل الدافع اليها هو حسد بنى هاشم على مكانتهم ومحاولة اضعافهم لتحل مخزوم محلها ، ثم اتخذ الاسلام حجة لتبرير هذا الحلف ضد هاتين العشيرتين ، وربما كان بنو امية ممن لعبوا دورا فى انشاء هذا الحلف ضد بنى هاشم وان كون معظم مهاجرى الحبشة من بنى امية ومن القبائل التى لم تشترك فى حلف الفضول دليل على ان هذه المقاطعة هى حركة سياسية موجهة ضد بنى هاشم الذين ستزداد مكانتهم بانتشار الاسلام وازدياد اتباع الرسول الذى هو منهم .

أثرها :

لقد دامت المقاطعة حوالى ثلاث سنوات[٣٥] ، ولكنها لم تكن ناجحة ، فقد كانت تصل اليهم سرا بعض الاشياء يخفيها من أراد صلتهم من قريش ، وقد روى من اسماء من كان يصلهم حكيم بن حزام[٣٦] ، وهو ابن اخى خديجة زوجة الرسول ، وكذلك ابو البخترى الذى دافع عن عمل حكيم عندما أراد ابو جهل

---

(٣٥) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٧٥ . ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ١٢٥ ، ١٤١ .

(٣٦) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٧٥-٣٧٦ .

منعه من امداد المسلمين[٣٧] ، والراجح ان هناك آخرين كانوا يمدونهم بالمساعدة .

ثم ان تجاراتهم لم تقف ، فقد كانوا يخرجون فى المواسم ليتبايعوا مع القبائل[٣٨] ، الامر الذى جعل هذه المقاطعة غير تامة . ولما كانت هذه المقاطعة موجهة ضد بنى هاشم والمطلب ، فان المسلمين من العشائر الاخرى لم يكونوا داخلين فيها ، فكانت لهم حرية التجارة ، ونظرا لروابطهم الدينية باخوانهم المسلمين ، فمن المحتمل انهم كانوا يمدون اخوانهم ، وربما يتاجرون لهم ، مما جعل هذه المقاطعة لا تحقق اغراضها تماما ، فلم تقض على المسلمين ولا على مكانة بنى هاشم .

ولكن نظرا الى ان الحجة الرئيسية للمقاطعة هى حماية المسلمين ، وانه كان لها تأثير سيء فى اعمال بنى هاشم ، فالراجح انهم ادركوا الاضرار التى تنجم عن استمرار حمايتهم للرسول . ويبدو انهم بعد موت ابى طالب بدأوا يتخلون عن حماية الرسول ، ويتجلى هذا من الاحداث التالية .

وفاة خديجة وابى طالب :

لم تؤثر المقاطعة فى الرسول مثلما أثرت فيه وفاة خديجة وابى طالب بعد انتهاء المقاطعة بأمد قصير[٣٩] . وقد خسر فى خديجة الزوجة الوفية الحنون المشجعة والمناصرة ، والتى كان من ثروتها وعشيرتها ما يعين الرسول . اما ابو طالب فقد كان عمه الذى رعاه وحامى عنه ، وصد كثيرا مما حاولت قريش والمشركون فى أذاه . ولعل ابا طالب هو العامل الاكبر فى استنهاض همم بنى هاشم لمساندة الرسول وحمايتهم له ، فلما مات خففت هاشم من تأييدها[٤٠] ، وربما

---

(٣٧) مصعب الزبيرى : نسب قريش ص ٢١٣ .

(٣٨) ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ١٤١ .

(٣٩) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٥ .

(٤٠) يروى ابن سعد ان ابا لهب ، الذى صار زعيم آل عبدالمطلب بعد وفاة ابى طالب وعد أن يؤيد الرسول ، ولكنه تخلى عنه بعد أمد قصير (ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ١٤١) .

ادركت بعد المقاطعة ما يصيبها من اضرار مادية ومعنوية اذا استمرت فى حمايته ، لذا أخذت تتخلى عن ذلك ؛ ويتجلى هذا واضحا مما يرويه الطبرى من ان الرسول بعد رجوعه من الطائف عرض على الاخنس بن شريق الثقفى (حليف بنى زهرة) ، ثم على سهل بن عمرو (بنى عامر) أن يجيراه فلم يوافقا ، فعرض ذلك على مطعم بن عدى (بنى نوفل) أن يجيره عند رجوعه الى مكة[٤١] . وهؤلاء الاشخاص كلهم ليسوا من بنى هاشم ، الامر الذى يدل على انه كان يعلم ان بنى هاشم قد تخلوا عن نصرته .

محاولة بث الدعوة فى الطائف :

ان هذه الاحوال والاحداث اقنعت الرسول بعدم جدوى الاستمرار فى الاعتماد على بث الدعوة فى مكة ، وبضرورة البحث عن ميادين اخرى لنشرها ، لذلك التفت الى الطائف ، وهى بلدة تقع على مسافة ستين ميلا من مكة ، فى ارض تتوفر فيها الينابيع والمياه ، وتكثر فيها المزارع والبساتين ، وخاصة الكروم والاعناب . وكان سكانها منقسمون على انفسهم ، وفيهم عشيرتان بارزتان هم بنو مالك والاحلاف . فاما بنو مالك فكانت علاقتهم وثيقة بهوازن ، واما الاحلاف فكانت علاقتهم اوثق بمكة .

وللطائف اهمية تجارية نظرا لما تنتجه من محاصيل ، ولوقوعها على طريق التجارة اليمانية ، وكانت لاهل مكة علاقة وثيقة بها ، فلبعضهم بساتين فيها[٤٢] ، وللبعض الآخر اموال موظفة وقروض تعطى بربا فاحش[٤٣] . وفى الطائف ايضا كانت اللات وسدنتها من بنى مالك[٤٤] .

---

(٤١) الطبرى ج ٢ ص ٢٣١ المحبر ص ١١ .

(٤٢) اوفى بحث عن الطائف هو الكتاب الذى الفه عنها لامنس . انظر ايضا مقاله عن الطائف فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٤٣) تفسير الطبرى ج ٣ ص ٧٠ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٨ ، ٢٣ .

(٤٤) انظر ص ١٥٩ .

لا توجد نصوص صريحة عن الدوافع التى دفعت الرسول لاختيار الطائف دون غيرها لنشر الدعوة بعد مالاقاته من عقبات ومصاعب فى مكة • وربما شعر الرسول بسوء استغلال المكيين لاهل الطائف ، أو انه لاحظ مصالح المكيين فيها فأراد أن ينشر بينهم الاسلام ليفصلهم عن اهل مكة ويهدد بهم تجارة المكيين مع اليمن •

ومهما يكن الدافع ، فان الرسول وصل الطائف ، وفاوض ثلاثة من آل عبد ياليل ، فلم يلق منهم تأييدا ، بل (اغروا به سفاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس والجأوه الى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه[٤٥] •••) •

ايمان الجن :

يتبين مما تقدم ان الطائف لم تكن خيرا من مكة فى تلقيها الدعوة الاسلامية ، لذا عاد الى مكة • وفى طريق عودته اليها وصل الى نخلة فوقف يصلى ، وقد سمعه نفر من الجن فآمنوا به[٤٦] كما ذكر القرآن فى سورة الجن (قل اوحى الى انه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا ••) (واذا صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا ، فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين • قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا انزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم • يا قومنا اجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم • ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الارض وليس له من دونه اولياء اولئك فى ضلال مبين) (الاحقاف ٢٩-٣٢) •

ولا بد ان ايمان الجن بالرسول ورسالته قد عوضت له بعض ما لقيه فى الطائف ، كما شجعته على عدم قصر بث الدعوة على مكة وحدها ، بل الى محاولة نشرها بين القبائل الاخرى •

---

(٤٥) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٩-٣٠ الطبرى ج ٢ ص ٢٢٩-٢٣٠ •
(٤٦) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١ الطبرى ج ٢ ص ٢٣١ •

الاسراء :

وبعد رجوع الرسول الى مكة اسرى به الله تعالى[٤٧] ، كما جاء فى القرآن الكريم (سبحان الذى اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير) (الاسراء ١) • ويروى الطبرى ان آيتين اخريين نزلتا فى الاسراء (ولقد رآه نزلة اخرى • عند سدرة المنتهى • عندها جنة المأوى • اذ يغشى السدرة ما يغشى) (النجم ١٣-١٦[٤٨]) (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن) (الاسراء ٦٠[٤٩]) •

عرض الدعوة على القبائل :

ثم ان الرسول أخذ يعرض نفسه على القبائل فى المواسم ويدعوها الى الاسلام • ويروى ابن اسحق انه عرض الدعوة على كندة ، وبنى عبدالله (احدى عشائر كلب) ، وحنيفة ، وعامر بن صعصعة[٥٠] ، وكل هذه القبائل تقيم فى مناطق بعيدة عن مكة • ولا نعلم فيما اذا كان الرسول قد عرض نفسه على قبائل اخرى اغفل المؤرخون ذكرها لاسباب خاصة • ولكن المهم ان الدعوة لم تلق ترحيبا عندهم ، حتى لاقى فريقا من بنى عبدالأشهل الخزرجيين القاطنين فى المدينة ، فلقى منهم اذنا صاغية لدعوته[٥١] ، وفى السنة التالية بايعوه على أن يهاجر الى بلدهم ، فأخذ المسلمون يهاجرون اليها ، ثم هاجر هو نفسه ، وبدأت فى تاريخ الاسلام صفحة جديدة ، فلا عجب أن اعتبرها المسلمون نقطة حاسمة فى تاريخ الاسلام ، واتخذوها بداية للتقويم الذى ساروا عليه منذ ذلك الوقت الى ما شاء الله •

---

(٤٧) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢ فما بعد •
(٤٨) تفسير الطبرى ج ٢٧ ص ٢٩ •
(٤٩) تفسير الطبرى ج ١٥ ص ٧٩ •
(٥٠) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١-٣٤ الطبرى ج ٢ ص ٢٣٢ •
(٥١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٦ فما بعد •

اسماء المسلمين في مكة

ان القائمة التى نوردها ادناه تضم اسماء الرجال الذين اسلموا فى العهد المكى وهاجروا الى الحبشة والمدينة واشتركوا فى بدر • ولا يدخل فيها اسماء من اسلم ثم فتن أو من تخلف عن الهجرة الى المدينة نظرا لعدم امكان حصرهم •

وتضم هذه القائمة ايضا اسماء المشركين الذين قتلوا أو اسروا فى بدر ، وهم لا يمثلون كافة المشركين ، لان فريقا غير قليل آذى الرسول أو اشترك فى الغزوات والحروب الاخرى ضد المسلمين ، ولكن لم يساهم فى بدر ، كما ان عددا غير قليل تراجع وانهزم من بدر دون أن يصيبه القتل أو الاسر •

لقد اعتمدت فيما اوردته من الاسماء على « سيرة الرسول » لابن هشام التى تضم ما اورده ابن اسحق مع اضافات كثيرة • وهى لا تختلف كثيرا عما اورده ابن سعد فى كتاب الطبقات • وقد دققت قائمتى مع القائمة التى نشرها مونتجومرى وات فى الملحق الاخير من كتابه (محمد فى مكة) وهى تعتمد على القوائم التى اوردها كايتانى فى كتابه « حوليات الاسلام » • ويعتمد كايتانى بدوره على ابن هشام وابن سعد مع بعض الاضافات الواردة فى الكتب الاخرى • وهى اضافات قليلة جدا •

لقد صنفت الاسماء فى هذه القائمة حسب العشائر ، ورتبت العشائر تبعا لقرب صلتها من عشيرة الرسول ، وهو الترتيب الذى اتبعه المؤرخون الاولى ، والذى هو اقرب الى روح ذلك العصر •

وقد رمزت لمهاجرى الدفعة الاولى الى الحبشة (١) ، والى مهاجرى الدفعة الثانية (٢) والى الذين عادوا قبل هجرة الرسول الى المدينة (ع) والى الذين عادوا فى السنة السابعة ، عندما كان الرسول يغزو خيبر (خ) • اما الذين اشتركوا فى بدر فقد رمزت اليهم (ب) • اما (ح) فتشير الى ان الشخص حليف للعشيرة •

الاسم	عشيرة الام	الهجرة الى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
بنو هاشم والمطلب :			
الرسول	زهرة		ب
علي بن أبي طالب	هاشم		ب
الحمزة	زهره		ب
جعفر بن أبي طالب	هاشم	١ خ	ب
زيد بن حارثة . مولى			ب
ابو مرثد ح (غنى)			ب
مرثد بن أبي مرثد ح(غني)			ب
انسه . مولى			
ابو كبشه . مولى			
عبيدة بن الحارث بن المطلب	ثقيف		ب
الطفيل » » »			ب
الحصين » » »			ب
مسطح بن اثاثة	المطلب		ب

وقد اسر من كفارهم فى بدر السائب بن عبيد بن عبد يزيد ، ونعمان بن عمرو بن علقمة وعبيد بن عمرو بن علقمة ، وعقيل والعباس ، واربعة من حلفائهم .

بنى عبدشمس :			
عثمان بن عفان	عبد شمس	١ +٢ع	ب
ابو حذيفه بن عتبه	كنانه	١ +٢ع	ب
خالد بن سعيد بن العاص	كنانه	٢ خ	

الاسم	عشيرة الام	الهجرة الى الحبشة والعددة منها	الاشتراك في بدر
عمرو بن سعيد	مخزوم	٢ خ	
عبد الله بن جحش ح خزيمه		٢ ع	ب
ابو يزيد بن رقيش	»		
عكاشه بن محصن	»		
ابو سنان بن محصن	»		
شجاع بن وهب	»		
عقبه بن وهب	»		
ربيعه بن اكثم	»		
محرز بن نضله	»		
اربد بن حمير	»		
سنان بن أبي سنان	»		
مالك بن عمرو . ح . سليم			
مدلاج بن عمرو	»		
ثقف بن عمرو	»		
ابو احمد بن جحش . ح . خزيمه			
عمرو بن محصن	»		
سعيد بن رقيش	»		
قيس بن خابر	»		
منقذ بن نباته	»		
الزبير بن عبيده	»		

الاسم	عشيرة الام	الهجرة الى الحبشه والعودة منها	الاشتراك في بدر
تمام بن عبيده	»	»	
سخبره بن عبيده	»	»	
محمد بن عبدالله بن جحش	»		

قتل من مشركيهم فى بدر حنظلة بن ابى سفيان ، وعبيدة بن سعيد بن العاص. والعاص بن سعيد بن العاص ، وعقبة بن ابى معيط ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة . كما اسر منهم عمرو بن ابى سفيان ، والحارث بن ابى وجزة ، وابو العاص بن الربيع ، وابو العاص بن نوفل ، وخالد بن اسيد بن العاص واثنى عشر من حلفائهم ومواليهم .

بنو نوفل :

عتبه بن غزوان ح (سليم)		٢ ع	ب
جناب مولى عتبه			ب

قتل من كفارهم فى بدر الحارث بن عامر ، وطعيمة بن عدى ، واسر منهم عدى بن الخيار واثنان من حلفائهم ومواليهم .

بنو أسد بن عبدالعزى :

الزبير بن العوام	هاشم	١ + ٢ ع	ب
الاسود بن نوفل	عبد شمس	٢ خ	
عمرو بن امية بن الحارث	تيم	٢ (توفى)	
يزيد بن زمعه بن الاسود	مخزوم	٢ ؟	
حاطب بن ابي بلتعه ح (لخم)			
سعد مولى حاطب			ب

قتل من كفارهم فى بدر زمعة بن الاسود بن المطلب ، والحارث بن زمعة ، وعقيل بن الاسود ، وابو البخترى بن هشام ، ونوفل بن خويلد . واسر منهم السائب بن ابى حبشة ، والحويرث بن عباد .

الاسم	عشيرة الام	الهجرة الى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
بنو عبدالدار :			
مصعب بن عمير بن هاشم	عامر	١ + ٢ع	ب
ابو الروم بن عمير	رومية	٢ ؟	
سويبط بن سعد	خزاعه	٢ع	ب
فراس بن النضر	تيم	٢ ؟	
جهم بن قيس	المطلب	٢ خ	
خزيمه بن جهم		٢ خ	
عمرو بن جهم		٢ خ	

قتل من كفارهم فى بدر النضر بن الحارث ، واسر ابو عزيز بن عمير بن هشام ، وثلاثة من الحلفاء والموالى • كما قتل سبعة منهم فى غزوة احد •

بنى عبد بن قصى :			
طليب بن عمير	هاشم	٢ع	ب
بنو زهرة :			
عبد الرحمن بن عوف	زهره	١ + ٢ع	ب
سعد بن أبي وقاص	عبد شمس		ب
عمير بن أبي وقاص	عبد شمس		ب
عامر بن أبي وقاص	عبد شمس	٢ خ	
المطلب بن أزهر	المطلب	٢ ؟	
مالك بن اهيب		٢ ؟	ب
ذوالشمالين عمير بن عمرو	زهره		ب
عبدالله بن مسعود ح (هذيل)		١ + ٢ع	ب

الاسم	عشيرة الام	الهجرة الى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
عتبه بن مسعود ح (هذيل)		٢ خ	
المقداد بن عمرو ح (قضاعه)		٢ ع	ب
خباب بن الارت ح (خزاعه)			ب
مسعود بن ربيعه ح (القاره)			ب
بنو تيم بن مرة :			
ابو بكر الصديق	تيم		ب
طلحه بن عبيدالله	حضرموت		ب
الحارث بن خالد	تيم	٢ خ	
عمرو بن عثمان بن عمرو	تيم	٢ ؟	
صهيب مولى			ب
بلال بن رباح مولى			ب
عامر بن فهيره مولى			ب

قتل من كفارهم فى بدر عمير بن عثمان بن عمرو ، وعثمان بن مالك بن عبيدالله ، ومالك بن عبيدالله بن عثمان ، وعمرو بن عبدالله بن جدعان ، واسر منهم مسافع بن عياض وحليف واحد .

مخزوم :			
ابو سلمه بن عبدالاسد	هاشم	١ ع	ب
الارقم بن عبدمناف			ب
شماس بن عثمان	عبدشمس	٢ ع	ب
عياش بن ابي ربيعه بن المغيره	تيم	٢ ع	ب
سلمه بن هشام بن المغيره	ربيعه	٢ ع	

الاسم	عشيرة الام	الهجرة الى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
الوليد بن الوليد بن المغيره	بجيله	٢ ع	
هاشم بن ابي حذيفه بن المغيره	مخزوم	٢ ع	
هبار بن سفيان	عامر	٢ ع	
عبدالله بن سفيان	عامر	٢ ع	
عمار بن ياسر مولى			ب
معتب بن عوف ح (خزاعه)		٢ ع	ب
عيهامه ح (خزاعه)			

قتل من كفارهم فى بدر ابو جهل بن هشام بن المغيرة ، والعاص بن هشام بن المغيرة ، ومسعود بن ابى امية بن المغيرة ، وابو قيس بن الوليد بن المغيرة ، وابو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، ورفاعة بن ابى رفاعة ، والمنذر بن ابى رفاعة ، وعبدالله بن المنذر بن ابى رفاعة ، والسائب بن ابى السائب ، والاسود بن عبدالاسد ، وحاجب بن السائب بن عويمر ، وعويمر بن السائب بن عويمر ، وحذيفة بن ابى حذيفة بن المغيرة ، وهشام بن ابى حذيفة بن المغيرة ، وزهير بن ابى رفاعة ، والسائب بن ابى رفاعة ، وعائذ بن السائب .

وقد اسر منهم فى بدر خالد بن هشام بن المغيرة ، واميه بن حذيفة بن ابى المغيرة ، والوليد بن الوليد بن المغيرة ، وعثمان بن عبدالله بن المغيرة ، وصيفى بن ابى رفاعة بن عابد ، وابو المنذر بن رفاعة ، وابو عطاء عبدالله بن ابى السائب ، والمطلب بن حنطب ، كما قتل واسر ثمانية من حلفائهم .

بنى سهم :

خنيس بن حذافة	سهم	٢ ع	ب
عبدالله بن حذافه	كنانه	٢ ؟	
ابو قيس بن حذافه	كنانه	٣ ؟	

الاسم	عشيرة الام	الهجرة الى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
هشام بن العاص	مخزوم	٢ ؟	
عبدالله بن الحرث	كنانه	٢ توفى	
السائب بن الحرث	كنانه	٢ ؟	
الحجاج بن الحرث	كنانه	٢ ؟	
ابو قيس بن الحرث	حضرموت	٢ ؟	
تيم بن الحرث	صعصعه	٢ ؟	
سعيد بن الحرث	جمح	٢ ؟	
معمر بن الحرث	جمح	٢ ؟	
الحرث بن الحرث		٢ ؟	
بشر بن الحرث		٢ ؟	
عمير بن رئاب	جمح	٢ ؟	
عميره بن جزء ح (زبيد)		٢ خ	

قتل من كفارهم فى بدر منبه ونبيه ابنا الحجاج ، والعاص بن منبه بن الحجاج ، وابو العاص بن قيس ، وعاصم بن ابى عوف ، وعامر بن ابى عوف ، والحارث بن منبه بن الحجاج .

واسر منهم ابو وداعة بن ضبيرة ، وفروة بن قيس بن عدى ، وحنظلة بن قبيصة بن حذافة ، والحجاج بن الحرث . كما اسر احد مواليهم .

بنى جمح :

عثمان بن مضعون	جمح	١ + ٢ ع	ب
عبدالله بن مضعون	جمح	٢ ع	ب
قدامه بن مضعون	جمح	ع ٢	ب

الاسم	عشيرة الام	الهجرة الى الحبشه والعودة منها	الاشتراك في بدر
السائب بن عثمان	سليم	٢ ع	ب
معمر بن الحرث	جمح		ب
حاطب بن الحرث	جمح	٢ توفى	
حطاب بن الحرث	جمح	٢ توفى	
محمد بن حاطب		٢ خ	
الحارث بن حاطب		٢ خ	
سفيان بن معمر	يمن	٢ ؟	
جابر بن سفيان		٢ ؟	
جناده بن سفيان		٢ ؟	
نبيه بن عثمان		٢ خ	

قتل من كفارهم فى بدر امية بن خلف ، وعلى بن امية ، واوس بن مسير .

واسر منهم عمرو بن أبى ، وعمر بن عبدالله ، ووهب بن عمير ، وربيع بن دراج ، وابى بن خلف وخمسة من حلفائهم ومواليهم .

بنى عدى :

عمر بن الخطاب	مخزوم		ب
زيد بن الخطاب	اسد		ب
سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل	خزاعه		ب
عمرو بن سراقه بن معتمر	جمح		ب
نعيم بن عبدالله	عدي		
معمر بن عبدالله بن نضله	اشعر	٢ خ	
عدي بن نضله بن عبدالعزي	سهم	٢ توفى	

الاسم	عشيرة الام	الهجرة الى الحبشه والعودة منها	الاشتراك في بدر
عمرو بن أبي اثاثه	عنزه	٢ توفى	
عبدالله بن سراقه	جمح		ب
عبدالله بن عمرو	جمح		
خارجه بن حذافه	عدي		
مالك بن خولى			ب
عامر بن ربيعه ح (عنزه)		١ + ٢ ع	ب
عاقل بن المنكدر ح (كنانه)			
خالد » » » »			
اياس » » » »			
عامر » » » »			
واقد بن عبدالله ح (تيم)			
خولى بن أبي خولى ح (مذحج)			
مهجع بن صالح مولى			
بنى عامر بن لؤى :			
أبو سبره بن أبي رهم	هاشم	١ + ٢ ع	ب
عبدالله بن مخرمه	كنانه	٢ ع	ب
أبو حاطب بن عمرو	اشجع	١ خ	
عبدالله بن سهيل	نوفل	٢ ع	ب
سليط بن عمرو	يمن	٢ ع	
السكران بن عمرو	خزاعه	٢ ع	
مالك بن زمعه		٢ خ	ب

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة الى الحبشه والعودة منها	الاشتراك في بدر
وهب بن سعد بن أبي سرح			
عمير بن عوف مولى			
سعد بن خوله مولى			

وقد اسر من مشركيهم فى بدر سهيل بن عمرو ، وعبد بن زمعة ، وعبدالرحمن بن منشوء ، وحبيب بن جابر ، والسائب بن مالك • واثنان من حلفائهم •

بنى الحارث بن فهر :

أبو عبيده بن الجراح	الحارث	٢ع	ب
سهيل بن بيضاء	»	١ + ٢ع	ب
صفوان بن بيضاء	»		ب
معمر بن أبي سرح	عامر	٢ع	ب
حاطب بن عمرو			ب
عياض بن ابي زهير	الحاوث	٢ ؟	
عمرو بن أبي عمرو			
عمرو بن الحارث	عامر	٢ع	ب
عثمان بن عبد غنم	زهره	٢ ؟	
سعيد بن عبد قيس		٢ ؟	
الحوث بن عبد قيس		٢خ	
عمرو بن عبد غنم		٢ ؟	

اسر من كفارهم فى بدر الطفيل بن ابى قنيع ، وعتبة بن عمرو بن جحدم ، كما اسر حليفان لهم •

فهرس ابجدي عام

(أ)

اب يدع ريام ٢١
ابان بن عثمان ٢١٥ - ٢٢١
ابى بن خلف ٣٠٩
ابراهيم (الخليل) ٥٧-٥٨-٦١-٨٦-
١٧٤ - ١٧٨ - ١٩٠ - ١٩٢ -
٢٠٣ - ٢٤٥ - ٢٥٠ - ٢٥٣ -
٢٥٥ - ٢٧٧ - ٢٨٠
ابراهيم الحربى ٢٢١
ابرهة ٧٩ - ٨١ - ٢٣٠
الابشيطى ٢٢٢
ابليس ٢٦٣ - ٢٦٦
اثاركتيس ٣٣
اثرولا ١٧
ابن الاثير ٢٢٣
اجا ٧
اجياد ١٧٧
احد ١٠١ - ٣٢٦ - ٣٢٨
احمد امين ١٠٦
احمد بن الحارث الخزاز ٢٢١
ابو احمد الدمياطى ٢٢٢
احمد بن عبدالله الرقى ٢٢١
ابو احمد بن جحش ٣٢٣ - ٣٣٩
اخامينين ٣٥
الاخسف ١٥٣ - ١٧٩
الجبل الاخضر ٧
الاخنس بن شريق ٢٥٧ - ٣١٠
ادم ٩٥
الادوميين ٢٨
اذينة ٣٦ - ٣٧
اراميين ٥
اريتريا ٤
الاردن ٢٨
ارسطو ١٠
الارقم بن ابى الارقم ١١٢ - ٣٢٣ -
٣٤٣
ارميا ٩
ارنو ١٥
ارياط ٢٠
الازد ١١٤ - ١٥٩
اساف ١٠٥ - ١٤٥ - ١٥٢ - ١٨٢ -
١٨٥ - ١٨٨
اسباط ٢٤٥
الاسبذيون ١١٢ - ١٤٧
اسحق (النبى) ٢٤٥
ابو اسحق التلمسانى ٢٢٢
اسد ٧١ - ٧٣ - ٧٤ - ٧٩ - ١١٢
اسد بن خزيمة ٢٥٨
اسد بن عبدالعزى ١٧٧ - ١٨٥ -

٢٢٧ - ٢٣٥ - ٢٥٨ - ٣٠٢ -
٣١١ - ٣١٢ - ٣٥٢
اسرحدون ١٣
اسعد كامل ٢٥
اسعد ابو كرب ٢٠ - ٢٥
اسفنديار ٣١١
الاسكندرية ١٠ - ٣٢
اسكا ١٧
اسماء ٧١
اسماعيل بن مجمع ٢٢٢
اسماعيل بن اسحق القاضى ٢٢١
الاسود بن عبد يغوث ٣١٣ - ٣١٤
الاسود بن عبدالاسد ٣١٤
الاسود بن المطلب ٣١٤
الاسود بن نوفل ٣٤٠
الاشعث بن قيس ٢١٦
اشعيا ٩ - ٢١
الاشوريين ٩ - ١٣ - ٢٨
اشور بانيبال ١١
ابو الاصدى الهذلى ٣١٣
الاغريق ١٣ - ٣٩
اغسطوس ١٧ - ٣١ - ٣٦
افروديتى ١٥٧
افريقية ٤ - ٨
الاقيصر ١٨٢ - ٢٠٦
الاكاديين ٥
البرابيت ٢٣
الشرح ٢٤ - ٢٥
الكرب يهنعم ٢٤
الياس ٢٨٠
اليسع ٢٨٠
اليفع وقة ٢٢
اليفع يثع ٢٢
اليفع ٢٢
اليفع يشر ٢٣
اليوس كالوس ٧٩
بنو امامة ٢٠٧
ابو امامة ٢٠٧ - ٢٢٢
امرىء القيس ٧٣ - ٧٥
آمنة بنت وهب ٢٣٢
امون ١٠
بنى امية ١٠١ - ٣٢٢
امية بن خلف ٣٩ - ٣١٢
امية بن ابى الصلت ٢٥٨
امية بن حذيفة ٣٤٣
ام اياس ٦٩
اميمة بنت عبدالمطلب ٥٨ ٢
اميمة بنت العباس ٢٨٨
اندريه (تور) ٢٢٥
انسة ٣٣٨
انستاسيوس ٧٠
الانصار ١٩٢ - ١٩٣ - ١٩٥
انطاكية ٣٦ - ٣٧
انمار يهنعم ٢٤

انوشروان ٧١ - ٧٩
اورليان ٣٧
الاوس ١١٢ - ١٨٥ - ٢٢٠
اوس بن قلام ٢٦ - ١٨٥
اوس بن مسير ٣١٢ - ٣٤٥
اوسان ١٣
اوليرى ١٠٦
اياد ٧٥ - ١١٣ - ١٨٥
اياس بن المنكدر ٣٤٦
ايران ٣٦
ايسخلوس ٩
ايلاف ١٣ - ٢٢٨
ايلة ٣٢ - ٨١
ايمن بن خزيمة ٢٥٦

(ب)

باب المندب ٤ - ١٢
بابل ١٠ - ١١ - ١٦
البابليين ١١ - ١٦
بارتون ٤
البارثيين ٢٩ - ٣٦
بارق ١٨٥
باقوم ١٧٧
بجيلة ١٨٥
البحرين ٨ - ٢٦ - ٢٧ - ٤٧ - ٦٩ - ٧١
ابو بحر ٥
البخارى ١٢٥ - ٢١٤ - ٢١٦
ابو البخترى ٩٣ - ٢٢١ - ٣١٢ - ٣١٤ - ٣٤٠
بدر ٨٣ - ١١٢ - ٣٣٧
بدرالدين محمود الحنفى ٢٢٢
بئر بذر ٢٢٨
البرامكة ٢١٩
بروكوبيوس ١٥٧ - ٢٣٠
برسع ٣٨
ابن برى ٢٠٧ - ٢٥٦ - ٢٥٨
البسل ١٩٦
البسوس ٧٠
بشر بن الحرث ٣٤٢
بعل ١٠ - ١٩ - ٣٨ - ١٦٢
بعلبك ٧٥
بصرى ٣١ - ٨١ - ٢٣٤
بطليموس ١٣ - ٨٦
البطالسة ١٧ - ٢٩ - ٣٦
بطرا ٢٦ فما بعد
البطحاء ٢٥٧
بكر بن عبدمناة ١٨٥
بكر بن وائل ١١٢ - ١١٤ - ١٤٧ - ١٦٦
ابو بكر ٢٢ - ٢٢٠ - ٢٣٥ - ٣٢٦ - ٣٤٢
بكيل ١٦ - ٢٤ - ١١١
بل (ريشارد) ٢١٢
بلال الحبشى ٣٢٠

بلعا ٣٨
بلقيس ١٣ - ٣٨
بلينى ١٣ - ٣٨
بهثة ١١٢
بهستون ٩
بواط ١٨٣
بومبى ١٧ - ٣٠
بوهل ٢١٢ - ٢٢٥
البيضاء ١٧
بيشة ٥ - ٧٤

(ت)

التابعة ٦٨
تبالة ١٦٥
تبع كرب ٢٣
تبوك ٨٢
تجيب ١٧٧
تدمر ٦ - ٣٥ - ٥٠ - ٩٩
تراجان ٣١ - ٣٦
تركيا ٣٥
تركستان ١٨
الترمذى ٢١٤
تغلب ٧٠ - ٧١ - ٧٤ - ١١٤ - ١٤١ - ١٤٧
تغلات فلاسر ١١ - ١٣ - ٣٥
تمام بن عبيدة ٣٤٠
تمنا ١٢
تميم ٧١ - ٧٢ - ١١٤ - ١١٨ - ١٦١ - ١٨٥ - ١٩٠ - ٢٢٧
تنوخ ١١٤
التوراة ١ - ١٣
تيم الادرم ٨٩ - ٩٠
تيم بن الحرث ٣٤٤
بنى تيم بن مرة ٣٨ - ٨٩ - ٩١ - ١٧٧ - ٢٣٥ - ٣٢٠ - ٣٢٣ - ٣٤٠ - ٣٤١ - ٣٤٢
تيم الله ٣٦
تيماء ١٤٧
تيمرسون ٣٨

(ث)

ثاران يعب يهنعم ٢٥
ثقف بن عمر ٣٣٩
ثقيف ١٨٥ - ٢٠٧ - ٣٣٨
ثعلبة ٩٥ - ١١٢
ثمود ٢٨٠
ثور ١١٢ - ١٦١
ثوربن مرتع ٦٩
ثيوفانوس ٦٩ - ٧١

(ج)

جابر بن سفيان ٣٤٥
الجاد ٨١
الجبت ١٥٦
جبريل ٢٤١ - ٢٤٤ - ٢٤٦
جبير بن مطعم ٩٣

جحش ١١٢
جديلة ٧٥
جدة ٧ - ١٧٧
جذام ١١٤ - ١٨٢ - ١٨٥ - ٢٠٦
جران العود ٢٥٧
الجرمان ٣٧
جرهم ٨٦ - ٩٤
جرير ٢٥٨
جساس ١٤١
جستنيان ٧١
جشم ١٨٥
جعفر بن ابى طالب ٣٣٨
جعل ١١٢
جفنة ١١٢
جلسد ١٧٤
جليلة بنت المهلهل ١٢٠
بنى جمح ٨٩ - ٩٠ - ٩٣ - ١٧٧ - ٣١٢ - ٣٢٢ - ٣٤٤
الجمرات ١٥٦ - ١٩٢
وقعة الجمل ٢٢٠
جميل بن معمر ٢٦١
الجناب ١٨٥
جناب مولى عتبة ٣٤٠
جناب بن هبل ١٨٥
جنادة بن عوف ٩٤
الجن ٢٥٣ - ٢٦٠
جهار ١٨٢
ابو جهـــل ٩٣ - ٢٩٢ - ٣١٠ - ٣١٣ - ٣١٤ - ٣١٩ - ٣٢٣ - ٣٤٣
جهم بن قيس ٣٤١
جهينة ١١٤
الجودى ٣
الجوف ١١ - ١٣ - ١٤
جويدى ٣ - ٤

(ح)

حاجب بن السائب ٣٤٣
حاجى خليفة ٢٢٢
الحارث الاول ٣٠ - ٣٤
الحارث الثانى ٣٠ - ٣٤
الحارث الثالث ٣٠ - ٣٤
الحارث الكندى ٦٩
الحارث بن جبلة ٧٠ - ٧١
الحارث بن خالد ٣٤٢
الحارث بن حاطب ٣٤٥
الحارث بن زمعة ٣٤٠
الحارث بن عبدمناة ١٨٥ - ١٨٩ - ١٩٠
الحارث بن عامر ٣٤٠
الحارث بن عمرو ٧٠
الحارث بن غبشان ١٦١
الحارث بن فهر ٨٩ - ٩٠ - ٢٢٧ - ٢٣٥ - ٣٢٢ - ٣٤٧
الحارث بن كلدة ٨٠
الحارث بن كنانة ١٠٠

الحارث بن منبه ٣٤٤
حاشد ١٦ - ١٧ - ١١١
حاطب بن ابى بلتعة ٣٤٠
حاطب بن الحارث ٣٤٥
حام ١
حابذ ١٥
الحبشة ١٩ - ٢٠ - ٨٠ - ٨١ - ٢٥٨ - ٣٢١ - ٣٢٨ - ٣٣٧
الاحابيش ١٠٠
حبيب بن جابر ٣٤٧
ام حبيب ٢٥٨ - ٢٨٨
الحجاج بن الحرث ٣٤٤
حداء ١١٢
الحديبية ٣٢٨
الحديدة ٧
حذيفة بن فقيم ٩٣
ابو حذيفة بن عتبة ٣٣٨
حراء ٢٣٨
حرب بن امية ٩٢ - ١٠١
حربد ١٧
الحرث بن الحرث ٣٤٤
الحرث بن الطلاطلة ٣١١
الحرث بن عامر ٩٣
الحرث بن عبدقيس ٣٤٧
حزقيا ٩
حسان تبع ٦٩
حسل ٩٠
الحسن بن على ٢٢٠
الحسن بن فهم ٢٢٠
الحسين بن على ٢٢٠
الحصين بن الحارث ٣٣٨
حضرموت ٩ - ١٠ - ١٢ - ١٦ - ١٧ - ١٨ - ٦٨ - ٧٣ - ١٨٥ - ٣٤٢
حطاب بن الحرث ٣٤٥
حفن ذرح ٢٢
حفن صدق ٢٢
حفن ريام ٢٣
حفن يتع ٢٣
الحكم بن ابى العاص ١٣ ٣
حكم اليفع وقة ٢٣
ام الحكم بنت الزبير ٢٨٨
حكيم بن حزام ٩٣ - ١٨١ - ٣٢٣ - ٣٣٢
ام حكيم بنت عبدالمطلب ٢٨٨
حلف الفضول ٩١ - ٣٢٣
حليل الخزاعى ٢٢٦
الحلة ١٨٤ - ١٨٦
حليمة السعدية ٢٣٣
حمالة الحطب ٣٠٨ - ٣١٣
حماة ٧٥
حمامة ١١٢
الحمزة ٩٣ - ٣٢٩ - ٣٣٨
الحمس ١٨٥ - ١٨٦
حمص ٣٥ - ٣٨ - ٧٥
حميد بن زهير ٩٨

حمير ١٨ - ٢٢ - ٦٩ - ١١٢ - ١١٤
حمورابى ١٠٦
حندج ٧٣
حنش ١١٢
حنظلة بن الحرث ٣٤٤
حنظلة بن ابى سفيان ٣٤٠
حنظلة بن زيد مناة ٧١ - ٧٢ - ٧٣ - ٩٤
حنظلة بن قبيصة ٣٤٤
حنيفة ١٩٣ - ١٩٨ - ٢٠٥ - ٣٣٦
الحنيفية ٢٧٥ - ٢٨٧
الحواريون ٢٤٥ - ٢٥٠
الحوراء ٧
حوران ٣٠
الحويرث بن عباد ٣٤٠
ابن حيان ٢٢٢
الحيا ١٠٠
الحيرة ١٩ - ٧٠ - ٧١ - ٨٠ - ٣١١

(خ)

خارجة بن حذافة ٣٤٦
خالد بن سعيد بن العاص ٣٢٥ - ٣٣٨
خالد بن سنان ٢٨٩
خالد بن المنكدر ٣٤٦
خالد بن الوليد ١٥٨ - ٢١٨ - ٣٢٦
خباب بن الارث ٣٤٢
خثعم ٩٦ - ١٩٥
خديجة (ام المؤمنين) ٨٢ - ١٢٠ - ١٢١ - ٢١٦ - ٢٣٤ - ٢٣٦ - ٢٤١ - ٢٤٢ - ٢٤٣ - ٢٤٤ - ٢٥٩ - ٣٣١
خزاعة ٧٩ - ٨٦ - ٨٨ - ٩٤ - ٩٦ - ١١٩ - ١٥٨ - ١٨٥ - ٢٠٧ - ٢٢٦ - ٣١١ - ٣٤٣
الخزرج ١٨٥ - ٢٢٠
خزيمة بن جهم ٣٤١
خزيمة بن مدركة ١٥٣
خطم الحجون ٣٣١
بنى خطمة ٢١٦
ابن خلدون ٢٢٣
الخلصة ١٦٥ - ٢٠٧
الخليج الفارسى ٧
خنيس بن حذافة ٣٤٣
الخندق ١٠١ - ١٢١ - ٣٢٦
الخورنق ١٣٥
خولان ١٢ - ١٦٦ - ١٩٣ - ١٩٧
خولى بن ابى خولى ٣٤٦
خويلد بن اسد ٩٢
خيبر ٨ - ٧١ - ٧٧ - ١٤٧ - ٣٢٨ - ٣٣٧

(د)

دابر ١٤
دار الندوة ٩٢
دارا ٩
داروايل ١٦
دارة جلجل ٧٣
بنو دارم ٧٣ - ١٤٧

الدانوب ٣٧
داود ٢٨٠ - ٢٨٥
ابو داود ٢١٤
دب ١١٢
الدبران ١٦٥
دبية ١٥٨
ابن درباس ٢٢٢
دروزة (محمد عزة) ٢١٢ - ٢٢٥
درمنجهيم ٢٢٥
دمون ٦٨ - ٧٣
الدهناء ٧
دوفرتى ١١
دؤل ١١٢
دومة الجندل ١٦٢
ديلوس ١٢ - ١٣ - ٢٩ - ٣٩
ديودورس ١٣ - ٣٢

(ذ)

ذبيان ٩٨
ذريح ١٨٢
ذمار ١٧
ذمر على ١٥
ذمر على بين ٢٤ - ٢٥
ذمر على ذرح ٢٤
ذمر على وتر ١٤ - ٢٤
ذمر على يحابر ٢٤
ذات نكف ١٠١
ذو جدان ٧٤
ذو الخلصة ٧٤ - ١٦٥
ذو شرى ٣٣ - ١٦٥
ذو قردة ٨٣
ابو ذؤيب ٢٥٧
ذؤيب بن كعب ٩٥
الذهبى ٢٢٣

(ر)

الرباب ٧١
الربع الخالى ٥ - ٧
ربيع بن دراج ٣٤٥
ربيعة ٧٢ - ١١٤ - ١٣٥ - ١٨٥ - ٢٨٨
ربيعة بن اكثم ٣٣٩
ربيعة بنت الحارث ٢٨٨
الرجيع ٨٦
ردم بنى جمح ٧٧
ردم آل عبدالله ٧٨
الرشيد ٢١٩ - ٢٢١
رفاعة بن ابى رفاعة ٣٤٣
وادى الرمة ٥ - ٨
رقية بنت الرسول ٢٨٨
الروح الامين (جبريل) ٢٤٦ - ٢٥٣ - ٣٤١
رودس ٣٢
ابو الروم بن عمير ٣٢٨
روما ٣٠ - ٣٢
الرومان ١٧
ريبال الاول ٣٤
ريبال الثانى ٣٤

رينان ١ - ٢

(ز)

زاغرس ١
الزباء ٣٧ - ١٢١
زبدا ٣٧
الزبير ٨
الزبير بن العوام ٣٤٠
الزبير بن عبدالمطلب ٩٢ - ٩٨ - ٢٨٨
الزبير بن عبيدة ٣٣٩
زكريا ٢٦٣ - ٢٨٠
زمزم ٩ - ١٧٩ - ٢٢٧
زمعة بن الاسود ٩٣ - ٣١٢ - ٣٣١ - ٣٤٠
ابو زمعة ٣١٠
زنيرة ٣١٥
زهرة ٥ - ٨٩ - ٩٠ - ١٧٧ - ٣٢٢ - ٣٢٣ - ٣٣٠ - ٣٣٨
زهير بن ابى رفاعة ٣٤٣
زهير بن ابى امية ٣٣٠ - ٣٣١
زياد ١٣٠
زيد ٨٩
زيد بن حارثة ٨١ - ٢١١ - ٣٣٨
زيد الخيل ١٢٠ - ٢٠١
زيد بن عمرو بن نفيل ٢٥٨
زيد اللات ١١١
زينب بنت الرسول ٢٨٨
زينوفون ٩

(س)

سام ١
الساميين ١ - ٦ - ١١٩ - ٢٠٦
سابور ٣٦
السائب بن ابى السائب ٣٤٣
السائب بن صيفى ٣١٣
السائب بن ابى حبشة ٢٤٠
السائب بن الحرث ٣٤٤
السائب بن عبيد ٣٣٨
السائب بن عثمان ٣٤٥
السائب بن ابى رفاعة ٣٤٣
السبأيين ١٣ - ١٨ - ٢٢
ابو سبرة بن ابى رهم ٣٤٦
سترابو ١٧
سجاح ١٢١
سحنون ٢١٣
السخاوى ٢٢٢
سخبرة بن عبيدة ٣٤٠
بئر سخلة ٢٢٨
السراة ٧
سرجون ٥
وادى سرحان ٨
سعد مولى حاطب ٣٤٠
سعد بن خولة ٣٤٧
سعد بن زيد مناة ٩٤ - ١١١ - ١١٤
سعد بن ابى وقاص ٣٤٥
سعد هذيم ٢٣٣
سعيد بن الحرث ٣٤٤

سعيد بن العاص ٩٢
سعيد بن عبد قيس ٣٤٧
سعيد بن رقيش ٣٣٩
سعيد بن زيد ٣٤٥
سعير ١٦٦
ابو سفيان ٩٢ - ٩٣ - ٢٨٨ - ٣١١ - ٣١٣
سفيان بن مجاشع ٩٥
سفيان بن معمرة ٣٤٥
السكران بن عمرو ٣٤٦
السكون ٦٨
سلمة ٧١ - ٧٢
سلمة بن هشام بن المغيرة ٣٤٢
جبل سلمى ٧
سليط بن عامر ٣٢٨ - ٣٤٦
حرة سليم ٨
سليم ١١٠ - ١١٤
سليمان (النبى) ١٣ - ٢٨ - ٣٥ - ٧٣ - ٢٥١ - ٢٦٧
سليمان بن عبدالملك ٢١٧
سلوقس ٢٨ - ٢٩
السلوقيون ٣٠ - ٣٦
سلوقية ٣٢
سمث (روبرتسن) ١١٠ - ١١٢ - ١١٣ - ١٢٠
سمة على ١٤ - ٢٤
سمة على ذرح ٢٤
سمة على نيف ١٤ - ٢٤
السمهودى ٢٢٣
سميفع اشوع ٢١ - ٢٥
سمية ١٣٠
السموأل ٧٥
سنان ٨١
سنان بن ابى سنان ٣٣٩
ابو سنان بن محصن ٣٣٩
سنحاريب ١٣ - ١٤
سواع ١٥٧ - ١٦٣ - ١٨٢ - ٢٠٧
السومريين ١١
سويبط بن سعد ٣٤١
سهل بن عمرو ٣٣٤
سهيل بن عمرو ٣٤٧
سهيل بن بيضاء ٣٤٧
بنى سهم ٨٩ - ٩٠ - ٩٢ - ١٧٧ - ٢٢٨ - ٣١٠ - ٣١٢ - ٣٢٢

(ش)

الشاهى ٢٢٢
شبرنجر ٢١٢ - ٢٢٤
شجاع بن وهب ٣٣٩
شرحبيل ٧١ - ٧٣
شرحبيل بن سعد ٢١٦
شرحبيل يعفر ٢٥
شرحبيل يكيف ٢٤ - ٢٩
الشعرى ١٥٧ - ١٦٧
شعيب ٢٨٠
شلمانصر الثالث ٩
شماس بن عثمان ٣٤٢

شماش ١١
جبل شمر ٧ - ٧١
شمر يرعش ١٥
الشمس ١٦١ - ١٨٢
شمعون ٣٨
ابن الشهيد ٢٢٢
بنو شيبان ١٥٨ - ٢٠٧
شيبة بن ابى سفيان ٣١٣
شيبة بن ربيعة ٩٣ - ٢٣٥ - ٣٤٠
شيزر ٧٥
شيز ٣٨
الشيعة ١٢٧
الشيطان ٢٦٥ - ٦

(ص)

صخر ١٠٢
صخر الغى ٢٥٦ - ٢٥٨
صرواح ١٤ - ١٥
الصعب بن عكابة ٧٤
الصفا ١٥ - ٢١ - ١٥٦ - ١٧٧ - ١٩٢ - ١٩٣ - ١٩٤ - ١٩٥ - ٢٢٩
صفوان بن بيضاء ٣٤٧
بنى صفوان ٢٢٦
صفى بن السائب ٣١٢
صفى السباب ١٩٢
صلصل بن اوس ٩٥
الصمان ٧
صنعاء ١٥ - ٢١
صور ٢٩ - ٣٢
صوفة ٩٣
الصومال ٤ - ٨١
صهيب ٨١ - ٣٢٠ - ٣٤١
صيدا ٣٢
صيلع ٧٣
الصين ٣٢

(ض)

ضبة ١١٢ - ١٦١
ضبيعة ١١٢
ضجنان ٨٦

(ط)

الطاغوث ١٥١ - ١٩٩
ابو طالب ٩٢ - ٢٣٤ - ٢٣٨ - ٢٦١ - ٢٨٨ - ٣٣٣
الطائف ٨ - ٣١٥ - ٣٣٣ - ٥
طعيمة بن عدى ٩٣ - ٣٤٠
الطفيل بن ابى قنيع ٣٤٧
الطفيل بن الحارث ٣٣٨
طلحة بن عبدالله ١٧٩ - ٣٢٦ - ٣٤٢
الطلس ١٨٤ - ١٨٥ - ١٨٧ - ١٨٨ - ١٨٩
طليب بن عمير ٣٤١
طوروس ١
طوطمية ١١٢
طى ٧٣ - ٧٥ - ٩٦ - ١١٤ - ١٤٧
ابن ابى طى ٢٢٣
طيسفون ٣٧

(ظ)

ظالم بن اسعد ١٥٨

ظبيان ١١٢

ظويلم ٩٨ - ٩٩

(ع)

عائدة ١٢١٥

عائذ بن السائب ٣٤٣

عائشة بنت ابى بكر ٢٥ - ١٩٥ - ١٩٦ - ٢٤٧

عائم ١٦٦

عادلة بنت عبدالمطلب ٣٣٠

عاد ٢٨٠

العاص بن سعيد ٣١٢ - ٣٤٠

العاص بن هاشم ٣١٥

العاص بن وائل السهمى ٢٣٤ - ٣١٠ - ٣١١ - ٣١٣ - ٣١٤

ابو العاص بن ربيع ٢٨٨ - ٣٤٠

ابو العاص بن نوفل ٣٤٠

عاصم بن عمرو ٩٧ - ٢١٨ - ٢١٩

عاصم بن ابى عوف ٣٤٤

عاقل بن المنكدر ٣٤٦

شنو عامر الاجداد ٢٠٧

عامر بن ربيعة ٣٤٦

عامر بن صعصعة ٢٣٤ - ٣٣٤ - ٣٣٦

عامر بن الضرب ٩٤

عامر بن فهيرة ٣٢٠ - ٣٤٢

عامر بن ابى عوف ٣٤٤

عامر بن ابى وقاص ٣٤١

عاملة ١٢١ - ١٦٦

عامر بن لؤى ٣٢٢ - ٣٢٣ - ٣٣٩ فما بعد

عبادة الاول ٣٤

عبادة الثانى ٣٤

عبادة الثالث ٣٤

العباس بن عتبة بن الخاطب ٢٨٨

العباس بن عبدالمطلب ٩٢ - ٩٨ - ٩٩ - ٢١٩ - ٢٢٠ - ٢٤١ - ٣٣٨

عباس محمود العقاد ٢٢٥

عبد بن قصى ٨٩ - ٩٠

ابن عبدالبر ٢٢٢

عبدالدار ٨٩ - ٩٠ - ٩٧ - ٩٨ - ١٠٠

عبد الاشهل ٣٣٦

عبدالرحمن بن عوف ٨٢ - ٣١٥ - ٣٤١

عبدالرزاق الصنعانى ٢٢١

عبدشمس ٨٩ - ١١١ - ٢٨٨ - ٣١٢ - ٣٢٣ - ٣٣٨

عبدالعزى ٨٩ - ٩٠ - ٣٣٢

عبدالغنى النابلسى ٢٢٢

عبد قيس ١٦١

عبد كلال ٢٥

عبدالله ابو الرسول ٣٣٦

عبدالله بن ابى بكر ٢١٧ - ٢١٩

عبدالله بن جحش ٣٣٩

عبدالله بن جدعان ٨٠ - ٩١ - ٢٣٤

عبدالله بن حذافة ٣٤٣
عبدالله بن الحرث ٣٤٤
عبدالله بن سفيان ٣٤٣
عبدالله بن سراقة ٣٤٦
عبدالله بن الزبير ١٨٠
عبدالله بن سهيل ٣٤٦
عبدالله بن عمرو ٣٤٦
عبدالله بن مسعود ٣٤١
عبدالله بن مخرمة ٣٤٦
عبدالله بن المنذر ٣٤٣
عبدالله بن مضعون ٣٤٤
عبدالله بن عبدالمطلب ١١٩ - ٢٠٣ - ٢٣٢
عبدالمطلب ٩١ - ٩٨ - ١١٩ - ٢٠٣ - ٢٢٩ - ٢٣٠ - ٢٣١ - ٢٣٤
عبدالملك بن عمر بن حزم ٢٢١
عبدالملك بن مروان ٢١٥ - ٢١٦ - ٢١٧
عبد بن هشام ٩٢
عبدمناف ٣٣ - ٨٩ - ٩٠ - ٩١ - ٩٢
عبد ياليل ٣٣٥
عبيد بن الابرص ٧٢
عبيد بن عمرو بن علقمة ٣٣٨
عبيدالله بن جحش ٢٥٧ - ٢٥٨ - ٣٢٥
عبيدة بن الحارث ٣٨ ٣
عبيدة بن سعيد بن العاص ٣٤٠
ابو عبيدة بن الجراح ٣٤٧
عتبة بن ابى سفيان ٣١٣
عتبة بن عمر ٣٤٧
عتبة بن ربيعة ٢٠٣ - ٢٣٥ - ٢٨٨ - ٣٤٠
عتبة بن غزوان ٣٤٠
عتبة بن مسعود ٣٤٢
عتيق بن عائذ ٢٣٥
عثر ١١
عثمان بن الحويرث ٧٩ - ٩٢ - ٢٥٧
عثمان بن عبدالله ٣٤٣
عثمان بن عبد غنم ٣٤٧
عثمان بن عفان ٨٢ - ١٨٠ - ٣٢٠ - ٣٣٨
عثمان بن مالك ٣٤٢
عثمان بن مضعون ٣٢٠ - ٣٢٢ - ٣٢٥ - ٣٤٤
عدنان ١٣
عدوان ٩٤ - ١٨٥
عدى بن الحمراء ٣١٣
عدى بن الخيار ٣٤٠
عدى بن نضلة ٣٤٥
بنى عدى بن كعب ١٦١-١٧٧-٢٢٨- ٣٢٢ - ٣٤٧
العراق ٣ - ٤ - ٥ - ١١ - ٧٥ - ٨٠
البحر العربى ٧ - ١٠
عرفة ٨٦ - ٩٩ - ١١٧ - ١٨٩-١٩٠
عروة بن الزبير ٢١٦ - ٢١٧ - ٢٣٨

عزالدين بن جماعة ٢٢٢
العزى ١٥٧ - ١٨٢ - ٢٠٣ - ٢٠٧ - ٢٨٥
عسير ٨
عشتروت ١١ - ١٥٧
عقبة بن وهب ٣٣٩
عقبة بن ابى معيط ٣١٢ - ٣١٥ - ٣٤٠
عقيل ٣٣٨
عكرمة بن ابى جهل ٣٢٦
عكاظ ٨٠ - ٩٠ - ٩٥ - ١٦٦
عكل ١٦١
على بن امية ٣٤٤
على بن ابى طالب ٢٢٨ - ٣٣٨
العلاء الزمكانى ٢٢٢
العلاء على بن محمد البغدادى ٢٢٢
علاف ١٨٥
علباء ٧٢ - ٧٣
علهان نهضان ٢٢
عم يثع نعت ٢٢
عمان ١٤٧
عمر بن الخطاب ٧٨ - ١١٠ - ١٨٠ - ١٨٥ - ٢١٣ - ٢٦١ - ٣٤٥
عمر بن عبدالله ٣٤٤
عمر بن عبدالعزيز ٢١٣
عمر بن ابى ٣٤٤
عمرو بن ابى اثاثة ٣٤٦
عمرو بن جهم ٣٤١
عمرو بن الحارث ٣٤٧
عمرو بن سراقة ٣٤٥
عمرو بن حجر ١٢١ - ١٥٦
عمر بن سعيد ٣٣٩
عمر بن ابى سفيان ٣٤٠
عمر بن شعبة ١٥٦
عمر بن عبدالله بن جدعان ٣٤٢
عمرو بن عبد غنم ٣٤٧
عمرو بن عثمان ٣٤٢
عمرو بن ابى عمرة ٣٤٧
عمرو بن عدى ٦٦
عمرو المقصور ٧٠
عمرو بن هند ٦٧
عمرو بن امية الضمرى ٣٢٨
عمرو بن العاص ٨١ - ٣٢٦
عمرو بن لحى الخزاعى ١٥٣ - ١٧٩
عمرو بن محصن ٣٣٩
عمار بن ياسر ٣٢٠ - ٣٤٣
العموريين ٥
عندل ٧٣
عميانس ١٦٦ - ١٩٧
عمير بن رئاب ٣٤٤
عمير بن عثمان ٣٤٢
عمير بن عوف ٣٤٧
عمير بن ابى وقاص ٣٤١
عمير بن جزء ٣٤٤
عميلة بن الاعزب ٩٣
عوف بن محلم ٧١ - ١٢١

عوافة ٩٥
عويمر بن السائب ٣٤٣
عنترة ١١٢
بنى عبس ٢٨٠
عياش ابن ابى ربيعة ٣٤٢
عيسى بن مريم ١٧٨ - ٢٥١ - ٢٥٤
عين التمر ٢١٨
عياض ابن ابى زهر ٣٤٧
عياض ابن عمار المجاشعى ١٨٧
عيهامة ٣٤٣

(غ)

الغال ٣٩
غالب بن فهر ٨٩
غبر ١١٢
غراب ٥٥
الغرانيق ٢٨٥
الغريين ٥٥
الغساسنة ٤٤ - ٥٠ - ١٣٨ - ١٤٧ - ١٥٩
غزة ٣١ - ٨١ - ٢٢٩
غطفان ٧١ - ٩٦ - ١١٤ - ١١٦ - ١٨٥
غمدان ١٦٤
غمر كندة ٦٩
غوث ١٨٥
الغياطلة ١٥٢
ابن الغيطلة ٣١٢
غيلان بن سلمة ٨١
غى القوم ٤٠

(ف)

فاختة بنت المقوم ٢٨٨
فارس ١٣٥
فاطمة (ام امرى القيس) ٧٣
فاطمة (بنت الرسول) ٢٨٨
الفاكهى ٢٢٣
فالريان ٣٦
الفجار ١٠١
فدك ٨ - ١٤٧
الفرس ٢٢ - ٧٩ - ٣٢٣
الفرات ٧١
فراس بن النضر ٣٤١
فرنسا ٣٩
فروة بن قيس ٣٤٤
الفسطاط ٢٢
الفضل بن العباس ١٧٨
ابو فكيهة ٣١٥
فلبى ٨ - ٢٢ - ٢٥
الفلس ١٦٥ - ١٨٢
فلسطين ٥ - ٦ - ٢٧ - ٢٩ - ٣٠ - ٧ فما بعد ٨١ - ٣٢٣
فنحاص ٣٠
فهد ١١٢
فهر بن مالك ٨٩
فولوكاسكرتة ٣٩
فينشهرت ٦٧
الفينيقين ٥ - ١٢ - ١٣

(ق)

قابوس ٦٧
قابيل ٢٦٥
قباذ ٧٠ - ٧١
جبل ابى قبيس ١٤٥ - ١٧٩
قتبان ١٢ - ١٦
قحطان ١١٣
قدامة بن مضعون ٣٤٤
القدس ٣٠
ام القرى ٨٦ - ٢٨٧
وادى القرى ٨
قرد ١١٢
قرمل ٧٤
قرناو ١٠
قريش ٨٦ - ١٠١ - ١٨٠ - ١٨٢ - ١٨٥ - ١٨٦ - ١٩٦ - ١٩٧ - ٢٢٦ فما بعد
قريش بن بدر ٨٧
قزح ١٥٦
قس بن ساعدة ٢٥٩
القسطنطينية ٧٢
قصى ٧٨ - ٧٩ - ٨٨ - ٩٦ - ٩٧ - ٩٩ - ١٧٧ - ١٨٠ - ١٨٢ - ١٨٥ - ١٨٦ - ١٩٦ - ١٩٧ - ٢٠٧ - ٢٢٦ - ٢٢٧
قضاعة ٧٩ - ٨٨ - ١١٣ - ١١٤ - ١٦٦ - ١٨٢ - ١٨٥ - ٢٠٦ - ٢٢٦
ام قطام ٧١
القطب الحلبى ٢٢٢
القلمس ٤ ٩- ٩٦
قمر ٣٩
قيس بن خابر ٣٣٩
قيس عيلان ٧١ - ٧٢ - ٨٩ - ١١٤
قيس بن عاصم ١١٨- ١٣٥
قيس بن عدى ٩١
ابو قيس بن الفاكه ٣١٢ - ٣٤٣
ابو قيس صرمة ٢٥٩
ابو قيس بن الحارث ٣٢٨ - ٣٤٤
قيس بن عبدالله ٣٢٨
ابو قيس بن الوليد ٣١٢ - ٣٤٣
قيصر ٢٥٨

(ك)

الكاشيون ١٦
كاهل ٧٣
كايتانى ٤ - ٢١٢ - ٢٢٤ - ٣٣٧
ابو كبشة ٣٨ ٣
كرخ ميسان ٣٨
كرة ٢٧
كريز بن ربيعة ٢٨٨
كرب آل بين ١٤ - ٢٤ - ٢٥
كرب آل وتر ١١ - ٢٤ - ٢٥
ابو كرب اسعد ٢٥
ابو كرب يثع ٢٢
كرب بن صفوان ٩٥
كسكر ٦١

كعب ٨٩ - ١٨٥ - ٢٢٦
الكعبة ٥٠ - ٨١ - ٨٥ - ٩٢ - ٩٣ - ١٧٥ - ١٨١ - ١٨٦ - ١٨٩ - ١٩٣ - ١٩٨ - ٢٠٢ - ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٧
كلب ١١٤ - ١٨٥
كليب ٧٢ - ١٤١
كلاب ١٨٥
كلازر ١٥
كلثوم (بنت الرسول) ٢٨٨
كنانة ١٨ - ٧١ - ٧٤ - ٨٩ - ١١٤ - ١٥٨ - ١٨٩ - ٢٣٤ - ٣٣٨
كنده ٢١ - ٥٥ - ٦٨ - ٧٦ - ٩٦ - ١٣٨ - ٣٣٦
الكنعانيون ٥
الكوفة ٢٢ - ٣٩ - ٦٥ - ١١٠
كوز ١٥٧
كوك ١٥٧
كهلان ١١٤

(ل)

اللات ١٥٧ - ١٨٢ - ٢٠٧ - ٢٨٥ - ٣٣٤
اللبا ١٨٢
اللحيانيون ٢٩
بنو لحيان ٢٠٧
لخم ٥٩ - ١٨٢ - ٢٠٦
لعقة الدم ٢٢٨ - ٣٢٣
لؤى ٨٩ - ٩٨
لوط ٢٨٠
ابو لهب ٢١١ - ٢٦١ - ٢٨٨ - ٣٠٨ - ٣١٢ - ٣١٣ - ٣٢٩

(م)

ابن ماجة ٢١٤
مأرب ١٤ - ١٦ - ٦٨
مازن بن مالك ٩٥ - ١٨٥
مالك ١٨٥ - ٢١٣ - ٢١٤ - ٢١٦ - ٢١٨
مالك بن عبدالله ٣٤٢
مالك بن خولى ٣٤٦
مالك بن زمعة ٣٤٦
مالك بن عمرو ٣٣٩
مالك بن اهيب ٣٤١
المأمون ٢٢٠
ابو مجذورة ٣١٢
محرز بن نضلة ٣٣٩
المحرق ١٦٦ - ١٨٢
محمد بن حاطب ٣٤٥
محمد بن سفيان ٩٥
محمد بن عبدالله بن جحش ٣٤٠
مخزوم ١٦٦ - ١٨٤ - ٢٢٨ - ٣١١ - ٣١٢ - ٣٢٢ - ٣٣١ - ٣٣٢
مدلاج بن عمرو ٣٣٩
مدلج ١٨٥
مذحج ١١٤ - ١٨٢
مرتع بن معاوية ٦٩
مرثد ٧٤

مرثد بن ابى مرثد ٣٣٨
ابو مرثد ٣٣٨
مرحب ١٨٢
ابن مرحل ٢٢٢
مرة بن واصل ١٤١
مرة بن عوف ٢٢٦
مرينا ٧١
المروة ١٥٦ - ١٩٢ - ١٩٥
المزدكية ٧١
المزدلفة ١٨٦ - ١٨٩ - ١٩٠ - ١٩١ - ٢٢٧
مسافر بن عمرو ٨٠
مسطح بن اثاثة ٣٣٨
مسعود ٢٠٧
مسعود الثقفى ٢٨٨
مسعود بن ابى امية ٣٤٣
المسعودى ٢٢٣
المسيح ٢١٩ - ٢٥٣ - ٢٢٦
مسيلمة ٢٥٩
مصر ٣٢٣
المصطلق ١٠٠
مصعب بن عمير ٣٤١
مضر ١١٤ - ١١٩ - ١٣٨
مطعم الطير ١٥٢ - ٣٣٠ - ٣٣٤
المطلب ٩٨ - ٣٢٣ - ٣٣٠ - ٣٣٣
المطلب بن ازهر ٣٤١
المطلب بن حنطب ٣٤٣
معاوية ٦٨ - ١٣٠ - ٢١٨
معاوية بن حجر ٦٩
معاوية بن شريق ٩٥
معتب ٢٨٨
معتب بن عوف ٣٤٣
معدى كرب ٧٠ - ٧١ - ٧٢
ابو معشر ٢٢٠
المعلى ٧٥
معمر بن ابى سرح ٣٤٧
معمر بن الحارث ٣٤٥
معمر بن راشد ١٨ - ٢٢٠
معمر بن عبدالله ٣٤٥
مغلطاى ٢٢٢
المغيرة بن شعبة ٨٠
المغيرة بن عبدالله المخزومى ٩٨
المقريزى ٢٢٢
مكارابو ٧٩ - ٨٦
ملالاس ٧٠ - ٧١
ملكان ١٨٥ - ٢٠٢
ملائكة ١٧٩ - ٢٦٣ - ٢٦٤
مليكة ٧٣
منى ٩٧ - ٩٩ - ١٥٦
مناف ١٥٦
مناة ١٥٧ - ١٨٢ - ٢٠٦ - ٢٨٥
منبه بن الحجاج ٣١٢ - ٣١٣ - ٣١٤ - ٣٤٤
المناذرة ٥١ - ٦٧ - ٦٩ - ٨٠ - ١٣٨ - ١٤٧
المنذر بن ابى رفاعة ٣٤٣

المنذر بن ماء السماء ٧٠ - ٧٢ - ١٥٧ - ٢٠٣
المنصور ١٨٠
منقذ بن نباتة ٣٣٩
المهدى ١٨٠
مهلهل ٧٤
موسى ٢٤١ - ٢٤٥ - ٢٥١ - ٢٥٣ - ٢٥٤
موسى بن عقبة ٢١٨ - ٢٢٠ - ٢٨١
موير ٢١٢ - ٢٢٤
ميكائيل ٢٦٣

(ن)

نائلة ١٤٥ - ١٥٢ - ١٨٨ - ٢٥٤
الانباط ٢٦ - ٣٤ - ١٥٨
نبيه بن عثمان ٣٤٥
نبيه بن الحجاج ٣١٣ - ٣١٤ - ٣٤٣
نبهان ٧٥
بنو النجار ٢٢٩ - ٢٥٩
النجاشى ٨١ - ٢٢٨ - ٣٢١ - ٣٢٥
نجد ٧١ - ٧٢
نخلتين ٨٦
النساطرة ١٤٧
نسر ١٥٧ - ١٦٤
ابو نصر الخضراوى القصرى ٢٢٢
النضر بن الحارث ٣١١ - ٣١٢ - ٣١٤ - ٣٣٠ - ٣٤١
بنو النضر ٨٧
نعامة ١١٢
النعمان الاسود ٧٠
النعمان بن المنذر ٥٦ - ٥٨
نعيم بن عبدالله النحام ٣٢٥ - ٣٤٥
النمر بن قاسط ٧١
النهدية ٣٢٠
نهم ٢٠٧
نهيك ١٥٢
نوح ٢٥٠ - ٢٥١ - ٢٥٤ - ٢٨٠
نولدكه ٢١٢
نوفل ٢٢٨ - ٢٢٩ - ٣٢٠ - ٣٢٢ - ٣٢٣ - ٣٣٠ - ٣٣٤
نوفل بن خويلد ٣٤٠

(هـ)

هابيل ٢٦٥
هاشم ٨١ - ٢٢٨ - ٢٢٩
بنو هاشم ٢٠٢ - ٢٣٤ - ٣٢١ - ٣٢٣ - ٣٣٠ - ٣٣١ - ٣٣٢ - ٣٣٣ - ٣٣٧
هاشم بن ابى حذيفة ٣٤٣
ابو هالة ٢٣٥
هبار بن سفيان ٣٤٣
هبل ١٥٣ - ١٧٧ - ١٧٩ - ١٨٢
هذيل ١٨٥
هذيم ٢٢٩
هشام بن ابى حذيفة ٣٤٣
هشام بن العاص ٣٤٤
هشام بن عروة ٢١٨
هشام بن عمرو ٣٣٠ - ٣٣١

همام ١٤١
همدان ١١١ - ١١٤
هند بنت ظالم ٦٩
هند بنت عبدالمطلب ٨٢
هند ام معاوية ١٢١
الهند ٨٠
هوازن ١١٢ - ١١٤ - ١٥٨ - ٣٣٨
الهيثم بن عدى ٢٢١
هيكل (محمد حسين) ٢٢٥

(و)

وات (مونتجومرى) ٢٢٥ - ٣٢٣ - ٣٣٧
وادى بيشة ٧٤
وادى الرمة ٧١
وادى عبقر ١٥٢
وادى القرى ١٤٧
واقد بن عبدالله ٣٤٧
وائل ١١٤
وج ١٧٤
ود ٢٠٧
ورقة بن نوفل ١١٨ - ٢٤١ - ٢٤٣ - ٢٤٤ - ٢٥٨
ولكن ١٢١
الوليد بن المغيرة ١٧٧ - ١٨٠ - ١٨١ - ٣٠٨ - ٣١٣
الوليد بن الوليد ٣٤٣
وهب بن سعد ٣٤٧
وهب بن عبد بن قصى ٩٨
وهب بن عمير ٣٤٥
وهب بن كيسان ٢٣٣ - ٢٨٨
وهب بن منبه ٢١٦
وهب اللات ١١١

(ى)

يثرب ٧٧
يربوع ١١٢ - ١٨٥
ابو يزيد بن رقيش ٣٣٩
يزيد بن زمعة ٣٤٠
يزيد بن ابى سفيان ٣٢٦
يزيد الثانى ٢١٦
يسار ٢١٨
يعقوب ٢٤٥ - ٢٨٠
اليعاقبة ١٤٧
يعوق ١١٢ - ١٥٧ - ١٦٤
يغوث ١١٢ - ١٥٧ - ١٦٣ - ١٨٢ - ٢٠٧
اليمامة ٦٩ - ٧١ - ٧٣ - ١٤٧ - ٢٥٩
يوحنا المعمذان ٢٦١
يوسف ٢٥٠
يونس ٢٨٠

قائمة المحتويات

أ ـ د المقدمـــة

القسم الاول : الدول العربية القديمة

١ ـ الفصل الاول : الساميون

الساميون ١ • أساس تميزهم ١ـ٣ • اصلهم : نظريات جويدى وبارتون وكايتانى ٣ـ٥ • الهجرات السامية ٥ـ٦ • جغرافية جزيرة العرب ٦ـ٨ • تسمية العرب ٩ •

٢ ـ الفصل الثانى : اليمن

موقعها واهميتها ١٠ـ١١ • علاقتها بالعراق ١١ • المعينيون ١١ـ١٢ • القتبانيون ١٢ • حضارة المعينيين ١٢ـ١٣ • السبأيون ١٣ • المكارب ١٤ • سد مأرب ١٥ • تطور دولتهم ١٦ • حملة اليوس كالوس ١٦ـ١٧ • الملاحة فى المحيط الهندى ١٨ • الحميريون ١٨ • المسيحية ١٩ • غزو الاحباش الاول ١٩ • التبابعة ١٩ـ٢٠ • اضطهاد المسيحية ٢٠ • الاحتلال الحبشى ٢١ • الاحتلال الساسانى ٢١ • مجىء الاسلام ٢٢ • قائمة اسماء الملوك المعينيين ٢٢ـ٢٣ • السبأيين ٢٤ـ٢٥ • الحميريين ٢٥ •

٣ ـ الفصل الثالث : بطرا والانباط

تجارة الهند ٢٦ • الطرق التجارية ٢٦ـ٢٧ • اثرها فى نشوء الحضارة ٢٧ـ٢٨ • منطقة الاردن ٢٨ • علاقتها مع الآشوريين والاغريق والبطالسة ٢٨ـ٣٠ • دور التوسع والازدهار ٣٠ • الرومان ٣١ • سقوط دولة الانباط ٣١ •

مدنية الانباط : اهمية القوافل ٣١ـ٣٢ • الابنية ٣٢ • اللغة ٣٣ • الدين ٣٣ـ٣٤ • قائمة اسماء ملوك الانباط ٣٤ •

٤ ـ الفصل الرابع : تدمر

موقع تدمر ونشؤها ٣٥ • علاقتها بالسلوقيين والرومان ٣٦ • اذينة ٣٦ •

الزباء ٣٧ • توسيع رقعة بلادها ثم سقوطها ٣٨ •

الحضارة التدمرية : الطبقات الاجتماعية ٣٨-٣٩ • الدين ٣٩-٤٠ • الادارة ٤٠-٤١ • العمران ٤١-٤٢ • الزراعة ٤٢ • التجارة ٤٢-٤٣ •

٥ - الفصل الخامس : الغساسنة

بادية الشام ٤٤ • اصل الغساسنة ٤٥ • الحارث بن جبلة ٤٥ • المنذر ٤٦ • تفكك الامارة ٤٧ • الامراء المتأخرون ٤٨-٥٠ • حضارة الغساسنة ٥٠ •

٦ - الفصل السادس : المناذرة

حدود العراق الغربية ٥١ • التنوخيون ٥١ • مالك بن فهم ٥٢ • جذيمة ٥٢ • عمرو بن عدى ٥٣ • امرىء القيس ٥٣ • النعمان الاعور ٥٤ • المنذر بن ماء السماء ٥٤-٥٥ • عمرو بن هند ٥٥ • النعمان ابو قابوس ٥٦ • ذى قار ٥٧ • المنذر الغرور ٥٨ • الحيرة فى العهد الاسلامى ٥٨-٥٩ •

حضارة المناذرة : الحيرة ٥٩ • السكان : عرب الضاحية ٦٠ • العباديون ٦٠ • الاحلاف ٦٠ • النبط ٦٠ • اليهود والفرس ٦١ • بلاط المناذرة ٦١ • الجيش ٦٢ • الصناعة ٦٢ • الدين ٦٤ • النصارى ٦٥ • التعليم الدينى ٦٦ • قائمة ملوك المناذرة ٦٦-٦٧ •

٧ - الفصل السابع : كندة

اصل ملوكهم ٦٨ • حجر ٦٩ • عمرو المقصور ٧٠ • الحارث بن عمرو ٧٠ • حجر بن الحارث ٧٢ • امرىء القيس ٧٣-٧٥ • حضارة كندة ٧٥-٧٦ •

٨ - الفصل الثامن : مكة

اهميتها ٧٧ • مناخها ٧٧ • التجارة ٧٨ • مع العراق ٨٠ • مع الشام ٨٠ • مع الحبشة ٨١ • مع اليمن ٨٢ • التجار ٨٢ • الصيرفة ٨٣ • الربا ٨٤ • الطوبوغرافيا ٨٥ • السكان ٨٦ • قريش ٨٦ • قصى ٨٨ • قريش البطاح ٨٨ • قريش الظواهر ٩٠ • التنظيم السياسى والرؤساء ٩١ • دار الندوة ٩٢ • الوظائف الدينية ٩٤ • النسىء ٩٥ • الحجابة ٩٧ • عمارة البيت ٩٧ • الرفادة ٩٧ • السقاية ٩٩ • الامن والجيش ٩٩ • القضاء ١٠١ •

القسم الثانى : الحياة البدوية ونظمها

٩ ـ الفصل التاسع : النظم البدوية قبيل ظهور الاسلام

اهميتها ١٠٤ • فى الدين الاسلامى ١٠٤ • فى الدولة الاسلامية ١٠٤ • فى الفكر الاسلامى ١٠٥ • فى تاريخ الاسلام ١٠٥ • فى التاريخ عامة ١٠٥ • عزلة الصحراء ١٠٦ • صفاة البدوى ١٠٦ • القبيلة ١٠٨ • تطورها فى العهد الاسلامى ١٠٩ • نظرية سمث ١١٠ • اهمية النسب ١١١ • اسماء القبائل ١١١ • الطوطمية ١١٢ • القحطانيون والعدنانيون ١١٣ • جدول باهم القبائل ١١٤ •

١٠ ـ الفصل العاشر : التنظيمات الاجتماعية عند البدو

الصليبة ١١٥ • الحلفاء ١١٥ • العبيد ١١٧ • المرأة ١١٧ • الوأد ١١٨ • مكانة المرأة ١٢٠ • الامومة ١٢٠ • الزواج ١٢٢ • الزواج بالاباعد ١٢٢ • الزواج الداخلى ١٢٣ • المهر ١٢٣ • تعدد الزوجات ١٢٤ • التسرى ١٢٥ • نكاح الرهط ١٢٥ • المتعة ١٢٦ • الطلاق ١٢٧ • العدة ١٢٨ • المخادنة ١٢٨ • الزنا ١٢٨ • الفاحشة والسفاح ١٢٩ • البغاء ١٣٠ •

١١ ـ الفصل الحادى عشر : التنظيمات السياسية عند البدو

القبيلة ١٣١ • الفردية والتماسك ١٣٢ • العلاقات السياسية ١٣٣ • المجلس ١٣٤ • الرئيس ١٣٤ • صفات الرئيس ١٣٥ • واجباته ١٣٦ • العلاقات الخارجية ١٣٨ • الحروب ١٣٨ • المحالفات ١٣٩ •

١٢ ـ الفصل الثانى عشر : المفاهيم القانونية عند البدو

التقاليد ١٤٠ • القانون الجنائى : القصاص ١٤٠ • الخلع ١٤٠ • الثأر ١٤١ • الدية ١٤١ • الحكم ١٤٢ • تعديلات الاسلام ١٤٢ • السرقة ١٤٢ • الارث ١٤٢ •

١٣ ـ الفصل الثالث عشر : الدين الجاهلى (١) المعبودات

الدين ١٤٣ • علاقة الآلهة بالمجتمع ١٤٣ • الاساطير ١٤٤ • العقلية البدائية ١٤٤ • مصادر دراسة الدين الجاهلى ١٤٥ • الاديان الخارجية ١٤٧ • ديانة مكة ١٤٨ • عبادة الله ١٤٨ • الشركاء ١٤٩ • بنات الله ١٤٩ • الجبت والطاغوت ١٥١ • الجن ١٥٢ • هبل ١٥٣ • اساف ونائلة ١٥٤ • نهيك ومطعم الطير ١٥٦ •

أصنام منى ١٥٦ • مناف ١٥٦ • قزح ١٥٦ • العزى ١٥٧ • اللات ١٥٩ • مناة ١٥٩ • الشعرى ١٦١ • الشمس ١٦١ • بعل ١٦٢ • ود ١٦٢ • سواع ١٦٣ • يغوث ١٦٣ • يعوق ١٦٤ • نسر ١٦٤ • ذو شرى ١٦٥ • الخلصة ١٦٥ • الفلس ١٦٥ • آلهة اخرى ١٦٦ • الاصنام ١٦٧ • الاوثان ١٦٨ • الانصاب ١٦٩ • الاشجار المقدسة ١٧١ • الحرم ١٧٢ • البيوت المقدسة ١٧٥ • الكعبة ١٧٥ •

١٤ ـ الفصل الرابع عشر : الدين الجاهلى (٢) الطقوس والعبادات ورجال الدين

الحج ١٨٢ • موعده ١٨٣ • الحلة والحمس ١٨٤ • الحمس ١٨٥ • الحلة ١٨٦ • الطلس ١٨٨ • طقوس الحج ١٨٩ • العمرة ١٩٤ • الهدايا ١٩٦ • انواع الهدايا ١٩٧ • البحيرة ١٩٩ • السائبة ١٩٩ • الحامى ١٩٩ • الوصيلة ١٩٩ • تعريف ابن اسحق ٢٠٠ • الاضاحى ٢٠١ • الهدى ٢٠٣ • الاشعار والتقليد ٢٠٤ • حلق الشعر ٢٠٥ • رجال الدين ٢٠٦ • الكهان والعرافون ٢٠٧ •

القسم الثالث : حياة الرسول والدعوة الاسلامية فى مكة

١٥ ـ الفصل الخامس عشر : مصادر دراسة حياة الرسول

القرآن ٢١٠ • الاحاديث والسنة ٢١٣ • المؤرخون ٢١٥ • ابان بن عثمان ٢١٥ • عروة بن الزبير ٢١٦ • شرحبيل بن سعد ووهب بن منبه وابن حزم وابن عاصم ٢١٧ • الزهرى وتلامذته ٢١٧ • ابن اسحق ٢١٨ • الواقدى ٢١٩ • ابن سعد ٢٢٠ • مؤلفون آخرون : رواية ابن النديم ٢٢٠ • رواية ياقوت ٢٢١ • رواية السخاوى ٢٢٢ • رواية حاجى خليفة ٢٢٢ • كتب البلدان ٢٢٣ • ابحاث المستشرقين ٢٢٤ • الابحاث العربية الحديثة ٢٢٥ •

١٦ ـ الفصل السادس عشر : اجداد الرسول وحياته قبل البعثة

قصى ٢٢٦ • هاشم ٢٢٨ • عبدالمطلب ٢٢٩ • حملة الاحباش ٢٣٠ • عبدالله ٢٣١ • ولادة الرسول ٢٣٢ • نشأته ٢٣٣ • الفجار وحلف الفضول ٢٣٤ • زواجه بخديجة ٢٣٥ • بناء الكعبة ٢٣٦ •

١٧ ـ الفصل السابع عشر : الوحى

التحنث ٢٣٨ • زمن نزول الوحى ٢٣٩ • كيفية نزوله ٢٤٠ • كلمة الوحى ٢٤٤ • تأثر طبيعة الرسول ٢٤٦ • الاعجاز ٢٤٨ • الوحى والمعرفة ٢٤٨ •

١٨ ـ الفصل الثامن عشر : مبادىء الاسلام الاولى

الاسلام ٢٥٠ • الوحدانية ٢٥٢ • الحنيفية ٢٥٤ • الصابئة ٢٦٠ • التوحيد فى الاسلام ٢٦٢ • الملائكة ٢٦٣ • ابليس ٢٦٤ • الشيطان ٢٦٥ • الجن ٢٦٦ • البعث والقيامة ٢٦٧ • جهنم ٢٦٩ • الجنة ٢٧٠ • اهمية فكرة البعث ٢٧٢ • المقاييس الاخلاقية ٢٧٢ •

١٩ ـ الفصل التاسع عشر : الأدلة القرآنية على تطور الدعوة

آيات الله ٢٧٥ • الرسول بشر ٢٧٧ • رسول الله ٢٧٨ • التذكير بالامم الاخرى ٢٧٩ • عيب آلهة المشركين ٢٨٠ • مهاجمة المشركين ٢٨٢ • مكائد المشركين ٢٨٣ • تهديد الرسول ٢٨٣ • الصبر ٢٨٥ • المقاطعة ٢٨٥ •

٢٠ ـ الفصل العشرون : السابقون الاولون فى الاسلام

دعوة اهل مكة ٢٨٧ • علاقة الرسول مع العشائر ٢٨٨ • حرم مكة ٢٩٢ • السرية ٢٩٣ • خلق الرسول ٢٩٣ • السابقون الاولون ٢٩٣ • دوافع اعتناق الاسلام ٢٩٧ •

٢١ ـ الفصل الواحد والعشرون : مقاومة المشركين للدعوة الاسلامية

دوافع المقاومة ٢٩٩ • الدافع الدينى ٢٩٩ • روح المحافظة ٣٠٠ • الدوافع الاجتماعية ٣٠١ • الدوافع السياسية ٣٠٣ • الدعوة ليست اشتراكية ٣٠٤ • اساليب المقاومة ٣٠٦ • المقاومون : اشارات القرآن ٣٠٨ • رواية ابن سعد ٣١٣ • من هم اهل العداوة ٣١٣ • مكانة المتهجمين والمقاومين ٣١٥ •

٢٢ ـ الفصل الثانى والعشرون : الكفاح ضد المشركين

اضطهاد المشركين ٣١٨ • الهجرة الى الحبشة ٣٢٠ • المهاجرون ٣٢١ • دوافع الهجرة ٣٢٣ • حياة المهاجرين فى الحبشة ٣٢٧ • العودة من الحبشة ٣٢٧ • المقاطعة ٣٢٩ • دوافعها ٣٣٠ • اثرها ٣٣٢ • وفاة خديجة وابى طالب ٣٣٣ • محاولة بث الدعوة فى الطائف ٣٣٤ • ايمان الجن ٣٣٥ • الاسراء ٣٣٦ • عرض الدعوة على القبائل ٣٣٦ •

قائمة باسماء المسلمين ٣٣٧-٣٤٧ •

الفهرس الابجدى ٣٤٨ •

قائمة المحتويات ٣٦٨ •

الخطأ والصواب

رغم ما بذل من جهد فى الطبع فقد وقعت بعض الاغلاط نذكر فيما يلى أهمها :

الصحيفة	السطر	الخطأ	الصواب
٢	١٢	يربهن	يبرهن
١٤	١٤	الذين قدموا لسنحاريب	الذين قدموا الجزية لسنحاريب
٢٥	٨	على ملوك	لملوك
٢٥	٩	اسمه	سمة
٢٩	١٣	اولمانىء	الموانىء
٣١	١٨	بطرا	بصرى
٣٩	٣	ممر وبنى	قمر وبنى
٥٢	٢١	مختلفة	مختلقة
٥٥	٢٠	الغربيين	الغربيين
٥٦	١٧	كسر	كسرى
٥٩	٥	الوولة	الدولة
٦٠	١٩	وبكر	بكر
٦٤	٥	النعمان المنذر	النعمان بن المنذر
٧١	٦	العرب البيزنطيين	العرب فى دولة البيزنطيين
٨٣	١٠	هشام	هاشم
١٠٩	٥	حميرة	حمغيرة
١٣٤	١٢	وشعت	وشعث
١٤٩	١٧	اندانا	اندادا
١٦٤	٢	به نجران	به الى نجران

الصحيفة	السطر	الخطأ	الصواب
١٧٢	١١	فاقطعتم	ما قطعتم
١٧٧	٢٤	الخندق	الخندمة
٢٢٤	١٠	معتدين	معتدلين
٢٥٢	١١	وان	وانا
٢٩٧	٥	تابه	بأنه
٢٩٩	٦	تصيب	تعيب
٣٠٥	٧	هؤلاء القرآن الذين	هؤلاء الذين

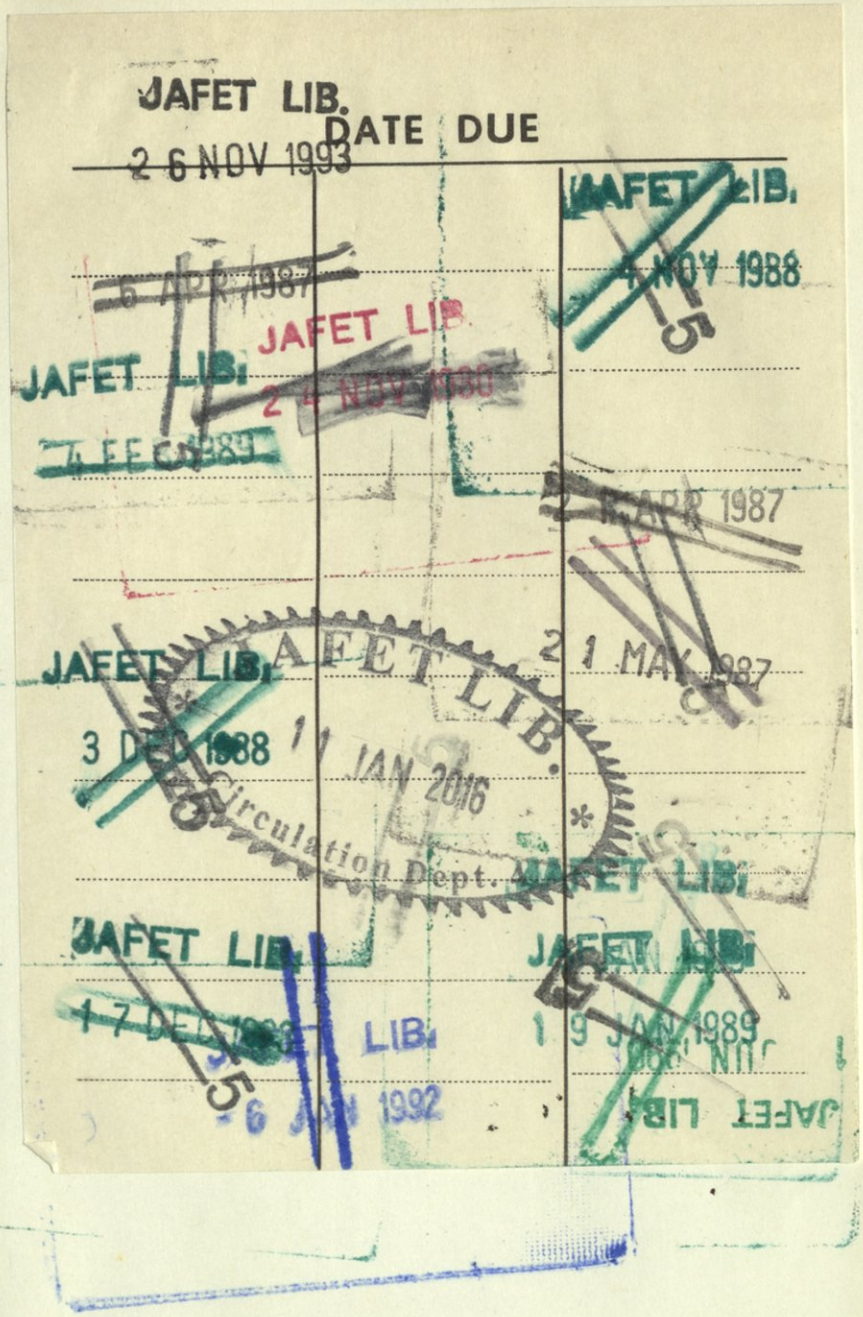
JAFET LIB.
DATE DUE
26 NOV 1993
6 APR 1987
JAFET LIB.
24 NOV 1988
JAFET LIB.
4 NOV 1988
JAFET LIB.
2 APR 1987
JAFET LIB.
21 MAY 1987
JAFET LIB.
3 DEC 1988
11 JAN 2016
Circulation Dept.
JAFET LIB.
JAFET LIB.
17 DEC 1988
LIB.
19 JAN 1989
6 JAN 1992
JAFET LIB.

953:A391mA:c.1
العلى ،صالح احمد
محاضرات فى تاريخ العرب
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01051476

953:A391mA V.1

العلي، صالح احمد.

محاضرات في تاريخ العرب.

MAR 23 F22 OCT 3 F135

APR A847

AUG 29 F388

JAN 22

953
A391mA
V.1